أفكار قابلة للتنفيذ

الدكتور حامد طاهر





تقديـــم

لهذه المجموعة من الأفكار قصة ،

بدايـــتها تـــرجع إلـــى السنوات التى عشتها فى فرنسا مبعوثاً من الحكومة المصـــرية للحصـــول علـــى دكتوراه الدولة فى الفلسفة ومناهج البحث من جامعة السوربون .

كان ذلك فى السنوات 74- 1981 .

و أيامهـــا وقفـــت مشـــدوهاً - كما حدث لرفاعة الطهطاوى من قبل - أمام التقدم الذى حققه الغرب عموماً ، وفرنسا على وجه الخصوص .

ومـــع ذلـــك فإنـــنى لم أجد فيه سوى نتائج لمقدمات سبق وضعها ، وثمار لأشجار تمّ بالفعل غرسها .

و الواقـــع أن الـــتقدم الغـــربى لم يحدث بمعجزة ، وإنما بعمل جاد . ومتابعة يقظة ، وصيانة مستمرة .

البيـــئة هـــناك أقســـى منها عندنا ، والطقس هناك أسوأ منه عندنا ، ولعل الظروف هناك غير مواتية تماماً كما هى عندنا . . ومع ذلك ، وربما بسبب

ذلــك ، اندفــع الإنســـان الغربى لكى يجعل الحياة أكثر مواءمة للعيش فيها بصورة سلسة وكريمة.

وعندما تساءلت : كيف فعل الغرب ذلك ، ونجح فيه ؟

تبيــن لى أن هذا كله إنما جرى بأسلوب بسيط للغاية، خلاصته أن كل عقبة صـــادفته ، أو مشكلة ظهرت أمامه ، عكف على فهمها وفحصها، ودراستها وتحلـــيلها ، ثم راح يقترح لها حلاً ، ويقوم بتطبيقه . فإذا فشل ، بحث عن حـــل آخـــر ، (أى عـــن فكرة أخرى) حتى استقر أخيراً علىَ الحل المناسب تماماً.

وهكـــذا . . دون معالجة مشكلات زائفة ، أو الدخول فى مناقشات عقيمة ، أو الاشـــتباك فـــى جدل نظرى ، أو التمسك بآراء مسبقة ، أو الاعتماد على حلـــول عتيقة – نجح الغرب فى بناء حضارته ، التى أقرت أسلوباً معيناً فى الحـــياة ، مـــا لبث أن انتشر فى عموم القارة الأوربية، ثم عبر المحيط إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . .

أمـــا فـــى الشـــرق ، ونحن جزء منه ، فقد ظللنا نتحدث عن المشكلات ولا نواجههـــا ، ونخـــتلف حول الفرعيات ولا نحسمها ، بل إننا كثيراً ما اختلفنا حول القواعد والأسس، الأمر الذى أضاع علينا وقتاً طويلاً دون أن نحقق ما كان ينبغى أن نحققه .

وبـيان ذلـك أنـنا وقفنا على مظاهر التقدم الغربى منذ مطلع القرن التاسع عشـر وكدنـا نـنطلق فى مضماره ، غير أن توقفاً كبيراً حدث . وكان ذلك بسـبب الاستعمار الغربى ، الذى أجهض محاولتنا فى التقدم ، وكان له دور كبير فى البلبلة التى وقعنا فيها بعد رحيله .

لكـن مصر – والحق يقال – كانت وما زالت هى رائدة المنطقة العربية فى البحـث عـن طـريق النهضـة . ولولا ما اضطرتها إليه القوى الدولية ، والظروف الإقليمية لكانت فى نفس مستوى أى دولة أوربية .

ومع ذلك ، فإن ما تحقق فيها خلال القرن العشرين يعد بكل المقاييس انجازاً كبيراً ، وخاصة إذا ما قارناه بالقرون التى سبقته .

تبقى لمسة هنا ، وأخرى هناك . .

وهذا ما تدعو إليه هذه الطائفة من الأفكار التى جمعتها فى هذا الكتاب ، بعد أن نشرتها – يومياً – فى جريدة الجمهورية .

ولا يسـعنى بهـذه المناسـبة إلا أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير للأستاذ سمير رجب ، رئيس مجلس إدارة دار التحرير ورئيس تحرير الجمهورية ، الـذى أتـاح لـى فيها الفرصة لنشر عامود يومى ، الأمر الذى ألقى على مسـئولية كبـيرة . فقـد أصبح – إلى جانب عملى الإدارى بجامعة القاهرة كنائـب لشـئون التعليم والطلاب – يمثل بالنسبة لى متعة وعذاباً فى نفس الوقت :

أمـــا المتعة فترجع إلى نشر أفكارى ، التى أحسب أنها إصلاحية ، على أكبر عدد من القراء بصورة يومية ،

وأمـــا العـــذاب فـــيعود إلى أننى حرمت نفسى من حقى فى أوقات الراحة ، وخصصتها لكتابة هذا العامود اليومى .

وكـــم تعجـــب الكثير من زملائى : كيف أجد الوقت لأفعل ذلك ؟ فلم أ كن أرد إلا بأنه عون من الله ، وهو تعالى إذا شاء هيأ الأسباب . .

مـــن بيـــن أكثر من ستمائة مقال نشرتها حتى اليوم ، تخيرت حوالى 250 مقالاً يتضمن كل منها (فكرة قابلة للتنفيذ) . بعضها يعالج سلبية معينة ، أو يحـــل مشـــكلة حقيقـــية ، وبعضها يدفع لمزيد من التقدم ، وبعضها يضيف لمســـة جمالـــية . وهـــى كلهـــا لا تخرج عن إطار الفكر الفلسفى النابع من الواقـــع، والمـــتجه إلـــى الارتقاء به . وقد كان هذا وما يزال هو تخصصى العلمـــى ، الـــذى أتاحته لى مصر ، وأدين برد الجميل فيه إلى شعبها الطيب الأصيل .

وفقنا الله لما يحب ويرضى

حامد طاهر

إنتاج الأفكار

الأفكار مثل عسل النحل الذى لا يتكون إلا بعد رحلة طويلة يقوم بها النحل بين الحقول والبساتين لامتصاص الرحيق من الزهور ، ثم يعود به إلى الخلية ، وقد تحول فى أحشائه إلى ذلك المنتج الرائع ، الذى جعل منه الله تعالى شفاء للناس .وهذا يعنى أن الفكرة الجديدة لا تنشأ بالصدفة أو من تلقاء نفسها كما يتصور معظم الناس، لأنها تتطلب من المفكر بذل الجهد فى القراءة والإطلاع وإجراء التجارب وسؤال الخبراء والاستفسار المتكرر وتقليب الموضوع الذى يشغل باله على كل الوجود . وفى خلال ذلك يتحمل الكثير من الإرهاق ، والسهر ، وقد يرى فى نومه – إذا نام – الأحلام المزعجة والكوابيس ، ثم فجأة تأتى إلى ذهنه (الفكرة) مثل إشعاعة الضوء التى تغمر المكان ، فيرى الأمور بوضوح كامل ، وتبدو عناصر الحل متماسكة بعضها مع الآخر ، ولا يكون هناك مجال للخلط أو الاضطراب . وعندئذ يصبح على المفكر أن يصوغ فكرته فى عبارات قليلة وبسيطة وواضحة . ولا يبدأ فى الإحساس بالضيق إلا عندما يواجه المجتمع بفكرته فيجده رافضاً ، أو مبالياً ، أو حتى مهاجماً !

ليس كل مفكر ولا كل باحث بقادر على إنتاج الأفكار . فهناك الكثيرون جداً ممن يتعاملون يومياً مع أفكار الآخرين ، ويحسنون أحياناً عرضها ، ولكنهم يعجزون عن الاتيان بفكرة واحدة جديدة . وهؤلاء يشبهون (النمل) الذى تنحصر مهمته فى البحث عن الطعام وتكديسه فى الجحور لاستخدامه فى الوقت المناسب . وقد أشار علماء المنهج إلى أن البحث العلمى فى حاجة مستمرة لكلا الطائفتين : طائفة النحل التى تنتج الأفكار ، وطائفة النمل التى تجمعها وتكدسها . . ومن الواضح أن الطائفة

الأولـــى هـــى الـــتى يتوقف عليها التطور العلمى الذى عرفته الإنسانية ، وكان له تأثير ملموس على حياة الناس . وليست الاختراعات والابتكارات ســـوى أفكار جديدة جاء بها عدد قليل من الأفراد، الذين منحهم الله تعالى تلك القدرة على إنتاجها .

لكـــن تـــاريخ الأفكار يثبت أن بعض الأفكار الصحيحة قد تطرح فى عصـــر من العصور ، ولا تجد من أهله الاستجابة اللازمة ، فتنزوى فى أحـــد الأركان حتى يأتى أهل عصر آخر فيستخرجونها ، ويطبقونها . وقد حـــدث نفـــس الشـــئ بالنسبة لفكرة المنهج التجريبى الذى طرحه روجر بـــتكون فى القرن الثالث عشر ، ولم ير النور وبالتالى النجاح إلا على يد معاصره البريطانى روجر بيكون فى القرن السادس عشر .

وعـــندنا فـــى مصـــر ، أفكـــار جديدة كثيرة ، طرحت خلال القرن الماضـــى، القرن العشرين ، و لكن الناس أسرعوا برفضها والوقوف فى وجـــه أصـــحابها ، فما كان منهم إلا أن سكتوا وتراجعوا ، وماتوا حزناً وغماً ، ثم ما لبثت هذه الأفكار أن تم إحياؤها بعد ذلك ، بل وجرى تكريم أصحابها وإعادة الاعتبار لهم . ومن ذلك فكرة تحرير المرأة التى حورب من أجلها قاسم أمين ، ولم يكد ينتهى القرن حتى أصبحت موضع احترام، ولم يعد أحد يجرؤ على محاربتها !

والخلاصة أن المجتمعات الذكية هى وحدها التى تدرك قيمة الأفكار الجديـــدة ، وتسرع باحتضانها ، فى حين أن المجتمعات الخاملة هى التى تـــدوس علـــى مـــا يظهر فيها من أفكار ولذلك فإنها تظل ضعيفة وفقيرة ومتخلفة .

لمـاذا أكتب ؟

يتساءل كل من ألتقى بهم ، وخاصة من أساتذة الجامعات : كيف تجد الوقت لتكتب هذا العمود اليومى ؟ والواقع أننى أشعر بالسعادة من سؤاله ، لأنه يتابع ما أكتبه وبالفعل أجد له العذر لأنه لا يعرف أننى منذ نشـأت فـى أحـد أحياء القاهرة الشعبية ، وعينى تتابع ما فى الحياة اليومـية حولـى من سلبيات وإيجابيات ، وأننى كنت أختزنها لنفسى ، وأحـياناً كنـت أعبر عنها فى شعرى الذى صدر منه حتى الآن خمسة دواوين ، ثم حدث أننى درست الفلسفة الإسلامية ، وأتيحت لى الفرصة للسـفر إلى باريس للحصول على الدكتوراه فى الفلسفة ومناهج البحث مـن جامعـة السوربون. وهناك تابعت هوايتى القديمة ، وهى ملاحظة الناس والأشياء . وطرحت على نفسى ذلك السؤال الذى طرحه من قبل رفاعـة الطهطاوى : كيف تقدم الغرب ؟ ولماذا تأخرنا؟ ورغم أن هذين سـؤالان إلا أنهمـا مثل وجهى العملة الواحدة . لذلك فإننى رحت أتابع حـركة التقدم الغربى من فرنسا فى سائر أوربا كلها ، كما أننى لم أفقد خـلال ما يقرب من سبع سنوات نظرتى إلى بلادى التى كنت أقرأ عنها فـى الكتـب ، والصـحف ، والمجلات ، وأسمع أخبارها من الراديو ، وأشاهدها مشاهدة حية فى التليفزيون . . ومن الطبيعى أن تتكون لدى مجموعـة هائلة من الملاحظات ، كنت أدون بعضها ، وأحتفظ ببعضها الآخـر فى الذاكرة . . وعندما عدت إلى مصر فى بداية الثمانينات كان لـدى شـعور عمـيق بضـرورة مصـارحة الـناس بما لدى من تلك الملاحظـات، لكنـنى وجـدت نفسى غارقاً فى مشكلات العمل والسكن

والسـيارة والـنادى والتأقلم من جديد فى الحياة المصرية الجارية . .
وبعـد أن تحقق ذلك ، رحت أنشر بعض تلك الملاحظات فى كتبى التى يدرسها الطلاب فى الجامعة ، وكان من أهمها فكرة المشكلات الحقيقية والمشـكلات الزائفة ، أى أن المجتمع قد يخدع أحياناً ببعض المشكلات التى يظن أنها حقيقية فيروح يتحدث عنها ، ويفكر فى حلها ، ثم ينتهى بـه الحـال إلى اكتشاف أنها كانت مجرد مشكلة زائفة ، وأنه قد أضاع وقته وجهده فى محاولة إيجاد حل لها . ومن ذلك أزمة الثقافة ، وأزمة المسرح ، وأزمة الهوية ، وأزمة الأصالة والمعاصرة، ومنها فى الوقت الحاضـر : أزمة الفكر العربى والعولمة . أما المشكلات الحقيقية فهى أزمـة المواصلات ، وأزمة الإسكان ، وأزمة زيادة النسل التى تبتلع كل عوائـد التنمية ، وأزمة التعليم الذى يتخرج منه شباب مسطح الثقافة ، وأزمـة الـترجمة التى تفصلنا عن العالم الخارجى . . وكان طلابى فى الجامعة يتفهمون الفكرة ويناقشونها معى ، ويقتنع الكثير منهم بها . . ثـم يقولون : المفروض أن يدرك الناس ذلك . كيف ؟ ولأننى كنت من المؤمنيـن دائمـاً بدور الإعلام فى التثقيف والتوجيه وخاصة فى الدول النامـية ، فقـد وجـدت فى ترحيب جريدة الجمهورية وشهامة رئيس تحريـرها الأسـتاذ سـمير رجـب ، نافذة رحت أطل منها على القراء الأفاضـل ، محـاولاً تعظـيم الإيجابـيات التى لا يدركها كل الناس فى مجتمعنا ، ومنبهاً إلى ما لدينا من سلبيات ، أرجو أن يقوم المسئولون بإزالتها ، وأنا على ثقة من أن الكلمة لا تذهب هباء ، وأن الفكرة مثل البذرة التى توضع فى الأرض ، لابد أن يأتى عليها يوم لتشق التربة ، وتخرج للنور والهواء . . أما الوقت والجهد فهما من نعم الله يتيحهما لى وسط مشاغلى الوظيفية ، وهموم العمل.

التطور والتطوير

فرق كبير بين التطور والتطوير . أما التطور فهو تدرج (طبيعى) يحـــدث ذاتياً وبدون تدخل من الإنسان . وأما التطوير فهو فعل إنسانى يـــتدخل بصـــورة أو بأخرى لجعل الأشياء تنتقل من مرحلة إلى مرحلة أرقـــى مـــنها . فارق آخر : أن التطور يتم على فترات طويلة جداً ، قد تـــتجاوز مـــئات وآلاف السنين إلى ملايين السنوات . أما التطوير فإنه سريع الحدوث بسبب مثابرة الإنسان على تحقيقه فى أقصر وقت ممكن. ومـــن أمـــثلة الـــتطور ما يحدث فى الطبيعة من ظواهر ، مثل انفصال القـــارات بعضها عن بعض ، وتجمد القطب الشمالى والقطب الجنوبى ، وتوزيـــع الغابـــات فـــى مـــناطق هطول الأمطار الغزيرة ، والنحات فى الصـــخور أو التحولات فى مجارى الأنهار ، وتكون البحيرات . . وفى هـــذه الإطـــار حاول (دارون) أن يثبت نظريته فى تطور الإنسان الحالى من حالة القرد أو الشمبانزى ، وهى النظرية التى ثبت فشلها ، دون أن تفشـــل بعـــض جوانبها فى حالات أخرى تتعلق ببعض مظاهر الطبيعة والنبات .

أمـــا التطوير المرتبط بالفعل الإنسانى فهو الذى يتمثل فى إقامة المجتمعات العمرانية ، وإنشاء المدن ، وصنع الأعمال الفنية والأدبية ، والإنـــتاج العلمـــى والفكـــرى. والاســـتمرار فى تحسين وسائل معيشة

الإنســـان ، وتوفير وسائل الراحة الممكنة له . وهنا لابد من الاعتراف بأن التطور العلمى قد وصل إلى مستويات مذهلة ، وجرى تطبيقه فيما يسمى بالتكنولوجيا الحديثة . ومن أمثلتها : ما نشاهده فى أعمال بناء العمــارات الــتى كانــت تتطلب الكثير جداً من الأيدى العاملة ، والقوى العضــلية المــبذولة فــى حمل الرمل والزلط والمونة من الأرض إلى الأدوار العليا . . الآن أصبح هذا كله يتم ميكانيكياً ، وبعدد قليل جداً من المهندســين والعمــال . بــل إن فــتاحة العلــب تحولت من المستوى الميكانيكى إلى أن أصبحت تعمل بالكهرباء ، ولا تحتاج من الإنسان أن يحــرك أصــابع يده لفتحها . وكذلك عصارة البرتقال التى أصبحت هى الأخرى كهربائية. وطبعاً نحن جميعاً ندرك قيمة الأسانسير الذى يحملنا إلــى الأدوار العلــيا ونحن واقفون تماماً دون أن نبذل جهداً فى طلوع السلالم.

لكــن مــاذا عن التطوير فى المجال الاجتماعى ؟ يظل من أصعب الأمور ، فليس من السهل تغيير بعض العادات السيئة التى استقرت فى مخــتلف المجــتمعات . أما المجال السياسى والاقتصادى فالتطوير فيه يســير بخطى متناثرة ومتعثرة . ولم يصل العالم حتى الآن إلى إجماع علــى أفضل نموذج له . صحيح أن الكل يحاول . وما زال يحاول حتى الآن . . ويــبدو أنه سيظل يحاول حتى نهاية العالم . وهو الأمر الذى يدل على أن النظام المثالى فى هذا المجال لن يتحقق إلا فى عالم آخر.

بماذا تتقدم المجتمعات ؟

جلسنا نتحدث حول أهم عوامل التقدم فى المجتمعات . قال أحدنا : إنه العلم ولا شئ سواه ، فكلما أخذ المجتمع به ، وتعمق فيه ، ونشره بين أبنائه ، وطبق مناهجه على قضاياه نجح فى حل مشكلاته ، وحقق أفضل معدلات التنمية على كافة المستويات.

وقال الثانى : إن العلم بدون العمل لا يساوى شيئاً . فلابد من بذل الجهد ، وضخ العرق لإقامة الأبنية ، وشق الترع ، وتمهيد الطرق ، وإقامة الكبارى ، ومدّ الأنفاق ، وفلاحة الأرض ، وتشغيل المصانع . .

أما الثالث فقال : لكن العلم وحده لا يكفى ، كما أن العمل وحده لا يكفى ، بل إن الإثنين لا قيمه لهما إذا لم يتحصن الإنسان بالدين ، الذى يربطه بخالق الكون ، ويحدد له مصيره وغايته ، والهدف الأساسى من وجوده ، لأن هناك فرقاً كبيراً جداً بين المجتمع الإنسانى وبين مجتمع النمل أو النحل مثلاً ، فهذه المجتمعات تعمل طوال الوقت ، وبإتقان شديد ، لكنها مجتمعات آلية أو ميكانيكية ، بمعنى أنها تسير على وتيرة واحدة ، منذ نشأت وحتى اليوم ، وستظل كذلك للأبد . أما المجتمع الإنسانى فإنه يتطور باستمرار ، وهذا التطور مرتبط دائماً باقترابه أو ابتعاده عن الله .

وقال الرابع : الدين بالفعل عامل أساسى ، وهو دافع للتضامن من أجل العمل المشترك لإقامة مجتمع فاضل . لكن الأخطاء التى تحدث فى هذا الميدان تأتى من عدم الفهم الصحيح له ، وأحياناً من الفهم غير المتكامل . وكم شهد العالم من خلافات ، وعانى من صراع فرق الناس إلى أحزاب وشيع ، وأدى أحياناً إلى قتال وقتل – وهذا بالطبع ما لم يدع إليه أى دين من الأديان .

وهـــنا قـــال الخامس : فى رأيى أنه لابد من توافر روح وطنية تجمع الناس على هدف واحد ، وهو ما يطلق عليه البعض المشروع القومى الذى يعتـــبر إطاراً يضم كلاً من الحكومة والشعب ، ويتفاعل فيه الجميع من أجل تحقـــيق مجموعـــة متكاملة من الأهداف ، يتم من أجلها التضحية بالمصلحة الخاصـــة للفـــرد فى سبيل تحقيق المصلحة العامة للجميع . ومن المؤكد أن هذه الروح هى التى بنت المجتمعات القوية ، وأقامت الحضارات الكبيرة .

وكـــان يسمعنا صديق أكبر مناً سناً وخبرة فقال : لقد تحدث كل واحد مـــنكم عـــن عـــامل معين ، وأنا أقول لكم : لماذا لا تكون هذه العوامل كلها مجتمعة هى التى تحقق التقدم المنشود للمجتمع ؟ قلنا له : لا شئ يمنع من ذلـــك ، لكن كلاً منا حاول من وجهة نظره الخاصة أن يركز على عامل معين يرى أنه هو الدافع الأكثر فعالية ، والأقوى تأثيراً . .

فقـــال : حســـناً لكـــن ينبغى ألا تغفلوا عن أمر هام ، هو أن المجتمع الذى يرغب فى التقدم ينبغى أن يتوافر فيه قدر كبير من الذكاء ، والحيوية، والرغبة الحقيقية فى تحسين وسائل الحياة ، والارتقاء بالبيئة المحيطة به . كذلـــك ينـــبغى لهذا المجتمع أن يشجع طاقة الخيال ، التى ينمو فيها الإبداع والابتكار من أجل تحقيق نماذج جديدة ، وأنماط مستحدثة ، وهذا ما يتيح له أن يســـبق أمـــثاله من المجتمعات التقليدية ، وينطلق على الدوام لآفاق غير مطروحة .

وانفضـــت الجلســـة علـــى أمـــل أن تكون لدينا كل هذه العوامل ، أو معظمها ، خاصة وأن مصر كانت دائماً موئلاً للحضارات ، ونصيرة للتقدم .

النظام فى حياتنا

حياتنا بحاجة شديدة إلى النظام . النظام فى كل شئ . فى الأكل والملبس والسكن والعمل ، وحتى فى الترفيه . وعلى الرغم من زيادة الوعى بأهمية النظام، والدعوة إليه فى التعليم وفى كل وسائل الإعلام إلا أن مجتمعنا ما زال بعيداً عنه . ويعتبر المرور من أهم المظاهر التى تكشف عن أن شعباً ما يلتزم أو لا يلتزم بالنظام. بدءاً من احترام الألوان الثلاثة للإشارة ، إلى الالتزام بإرشادات السرعة ، ومنحنيات الطرق ، ووجود المدارس . ويكفى أن تلتقط صورة من الأعلى لمنظر شارع تجوبه عربات السرفيس لتجد الفوضى منتشرة بكل شبر فيه ، فليس هناك تتابع فى السير، ولا احترام لصاحب الحق ، كما لا يوجد أى اعتبار للمشاة ، الذين أصبحوا هم أيضاً جزءاً من حركة المرور العشوائية .

أما النظام الغذائى ، فلا يأخذ به أحد منا إلا عندما تقع الواقعة ، ويحدد الطبيب ما نأكل ، وما لا نأكل . وفى كل الأحوال فإن الاهتمام بالكمية يتغلب على نوعية الطعام ، كما أن الإفراط فى تناوله يوقع فى العديد من الكوارث الصحية . فإذا حاولت أن ترى الموزايك فى الملبس يكفى أن تنظر إلى لوحة مجلس الشعب ، حيث يتجاور فى القاعة من يلبس البدلة الافرنجية ، مع من يلبس الجلباب البلدى ، ومن يلبس الكاجوال مع من يلبس العقال . . وتكاد تخرج من هذا بأنك لا تعيش فى بلد واحد ، وإنما فى دولة فيدرالية تضم عدة جمهوريات مختلفة ، وشديدة التباين .

وبالنسبة إلى المساكن ، تجد الشارع الذى يضم بيوتاً لا تزيد عن دور واحد أو دورين ، إلى جانب عمارات ترتفع إلى أربعة عشر طابقاً . أما فى الداخل ، فهناك الطراز البلدى الفسيح والمرتفع الأسقف ، إلى جانب

الطراز الافرنجى المضغوط . وفى الآونة الأخيرة أضيف ما يسمى بالفيلا أى الشـقة ذات الدورين . وفى كل الأحوال تبدو المساحات غير متناسقة ، كما أنها غير مستغلة على النحو الأمثل .

وما زالت لدى المصريين الرغبة فى إنجاب أعداد كبيرة من الأطفال ، بـناء على أن الأولاد " عزوة " ، كما أنهم يساعدون الآباء عند الكبر ، مع أن القلـيل جداً منهم هو الذى يفعل ذلك . وفى حين تبدو الحاجة إلى الأولاد الذكور فى الريف أقوى فقد انتقلت إلى المدينة ، وأصبح المثقفون لا يقلون عـن الريفييـن فـى كـثرة الإنجاب ، الأمر الذى جعل تلك الزيادة السكانية المنفلـتة تعصـف بكـل عوائد التنمية التى حققها المجتمع خلال السنوات الماضية.

وفـى مجـال العمـل ، ما زال النظام مفتقداً فى العديد من المصالح والإدارات . بـدءاً مـن عـدم احترام مواعيد بدء العمل أو انتهائه ، مروراً بعشـوائية الأداء والتكاسل فى إنجاز المهام ، وتكدس الموظفين بدون داع ، وعـدم الالتزام بالتعليمات التى من شأنها أن تحدث السيولة اللازمة للإدارة الجيدة .

وحـتى الترفيه لا يوجد فيه نظام . فما من رحلة مدرسية أو جامعية خرجـت ورجعـت فى موعدها المقرر سلفاً . وما من سينما أو مسرح قدم عرضـه فـى موعده المعلن عنه . فإذا تابعت التلفزيون ، أراهنك على أن يـذاع برنامج فى موعده المحدد تماما، بل أن نشرة الأخبار ، التى لا تتأخر ثانية واحدة فى كل بلاد العالم ، يتم إرجاؤها عندنا خمس أو عشر دقائق .. وبدون إبداء الأسباب ، أو مجرد اعتذار.

يـا سـادة . . بهذا الأسلوب فى عدم احترام النظام ، لا يستطيع أى مجتمع أن ينهض ، ولا أى دولة أن تتقدم ، ولا أى إنسان أن يحقق شيئاً ذا قيمة فى حياته .

المواصلات والاتصالات

لا يمكـــن أن يـــتحقق ازدهـــار اقتصادى فى أى بلد فى العالم إلا إذا توافـــرت له (بنية أساسية) تقوم من بين ما تقوم على شبكة مواصلات برية وبحـــرية وجويـــة ، جيدة ومترابطة ، وكذلك شبكة اتصالات يعمل القائمون عليها بكفاءة عالية .

وهـــذا الأمـــر ملاحـــظ بصـــورة واضـــحة للغاية فى كل بلاد أوربا ، والولايات المتحدة وكندا ، وكذلك فى بلدان جنوب وشرق آسيا ، التى أطلق علـــيها مجموعة دول النمور . وقد شاهدت بنفسى فى بعض البلاد الأوربية كـــيف تتواصـــل شـــبكة المواصلات على الأرض من خلال قطارات سريعة ومنتظمة ، ومن خلال شاحنات تنقل البضائع من وإلى أماكن مختلفة ، على طرق سريعة وجيدة التجهيز ، وكذلك من خلال النقل النهرى الذى يقوم هو الآخـــر بـــدور هـــام فى عملية نقل البضائع ، مقدماً بذلك خدمة إضافية إلى الـــنقل البرى . ومما لاحظته أيضاً هو أن شبكة المواصلات الأرضية ينبغى أن تحتوى على طرق رئيسية ، وإلى جانبها طرق فرعية متعددة ، حتى إذا حـــدث أى اختـــناق مرورى على أحدها ، انفتح أمام السائق أكثر من طريق فرعى يوصله إلى هدفه .

فـــإذا جئـــنا إلـــى النقل الجوى ، أمكننى أن أطرح السؤال التالى : ما الـــذى منع ويمنع حتى الآن إنشاء شبكة جوية بين جميع محافظات مصر ؟ ولماذا لا ينشأ حتى الآن فى كل محافظة مطار يساعد على سرعة التنقل من محافظـــة إلى أخرى فى أقل من (ساعة زمن) ؟ إننى على ثقة من أن وزير الطـــيران الجـــاد الفريق أحمد شفيق قادر على أن يدرس هذه الفكرة ، وأن يقـــوم بتنفيذها ، خاصة ونحن فى عصر ، أصبح النقل الجوى يغطى العالم

كلــه مــن شــرقه إلــى غربه ، فكيف نتعايش مع هذا العالم ، ونحن بدون مواصــلات جويــة بينــنا ؟ يقــال إنــنا أنشــأنا العديد من المطارات ، فى الإسكندرية ، وفى الأقصر ، وفى الغردقة . . هذا جيد ، بل إنه ممتاز ، لكنه لا يكفــى لتحقــيق عملــية تواصل أكثر سرعة ونشاطاً بين جميع محافظات مصر . .

نــأتى للجانب الثانى من الموضوع ، وهو المتعلق بشبكة الاتصالات . والواقــع أنــنا فى هذا الصدد أصبحنا أمام ثورة تكنولوجية غاية فى الذكاء والتعقــيد ، لكــنها أيضاً غاية فى تسهيل الأمور والإجراءات . فلولا العتب لقلــت أن عهد الخطابات العادية والمسجلة والتى بعلم الوصول قد انتهى أو كــاد ، وحــل محله البريد الإلكترونى الذى يتخاطب فيه المتعاملون وكأنهم يحدثــون بعضــهم بعضاً . لم يعد هناك إذن مجال لعدم وصول الخطابات أو المعلومــات أو تأخــيرها عــن موعدها . ولم يعد يستطيع بنك فى العالم أن يقــول للعميل أن إخطار الشيك المحول إليك من بنك آخر أو من جهة أخرى لم يصل حتى الآن ، لأن الفاكس يقوم بالمهمة فى نفس اللحظة ، وإذا كانت خطــوط التليفون الأرضى مشغولة ، فإن التليفون المحمول المتصل بالأقمار الصــناعية يقــوم بالمهمــة . لكــن المســألة لا تنحصر فقط فى الأجهزة الإلكترونــية الرائعة التى أصبحت عنصراً أساسياً من النظام الاقتصادى فى أى بلــد مــتقدم فــى العــالم ، وإنما أيضاً فى العاملين على هذه الأجهزة ، والذين يتقنون أداء وظائفهم بكفاءة عالية .

قــال لى صاحبى : هل رأيت بنك كذا ؟ إن التعامل فيه يتم على أفضل نحــو . قلــت له : هــذا جيد ، لكن المسألة لا تتعلق بكفاءة بنك واحد ، أو مؤسســة واحــدة . فالاقتصــاد مثل جسم الإنسان ، يحتوى على الكثير من الأعضــاء ، التى ينبغى أن يكون كل منها سليماً ، وفى نفس الوقت ، على اتصال جيد بباقى الأعضاء .

لكى تحكم على إدارة مؤسسة ، حكومية أو خاصة ، بأنها ناجحة أو فاشــلة ، سوف أشير عليك بعدة معايير قلما تخطئ فى هذا الصدد . المعيار الأول : هو العمل فى صمت ، وبدون ضجيج . ولا شك أن ذلك يعنى أن كل موظف أو عامل فى المؤسسة يعرف جيداً مسئوليته ، وأنه ينفذها بدقة وكفاءة . لأن ما يدعو الموظفين إلى الزعيق ورفع الصوت أثناء العمل هو تنازع الاختصاصات ، والتقصير فى القيام بالمسئوليات المحددة لكل منهم . المعيار الثانى هو ترتيب الملفات ، أى وضعها فى نظام بحيث يسهل على أى موظف أن يرجع إلى ما يحتاجه منها بسرعة وســهولة ، وبذلك يتمكن من إجابة رؤسائه وزملائه وكذلك المواطنين المتعاملين معه ، عن أى معلومة تطلب منه ، وبذلك لا تتعطل الأعمال ، ولا تــتراكم ، ولا تشتبك المصالح بعضها ببعض فتضطر المؤسسة إلى ازدحام الناس فيها ، وبحثهم دون جدوى عما يريدون . المعيار الثالث: أن يكــون باب المدير مفتوحاً لتلقى الشكاوى ، وليس يعنى هذا أن يرد بنفســه علــى كل الشاكين ، وإنما الغرض هو أن يشعر مرؤسيه بأنه يتابع موظفيه فى أداء عملهم على النحو الأكمل ، لأن الشكوى لا تأتى غالــباً إلا من تقصير أو فساد ، وكلاهما ينبغى القضاء عليه أولاً بأول حــتى لا يستشــرى ، وبالتالى يتيح وجود أنواع من مراكز النفوذ التى تــتحكم فى المواطنين ، وتضطرهم أحياناً إلى اللجوء للرشوة من أجل

تمريـــر مصـــالحهم . المعـــيار الرابع أن تكون هناك لافتات إرشادية ، وبيانات معلقة لكى يستضئ بها المواطنون القادمون للمؤسسة ، وبذلك يوفـــرون علـــى موظفى المؤسسة كثرة الإجابات المكررة على أسئلتهم واستفساراتهم . و ينبغى أن توجه التحية هنا لإدارات المرور لدينا التى تستخدم هذه الوسيلة ، لكننى ما زلت أتعجب من ازدحام المواطنين بها!

المعيار الخامس ويتمثل فى أن كثرة السعاة فى مؤسسة يدل على مـــدى الفوضى فيها . فكلما رأيت سعاة يحملون صوانى الشاى والقهوة والليـــمونادة ، وهـــم يـــروحون ويجيئون فى ممرات المؤسسة وداخل مكاتـــب الموظفيـــن ، أدركـــت على الفور أنك فى دار ضيافة أو مقهى ولست فى مؤسسة عاملة بجدية . ومن الواضح أن هذه الظاهرة تتعلق بســـلوكيات شعبية لم نستطع أن نتخلص تماماً منها ، وخاصة فى أثناء العمـــل . فكثيراً ما يأتى للموظف فى مكتبه أحد الضيوف من أقاربه أو أصـــدقائه ، وكثيراً مالا تكون لديه حاجة فى المؤسسة فيشغل الموظف عـــن أداء عملـــه وتمـــنعه من استقبال المواطنين من ذوى الحاجات الملحـــة . أذكر عندما زرت منظمة اليونسكو فى باريس ، أدهشنى عدم وجـــود ســـعاة علـــى الإطـــلاق . وهـــناك صالة مفتوحة يستقبل فيها الموظفـــون ضـــيوفهم ، وفيها ماكينة يضعون فيها العملة ، ويحصلون علـــى الشاى والقهوة بأنفسهم . وأتعجب أن هذا (القانون) ينطبق على صغار الموظفين ، وكذلك على الكبار حتى درجة وزير !

التنفيذ والمتابعة

يعرف جيداً كل من يعمل فى الإدارة ، سواء فى مصر أو فى أى مكان فى العالم ، أن الهدف من اتخاذ القرار هو تنفيذه ، ولكى يتم التنفيذ بالصورة اللائقة ، وعلى أكمل وجه لابد من متابعة مراحل التنفيذ التى قد تطول أو تقصر ، ولكنها تظل بحاجة إلى من يشرف إشرافاً مباشراً على إتمام كل مرحلة منها ، وعلى النحو المطلوب بالضبط حتى يمكن الانتقال من مرحلة إلى المرحلة التالية على أسس صحيحة . إذن المسألة تحتاج إلى ثلاث جهات أو عناصر : الأول يتخذ القرار والثانى يقوم بالتنفيذ والثالث يتابع التنفيذ حتى اكتماله . وهنا نقطة فى غاية الأهمية هى أن بعض الناس يظنون أن متخذ القرار تنتهى مهمته بمجرد توقيعه . أبداً فالمتابعة يمكنها أن توجه نظره إلى جانب أو أكثر من العيوب فى قراره ، وهو الأمر الذى يتطلب منه المراجعة والتعديل ، بل وأحياناً الرجوع عن القرار واتخاذ قرار آخر بديل. كذلك فإن المتابعة هى العين الساهرة عل مراقبة من يقوم بالتنفيذ، والتأكد من صحة الإجراءات ، وسلامة الخطوات ، ودقة الأداء، إلى جانب جودة المواد ، وكفاءة الآلات والأجهزة .

وقد جرى العرف عندنا أن نخصص فى كل مصلحة حكومية إدارة نطلق عليها إدارة التخطيط والمتابعة – ومع أنه من اللازم فصل الجانبين عن بعضهما – إلا أن هذه الإدارة تكون غالباً فاقدة التأثير ، قليلة الأهمية ، يلقى فيها غالباً – أقول غالباً – بالموظفين الخاملين ، أو الموظفات غير الراغبات فى العمل ولديهن أطفال يحتجن إلى

الـرعاية، أو بعض من تلفظه الإدارات الأخرى بسبب التقصير أو عدم الاستلطاف . ومن العجيب أنه بمجرد أن ينتقل الموظف أو الموظفة إلى تلـك الإدارة لـن تسمع له صوتاً ، ولا تكاد ترى اسمه بعد ذلك إلا فى كشـوف المكافـآت ، أو التقارير السنوية التى يأخذ فيها عادة الدرجة النهائية .

بالطـبع ينـبغى أن تكون إدارة المتابعة هى عين مدير المصلحة علـى كـل ما يجرى من أعمال داخل مصلحته أو خارجها ، تلك العين الـتى يـرى بها تقدم المشروعات أو تعثرها ، جدية العمل أو التراخى فيه، شفافية المصروفات أو التلاعب بها ، بل إنها العين التى تحدد من هو المقصر الذى يتطلب عقاباً ، ومن هو المجتهد الذى يستحق مكافأة.

مـا أكثر القرارات التى يتم إصدارها ، ونفرح جميعاً بصدورها ، كمـا نسعد أحياناً بمشاهدة وضع حجر الأساس لها ، ولكننا ما نلبث أن نفاجـأ بالنـتائج هزيلة ، وبالثمار معطوبة ، وأقول لنفسى : لو كانت هناك متابعة جيدة لتنفيذ هذا المشروع أو ذاك ما وصل به الحال إلى ما أصبح عليه . وأخيراً فإننى أعتذر للقارئ عن عدم تقديم أمثلة عن هذا الموضـوع وأكتفى بالخطوط الرئيسية له ، لأن ما أرجوه هو أن يتنبه بعض مديرى المصالح إلى أهمية إدارة أو قسم المتابعة من أجل إحيائه أو إنعاشـه أو اسـتبدال العاملين فيه . المتابعة الصحيحة هى الطريق الطبيعى إلى التنفيذ الصحيح .

لديــنا منــتجات كثــيرة جيدة ، وتستطيع أن تنافس على مستوى عــالمى . . فقط ينقصها شئ واحد ، وهو أن نضعها فى غلاف يتساوى مع قيمتها من حيث الجودة . ولا أدرى ما الذى يجعلنا نهمل التغليف مع أنـــه جــزء لا يتجزأ من البضاعة المعروضة للبيع أو التداول . ويبدو أن هــذا الإهمال يرجع إلى عادة مصرية قديمة تعتقد فى أن الجوهر أهم من المظهر . هذا صحيح . لكن المظهر أيضاً ضرورى ، وهو الذى يلفت نظر المشترى ، ويجذبه لاقتناء السلعة .

عــندما تذهــب فى باريس لشراء رغيف خبز ، من النوع الطويل الممتلئ الذى يسميه الفرنسيون (بان) أو النوع الأرفع المسمى (باجت) لا يمكــن أن تقدمـــه لك البائعة، التى هى فى الغالب زوجة أو ابنة صاحب المحل ، إلا ملفوفاً فى ورقة سلوفان بيضاء حتى لا تمسه الأيدى ، سواء كانــت يديهــا أو يديك . وآه إذا طلبت قطعة جاتوه من المحل : وجدتها تسرع لتلفها فى علبه ، ثم تزينها بما يشبه ربطة العنق ، وهى تقوم بذلك كلــه بهمـــة ونشاط وتقدمها لك مع ابتسامة حتى ليخيل إليك أنك تشترى المحل كله ، أو كأنك الزبون الوحيد الذى يستحق الخدمة !

إن كل ذلك ليس إلا جزءاً من عملية تقديم البضاعة للزبون ، وهى عملــية ضـــرورية للغايـــة ، ولابد أن نتنبه لها جيداً وأن نعطيها اهتماماً خاصـــاً ، بل وأن ندرسها للصناع والبائعين وندربهم عليها ، ونحن بصدد تنمية كبرى فى المجتمع .

منذ سنوات ، أصبح اللبن يباع فى علب ورق مقوى ، ويومها فرحت جداً حتى نتجنب تلوثه من خلال الأقساط والمواعين التى ينقل من بعضها إلى بعض . وبالمناسبة اللبن من أعظم نعم الله على الإنسان فى لونه ونظافته ، فضلاً عن فائدته ومحتواه ، وكنت فى البداية أجد صعوبة فى فتح علبة اللبن بمقص حتى نستخدمه عدة مرات ، لكن أصحاب الشركات – مشكورين – وضعوا على كل علبة غطاء من البلاستيك وأغلقوه بورقة معدنية ، تشدها من طرفها فتفتح العلبة . كل هذا جيد . لكن المشكلة أن الغطاء لا يكون عادة مضبوطاً ، وأن الورقة المعدنية تكون ملتصقة بقوة بحيث تتطلب سكيناً لتخرقها !

وخذ عندك أيضاً باكو البسكويت الذى لم تستطع المصانع المصرية حتى الآن أن تساعد الزبون فى طريقة سهلة لفتحه ، فإذا حاولت ذلك تمزق الغلاف وتكسر البسكويت وتناثر . فكيف الحال بطفل صغير يريد أن يفتحه ليأكل منه دون أن يتسخ المكان !

وكثيراً ما تذهب لشراء بضاعة من محل ، فتجده يلقيها إليك ، ولا يقدم لك كيساً تضعه فيها حتى تطلبه بنفسك . أذكر أننى ذهبت مع زائر أجنبى إلى خان الخليلى فانبهر الرجل من روعة المنتجات المصرية ، وراح يشترى من هنا وهناك ، ولكننى لاحظت أنهم يلفون له الأطباق النحاسية ، والتماثيل الرخامية فى ورق جرائد!

إن التغليف يعتبر جزءاً من الإتقان الصناعى ، كما أنه يعد فى نفس الوقت جزءاً من الحرفة التجارية . ويعلم الله أن العالم يمتلئ ببضائع سيئة الصنع ، ولكن أصحابها يقدمونها فى غلاف جيد أو جذاب فتروج بين الناس . فما بالك بأصحاب السلع الجيدة ، ذات المادة الخام الأصيلة حين يقدمونها بشكل يتناسب مع جودتها وأصالتها ؟

هـل يريد المجتمع فعلاً حل مشكلة الدروس الخصوصية ؟ هناك حـل حاسم وسريع ، يمكن أن يتعاون كل من المجتمع والدولة لإنجازه علـى أن يـبدأ مـن العام الدراسى القادم . ويتمثل هذا الحل فى إنشاء تليفزيون تعليمى متكامل ، يكون منفصلاً تماماً عن التليفزيون الموجود حالـياً فـى ماسـبيرو . ويحـتاج إلى خمس قنوات أولاها للحضانة ، وثانيتها للابتدائى ، وثالثتها للإعدادى ، ورابعتها للثانوى ، وخامستها للجامعة . فى كل قناة تشرح مفردات المنهج الدراسى على مدار العام ، بواسطة مدرسين وأساتذة متخصصين ، يعاونهم فنيون ومخرجون على مستوى عال ، وممثلون مدربون يقومون بالأعمال الدرامية التى تخدم المـناهج الدراسية ، بل ومطربون ومطربات للأناشيد والأشعار المراد تحفـيظها للتلاميذ . ومن الضرورى أن يصدر هذا التليفزيون التعليمى مجلـة أسـبوعية أو شـهرية لتحديد مواعيد إذاعة البرامج، على أن تراعى الدقة الكاملة فى إذاعتها .

وكمـا فعلـت اليابان ، فإن برامج الحضانة والابتدائى يمكنها أن تـذاع فى الفترة الصباحية لكى تبث مباشرة فى كل دور الحضانة ، أو المدارس الابتدائية لتصبح برامجها هى أساس المادة التعليمية التى يتم الحديث عنها طوال اليوم للتلاميذ بواسطة المدرسين والمدرسات .

أمـــا الفوائد العظيمة لإنشاء مثل هذا التليفزيون التعليمى فسوف تـــتحقق علـــى المدى الطويل ، لأنها ستفتح الطريق واسعاً أمام الذين يريدون إكمال تعليمهم لكى يتابعوا هذه البرامج ، بل ويمكن أن يحصلوا علـــى الشـــهادات التى يرغبون فيها من خلالها . وهذا العمل هو الذى ســـيحقق ما تهدف إليه الدولة من إشاعة الأنماط الحديثة فى التعليم ، كالتعليم الذاتى، والتعليم المفتوح، والتعليم المستمر ، والتعليم عن بعد.

ثـــم يأتى السؤال الهام : من الذى سوف يمول هذا التليفزيون ؟ وأســـارع فـــأقول: أولاً كـــل المواطنين من خلال اكتتاب عام ، كما فعل المصـــريون عـــندما تمت دعوتهم إلى إنشاء جامعة أهلية فقاموا بذلك علـــى أفضـــل نحو ممكن ، ثانياً رجال وسيدات الأعمال الذين ينبغى أن يدركـــوا جيداً أن تعليم أبناء الشعب المصرى هو صمام الأمان لاستقرار مشـــروعاتهم وزيـــادة ازدهارها ، ثالثاً توجيه جزء من عائدات الزكاة التى لا يعرف أصحابها أين تذهب بالضبط ، وأخيراً لابد أن تدعم الدولة هـــذا المشـــروع ، لأنـــه بدون دعمها المادى والمعنوى لن يتحقق له النجاح المنشود .

أمـــا أن نظـــل فى دائرة مغلقة نشكو من سوء حال التعليم ، وما أصـــبح يهدد مستواه ، وتفريغ جيوب العائلات المصرية على الدروس الخصوصـــية ، فهـــذا ما لم يعد مقبولاً ، فى ظل ما أصبح يتيحه التقدم التكـــنولوجى الهـــائل فـــى مجال البث التليفزيونى من وسائل توضيح وتشويق وجذب .

مشروع المليار نخلة

رأيــت فيما يرى النائم حلماً جميلاً جداً ، لكننى مع الأسف لم أجد لدى أحد تأويلاً له . . رأيت كأننى أعبر النيل من أسوان حتى مصبه فى الــبحر المتوســط ، وأن الناس على كلا الشاطئين منهمكون فى غرس فســائل النخــيل عليهما . . وعندما توقفت لأسأل واحداً منهم ، أجابنى علــى الفــور بأنه قد صدر مرسوم حكومى ، صادف رغبة حقيقية فى قلوب الناس ، بأن يتم غرس النخيل على شواطئ النيل ، وجميع ترعه، ومصــارفه ، وأن كل محافظ سيكون مسئولاً مسئولية مباشرة عن نمو ورعاية النخيل الواقع فى (كوردون) محافظته ، وأن الدراسات الأولية قــد حصــرت عــدد النخيل الذى سيتم غرسه بأنه يزيد قليلاً عن مليار نخلة!

تركت الرجل يعود إلى عمله ، وسرت فى طريقى مندهشاً ولا أكاد أصــدق مــدى الحماسة التى لدى الرجال والنساء ، والشيوخ والشباب والأطفــال ، وهم يقومون بهذا العمل الجليل على شواطئ النيل الخالد ،

ورحت بالفعل أحسب أننا بعد عدة سنوات سيكون لدينا مليار نخلة ، تطرح البلح الزغلول والسمانى والأمهات والإبريمى . . ونستخرج منها الجريد والخوص ، ومواد أخرى كثيرة ، تقام بها وعليها صناعات متعددة ، ونصنع منها منتجات محلية ، تنفعنا من ناحية ، ويشتريها السائحون عندما يتجولون فى مدن مصر وقراها . .

وسعدت أكثر عندما ظهر فى الحلم فجأة أحد أساتذة النبات وقال لى : هل تعلم أن البلح هو الفاكهة الوحيدة التى لم تصل إليها أصابع الهرمونات حتى الآن ، فى الوقت الذى وصلت فيه إلى كل أنواع الفواكه الأخرى ؟ !

وصحوت من نومى وأنا أقول : اللهم اجعله خيراً ، واملأ شواطئ النيل بالنخيل ، ويسّرْ لهذا الحلم الجميل من يحققه .

أعــرف بعض أهل الخير ، الأغنياء ، الذين رزقهم الله من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ، وكثيراً ما سمعتهم يشكون من عدم معرفــتهم معــرفة دقــيقة بالأشــخاص الذين يحتاجون إلى المساعدة الحقيقــية . وبالطــبع جــرب هؤلاء تقديم جزء من أموالهم إلى جهات مــتعددة ، تعلن عن نفسها أنها تقبل التبرعات والزكاة ، ولكنهم أدركوا بعــد وقــت طويل أن ما يقدمونه لا تظهر نتائجه أمامهم . لذلك فإننى أقــترح على هؤلاء وأمثالهم مكاناً ينفقون فيه (فائض أموالهم) وهم واثقــون تماماً من نماء شجرتها ، وظهور ثمارها فى موسمها الذى لا يزيد عن أربع أو خمس سنوات .

أقــترح أن يــتكفل كل إنسانٍ قادر مالياً بنفقات الدراسة الجامعية لأحــد الطــلاب أو الطالبات منذ بداية دخوله الجامعة إلى حين تخرجه منها ، على أن توافيه الكلية التى يلتحق بها خلال فترة الدراسة بنتائج امــتحاناته فى كل عام ، وهكذا يصبح لدى الشخص المتبرع بيان بحالة الطالب الذى يرعاه ، ويكون على معرفة كاملة بمستوى أدائه ، وكذلك بالعقبات التى قد يتعرض لها . وبهذا الشكل سوف يجد أنه بعد أربع أو خمــس سنوات (حسب الكليات النظرية والعملية) قد ساهم فى تخريج أحــد أبــناء المجتمع ، بعد إعداده الإعداد العلمى والثقافى الذى يؤهله للعمــل المنــتج فى المجتمع . وفى تصورى أن مثل هذا الطالب سيظل يذكر بالعرفان ذلك الإنسان الكريم الذى تكفل بنفقاته ومصروفاته خلال المرحلة الجامعية، دون منّة أو استعلاء، وبعيداً عن الدعاية والإعلان .

بهذا الشكل يمكن أن يتقارب أبناء المجتمع الواحد ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يوضع المال الفائض من حاجة شخص فى مكانه المناسب تماماً لدى شخص آخر محتاج . وليس أثقل فى ميزان الحسنات من الإنفاق على طلب العلم، وتسهيله لأبنائه الراغبين فيه ، وتحصين المجتمع بالمتخرجين منه .

وبالمناسبة ليست هذه فكرة خيالية ، وإنما هناك نموذج تطبيقى لهذا شهدته بنفسى فى جامعة القاهرة . طبيب عظيم توقف منذ سنوات عن ممارسة المهنة ، وقام بتوزيع أمواله على مستحقيها من أسرته ، ثم وجد لديه فائضاً ، فتكفل بمصروفات عدد من طلاب كليتى الطب والهندسة ، تجاوزوا حتى الآن الثلاثين . وبمناسبة تخرج عدد منهم ، زارنى الرجل وزوجته وهما فى غاية السعادة من رؤية الثمرة التى زرع شجرتها يانعة ومزدهرة . وعندما عرضت عليه فكرة لقائه بهم رحب كثيراً ، وأقيم حفل شاى حضره كل الطالبات والطلاب الذين أنفق عليهم ، وقام بعضهم فتكلم وشكر صنيع الرجل ، وعندما نظرت فى عينيه لاحظت دمعتين صافيتين تترددان فيهما ، فكانتا أبلغ تعبير عن رده على كلمات الشكر والعرفان . ساعتها تحققت من صدق قوله تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء) لذلك فإننى أقترح أن يطلق على هذا المشروع اسم برنامج أو " مشروع السنابل " .

وصـــلتنى العديد من رسائل القراء مطالبة بأهمية الكتابة عن المطبات الصـــناعية، وأن أصـــحاب الســـيارات يعـــانون منها بشدة ، نتيجة حالتها الصعبة. فهى إما عشوائية، مرتفعة بصورة يصعب على أى سيارة أن تعبر فوقها بأمان حتى ولو كانت فى غاية البطء ، وإما موضوعة بدون ضوابط، حيـــث يمكن أن تجدها فى مكان غير مزدحم بالمارة ، بينما المكان المزدحم خـــال مـــنها . وقـــد لاحظت هذا بنفسى أمام جامعة القاهرة، حيث يوجد فى مواجهـــتها مـــن الجانـــب الأيمن المدينة الجامعية التى يسكنها حوالى سبعة آلاف طالـــب ، وهؤلاء مضطرون لعبور الشارع إلى الجامعة ، ولا توجد أى مطـــبات صـــناعية تجعل السيارات المسرعة والمنفلتة والمجنونة تهدئ من ســـرعتها، الأمـــر الذى يترتب عليه من الحين للآخر كسر رجل طالب ، أو وفاتـــه !! وقـــد سبق أن كتبت هنا مقالاً بعنوان (مصرع طالب) كان موجهاً بالدرجـــة الأولـــى إلى المسئولين عن هذه الأمور فى محافظة الجيزة ، لكن أحـــداً لم يستجب . وليس معنى الاستجابة أن يجرى الاتصال بى ، وإنما أن يتخذ إجراء سريع وملموس وخاصة عندما يتسبب الوضع الخاطئ فى ذهاب أرواح ! وطبعاً المسئول المحترم الذى لم يفقد ابنه فى حادثة طريق لا يمكن أن يشعر بمدى المأساة التى تعيشها أسرة فقدت ابنها الجامعى ، الذى كانت معلقة عليه الآمال ، فى مثل هذا الحادث الشنيع !

الحالـــة تحتاج إلى لدراسة على المستوى الوطنى كله . فلابد أن تنشأ (إدارة للمطـــبات الصـــناعية) ، هـــى الـــتى تحدد الحاجة إليها ، وأماكنها ، وشروط ومواصفات وضعها وأحجامها ، ولا شك أن هذه الإدارة سوف تحد مـــن كـــثرة الحـــوادث ، وخاصـــة التى تحدث أمام القرى ، وعند المدارس

والجامعات . .

أذكر أننى كنت عائداً ذات يوم من طريق بنى سويف – القاهرة وقبل وخـلال محافظـة الجـيزة ، وحـتى حلوان وما بعدها ، صادفت العديد من المطـبات العشوائية التى يرتفع بعضها أكثر من اللازم ، وينكسر بعضها فى مكـان ، ويتعرج فى مكان آخر . وكلها مطبات لا معنى لوجودها فى أماكنها المقامـة فـيها ، بيـنما الأماكن التى تحتاج إليها بالفعل خالية من المطبات الصناعية . .

وإنـنى أندهـش من أن الفكرة الصحيحة عندما تنشر على الناس فى صـحيفة محترمة ، لماذا لا تناقش فى دوائر المسئولين ؟ ويؤخذ بها؟ وأكاد أقـول لنفسى : فى ماذا بالضبط يفكر المسئولون عن سلامة المواطنين على الطـرق ، والمتابعيـن لحـركة السيارات الجارية عليها ؟ وكيف يطيب لهم النوم ، والمآسى الناجمة عن حوادث الطرق تزداد يوماً بعد يوم ؟

ويدهشـنى أن مراقـبة السـرعة علـى الطرق تتم بأحدث الوسائل التكنولوجـية والإلكترونـية (الـرادار) ، حيـث يتم تصوير لوحة السيارة المتجاوزة للسرعة لمواجهة صاحبها بذلك ، وعلى الفور يقوم بدفع الغرامة وإلا . . طيـب لمـاذا لا يـتخذ إجـراء سـريع وحاسم فى مجال المطبات الصـناعية ، وفائدتهـا معروفة للجميع ، وهى تحمى المارة ، وأرواحهم ، بنفس تلك الكفاءة ؟

أتمـنى أن تـبدأ محافظة واحدة بهذا العمل ، كما أقترح على (الحزب الوطنى) أن يتبنى هذا المشروع (مشروع المطبات الصناعية فى مصر) لكى يقـيمها بصورة صحيحة وحضارية . وأنا أضمن له أنه بذلك سيسجل اسمه فى التاريخ !

هل يوجد لدينا حتى الآن كتاب مصرى واحد يتحدث عن تاريخ مصر وأهم معالمها الحضارية ، وأبرز الشخصيات التى ظهرت فيها ؟ وإذا كان هناك بالفعل بعض الكتب القليلة جداً فى هذا المجال ، فهل هى مكتوبة بأسلوب مبسط ، بحيث تتمكن الأجيال الصاعدة من قراءته ، أو الرجوع إليه عند الضرورة ؟ وفى كل الأحوال ، هل يوجد مثل هذا الكتاب الذى تعرض فيه الحقائق ، وتقدم فيه الصور ، وتتوالى فيه الحجج والبراهين على صدق القضايا ، وصحة المعلومات ؟

إننى أكاد أزعم أن مثل هذا الكتاب لم يكتب حتى الآن ، وقد اقترحته ذات يوم على إحدى الجهات القادرة ، فتعقدت الأمور ونشأت اللجان التى انتهت إلى لا شئ . ثم فكرت وحدى ، وما زلت أفكر فى تأليفه ، لكن الوقت لا يسعف ، والمشاغل أكثر مما أتحمل . وأخيراً قلت لنفسى لماذا لا أطرح الفكرة فى هذا العامود لعل وعسى تصل إلى قلب إنسان مصرى متحمس ، فتتحول إلى مشروع يقوم به ، وهو فى مقتبل العمر ، وفورة الشباب .

ولكى أقدم له كل التسهيلات فى هذا الصدد ، فإننى أستطيع أن أقترح عليه أن يكون الباب الأول عن جغرافية مصر أى موقعها بالنسبة للعالم ، ثم بالنسبة إلى المنطقة المحيطة ، ثم خريطتها التى تمتد من السودان جنوباً حتى البحر المتوسط شمالاً ، ومن ليبيا غرباً حتى البحر الأحمر ونهاية سيناء شرقاً . . أما الباب الثانى فيتناول باختصار واضح تاريخ مصر الفرعونية ، والقبطية ، والإسلامية ، وما تعرضت له من غزو أجنبى على أيدى الهكسوس والفرس والإغريق والرومان ، ثم الفتح العربى، والاستيلاء التركى عليها حتى العصر الحديث الذى بدأ بحملة نابليون، وانتهى بالاحتلال

الإنجليزى . وفى كل ذلك لابد من إظهار الوجه المشرف للكفاح ضد الأجنبى، ومحاولات التخلص من الاحتلال فى مختلف صوره ، وكافة مظاهره . أما الباب الثالث فيركز على المدن المصرية وأهم معالمها الأثرية والسياحية . ويمكن تخصيص الباب الرابع للريف وكيفية الحياة فيه ، وطريقة الفلاح المصرى فى العمل بالحقل ، وأسلوب حياته فى القرية . كما يمكن أن يخصص الباب الخامس لصحراء مصر ، وما تحتوى عليه من جبال وسهول وكثبان ، وكذلك ما يرقد بباطنها من معادن وكنوز وأما الباب السادس فيرصد أهم المعارك التى خاضتها مصر لتحرير أرضها بدءاً من طرد الهكسوس على يد أحمس ، ومروراً بدحر التتار فى عين جالوت، وانتهاء بعبور أكتوبر المجيد . وأما الباب السابع فيمكن تخصيصه لزعماء الإصلاح فى مصر سواء كانوا حكاماً أم عسكريين أم مفكرين أم أدباء أم فنانين . ولا شك أن لدينا الكثير من تلك الشخصيات التى برزت فى مختلف المجالات ، وكان لها أثر واضح على الحياة المصرية عبر العصور .

ثم بعد ذلك : هل يمكن أن تضاف أبواب أخرى ؟ نعم بكل تأكيد . يُضاف كل ما من شأنه أن يقدم للنشئ نماذج وطنية يفخر بانتمائه إليها ، ويمكن أن يحاكيها إذا ما عاش فى نفس ظروفها . لكن الشرط الأساسى هو أن يكتب الكتاب بلغة سهلة ، ذات طابع أدبى وعلمى فى نفس الوقت ، وأن يخلو من المبالغات ، ويتجنب الموضوعات المختلف حولها ، والشخصيات التى تعرضت للقيل والقال . وألا يتحدث إلا بالحقائق ، وعن الحقائق ، كما لابد أن يستعين بالصور الجيدة من الناحية الفنية حتى يكون مشوقاً للقارئ والناظر فيه على السواء .

إن مصر بها من الكنوز ما لا يحصى ، لكن أهلها حتى الآن لا يتقنون عرض تلك الكنوز ، وفى اليوم الذى سيتعلمون فيه فن العرض سيجعلونها درة من درر العالم الحديث ، وليس فقط درة المنطقة التى تحيط بها .

حى للسفارات

فـــى الظروف الراهنة ، والتى تمر فيها دول العالم كله بحالة من الخوف والحذر، تصبح الحاجة ماسة إلى تأمين سفارات الدول الأجنبية، والـــتى تتـــناثر عشوائياً فى وسط المبانى السكنية داخل المدن المكتظة بالســـكان . وقـــد كان وجودها على هذا النحو فى الماضى أمراً طبيعياً ومألوفـــاً ، لكـــنه فى الوقت الحاضر ، ومستقبلاً، سوف يضيف أعباء كبـــيرة على أى وزارة داخلية ، لكى تحرس مبنى السفارات ، وتحمى العاملين فيها، وتراقب المترددين عليها .

لهذا فإننى أتقدم هنا باقتراح بسيط ، شهدت مثله فى بعض البلاد العربـــية الشقيقة ، وهو يتلخص فى إنشاء حى خاص بالسفارات ، يقع فى أحد أطراف العاصمة ، ويكون مجهزاً بكل وسائل الراحة والأمان ، كمـــا يكـــون مـــربوطاً على نحو جيد بالعاصمة من خلال طرق سريعة ومتعددة . وفى تصورى أن المسألة لن تكلف الدولة كثيراً ، لأن حصيلة بـــيع أراضـــى الســـفارات الحالية يمكن بكل بساطة أن يقيم هذا الحى المقترح ، وبكل المواصفات المطلوبة .

ومـــن أهم مزايا هذا الاقتراح أنه لا يستثنى سفارة دون أخرى ، بل إن كل واحدة سوف يتاح لها قطعة مناسبة من الأرض ، ويترك لها وضـــع التصميم الذى يحلو بها ، كما يمكن أن تختار كل سفارة جارتها التى تحب أن تقيم إلى جانبها . كما أن من ميزات هذا الحى أنه سيوفر

للدولـــة أماكن فى مناطق هامة جداً وسط المدينة ، بحيث تستفيد منها فـــى مشـــروعات أخـــرى ، كإنشاء جراجات متعددة الطوابق ، أو نقل مصــــالح حكومـــية تهـــم المواطنين . ولا أريد أن أتطرق إلى أن بعض السفارات الأجنبية تحتل فى الوقت الحاضر أماكن لا تتناسب معها على الإطـــلاق ، مثل السفارة التشيكية التى تحتل مساحة رهيبة أمام حديقة الأورمـــان ، ولا تتناسب مساحتها مع مساحة التعاون الدولى بين مصر وتشيكوســـلوفاكيا الســـابقة . أما السفارة التى وضعت خطأ منذ البداية فهى السفارة الإسرائيلية ، التى تفسد على سكان المنطقة المحيطة بها حياتهم، وتطل مباشرة على جامعة القاهرة ، الأمر الذى يثير فى نفوس الطلـــبة الكثـــير من الاستياء والغضب ، وخاصة كلما زادت الممارسات الإسرائيلية الغاشمة ضد الشعب الفلسطينى الشقيق .

وهكـــذا فـــإن إنشـــاء حـــى للســـفارات سوف يقضى على بعض السلبيات المتمثلة فى وجودها حالياً داخل الكتلة السكانية المكتظة ، كما أنـــه سوف يتيح لأجهزة الأمن المعنية حماية السفارات الأجنبية من أى حادث إرهابى أو حتى عشوائى قد يتعرض له مبنى السفارة، أو يصيب أحد العاملين فيها .

إنـــنا فـــى عصر قلق ، ولا يعلم إلا الله وحده ماذا يخبئه القدر . وبالـــتالى فـــإن الإنسان عليه أن يأخذ حذره جيداً ، وأن يحتسب لكافة الظروف .

ألغامهم وحقوقنا

مـــا ذنب مصر ، وهى لم تشارك فى الحرب العالمية الثانية التى اندلعـــت فـــى أوربا ، ثم انتقلت إلى شمال أفريقية ، وراحت تشتعل فى مـــناطق أخرى من العالم ؟ ما ذنبها وقد زرع الخصمان المتحاربان فى صحرائها الغربية وعلى الساحل الشمالى عشرات الملايين من الألغام ، تشير الإحصائيات إلى وجود 22 مليون لغم منها ما زال قابلاً للانفجار حتى اليوم ؟ ومن المؤكد أن عدداً المصريين قد فقد روحه أو جزءاً من جســـده بســـبب هذه الألغام ، ولأننا طيبون ومهذبون فلم نطالب الغرب المـــتقاتل بتعويضـــنا عن الخسائر ، ولا حتى بمساعدتنا فى إزالة تلك الألغـــام . ويقـــال إن تكلفة إزالة اللغم الواحد تصل إلى ما يعادل 250 دولاراً ، وأن المســـاحة الـــتى تنتشـــر فيها الألغام تبلغ مليون ونصف الملـــيون فدانـــاً ، وبالطبع لن نجرؤ على المشى فيها أو حتى الاقتراب مـــنها إلا إذا أزيلت الألغام . يعنى أن الحرب العالمية الثانية قد سببت لـــنا خسارة بالغة، حيث حرمتنا من استغلال تلك المساحة منذ ما يقرب من خمسين سنة . ومن العجيب أن أقارب ضحايا الحرب العالمية الثانية يـــأتون إلـــى مصـــر كل عام لزيارة قبور قتلاهم فى منطقة العلمين ، مؤكدين بذلك حزنهم المتواصل على ذويهم ، دون أن نسمع منهم أحداً يـــتحدث عـــن الخســـائر التى لحقت بأهل تلك الأرض التى جرت عليها معـــارك لادخل لهم فيها ، أو كما قيل فى وصفها بحق " لا ناقة لنا فيها

ولا جمل * .

وهكـــذا فإن لنا ثلاثة حقوق على الغرب : أولاً التعويض عن أى حـــادث يقع لإنسان مصرى بسبب انفجار أحد تلك الألغام التى زرعوها فى بلادنا . وثانياً التعويض عن خسارتنا الناتجة عن عدم استغلال تلك المســـاحة الشاســـعة من الأراضى الملغومة خلال فترة تقرب من نصف قـــرن . وثالثاً المساعدة فى إزالة تلك الألغام بواسطة التقنيات الحديثة المتوافرة لدى الغرب .

إن المثل المصرى يقول إنه لا يضيع حق وراءه مطالب ، وإذا كنا قـــد ســـكتنا طويـــلاً عـــن المطالبة بحقوقنا تلك ، وهى حقوق أساسية وعادلـــة، فلابـــد أن نعمل على إحياء المطالبة بها من جديد . وسوف يكون من المفيد ألا تقتصر تلك المطالبة على المستوى القانونى وحده ، وإنما ينبغى أن تتم على المستوى الثقافى من ناحية عن طريق منظمة عالمـــية مـــثل منظمة اليونسكو ، وعلى المستوى الإعلامى من ناحية أخـــرى ، حيـــث من الضرورى مخاطبة الرأى العام العالمى باللغة التى يفهمهـــا ، وبالأسلوب الذى يؤثر فيه . وكل هذه المستويات لا ينقصنا فـــيها الخبرة ، لكنها تحتاج فقط إلى بعض التنسيق حتى تصل بسرعة ومـــن أقرب الطرق إلى الهدف المنشود ، وهو أن تخلو أرضنا الطيبة من ألغامهم ، وترجع لنا حقوقنا .

على الرغم من أننى قد سبق أن هاجمت إطلاق لفظ (أكاديمية) على بعض المعاهد الخاصة التى تهدف إلى الربح ، حفاظاً على هذا المصطلح الرفيع القيمة أن يهبط إلى هذا المستوى ، فإننى أدعو اليوم إلى إنشاء أكاديمية تعلم التلاميذ بعد حصولهم على الثانوية العامة أصول مهنة المرور وآدابها بهدف الارتقاء بها ، وتفعيل دورها فى شوارعنا داخل المدن ، وطرقنا الصحراوية والزراعية . وطبعاً لابد أن يُسند الإشراف على هذه الأكاديمية لوزارة الداخلية ، وفيها من الكفاءات من يستطيعون التدريس فيها ، كما يمكن لها أن تستعين ببعض الخبرات من الدول المتقدمة ، لتكوين جيل جديد من رجال المرور ، ونسائه أيضاً ، وذلك لسد النقص الشديد فى هذا المجال ، وعدم رضا المواطنين وخاصة أصحاب السيارات ، عن مستوى الجنود المجندين الذين تكاد تنعدم صلاحيتهم تماماً عند حدوث مشكلة مرورية فى الشارع .

إن الحاجة إلى مثل هذه الأكاديمية تأتى – فى تقديرى – قبل الحاجة إلى إنشاء كليات للسياحة . فالمرور هو عنوان الدول المتحضرة. وحكمه ينبغى أن يكون قاطعاً ومحترماً من الجميع . و يكفى أن تتابع منظر مفترق طرقات عندما يخلو من عسكرى المرور . ماذا تجد ؟ الفوضى والتسيب والاحتمال الكبير لوقوع حوادث مؤسفة .

أمـــا الحاجـــة العامـــة لمثل هذه الأكاديمية المقترحة فتتمثل فى ضرورة تكوين أجيال جديدة من رجال المرور ، لا تقتصر مهمتهم فقط علـــى تنظـــيم عملـــية مرور السيارات ، وإنما أيضاً إرشاد المارة إلى الأماكـــن الـــتى يرغبون فى الذهاب إليها ، ومساعدة أصحاب السيارات التائهة أو العطلانة ، وإعطاء الأولوية فى الطريق للعجائز والمكفوفين وتلاميذ المدارس .

فإذا جئنا إلى مظهرهم ، ينبغى أن يكون لائقاً بسمعة مصر كلها . لأنهـــم هم ممثلو سلطة الأمن الأولى ، ووجودهم لابد أن يطمئن ويريح المواطنين والسياح على السواء .

تـــبقى مســـألة درجـــاتهم الوظيفية ، وهى مسألة يمكن لوزارة الداخلـــية أن تضع لها اللائحة المناسبة ، على أن يكون من أهم بنودها أن مـــن يحصـــل على شهادة من أكاديمية المرور لا يعمل فى أى عمل آخـــر ســـوى المـــرور ، ســـواء كان دورية متحركة أو فى المكاتب المركزية .

وفى تصورى أننا من خلال إنشاء أكاديمية للمرور سوف نستغنى عـــن حشد كبير من أمناء الشرطة التى لم تكن مهمتهم موجهة أساساً لهـــذا العمل ، وكذلك الجنود المجندين الأدنى من المستوى . . ونكون بذلك قد استجبنا لحاجة حقيقية من حاجات المجتمع فى الوقت الحاضر، ولفترة طويلة قادمة .

يحتاج النشاط الاقتصادى فى أى مجتمع إلى مجموعة من العوامل لكـــى يصبح أكثر حيوية ، وقدرة عالية على التفاعل والازدهار . ومن العجيب أن هذه العوامل لا تقتصر فحسب على مجموعة العوامل المادية مـــثل توافـــر التمويل والأجهزة والمواد والإدارة والكفاءات البشرية ، وإنمـــا تشمل أيضاً مجموعة من العوامل النفسية التى تتعلق بالرغبة ، والثقة ، والانتماء ، والأمل الأكيد فى مستقبل أفضل . .

خـــذ مـــثلاً هذا النموذج : حدثنى أحد الأصدقاء أنه لاحظ فى أحد شـــوارع القاهـــرة التجارية محلاً يبيع الخبز وصاحبه رجل عجوز ، لا يوجد عنده صبى لكى يساعده . وعندما سأله بصراحة : ما الذى يجعلك محـــتفظاً بهـــذا المحل ، المتواضع الربح ، وسط محلات تجارية تفوقه ربحـــاً ؟ ولماذا لا تبيعه وتضع ثمنه فى البنك حتى يأتى لك بعائد أكبر ممـــا تكسبه من بيع الخبز ؟ أجاب الرجل على الفور : ومن الذى يقدم الخـــبز لهـــؤلاء الـــناس ؟ ! وأشـــار بـــيده إلى العاملين فى المحلات المجاورة. يقول صديقى : لقد صدمنى الرجل العجوز بإجابته الصارمة ، التى جعلتنى أنتقل إلى أفق آخر تماماً لم أكن أتوقعه . .

وفـــى المقـــابل من ذلك ، مثال آخر : حدثنى شاب طموح ، عمل لفـــترة فى البلاد العربية ، واستطاع أن يكون ثروة متواضعة ، اشترى بجزء منها ماكينة من الخارج لصنع البلاط . وميزة هذه الماكينة أنها لا تحـــتاج ســـوى عامل واحد فقط ، يضع فيها المونة اللازمة ، ويضبط أزرارهـــا علـــى الشـــكل المطلوب . وعندما بدأ يشغلها فوجئ بموظفى

التأميـــنات يداهمون المكان ، ويسألونه عن العمال ؟ قال لهم : لا يوجد عمـــال، وأنا لا أحتاج إلى أحد . فقالوا له : هذا مخالف . لابد أن يكون فـــى المصـــنع علـــى أقل تقدير ثلاثة عمال ، كما ينبغى أن تدفع عنهم التأميـــن المقـــرر . جلس الشاب متفكراً فى أجر العمال ومبالغ تأمينهم فوجـــد أن المســـألة تفوق إمكانياته فأسرع بإسكات الماكينة ، وإغلاق المكان ، وأراح نفسه من وجع الدماغ !

مـــن هنا ، فإننى أتمنى أن يخصص للمشروعات الصغيرة قانون خـــاص بهـــا ، يكـــون هدفه تنظيم آلية عملها ، مع إتاحة كل الفرص الممكنة لازدهارها ، دون أن نثقلها بالجهات المتعددة التى تتعامل معها، وبحيـــث تكـــون الضرائب المقررة عليها ذات طبيعة مختلفة تماماً عن الضـــرائب الـــتى تفرض على المشروعات الكبرى أو العملاقة . وإننى علـــى ثقة من أن الازدهار الاقتصادى فى أى مجتمع لا ينهض إلا على أمـــثال هذه المشروعات الصغيرة ، التى ينشئها فرد أو أسرة ، ويتربى فـــيها عـــادة أولئك المتميزون الذين يصبحون فيما بعد من كبار رجال الأعمـــال . . لكن أن يقتصر المجتمع فقط على تشجيع هؤلاء (الكبار) فهذا خطر ، لأن أى هزة أو سقوط لأحدهم يعتبر هزة اقتصادية للمجتمع كلـــه ، فى حين أن تشجيع القاعدة الاقتصادية المكونة من المشروعات الصغرى هو الذى يظل صمام الأمان ، لأنه يحقق معظم الاكتفاء الذاتى من ناحية ، ويقضى إلى حد كبير على ظاهرة البطالة من ناحية أخرى.

لســت أدرى مــا الــذى يجعل فكرة إصلاحية تستولى على كيان الإنســان فــتقلق راحته ، وتطير النوم من عينيه ، ويروح يتحدث بها وعــنها مــع الأصــدقاء والمتخصصين ، فيجمعون كلهم على صوابها وجدواها . . لكن ، لكنهم يقولون إن الظروف غير مواتية ، والعقبات قــد تكــون كثيرة ، وأصحاب القرار لا يتقبلون بسهولة أن يأخذوا عن المفكريــن ، لأنهــم يفضــلون دائمــاً أن يــتعاملوا فقط مع موظفيهم التقليديين.

والفكرة التى أطرحها هنا تتمثل فى إنشاء خط سكة حديد يبدأ من المغرب وأريتريا ويمتد عبر الجزائر وتونس وليبيا ومصر بينما يرتبط بخــط سكة حديد آخر يمتد من اليمن ومسقط عابراً السعودية ومتصلاً بالإمــارات وقطــر والبحريــن متجهاً إلى سوريا والأردن والعراق ثم الكويــت . وهــذا يعــنى أن هــذا الخط الذى يمكن أن يتم إنشاؤه على مرحلتيــن إحداهمــا فى الجزء الغربى من الوطن العربى ، والثانى فى الجــزء الشــرقى منه سوف يحمل قطاراً يسهل الوصول من وإلى هذه الــبلاد العربــية الممــتدة امتداداً جغرافياً واحداً ، والقادرة – كما نعلم جميعاً – على تحمل نفقاته المالية، والنهوض بمتطلباته التقنية .

لن تقتصر خدمات هذا القطار العربى فحسب على نقل المسافرين، وتقريــب المسافات ، وتواصل الثقافات ، والتقاء الأشقاء ، وإنما سوف

يعمل على دعم التبادل الاقتصادى من خلال نقل البضائع والسلع تمهيداً لإنشـــاء تـــرابط اقتصادى قوى بين مختلف البلدان العربية، لأن الوحدة الاقتصـــادية المنشودة ، والتى دعا إليها مراراً الرئيس مبارك ، لابد أن تقـــوم على أسس ملموسة ، وأهم هذه الأسس هو خط السكة الحديد ، الـــذى ربـــط فـــى الجانب المقابل لنا على البحر المتوسط معظم البلدان الأوربية من إنجلترا إلى تركيا . . إذن على غرار القطار الأوربى ينبغى أن يـــتم إنشـــاء القطار العربى ، الذى كان يستحق أن يربط بين البلاد العربـــية مـــنذ وقـــت طويل ، خاصة وأن أهلها يتحدثون لغة واحدة ، وتتشـــابه ثقافـــاتهم ، ويلتقى تاريخهم ومصيرهم ، ربما بخلاف البلاد الأوربـــية المتعددة الأعراق والمختلفة اللغات والثقافات . أى أن القطار الأوربـــى قـــد ربط بين مختلفين فى حين أن القطار العربى سوف يدعم شعوباً وحكومات هى بالفعل متقاربة ومتشابهة و (متصافية) .

وأســـتطيع أن أؤكـــد وألح فى التأكيد على أن الروابط السياسية والاقتصـــادية وحتى الثقافية إنما تدعمها بالضرورة بنية أساسية، ومن أهـــم عوامـــل هذه البنية: تمهيد وسائل الاتصال بين البلاد التى ترغب فـــيها. نفـــس الشئ يمكن أن ينطبق على الاتحاد الأفريقى الذى أسرع الأفارقـــة بإقامـــته قـــبل أن يقيموا شبكة مواصلات تربط بين بلادهم . يـــا سادة . . فى أوربا تمهدت فى البداية المواصلات ، ثم حدث كل شئ جميل بعد ذلك !

مترو الأنفاق

من أروع الإنجازات التى سوف تحسب لعهد مبارك ذلك المشروع الضــــخم ، الذى ترددت مصر طويلاً فى الأخذ به ، ولكنها صممت أخيراً على تنفيذه ، وافتتح له خطان ، سوف يتبعهما بإذن الله خطوط أخرى ، حتى تصبح القاهرة بالفعل عاصمة العالم العربى ، ليس فقط بعراقتها ، وإنمـــا أيضـــاً بروح الحداثة التى تقدم عليها بكل شجاعة ، فتسبق بها الآخرين .

عشـــت فى الغرب طويلاً ، وكنت (أحسد) أهل العواصم فيه على المترو الذى يقرب البعيد ، وينظم المواعيد ، ويساعد على حركة العمل والإنـــتاج على المزيد والمزيد . . فى باريس مثلاً ، لا يمكن أن يتعلل موظـــف بتأخر المواصلات ، كما لا يمكن لصديق أن يعتذر عن إخلاف موعـــده بحجة المواصلات ، لأن المترو يسير بانتظام وبدقة متناهية ، كانت تغيظنى أحياناً !

أى والله . . أذكر أننى كنت أسكن منطقة قريبة من باريس ، مثل المعادى بالنسبة للقاهرة . وكان المترو يقطعها فى (11 دقيقة ونصف)، وكنت أنتظره على المحطة للذهاب يومياً إلى جامعة السوربون ،وعينى فـــى كـــل مـــرة على الساعة الكبيرة المعلقة بالمحطة . وعندما يقترب عقـــرب الـــثوانى مـــن الدقيقة المحددة تظهر مقدمة المترو من الطرف

الآخر للمحطة – أحياناً كنت أتمنى أن يتأخر قليلاً ، لعدة دقائق أو حتى لدقيقة واحدة . . لكنه لم يفعلها أبداً !

وفـــى جامعـــة القاهرة ، كان الأساتذة والموظفون والطلاب الذين يســـكنون فـــى شـــبرا الخيمة مثلاً يضطرون لأخذ مواصلتين أو ثلاث مواصلات إلى منازلهم ، ويقتضى ذلك منهم ساعتين ذهاباً ، وساعتين عـــودة . . الآن أصـــبح كل من الذهاب والعودة فى المترو لا يزيد عن (35 دقـــيقة) . وأجمـــل من ذلك أنك تراهم قادمين إلى العمل والدراسة بالجامعة وهم فى حالة جسدية وذهنية جيدة جداً !

أتمـــنى أن يستمر مترو الأنفاق فى النمو والتمدد والانتشار حتى يعـــم أجـــزاء القاهـــرة الكـــبرى ، ثـــم يتم تنفيذه فى المدن الرئيسية كالإســـكندرية وطـــنطا والمنصورة وأسيوط . . وأؤكد أن التكلفة مهما كانـــت باهظـــة – بأسعار اليوم ، فإن العائد منها سوف يكون مضاعفاً بأســـعار الغـــد . هذا إذا حسبنا المسألة بمقياس الأرباح ، أما إذا نظرنا إلـــيها فـــى إطـــار حضـــارى ، فإن المترو يقوم دائماً بفعل السحر فى الارتقاء بسلوك المواطنين ، وتحديث الإدارة ، وكفاءة الإنتاج ، وتدعيم أواصر الانتماء، والانطلاق نحو مجالات أخرى أكثر تقدماً وازدهاراً.

معهد للتحاور الدولى

يســعدنى أن أتقــدم مــن هنا باقتراح إنشاء معهد جديد ، تكون (مهمــته التعليمــية) تــزويد الطــلاب ، الذين يتم اختيارهم من حملة الشــهادات الجامعــية ومــتفوقى الثانوية العامة ، بمجموعة المعارف والمهارات اللازمة للدخول فى حوار مع الآخرين ، وذلك بالاعتماد على حســن الإصــغاء ، وفهــم وتفهم وجهات النظر المخالفة ، والرد على الأسئلة والاستفسارات فى الوقت المطلوب وبالطريقة المناسبة ، وعدم رفــع الصــوت أو التشويح بالأيدى ، أو الانسحاب من الجلسات عندما يواجــه المحــاور المصــرى بمعارضة لرأيه أو استخفاف به ، بل أن المعهــد يمكن أن يزوده بالأسلوب الأمثل لمواجهة الشخص العدوانى ، أو المستفز !

أمــا (مهمــة المعهــد البحثية والحضارية) فتتمثل فى الاستعانة بالخــبرات المحلــية والأجنبــية ، ودراســة المناهج وإجراء البحوث والدراســات ، وعقــد نــدوات الحوار التى يجرى فيها تدريب الجانب المصــرى على الحوار الفعلى من أجل تحقيق المصلحة العليا لمصر ، والتعامل على قدم المساواة مع المحاور الأجنبى.

لمــاذا أدعو إلى إنشاء هذا المعهد ؟ أولاً : لأن الأوضاع العالمية أصبحت تتطلب أشخاصاً يكونون مؤهلين على مستوى رفيع للدخول فى مفاوضات ، وعقد صفقات ، والاشتراك فى صياغة معاهدات ، وتحرير اتفاقــيات فــى ظــل نظام عالمى لم تعد فيه أى دولة تستطيع التواجد بمفــردها ، أو التقوقع داخل حدودها . وبالطبع لا حدود لعلاقات مصر

مــع ســائر دول العالم فى مختلف المجالات : السياسية والاقتصادية ، والعسكرية والفنية ، والاجتماعية والثقافية .

ثانــياً : لأن الذيــن يقومون بهذا العمل حالياً عبارة عن كفاءات شخصــية علمت نفسها بنفسها ، أو وضعت فى ظروف معينة ساعدتها علــى حســن التصرف والإجادة ، ولكن الأجيال الصاعدة لم تتوافر لها نفــس القدرات والامكانيات ، لذلك لابد أن يتم تعليم وتدريب جيل جديد من المحاورين الذين يدرسون إلى جانب اللغات الأجنبية الاقتصاد وعلم الــنفس و اجتماعــيات الشعوب ، وأن يكونوا على إلمام كاف بقضايا مجتمعهم ، وبأحوال العالم المعاصر .

ثالثاً : لأن الدراسة فى الجامعات لا يوجد بها حتى الآن ، وحسب معلومــاتى ، مثل هذا التخصص النادر الذى تتطلبه الظروف الحالية ، والذى سوف نظل محتاجين إليه لفترة طويلة قادمة .

رابعاً : أن الذين يظهرون فى وسائل الإعلام لا يبدو أنهم يجيدون فــن التحاور، بل كثيراً ما نجدهم يتهاوشون ويتناشون حتى يصل بهم الأمــر إلــى التشويش على أنفسهم وعلى المشاهد ، الأمر الذى ينبغى إيقافــه من خلال إنشاء معهد ، يمكن أن يتلقى فيه أمثال هؤلاء (آداب البحــث والمــناظرة) وهــذا هو عنوان علم قديم كان علماؤنا الأفاضل يستخدمونه عند الحوار العلمى فيما بينهم .

وتبقى أخيراً تبعية هذا المعهد المقترح لجهة ما . . وطبعاً لابد أن تكون جهة محترمة تليق بمكانته . فمن الذى يقبل الاقتراح ؟ ومن الذى يا ترى يتبنى تنفيذه ؟

ألف باء التحديث

جلسنا كالعادة نشرب الشاى ، والقهوة ، والنعناع ، ونتحادث فى أمور الوطن وأحوالنا الحاضرة . وجرى الحديث وتشعب حتى وصل إلى موضـــوع تحديث مصر . قال أحدنا : التحديث مشروع مهم جداً . وقد بـــدأه محمد على ، ونجح فيه إلى حد كبير، لكنه أهمل أموراً أساسية . فقـــد اهتم بالجوانب المادية وأهمها تحديث الجيش المصرى ، ولم يهتم كثـــيراً بتحديث المجتمع المصرى. والدليل على ذلك أن المدارس كانت كلهـــا موجهـــة لخدمة الجيش فقط ، وكذلك المستشفيات . والواقع أن نصـــف القـــرن الـــذى حكم فيه محمد على يمكن أن نطلق عليه تحديث الجيش المصرى ، وليس تحديث المجتمع المصرى . عقب الثانى قائلاً: لكننى أرى أن تحديث الجيش هو المدخل الضرورى لتحديث المجتمع . لأن الجيش القوى المتطور هو الذى يحمى مكاسب الشعب ، ويدفع عنه عـــدوان الغـــزاة الطامعيـــن فـــيه . ولذلك فإن الرجل فى رأيى بدأ فعلاً بالخطوة الأولى . وقال الثالث : أنا اتفق معك تماماً فى ذلك . والمشكلة إنما جاءت من أبناء محمد على وأحفاده الذين لم يواصلوا مسيرة جدهم الكبـــير ، صـــحيح أن إســـماعيل باشا كان لديه تصور حضارى متقدم للمجـــتمع المصـــرى على غرار النموذج الفرنسى ، لكنه لم يتمكن من تطبـــيقه بالكامل ، وما لبثت القوى الخارجية أن تدخلت فى أمور مصر فعرقلت مشروعاته، بعد أن كبلته بالديون وفوائدها الثقيلة ، قال الرابع: ولا تنسوا يا جماعة أن وقوع مصر فى براثن الاحتلال الإنجليزى الذى استمر من 1882 حتى 1952 قد فرمل عجلة التقدم ، التى كان الشعب

المصـــرى يسعى بكل جهد ممكن لانطلاقها . وهنا قال الخامس : المهم الآن يــا سادة هو منهج التحديث وآلياته فى مطلع الألفية الثالثة ، فقد رحــل الاســتعمار ، وتحــررت الإرادة المصرية من سيطرة الأجانب ، وتــأكدت لمصر مكانتها الإقليمية ، وأصبحت لها سمعتها العالمية . كما أنها قد استكملت بنيتها الأساسية ، ولم يبق أمامها سوى أن تخطو تلك الخطوة المنشودة على طريق التحديث . سأل الأول : وما هى فى رأيكم تلك الخطوة ؟ قال الثانى على الفور : التعليم العصرى الذى يملأ عقول التلامــيذ بالمعلومات، ويحرك أيديهم بالمهارات ، ويضعهم على طريق الكفاءة ، كما يدفعهم إلى الابتكار والإبداع . وقال الثالث : فى رأيى أن الإدارة هى نقطة البدء الحقيقية ، فهى التى تدفع عجلة الإنتاج بالسرعة اللازمـــة ، مزيلة من أمامه كل العوائق ، وموجهة له إلى آفاق واسعة فـــى الداخــل والخارج . أما الرابع فقال : لكن ينبغى ألا تنسوا احترام قيمة الوقت ، ومزايا الإتقان . وقد ورد فى ثقافتنا العربية أن الوقت من ذهـــب كما أنه كالسيف . إن لم تقطعه قطعك . ونحن نشاهد الكثير من الأوقات المهدرة فيما لا ينفع، كما أن الإتقان غائب مع الأسف فى كثير مـــن المجــالات ، لذلــك ينبغى أن توضع القوانين لمحاسبة من يهدر الوقت، أو يتسبب فى الإخلال بالإتقان فى العمل . وعاد الخامس يقول : وقــبل ذلك كله وبعده ، لابد من إيقاظ ضمائر الناس ، لكى يعملوا من أجــل الصــالح العــام كما يعملون لصالحهم الخاص . وفى تقديرى أن الهدفيـــن لا يتعارضان. فالإنسان الذى يراعى مشاعر أسرته لن يضيره فـــى شئ أن يراعى مشاعر الغرباء . والذى يحرص على نظافة منزله يمكـــنه أن يســاهم فى نظافة الحى الذى ينتمى إليه . والذى يعنف ابنه على شرب السجائر عليه أن يبدأ أولاً بنفسه !

فن السباكة

مـــاذا أقــول عن المعمار المصرى الذى يرجع تاريخه إلى آلاف السنين ، وتشهد بروعته ودقته تلك الآثار الشامخة التى ما زالت تقوم أمامنا ، وأمام العالم كله ، شاهدة على كفاءة المهندس المصرى القديم، ودقـــة الصـــانع المصـــرى القديـــم ؟ لا شئ يقال أكثر من أن التصميم الهندســـى قـــد تم وضعه على أكمل وجه ، وأن التنفيذ قد اكتمل إنجازه بمنـــتهى المهـــارة ، فلا نكاد نجد عيباً هنا ، أو نقصاً هناك ، بل على العكس كل ما نراه يدفعنا إلى الانحناء إعجاباً وتقديراً لأجدادنا العظام .

لماذا إذن أقف أمام العمارات الحديثة فتقع عينى أول ما تقع على مواسير الصرف الصحى التى تطل منها كئيبة المنظر ، ملفوفة بالصدأ ، وحولهـــا علـــى الجدران بقع سرطانية تؤذن بالخراب وتشير إلى قرب الانهـــيار ؟ إنـــنى لا أجد فى هذا المنظر إلا تخطيطاً هندسياً ، غاية فى الســـوء وقلة الذوق ، وخاصة حين تطل مواسير الصرف الصحى على الشـــوارع ، وتكـــون على مرأى من عيون المارة . أما تنفيذها فتقف وراءه ضـــمائر خربة ، وسواعد غير مدربة ، ومن المؤكد أنها لم تعط للمكـــان حقـــه مـــن العمل والأدوات اللازمة لاستمراره سليماً معافى . المسئولية إذن تتوزع بين المهندس والمقاول والسباك ، وقبلهم بالطبع صاحب العمارة الذى لا ينظر إلا تحت قدميه ، ولا يكلف نفسه أن يشاهد

عمارتـــه وقـــد امتلأت بلطخات الصرف الصحى ، وقامت بين المساكن كياناً مشوه الملامح ، ممسوخ التكوين .

إننى أتساءل : لماذا السباكة لدينا متدنية إلى هذا الحد ؟ هل لأننا أهملـــنا دراسة أصولها ، والتدريب على أعمالها ، وتطوير أدواتها ؟ أم هل لأننا لم نهيئ الفرصة للعاملين فيها بزيارة الدول المتقدمة ليتعرفوا على تجاربها فى هذا الفن الهام ، الذى لا تكتمل بدونه العمارة الحديثة؟ أم هل لأننا نظرنا إلى مهنة السباك وما زلنا ننظر إليها نظرة استعلاء ، حـــتى فاجأنا صاحبها بأهميته ، عندما راح يطلب منا مبالغ طائلة لقاء إصــــلاح حنفية ، أو تسليك ماسورة ؟ أم هل لأننا لم ننشئ لها تخصصاً جامعياً مثل باقى التخصصات الأقل أهمية فى حياتنا اليومية ؟

فـــى رأيـــى أن هـــذا كلـــه قد حدث . وهو السبب وراء الضعف الواضح فى هذه المهنة ، التى ينبغى أن يعاد النظر إليها باعتبارها فناً مكملاً لباقى فنون العمارة ، والتى تقف وراء التشوهات التى تحدث فى المبنى قبل أن ينقضى عام أو عامان على إنشائه . والذى يدهشنى بحق هـــو أمـــر المهندسين ، الذين يصممون أو يشرفون على التنفيذ ، ولا يـــبدو علـــيهم أنهم مستاءون لرؤية عملهم وهو يشوّه بهذه الصورة . وأقـــول لنفســـى : أيـــن هذا من عمل أجدادنا الفراعنة الذين تركوا لنا آثارهم الرائعة بدون أدنى عيب أو تشويه ؟ !

جامعة للتميز العلمى

أعـتقد أنه لا يكاد ينكر أحد أن جامعاتنا قد لعبت دوراً كبيراً فى مجال التنمـية البشرية ، التى قامت على أكتافها نهضة مصر فى العصر الحديث . وأن التوسـع فـيها يسـتجيب بحـق لمطلب شعبى جارف ، لا ينبغى على الإطـلاق أن نحـد منه أو نقف فى سبيله . لكننا فى المقابل لابد أن نعترف بـأن الجامعـات المصرية تعانى من ازدحام هائل بالطلاب ، قد لا تواكبه فى نفـس الوقـت أعـداد كافـية مـن هيئة التدريس أو الإمكانيات التعليمية ، وبالـتالى فإن مستوى الخريجين لا يحقق ما يتمناه الحريصون على الجودة المنشـودة ، كمـا أنه لا يتماشى مع المستوى العالمى وخاصة فى جامعات الـدول المـتقدمة . ومـن هنا شاع القول بأن الشهادة الجامعية قد أصبحت عـبارة عـن (شهادة اجتماعية) أى أنها تؤهل الشاب إلى التقدم إلى خطبة فـتاة جامعـية أو غير جامعية وهو رافع الرأس ، حتى وإن لم يحصل على وظيفة فى المجال الذى تخصص فيه !

لكـن هـذه الأحكام العامة لا تنطبق بالتأكيد على عدد لا بأس به من الشـباب الجـامعى ، الذى يحب الكلية التى التحق بها ، ويعشق التخصص الـذى كرس له جهده خلال أربع أو خمس سنوات ثم حصل فى النهاية على تقديـر مـتقدم ، يؤهلـه عادة لمواصلة الدراسات العليا ، وإجراء البحوث المتعمقة من أجل التوصل إلى حلول محددة لبعض مشكلات المجتمع .

ولا شـك أن هـذا العدد المحدود هو الذى ينبغى أن يتجه إليه اهتمام الـدول ، لأنـه يمثل (الخميرة العلمية أو البحثية) التى يتكون منها فيما بعد كـبار العلمـاء والباحثيـن . ومـن المقرر أن رصيد أى دولة من العلماء الباحثيـن هـو الذى يمكنها من أن تصمد فى المنافسة مع باقى الدول ، كما يفتح أمامها آفاقاً واسعة من التقدم والازدهار .

مــن هــنا فإن فكرة إنشاء جامعة للتميز العلمى ينبغى أن تطرح من جديد ، وأن يشترك فى مناقشتها كل ذوى الشأن ، والحريصون على تحديث مصر ، ووضع أساس مكين لمستقبلها .

وتصــورى المتواضــع لهــذه الجامعــة يتمثل فى عدم الإسراف فى منشــآتها ، وإنما يتم التركيز فقط على توفير تجهيزاتها العلمية المتقدمة ، واختــيار أفضــل الكفــاءات التدريســية لها ، ثم وضع نظام دقيق لالتحاق الطــلاب، الراغبيــن من الجامعات المصرية فى البحث العلمى (فعلاً) إليها . وهــنا لا يــنفع تهاون أو تفيد واسطة . وإنما يكون معيار الكفاءة والأهلية والقدرة على المواظبة والاستمرار هو المعيار السائد والمحترم من الجميع. أمــا الجانب الإدارى فلا يقل عن الجانب الأكاديمى أهمية ، وليس بمستحيل علــى مصــر أن تقتــبس أى نظام إدارى فى أى جامعة من جامعات أوربا وأمريكا ، ثم تقوم بتطبيقه دون خلل أو تسيب !

إنــنى على ثقة من أن هذا العمل – إذا ما تم بهذا التصور البسيط – يمكــنه أن يقدم للوطن بعد أربعة أو خمسة أعوام عدداً من الخريجين الذين لا يقلــون فى شئ عن أمثالهم فى الدول المتقدمة ، كذلك فإنه سيعيد تجديد الــدم فى قلب الجامعات المصرية ، ويدفع بقوة حركة البحث العلمى خطوات واسعة إلى الأمام .

بقــى أن أشــير إلــى أن مــثل هذه الجامعة لا ينبغى أن تبدأ مكتملة الكلــيات والأقسام ، بل يمكن أن تبدأ ببعض الكليات ذات الأهمية الأولى فى احتياجاتنا ، أو حتى ببعض الأقسام العلمية ، ولا عيب أبداً من أن تبدأ العمل فــى شــقة ، أو دور من مبنى حتى لا تبتلع المنشآت الضخمة ما يمكن أن يخصص لها من تمويل.

إنقاذ جامعة الدول العربية

بعـــد كل ما حدث ، أظن أنـه لم يعد هناك أحد يمكنه الآن أن يدافع بحماسة عن وجود جامعة الدول العربية ، التى أطلقنا عليها – تبركاً – بيـــت العرب ، أى المكان الذى يلجأون إليه لطرح مشكلاتهم ، والبحث عـــن حلـــول لها ، والعمل على تنفيذها ، من خلال التعاون والتضامن الـــذى يفرضـــه تـــاريخهم المشترك ، وواقعهم المتشابه ، ومستقبلهم الواحد . . وقد سبق أن كتبت محذراً عن تساقط شرفات ونوافذ الجامعة العربـــية فى مناسبات عديدة ، ثم ها هى تتعرض لسقوط البناء نفسه ، وينبغى ألا يحمل حديثى هنا على محمل الشماتة أو التشفى ، لأننى فى الواقع كنت من أشد المتحمسين لهذه البناية الرائعة فى حياتنا العربية ، والتى كان من الممكن أن تقوم بأدوار متنوعة فى طريق الوحدة العربية المنشـــودة ، تلك الوحدة التى لا تعنى إزالة الحدود بين الدول العربية ، وإنمـــا تخفيف القيود على انتقال المواطنين من إحداها إلى الأخرى . . كان يمكن لجامعة الدول العربية أن تقيم سوقاً عربية مشتركة كما دعا إلى ذلك مراراً الرئيس مبارك ، ولو حدث هذا لكنا قد أصبحنا فى موقف جـــيد عـــند التفاوض مع دول الاتحاد الأوربى فى مسألة الشراكة التى تســـعى كـــل دولة عربية على حدة أن تدخل فيها بشروط ليست عادلة تمامـــاً ، بل لكان لنا موقف آخر إزاء ما يحدث ضد الأمة العربية كلها فى الوقت الحاضر .

أمـــا الآن ، فدعونـــا لا نبكى على اللبن المسكوب ، ونحاول أن نحـــتفظ بالقطرات المتبقية منه فى الكوب ، ومن يدرى فلعل وعسى أن تكـــون الفكرة التى أطرحها اليوم على جامعة الدول العربية بداية عمل جـــاد ومـــثمر ، بـــدلاً مـــن وقوفها جرداء كئيبة فى الصحراء العربية القاحلة ! !

أدعـــو بكـــل وضوح إلى تحويل كل أنشطة الجامعة العربية إلى المجـــال التعليمى، بدءاً من دور الحضانة ، والمرحلة الابتدائية ، حتى المـــراحل الجامعـــية المتقدمة . وهذا معناه أن تحاول هذه الجامعة أن تصـــل إلى نظام تعليمى فعال ، يتم الاستفادة فى بنائه من تجارب الدول المـــتقدمة ، ويخلو من نظريات النصابين الذين يدعون المعرفة بأصول التربية وهم فارغون منها ، ثم يجرى بعد ذلك تعميمه فى مختلف الدول العربـــية . ولكـــى يكـــون البناء الجديد صحيحاً لا ينبغى التسرع فيه ، وحسبنا أن نركز فى البداية على المراحل الأولى من التعليم ، ثم نتدرج خطوة خطوة حتى نصل إلى مرحلة الليسانس أو البكالوريوس ، انتهاء بالماجســـتير والدكـــتوراه . . وبذلك نضمن تكوين أجيال قادمة ، يكون بيـــنها أســـاس معرفى وتربوى مشترك ، يجمعهم على الخير، ويوحد بينهم فى مواجهة التحديات .

يا جامعة الدول العربية ، أرجو أن (تلحقى نفسك) بهذا المشروع قبل فوات الأوان !

أوقاف أم شئون دينية

لا أدرى حتى الآن لماذا لم تفكر (وزارة الأوقاف) عندنا فى تغيير اسمها ليصبح (وزارة الشئون الدينية) على أساس أن مهمتها الأساسية هـى إعـداد الدعاة ومتابعة عملهم ، وتقييم أدائهم ، وصرف مرتباتهم وحوافـزهم . أما مسألة الأوقاف فهى عملية تجارية ذات بعد دينى ، لم يعـد واضـحاً بصـورة كافية ، وخاصة بعد أن أنشئت وزارة بكاملها مهمـتها الرعاية الاجتماعية وهى وزارة الشئون الاجتماعية . لقد مر وقت طويل ولدينا وزارة الأوقاف وهى الأملاك التى يخصصها أصحابها فـى حـياتهم لأعمـال الخـير الـتى تجرى بعد وفاتهم على الفقراء والمساكين. والواقع أن هذا العمل الخيرى ، الذى له جزاء دينى كبير ، من اختصاص وزارة الشئون الاجتماعية ، أو ينبغى أن يكون كذلك أما أن نـرهق وزارة الشـئون الدينية ، ذات المهام التثقيفية بأمور متابعة الأراضـى والمحلات الموقوفة ، وكيفية استثمارها ، وجمع إيجاراتها ، وتخصـيص عوائدها فهذا ما لم يعد مقبولاً ولا معقولاً . بل إننى أذهب أبعـد مـن ذلـك لأضم إلى الإشراف على الأوقاف وزارات أخرى مثل وزارة الاقتصـاد ، ووزارة الحكـم المحلـى ، وحبذا لو أصبحت هناك مؤسسـة تحمـل اسم (مؤسسة الأوقاف الخيرية) وتنفصل بالتالى عن وزارة الشئون الدينية التى – كما سبق القول – مهمتها الأساسية نشر

التوعية الدينية الصحيحة فى المساجد وفى وسائل الإعلام ، إلى جانب الـــرد علـــى الشـــبهات التى توجه ضد الدين من خصومه الملحدين أو الحاقديـــن . إننا بهذا التشكيل الجديد سوف نعطى دفعة كبيرة للتوعية الدينية التى وصلت فى العصر الحاضر – ومنذ ثلاثين سنة تقريباً – إلى حالـــة مـــن الـــتدنى والعشوائية غير مسبوقة . فهناك الدعاة الذين لا يصلون إلى قلوب الناس . وهناك الدعاة الذين يتحدثون بلغة عفا عليها الزمـــن. وهناك الدعاة الذين يخطئون فى قراءة القرآن الكريم . وهناك الدعـــاة الذين لا يتحققون من صحة الأحاديث النبوية التى يذكرونها . وهناك الدعاة الذين يصرخون فى الميكرفونات ، بينما حديثهم خال من أى مضمون إيجابى . وهناك الدعاة الذين لا يعيشون قضايا مجتمعهم ، ولا مشكلات عصرهم ومن المعروف أن مستوى هؤلاء الدعاة هو الذى أخرج وما وزال يخرج دعاة غير مؤهلين ، ما لبثوا أن استولى بعضهم علـــى قلوب الناس ، وصاروا نجوماً فى مجال الدعوة ، ويعلم الله أنهم يلحنون فى اللغة العربية ، فكيف يفقهون ما نزل بها فى القرآن الكريم والسنة النبوية؟

إنـــنى أعلـــم أن اقتراحى هذا سوف يغضب القائمين على شئون الأوقاف ، والمسئولين عن (أموالها) ، لكننى أهدف إلى خدمة المجتمع بالفصل بين وظيفتين متداخلتين بدون داع إحداهما عن الأخرى . وعلى الله قصد السبيل .

مقرر الأمثال الشعبية

أقترح على وزارة التربية والتعليم أن تخصص مقرراً للأمثال الشعبية المصـــرية، وهـــى تلـــك العبارات المختصرة والمسجوعة ، التى استخلصها حكمـــاء الشعب المصرى من تجاربه خلال القرون الطويلة التى عاشها على ضـــفاف النـــيل ، وهو يبنى حضارته الرائعة ، أو يتعرض لحكم الغزاة، أو يعـــانى مـــن مشـــكلات الحـــياة ، أو يتأمل دوران العصور ، واختلاف الليل والنهار.

هـــذه الأمثال التى تتجاوز الألف وثلاثمائة مثل يمكن اختيار عدد منها يغطـــى مخـــتلف جوانـــب الحياة . وميزة هذه الأمثال أنها نابعة من ضمير الشـــعب ، ومـــا زالـــت دائرة على لسانه . يعرفها الكبار ، ولابد أن يتعلمها الصـــغار . إنهـــا سوف تقدم لهم ببساطة نظرة آبائهم للأمور ، وتكشف لهم صـــدق الكثير منها . ومن الواضح أننا لا نعرف بالضبط من قال هذه الأمثال أو مـــن صـــاغها ، لكننا نعرف بالتأكيد ما تهدف إليه ، والطريق الذى تدلنا عليه.

إنـــنا حيـــن نعلـــم أبنائنا هذه الأمثال فإننا نربطهم أولاً بتراث الشعب المصـــرى الأصـــيل ، وثانـــياً نختصر لهم طريق المعرفة ، فنقدم خلاصتها المركـــزة لهم ، حتى إذا خرجوا للحياة طبقوها فوجدوها صائبة . فإذا أردنا أن نـــتقدم خطـــوة إلى الأمام قمنا بمقارنة الأمثال المصرية بأمثال الشعوب الأخـــرى . وفـــى هـــذا العمل من المتعة الثقافية والفائدة ما يجعل التلاميذ ينفـــتحون علـــى مخـــتلف الـــتجارب الأخرى ، ويستقبلون تراث العالم وهم متســـلحون بـــتجربة مجتمعهم الغنية . وفيما يلى باقة من الأمثال المصرية الأصيلة :

- ابن آدم ما يملاش عينه إلا التراب .
- ابن يومين ما يعيش تلاته .
- صاحب بالين كداب .
- اقعد أعوج واتكلم عدل .
- اللى من نصيبك يصيبك .
- اللى يخاف من العفريت يطلع له.
- اللى يعمل ضهره قنطرة يستحمل الدوس .
- اللى يعيش يا ما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر.
- إن غاب القط العب يا فار.
- إن مال عليك الزمان ميل على دراعك .
- توب الغير ما يدفّى
- جه يكحلها عماها .
- جبال الكحل تفنيها المراود ،

  وكتر المال تفنيه السنين .
- جحر ديب . . يساع ميت حبيب .
- الجوع كافر .
- حاميها حراميها .
- حرس من صاحبك ، ولا تخوّنه .
- حمارتك العرجا ولا سؤال اللئيم.
- مال الكنزى للنزهى !

اتحاد للكتاب العرب

فـــى مقـــابل اتحـــاد الناشرين العرب ينبغى أن ينشأ اتحاد للكتاب العـــرب . والســـبب ببســـاطة أن الناشرين قد وحدوا جهودهم وعملوا لأنفســـهم منظمة تدافع عن حقوقهم ، وتطالب لهم بحقوق أخرى . أما الكـــتاب المســـاكين فمـــا زالوا مبعثرين لا يجدون مَنْ يدافع عنهم ، أو يحمـــى حقوقهم . وعندما تقابل واحداً منهم تجده يشكو لك بدم القلب، قـــبل دمـــع العيـــن من أن الناشر يأكل حقوقه ، ولا يعطيه منها ، بعد المطالبة وإراقة ماء الوجه ، سوى فتات الفتات ، متعللاً بأن نسخ كتابه لـــم توزع ، وأنها ما زالت مكدسة فى المخازن ، وهى بهذا تكلفه حفظاً وتخزيـــناً وحراسة ، وبالتالى فعلى الكاتب أن يسكت عن المطالبة ، بل إن عليه أن يرثى للناشر الذى يتحمل الكثير ! والواقع أن علاقة الناشر بالكاتـــب تشـــبه علاقـــة الذئب بالحمل الوديع . فهو يتغذى على لحمه ودمـــه، بـــل إنه يمصمص عظامه . والدليل على ذلك أنك لا تجد مؤلفاً وصلت ثروته إلى عدة آلاف بينما ترى معظم الناشرين قد جمعوا مئات الآلاف بـــل إن بعضهم قد أصبحوا مليونيرات . وبالطبع لا نشاهد هذه اللوحة الكئيبة إلا فى الوطن العربى ، حيث يخفى الناشر العدد الحقيقى للنسخ التى يطبعها ، كما يتستر على مبيعاته ولا يطلع عليها المؤلف ، وهكـــذا فـــإن الشفافية فى هذا المجال معدومة ، وكثيراً ما يعتمد جشع الناشـــرين على حياء المؤلفين فلا يعطونهم شيئاً على الإطلاق . . أما

فــى الغرب ، الذى لا تشرق فيه الشمس كثيراً ، فإن دور النشر عبارة عــن مؤسســات محــترمة ، لهــا قوانينها وسمعتها واستمرارها . . وبعضــها تجــاوز القرنين والثلاثة ، وما زال مستمراً فى مكانه ، و لا يمكن أن يتم خداع مؤلف، أو أكل حقوقه ، أو عدم إعطائه أقساطه التى يستحقها فى موعدها تماماً . . لأن الناس يعرفون أن الكاتب يعيش من قلمــه ، وأنــه إذا لــم يحصل على أجره من عمله مات جوعاً . . لكن الناشــرين العــرب يظلــون يــراوغون المؤلف ، ويسودون فى وجهه الحــياة، حتى إذا مات انقضوا على مؤلفاته فراحوا يطبعونها بالآلاف ، ويجلدونهــا أفخر تجليد ، ويقسمونها إلى مجالات ، ويعلنون عنها فى الصحف والتليفزيون . . وما ذلك إلا لأن عائد هذه العملية كلها ستكون مــن نصيبهم وحدهم . وإذا ظهر للمؤلف بعض الورثة أسكتوهم ببعض اللقــيمات . . لهــذا كلــه ، أطالب بإنشاء اتحاد للكتاب العرب تنحصر مهمته الأساسية فى الأخذ بحقوقهم من الناشرين العرب !

وســوف أكشــف هــنا عــن حيلة للناشرين ، حدثنى عنها أحد العارفيــن ببواطــن أمورهــم . قال لى : إن الناشر يتفق فى العقد مع المؤلف أنه سيطبع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة ، بينما يطبع فى الواقع خمســة أو ســبعة أو عشــرة آلاف . ويظل يبيع منها على مدى عدة شــهور أو سنوات ، وعندما يطالبه المؤلف بجزء من حقه يقول له إن الكمــية المطــبوعة (ويقصد الثلاثة آلاف) ما زالت مكدسة بالمخازن . عندئذ يطاطئ المؤلف رأسه خجلاً ويأساً ، وحزناً من عدم إقبال القراء على شراء كتابه . . جزى الله الناشرين عن المؤلفين شر الجزاء ! !

ازدواج الجنسية

قــال لــى صــاحبى منفعلاً : كيف يسمح لمزدوجى الجنسية أن يصبحوا نواباً فى مجلس الشعب ، أو وزراء فى الحكومة ؟ وهل يمكن أن يــتجرد هــؤلاء من ولائهم للدول التى يحملون جنسياتها ويخلصوا لوطنهم الأم ؟ وما هو المعيار الذى يجعلنا نحكم عليهم بصدق الانتماء لمصــر ، وتغليب مصلحتها على أى مصلحة أخرى ؟ وماذا يفعلون إذا عرضــت اتفاقــية أو حدثت خصومة بين مصر والدولة التى ينتسبون إلــيها، فــإلى أى جانــب ينحازون ؟ وأخيراً فهل نقص عدد المصريين الكاملى الولاء حتى نسمح لمزدوجى الجنسية بالتصدى لكل من السلطة التشريعية والتنفيذية ؟

قلت له : أرى أنك متحامل على تلك الشريحة التى لم تعد – فيما يبدو – قليلة العدد فى المجتمع ، وإذا نظرت معى إلى المسألة بقدر من الموضــوعية وجــدت أن الذيــن يحملــون جنسية أخرى مع الجنسية المصرية قد تعددت أسبابهم فى ذلك . فمنهم من أتيح له فرصة الإقامة والعمل لعدة سنوات محددة فى البلد الأجنبى ، والقانون هناك يسمح له بحملهــا . ومنهم من ولد على أرض أجنبية والقانون هناك يمنحه حق الجنسية ، ومنهم من تزوج أجنبية فانتقل إليه حق جنسيتها ، لكن ذلك كلــه لا يلغى تماماً ولاءه لبلده الأصلى ، ولا يمحو جذوره المصرية . وإذا شــئت رجعــت معك إلى تاريخنا الذى يؤكد أن العرب تزوجوا من الفــرس والهــنود والأتــراك والزنوج ونتجت عن هذه الزيجات أجيال ممتزجة الدماء ، وليس فقط الجنسيات ، لكن المجتمع العربى نجح فى

صـــهرهم داخـــل بوتقته ، وأحسن معاملتهم ، حتى برز منهم أعلام فى شـــتى المجالات العسكرية والاقتصادية والعلمية ، بل أن بعض الخلفاء المتميزين ، كالمأمون مثلاً ، كانوا كذلك : من أب عربى وأم فارسية .

وهـــنا اعـــترض صـــاحبى : لكن هل تنكر أنه كان هناك ميل من الخلفـــاء نحو الشعوب التى ينتسبون إليها من جهة أمهاتهم ؟ والدليل على ذلك زيادة النفوذ الفارسى فى عهد المأمون نفسه !

والواقع أننى لم أجد ما أرد به عليه ، سوى أن العصر قد تغير ، وأن الجنســـية المزدوجة ليست أكثر من أوراق يحملها الإنسان معه ، وجـــواز ســـفر يمكنه أن يسافر به من بلد إلى أخرى ، ومع ذلك يبقى صـــحيحاً أن مـــزدوج الجنســـية إذا كانـــت مصر قد أعطته كل حقوق المواطـــنة ، ولـــم ينتزع منه الدستور شيئاً من حقوقه – مع أن هناك بـــلاداً عربية مجاورة تمنع ذلك تماماً – فإن عليه " واجباً أدبياً " ينبغى أن يقـــوم به ، وهو ألا (يحرج) المجتمع من خلال إقدامه على تولى عمل عام ، وخاصة إذا كان تشريعياً أو تنفيذياً ، لكى يبعد عن نفسه أى شبهة تتعلق بولائه للوطن الأم ، لأن أقسى ما يواجهه المجتمع أن يجد الدولـــة الأخرى التى ينتسب إليها هذا الشخص تتدخل لحمايته ، عندما يقع فى خطأ ، أو يرتكب جريمة !

أما الحجة التى أسكتتنى فيها صاحبى تماماً ، فهى حصول عدد من الشـــباب المصرى على الجنسية الإسرائيلية ، نتيجة الزيجات التى يعلم الله وحده مدى خطورتها على الأمن القومى .

استراحة الطرق السريعة

علـــى الطـــرق الســـريعة ، التى تحسن مستواها كثيراً فى الفترة الحالـــية ، أصـــبح مـــن حق مستخدميها أن يتوقفوا لبعض الراحة فى اســـتراحات نظـــيفة ومهـــيّأة بكل الوسائل اللازمة للمسافرين على تلك الطرق السريعة ، وفى مقدمتها مقهى بسيط ، ومطعم للوجبات الخفيفة، وســـوبر ماركت حديث لشراء المستلزمات الضرورية ، إلى جانب دورة مـــياه جـــيدة الإنشاء . وبالطبع توجد بعض تلك الاستراحات ، ولكنها اســـتراحات عشـــوائية ، أقامهـــا البعض بصورة رديئة المظهر، سيئة الخدمات .

وهنا أطرح على السادة المستثمرين المصريين فكرة إقامة سلسلة موحـــدة النموذج من الاستراحات على الطرق السريعة ، كما هو الحال فـــى الـــدول الغربـــية، وأن تكون ملاصقة أو مجاورة لمحطات التزود بـــالوقود ، وعلى مسافات مدروسة جيداً ، حتى توفر لسائقى السيارات الخاصـــة والـــنقل تلـــك الخدمة الضرورية لإراحة أجسادهم المرهقة ، وتهدئـــة أعصـــابهم المتوترة ، وبذلك نتجنب العديد من الحوادث التى

يتسبب فيها الجوع والعطش والتعب والإرهاق -.

لقـد عجبـت كثيراً من غياب هذه الفكرة ، ذات النتائج المربحة جـداً، مـن أذهـان المسـتثمرين المصريين ، وكذلك الأجانب ، وقلت لنفسـي: لو أنني أملك التمويل الكافى لأقمت هذا المشروع الذى سوف يضـرب أربعـة عصـافير بحجر واحد : الأول توفير خدمة ضرورية لسـائقى المركبات على الطرق السريعة ، والثانى تشغيل عدد كبير من الشـباب فـى هـذه الاستراحات ، والثالث إشاعة قدر هام من العمران للمـناطق الصـحراوية أو النائية عن المدن والقرى . . أما العصفور الـرابع فهـو عصـفور الـربح الوفير ، وفى رأيى أنه سيكون بحجم الدجاجة التى تبيض ذهباً . .

يـبقى أمـر أخير ، وهو أن تتاح الفرصة لأصحاب الاستراحات العشـوائية الحالية أن يدخلوا فى المشروع بشرط أن يطبقوا مواصفات الـنموذج الخاص به، والذى يمكن نقله ببساطة من أى دولة أوربية ! خوفاً من أن يأتى مهندس متهور ويصنع لنا نموذجاً كئيب الواجهة ، أو غير مريح من الداخل . وما أقصده ليس أكثر من الاستفادة من تجارب الآخرين ، وخاصة إذا كانت ناجحة .

الأخبار وتحليلها

لم يعد إنسان فى العالم يستغنى عن الأخبار . سواء كانت سياسية أو اقتصـــادية، أو رياضـــية أو ثقافية . وفى العصر الحديث الذى شهد ثـــورة المعلومات وتطور وسائل جمعها ونقلها وتوزيعها على كل مكان فى الأرض أصبحت (الأخبار) جزءاً من ثقافة أى شخص ، حتى ولو لم يشـــاهدها أو يسمعها بنفسه من مصادرها الإعلامية . لأن من يسمعها أو يشاهدها يتطوع بنقلها إلى غيره ، وهكذا لا يمكن لإنسان أن يتجنب معـــرفة الأخـــبار ، وكذلك التعليق عليها . وهنا لابد من التوقف لإلقاء نظرة.

فلـــيس كـــل مواطـــن فى العالم يحظى من وسائل إعلامه بالقدر المتســـاوى مـــن تحلـــيل تلـــك الأخـــبار . فهناك بعض وسائل الإعلام تستضـــيف شخصية أو أكثر لكى تعلق على بعض الأخبار ، وبذلك تلقى مـــزيداً مـــن الضوء على أهميتها، وتكشف عن مدى تأثيرها فى حياة الـــناس . وهـــناك وســـائل إعلام أخرى تستضيف أحد أو بعض صناع الأحـــداث أنفســـهم لكـــى يفســـروا الأحـــداث ، ويبينوا للناس أسبابها ونـــتائجها. لكن هناك وسائل إعلام (تستخسر) هذا وذاك وتقوم بنفسها بالتعليق على الأخبار ، بواسطة أحد محرريها أنفسهم . ولا شك أن هذه أضعف وسائل الإعلام ، لأنها تترك مشاهديها فى حالة تعتيم إخبارى ، وبذلـــك تتيح لكل شخص أن يفتى برأيه الخاص ، ويلون الأخبار باللون الـــذى يرتضـــيه . وفى مثل هذا الجو تنمو الإشاعات وتنتشر التكهنات وربما تتحول دلالة الخبر إلى الضد منها تماماً . .

القناة الفضائية الفرنسية تستخدم أسلوباً جيداً فى التعليق على الأخبار ، فعندما تتضمن النشرة أخباراً عن تركيا والمغرب وكندا تستضيف صحفياً يجيد التحدث بالفرنسية من كل بلد من هذه البلاد ، وغالباً يكون من المقيمين بفرنسا ، ثم تترك كل واحد منهم يعلق بنفسه عن الخبر الذى يتعلق ببلده . وهنا يتحول مذيع النشرة إلى مستفسر عن أحوال تلك البلاد ، ولا يقتصر فقط على حدود الخبر الوارد فى النشرة .

إن تحليل الأخبار فى رأيى جزء لا يتجزأ من تنوير المواطنين بما يجرى فى العالم من أحداث ، ومدى تأثيرها عليهم . وأعتقد أنه قد أصبح من واجبات الإعلام المعاصر أن يبصر الناس بأحوال العالم الذى يعيشون فيه ، ويتنفسون هواءه ، ويتأثرون بكل ما يحدث فيه من خير أو شر .

والذى ألاحظه بوضوح أن معظم القنوات التليفزيونية العربية تستعين بالكثير من الشخصيات المصرية فى التعليق على الأخبار ، وتنوير مجتمعاتها بآرائهم وتحليلاتهم لتلك الأخبار ، وذلك فى الوقت الذى لا نرى أمثال هؤلاء وغيرهم على الشاشة المصرية . قد يرجع السبب فى ذلك إلى ضعف الإمكانيات ، لكننى أرجو أن يتم تدارك هذا الأمر ، نظراً لما يقدمه لكل أفراد المجتمع ، المثقف والأمى ، من فائدة، لا تقتصر فقط على فهم الخبر ، وإنما تتجاوزه إلى استيعابه ، وتكوين رأى صحيح حوله .

الإدارة الـناجحة تشـبه تماماً الدورة الدموية فى جسم الإنسان . فكمـا أن الجسـم السـليم هو الذى يتمتع بانتظام حركة الدم وسيولة جـريانه فـى سـائر الشرايين والأوردة، فإن الإدارة الناجحة هى التى تتوالى فيها الخطوات بانتظام ، وتتحرك الأوراق بسهولة حتى يتم إنجاز العمل ، وتتحقق الفائدة للمواطنين .

فـى جسـم الإنسان يقوم كل عضو بوظيفة محددة له ، وهو فى نفـس الوقـت مرتبط بما يجاوره من الأعضاء ، متناسق مع غيره فى الأداء ، وفـى الإدارة الناجحة يعرف كل واحد واجبه ، بدءاً من المدير حتى أصغر موظف فى المكان .

فى الإدارة الناجحة تدخل المصلحة الحكومية أو الشركة الخاصة فـلا تسمع ضجيجاً ولا تشاهد حركة زائدة ، ويسرع إليك موظف مهذب ليسـألك عمـا تريد ويدلك على طريقة الحصول عليه فإذا دخلت على موظـف قـابلك باحترام ، وساعدك على تقديم طلبك ، محدداً لك اليوم والساعة التى تعاوده فيه لكى يكون الأمر قد تم والمهمة قد أنجزت .

فـإذا حـدث أن تعطلت الأوراق عند موظف ما فاعلم أن الإدارة مصـابة بما يشبه الجلطة ، التى تحدث فى شرايين الجسد ، فتؤدى إلى الشـلل الجـزئى ، وأحياناً الكلى ، وهناك بعض المصالح التى يدخلها الإنسان فيجدها بهذا الشكل : تعقيد فى الإجراءات عبوس من الموظفين

تهـــاون فى استقبال الجمهور إهمال فى تخليص الأوراق ، وتباطؤ فى إرسالها إلى الجهات الأخرى ، وهنا يجد الموطن نفسه تائهاً بل ضائعاً. فيستند على حائط ، ثم يمشى ببطء حتى بوفيه المصلحة ، ليشرب شيئاً يبل ريقه ، فيستقبله عامل البوفيه بالكثير من التعاطف والرثاء ثم يظهر لـــه التأييد والمساعدة ، عندئذ يجد المواطن المسكين فى هذا الشخص (الشهم) طوق النجاة الذى يتعلق به فيؤكد له أن يكافئه إذا تم المراد . وما هى إلا فترة شرب الشاى أو القهوة حتى يعود عامل البوفيه الشهم بـــأوراق المواطـــن وعليها كل التوقيعات اللازمة وأيضاً ممهورة بخاتم النسر .

أيـــن مدير المصلحة من كل ذلك ؟ وهل يعلم به ؟ وماذا عليه لو أنه قام بالتجول فى مكاتب المصلحة وطرقاتها ؟ أو دخل من الباب الذى يدخـــل منه المواطنون ومشى معهم فى الطابور ؟ ثم كيف يتصرف إذا تـــأكد أن أحد موظفيه يعطل مصالح الناس ويتعمد إيذاءهم ؟ أليس هذا المديـــر مســـئولاً بالدرجة الأولى عن حسن سير الإدارة فى مصلحته ؟ وألا يعلم أن هذه المسئولية ليست فقط تجاه الدولة والمجتمع وإنما هى أساساً أمام الله تعالى . .

إننا ننسى فى زحمة الحياة . وبريقها أحياناً أن العمل الذى نقوم به – أياً كان قدرة – نعمة من نعم الله على الإنسان وأنه كما يتطلب منا علـــى كـــل نعمـــة شكراً متواصلاً بالقلب واللسان فإن شكر نعمة العمل بالذات هى فى إتقانه أولاً ثم فى فائدته للناس ثانياً .

إصلاح الدرجة الثالثة

طالـــب مجلـــس الشـــورى ، واستجابت الحكومة مبدئياً ، بسحب جمـــيع عـــربات الدرجـــة الثالثة ، غير الصالحة فنياً ، والتى لا تليق بالاستخدام الآدمى من خطوط تشغيل السكة الحديد فوراً ، والقضاء على جميع مظاهر التسيب من العاملين بالهيئة ، وتطبيق العقوبات اللائحية علـــى المقصرين ، وإعلانها للمواطنين فى أماكن ظاهرة ، واستصدرا قـــرار وزارى بتشكيل لجان لدراسة التشريعات الحالية ، لتشديد وتغليظ العقوبات الحالية ، وإضافة عقوبات جديدة .

وخلاصـــة هذا الموقف أن حالة من اليقظة والاستنفار سوف تبدأ فـــى سكك حديد مصر ، نرجو أن تتخلص فيها من الإهمال والفوضى ، وأن يحـــل محلهـــا روح جديـــدة مـــن الدقة والانضباط ، سوف تؤدى بالضـــرورة إلـــى احـــترام آدمية المواطن ، أياً كانت قيمة تذكرته التى يسافر بها ، لأنه ما دام استقل القطار فقد أصبح من حقه أن يتوافر له الأمـــن والســـلامة تمامـــاً مثل راكب الدرجة الأولى والثانية ، ويقتصر الفـــارق بينهما فقط فى تقديم بعض التسهيلات لركاب هاتين الدرجتين لقـــاء المـــبلغ الزائد الذى يدفعونه. أما أن يحشر ركاب الدرجة الثالثة حشـــراً فـــى عـــربات خالـــية من كل وسائل الأمان ، إلى جانب حالتها المـــزرية ســـواء فى المقاعد أو الشبابيك أو دورات المياه فهذا أمر لم يكـــن مـــن الممكـــن قبولـــه . وعلى الرغم من ارتفاع بعض الأصوات

بمراعاة ذلك إلا أن هيئة السكك الحديد فى الماضى كان تصم آذانها عن سـماع أى نقد ، ولا تستجيب بالتالى لأى مطلب من مطالب الجماهير ، حـتى وقعـت كارثـة قطار الصعيد ، الذى هزت الرأى العام ، وكشفت عوار هيئة السكك الحديد ، التابعة لوزارة النقل. وكما يقول مثل هندى قديم إن الخير قد يخرج من الشر ، فإن هذه الكارثة المأساوية كان من خـيراتها أن تنـبه المجـتمع ، وحدث تعديل وزارى ، وها هو مجلس الشورى (العاقل) يدعو بكل حسم إلى ضرورة تلافى السلبيات ، ويطالب بخطة إصلاح تركز على عربات الدرجة الثالثة ، لكى تخرجها من حالة التسيب والفوضى التى تشملها، وتخلصها فى نفس الوقت من (المافيا) التى تتحكم فى ركابها . وقد قرأت مؤخراً أن الركاب الذين يتعاملون مع شباك تذاكر الدرجة الثالثة لا يصلون إلى 6% ، فى حين يتعامل الباقى مع أولئك (الفتوات) الذين يقطعون لهم التذاكر ، ويحجزون لهم الأماكن سـواء علـى المقاعد أو فى الأمكنة المخصصة للحقائب ، كما أنهم هم الذين يزودونهم بالشاى والقهوة والأطعمة الفاسدة طوال رحلتهم الشاقة إلى الصعيد . .

أنا متفائل ، وينبغى أن أكون كذلك ، لأن خط الإهمال عندما يصل إلى مداه لابد أن تنكسر رقبته بسيف الإصلاح .

أمـــا الإرهاب فهو عمل تخريبى يتمثل فى قتل الأبرياء ، وتحطيم المنشـــآت، بهــدف إشـــاعة الذعـــر فى المجتمع ، وهزّ مكانة السلطة القائمـــة. وقــد يكون الباعث عليه سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو دينـــياً ، وهو يصدر فى كل الحالات من جماعات لا يتاح لها فى الغالب أن تعـــبر عن رأيها أو تفرض اتجاهاتها من خلال القنوات المشروعة ، ولهـــذا تلجـــأ إلى العنف كوسيلة لتحقيق هدفها ، أو على الأقل : لفت الأنظار إلى قضيتها حتى ولو كانت غير عادلة .

أما المقاومة فهى مجموعة الأعمال العنيفة التى يقوم بها شعب ، أو جماعـــة مـــنه لكى تطهر أرضها من الاحتلال . ومن المفروض أن توجـــه المقاومة ضرباتها إلى قوات العدو ، أو منشآته العسكرية ، أو تحصـــيناته الحربية . وقد شهدت مصر هذا النوع من المقاومة الباسلة أثـــناء الاحـــتلال الإنجليزى لمصر ، وكذلك أثناء العدوان الثلاثى على مـــنطقة قـــناة السـويس ، فكان شباب المقاومة يضربون أو يخطفون الضـــباط والجـــنود حـــتى أجبروهم فى الحالة الأولى على الانتقال من العاصـــمة إلـــى مـــنطقة القـــناة ، ونجحوا فى الحالة الثانية من كسر شـــوكتهم، وخلـــو الشوارع منهم تماماً فى بورسعيد إلى أن حان موعد الجلاء الكامل عن الوطن .

بهذا الشكل تبدو الحدود واضحة وقاطعة بين الإرهاب والمقاومة. الإرهـــاب عمل ترفضه كل الأديان والقوانين والأخلاق والأعراف . أما المقاومـــة فهـــى مباحة لأى شعب يعتدى على أرضه محتل أو مستعمر

غريب . الإرهاب يقضى على أرواح المدنيين أما المقاومة فتزلزل كيان العسكريين المعتدين . الإرهاب يمكنه أن يلجأ لأساليب أخرى من التعبير عن رأيه ، أما المقاومة فليس لها إلا طريق واحد هو استخدام السلاح، لأنهـا تواجه عدواً مدججاً بالسلاح . الإرهاب لا مستقبل له ، لأنه يضع المجتمع كله حكاماً ومحكومين فى سلة واحدة، ثم يلقى بها إلى الجحيم، أمـا المقاومـة فإنها لا تواجه إلا من اعتدى على شعبها ، ولذلك فإنها تحـافظ علـى أرواحه وتصون ممتلكاته ، وربما ألغت بعض عملياتها حرصـاً علـى هـذه أو تلك . الإرهاب على مدى تاريخ العالم لم يغير نظامـاً، ولم يسقط دولة ، ولم ينشئ حضارة ، أما المقاومة فإنها تفتح أمـام شعوبها طريق الحرية ، وما يتبعها من الدخول إلى طريق البناء والتعمير وإقامة الحضارات .

وأخـيراً فـإن الدولة الوحيدة التى تتجاهل الفروق الواضحة بين المقاومـة والإرهاب هى إسرائيل ، وتكاد تكون هى الشذوذ الوحيد فى القاعدة ، عندما تطلق على مقاومة احتلالها لفلسطين إرهاباً ، وتسمى شـباب المقاومـة وشيوخها إرهابيين . ومن المؤكد أنها تفعل ذلك من موقع القوة العمياء ، وليس من منصة الحق المبصر ، وتعتمد فى ذلك على إعلامها المزيف الذى ينتشر – مع الأسف – فى كل أنحاء العالم ، لكـنه لا يلقى صدى إلا لدى الحمقى والجهلاء . أما العقلاء والمنصفون فسوف يدركون – إن عاجلاً أو آجلاً – أننا مهما أطلقنا على الخروف لقب خنزير فإن ذلك لن يخرجه أبداً عن فصيلته .

الارتقاء بالتعليم

أكد السيد الرئيس بصورة واضحة للغاية فى خطابه الهام بمناسبة انعقــاد الــدورة الجديدة لمجلسىْ الشعب والشورى على أهمية الارتقاء بالتعليم باعتباره المدخل الحقيقى لتحقيق نهضة شاملة فى المجتمع من ناحية ، وللحاق بركب التقدم الذى تحقق خلال العقود الأخيرة فى الدول الــتى نجحت فى منافسة الدول المتقدمة من ناحية أخرى . وهنا نقطة هامة ينبغى التركيز عليها ، وفتح صفحة جديدة للتفكير فيها، وهى أننا قــد عشــنا لعدة سنوات نعلن أننا لابد أن نلحق بركب الدول المتقدمة ، ونقصــد بذلك الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ، لكن دعوة الرئــيس وجهت الأنظار إلى ضرورة التوجه أيضاً إلى مجموعة الدول الآسيوية التى استطاعت أن تحقق قدراً من التنمية ، أدهش العالم كله ، بما فيه الدول المتقدمة ذاتها ، بسرعته وضخامته وانطلاقه الواثق من نفسه ، والمتزايد باستمرار .

وقد كنت دائماً أقول لمن حولى : إن التجربة المصرية فى التقدم عمــرها مائتا عام ، لكنها أولاً لم تنطلق طوال هذه المدة بمعدل واحد ، فقــد كانت تتعثر من تلقاء ذاتها أحياناً ، كما كانت تتوقف تماماً بسبب ظــروف قاهــرة فى أحيان أخرى ، كما حدث مثلاً خلال فترة الاحتلال الإنجليزى . ثانياً إن التجربة المصرية ليست تجربة سطحية أو هزيلة ، بل إنها تجربة محملة بخبرات السنين ، وليس أدل على ذلك من الثقافة الزراعــية الــتى يتمتع بها أى فلاح مصرى يعرف الفروق الدقيقة جداً بيــن مخــتلف أنواع النباتات، وحالات الطقس التى تنمو فيها ، وكمية

المياه المناسبة لكل نبات . ثالثاً أن التجربة المصرية فى التقدم والتنمية تتمـــيز بالتدرج الهادئ ، وتنفر دائماً من التحولات المفاجئة . وهذا ما يجعل أى إصلاح ينبغى أن يمر بمراحل الإعداد، والنشأة ، قبل أن يصل إلـــى حـــد النضـــج الكامل . رابعاً إذا كانت التجربة المصرية رائدة فى منطقـــتها العربـــية المحيطة بها ، والتى قد تتسع أحياناً لتشمل القارة الأفريقـــية كلها ، فإنها فتحت نوافذها دائماً للاستفادة من تجارب التقدم فـــى العالم، وخاصة فى أوربا التى ارتبطت معها بعلاقات كانت تتراوح بين العداوة والصداقة، وتتأرجح بين الحرب والسلام ، ولكن مصر ظلت حريصـــة علـــى عـــدم إغـــلاق أى نـــافذة يدخل منها أى ضوء يفيد ، واستطاعت أن تبقى على صلاتها المتميزة مع كثير من المجتمعات التى تعاونـــت معها من أجل بناء نهضتها الحديثة ، وتنمية شعبها . خامساً تجـــتمع فى العالم حالياً ظروف جديدة ، تفرض علينا أن نتوجه ناحية الشـــرق ، حيـــث تجربة البلاد الآسيوية الناهضة، والتى استطاعت أن تحقـــق معـــدلات عالمـــية فى التنمية ، ولعل هذه البلاد أقرب إلينا فى الـــروح، والـــثقافة ، والظروف من الدول الغربية . ولا شك أن دراسة تجربتها سوف تضيف إلى التجربة المصرية بعداً جديداً ، وتمنحها دفعة قوية لمواصلة مسيرتها على نحو أكثر سرعة وإتقاناً .

والنتيجة أننا ينبغى – فى مجال تطوير التعليم بالذات – أن ننظر جـــيداً إلـــى تجربة التعليم فى الدول الآسيوية الناهضة ، لكى نطعم بها تجربتنا المصرية الأصيلة .

الانـتماء عملة ذات وجهين . فهو لا يشمل فقط أن يحب الإنسان وطـنه ، ويخلـص فى خدمته ، ويتفانى من أجل التضحية فى سبيله ، وإنمـا يشمل أيضاً أن يحنو عليه الوطن ، وأن يصونه المجتمع ، وأن تقـدره الدولـة . لكن المسألة ليست عملية بيع وشراء أو تبادل منافع ومصـالح ، وإنما هى حركة تفاعل مادى وروحى ، تتعمق فيها جذور المواطـن بيـن أهلـه وجيرانه ومعارفه ، وينشغل عقله بكيفية تنمية مجـتمعه ، وحـل مشكلات واقعه ، ويتطلع خياله إلى ما يحقق الخير والازدهار للوطن .

ومـن المقـرر أن الانـتماء شعور يوجد لدى كل أفراد المجتمع تقريباً ، لكنه قد يزيد وقد ينقص ، كما أنه قد يقوى وقد يضعف . ومن هـنا كـان علينا دائماً أن نعمل على زيادة نسبته وتقوية عناصره فى أعماق الأجيال الجديدة ، لكى تكون مؤهلة لحمل الأمانة ، وقادرة على تحمل المسئولية . فكيف نفعل ذلك ؟ أولاً بتقديم القدوة الحية التى تغنى عن أى مقال ، وتكون أبلغ من أى قصص أو أشعار . ثانياً استعراض التاريخ العريق للأمة ، والوقوف بإعجاب أمام أبطالها الشوامخ فى كافة المجالات السياسية والعسكرية ، والثقافية والفنية ، ثالثاً تعريف الجيل بمعـالم الحـياة المصـرية فى الريف والمدن ، ويكون ذلك من خلال

المعايـــنة والمشاهدة الواقعية لها . وأنا أتذكر هنا كم كان تأثير الرحلة إلـــى الأقصـــر وأســـوان علينا بالغاً ، فقد وقفنا على عظمة الحضارة المصـــرية القديمة وجمعنا معها مشاهدة السد العالى الذى أنجزه الشعب المصرى بيديه فى فترة من أصعب فترات تاريخه الحديث . رابعاً تعويد الأجـــيال الجديدة على متابعة الإنجازات الكبرى التى تقوم بها الدولة ، مـــثل إنشـــاء الكـــبارى والأنفاق وشق الطرق وتشييد المدن الجديدة ، ومشـــروعات تعمـــير الصـــحراء ، وحركة المال والاقتصاد ، والتعرف المباشـــر على الحياة البرلمانية ، وصروح القضاء ، ودور الشرطة فى أمن المجتمع ، ورسالة القوات المسلحة فى حماية حدود الدولة .

وهكـــذا تتفتح أمام الرحلة المدرسية مجالات أخرى واسعة ، غير تلـــك التى تعودنا أن نخصصها فقط للترفيه . فما أجمل أن توجه رحلة مدرســـية إلـــى دار القضـــاء العـــالى لتقضى يوماً فيه ، وما أروع أن تخصـــص رحلـــة أخـــرى إلى مجلس الشعب أو الشورى لسماع جلسة كاملة منه ، وأنا واثق أن أبناءنا التلاميذ سوف يجدون فى تلك الأماكن كل الرعاية والترحيب ، كما أنهم سيخرجون منها بذكرى لن تنمحى من أذهانهم طوال العمر .

أريد من الحزب الوطنى

أولاً : أن يقــدم الــنموذج العملى لممارسة الحوار السياسى فى داخله ، وبالتالى يتيح لكوادره مزيداً من التثقيف السياسى ، والمتابعة المستمرة لقضايا المجتمع ، والتطورات التى تحدث فى العالم .

ثانــياً : أن يتبنى الحزب عدداً من المشروعات الحديثة ، وخاصة فــى مجــالات الصــحة والتعليم والبيئة ، وبذلك يقدم للمواطنين شيئاً ينفعهم فى حياتهم اليومية ، ويربطهم بالتالى بأهداف الحزب ومبادئه .

ثالــثاً : أن يتجه اتجاهاً ملموساً إلى توفير فرص عمل للشباب ، من خلال مساعدتهم على إنشاء المشاريع الصغيرة ، وتزويدهم بالخبرة اللازمة لكيفية إدارتها ، وتسويق منتجاتها .

رابعاً : أن يساهم الحزب فى القضاء على بعض الظواهر السلبية الــتى تعطــل مســيرة التنمية فى المجتمع مثل الدروس الخصوصية ، ومشكلة المرور ، والأمية ، وزيادة النسل ، والقمامة ، وسوء الإدارة .

خامســاً : أن يقــوم الحزب بدور بارز فى حماية المستهلك من خــلال تبصــيره بالــنظام الغذائــى الصحى ، وتحذيره من الإسراف ، والإفــراط ، والعــادات الغذائــية الســيئة، ومراقبة الارتفاع العشوائى للأسعار ، والغش الصناعى للسلع .

سادســاً : أن ينشئ الحزب مجلة أسبوعية أقترح أن يكون اسمها (الوطــنى) تضم أخباره ، وتتابع إنجازاته ، وتحلل الأحداث الجارية من وجهة نظره ، وانطلاقاً من توجهاته.

ســابعاً : أن يقــيم علــى مدار العام ندوات حول قضايا محددة ، يشــاركه فيها مختلف الأحزاب الأخرى ، بهدف تبادل الأفكار ، وبلورة المفاهيم ، والخروج بحلول واضحة .

ثامــناً : أن يفــتح الحــزب أبوابــه لقبول أى مواطن يرغب فى الانضــمام إليه ، مع وضع خطة لجذب الشخصيات ذات السمعة الطيبة للاستفادة من خبراتهم .

تاســعاً : أن يقوم الحزب أولاً بأول بتطهير مجراه من الأشخاص الذيــن يعوقــون حركــته ، أو يسيئون لمبادئه ، بحيث يظل الانتماء ، والإيــثار ، وخدمــة الصــالح العــام هى الصفات الأساسية للأعضاء والقيادات معاً .

عاشــراً : أن يصــوغ الحــزب (شــعارات) واضحة مستمدة من توجهاتــه ، وأن يكــون له (رمز) خاص به ، وكذلك (لون) يميزه عن غــيره من الأحزاب الأخرى ، وذلك على غرار الأحزاب الكبرى فى دول العالم.

التدخين على الشاشة

لـــم يعـــد هناك أدنى شك فى أن التدخين ضار بالصحة ، بل إنه مدمـــر للحـــياة نفســـها ، وبذلك ينبغى أن نقول بحسم إن التدخين قاتل للإنســـان ولـــيس ضار فقط بصحته . وقد بدأ العالم كله يتنبه لخطورة التدخيـــن ، فمـــنعوه فى المطارات والطائرات والقطارات ووسائل النقل العامـــة والمصالح الحكومية والأماكن المغلقة لأنه ثبت أن من يدخن لا يـــؤذى نفسه فقط ، وإنما يؤذى من يتنفسون حوله ، على أساس أنهم يستنشقون الدخان الملوث الخارج من صدره ، وغالباً ما يكون مريضاً مرضاً معدياً . .

لذلـــك كـــان من الضرورى أن نحارب تلك العادة الخبيثة بكل ما نملك من وسائل ، وأبسطها طبعاً وسيلة الإعلام ، التى تؤثر كثيراً على ســـلوكيات الناس ، وخاصة مشاهدى التليفزيون ، فقد جرت العادة فى الأفـــلام الأجنبية والمصرية أن الأبطال المحبوبين من الجمهور يدخنون الســـجائر فـــى مخـــتلف المواقف ، الأمر الذى يسهل انتقال هذه العادة الســـيئة إلـــى المشـــاهدين بتأثـــير المحاكاة ، و تقليد النجوم ، وكذلك بترســـيخ تلـــك العـــادة فـــى سلوكيات المجتمع ، أما الأمر الذى يمكننا ببســـاطة أن نتدخل فيه فهو ما يتعلق بالسادة ضيوف التليفزيون ، أو المتحدثين فى ندوات ينقلها التليفزيون ، ثم يعرضها على المشاهدين ،

وبعضـــهم يدخـــن بشـــراهة ، ولا مبالاة . . مثل هذه المشاهد لابد أن تحذف تماماً من التليفزيون حتى لا يراها المشاهدون ، ويتأثر بها الجيل الجديـــد . صـــحيح أن بعض أفراد هذا الجيل قد تجاوزوا مرحلة تدخين الســـجائر ، إلـــى تدخيـــن الشيشة ، بل إنهم وقعوا أحياناً فى المحظور فتورطوا فى البانجو القاتل الشرس ، لكننا ينبغى أن نحافظ على صحة الأغلبـــية الـــتى نعـــتمد عليها اعتماداً أساسياً فى بناء مصر الحديثة ، وتحقيق التنمية الشاملة بين ربوعها .

لقـــد أثبتـــت الدراسات والإحصائيات وحتى التجارب أن مشاهدى التلفزيون يسرقون من طباعة الكثير . ونحن نعلم من ثقافتنا الدينية أن من يجاور الحداد يتسخ ثوبه ، ومن يجلس مع بائع الطيب يشم رائحة حســـنة . . وقـــد أصبح التليفزيون فى عصرنا مثل الجليس الصالح أو الجلـــيس الردىء ، ومن هنا كان علينا أن نتنبه جيداً لآثاره الضارة ، وأن نحمى الأجيال الناشئة من عروض الشر التى يقدمها أحياناً .

وكلمة أخيرة للمدخنين : رجاء أن تراعوا مشاعر الآخرين ، وإذا كنـــتم قـــد اخترتم لأنفسكم الدمار التدريجى فما ذنب غيركم ممن صان نفســـه مـــن هذا الدمار، وهداه الله إلى أن يجعل رئته نظيفة ، والهواء الذى حوله نقياً ، والبيئة التى يعيش فيها صالحة للحياة !

أرجــو أن تســمحوا لى باقتراح إنشاء هذه الوزارة فى التشكيل الـــوزارى القـــادم ، أيـــاً كان وقته وزمانه ، بحيث يكون الهدف منها تحديث البنية الأساسية فى صعيد مصر ، بدءاً من توفير مياه الشرب ، وتعميم الصرف الصحى ، وتوزيع الكهرباء والغاز على المدن ، وكذلك علـــى القـــرى بقـــدر الإمكـــان ، مـــع الاهتمام الخاص بشبكة الطرق والمواصلات ، وبناء السنترالات الكافية لتسهيل عملية الاتصالات .

وأن يـــتوازى مع ذلك إقامة المدارس والجامعات والمستشفيات ، ثـــم المصـــانع الـــتى ترتـــبط بالبيئة ، وتعمل على المواد الأولية بكل محافظة، مع تشجيع الاستثمار فى الصعيد ، والعمل بالتدريج على نشر الســـياحة الداخلـــية الـــتى مـــن الممكن جداً أن تتسع لتستقبل السياحة الخارجية فيما بعد.

إن الصـــعيد قـــد شهد فى عهد الرئيس مبارك الكثير من عمليات التنمـــية والتحديث ، ونحن لا نشك فى أنه يحتل من الدولة مكاناً خاصاً فى الموازنة والتخطيط ، لكن مثل هذه الوزارة المقترحة ستكون بمثابة تجمـــيع الجهـــود فـــى مكان واحد ، ومن حقنا عليها أن نحاسبها على أســـاس برنامج متكامل تقوم بتنفيذه على مراحل زمنية محددة . وطبعاً لابـــد أن يـــتولى هـــذه الوزارة وزير صعيدى يكون على وعى عميق

بمشـــكلات الصـــعيد ، ويستطيع أن يقدم لها الحلول المناسبة ، ويحقق لأبنائه الآمال التى ظلوا يتطلعون إليها منذ مئات السنين . أما عن مكان الـــوزارة المقترحة فلابد أن يكون فى إحدى مدن الصعيد وأن يكون لها مقـــرات للتنفـــيذ والمـــتابعة فى سائر مدنه . ومن المسلمات أن يكون الوزيـــر المكلـــف بهـــذه الوزارة على علاقة طيبة بكل المحافظين فى محافظـــات الصـــعيد ، لكـــى يساعدوه على تقديم مقترحاتهم ، وتحديد أولوياتها ، والعمل على تحقيقها بأسرع وقت ممكن .

لقـــد كـــان الصعيد وما زال جزءاً عزيزاً من أرض مصر ، ومنه جاء إلى العاصمة العديد من الشخصيات التى نتج عنها تحول حضارى كبير فى النهضة المصرية الحديثة ، بدءاً من رفاعة الطهطاوى ومروراً بطه حسين ومصطفى عبدالرازق ، أما آباء هؤلاء وأجدادهم فهم الذين أقـــاموا معـــابد الكـــرنك ، ونحتوا المسلات ، وقطعوا أحجار الأهرامات وجـــاءوا بهـــا إلى الجيزة . . وما زال العالم كله ينظر إلى وجوه أبناء الصـــعيد فيرى فيها ملامح متواصلة مع أجدادنا العظام ، بناة الحضارة المصرية العريقة .

أرجو أن يتحقق اقتراحى هذا بإنشاء وزارة تنمية الصعيد ، وأن يســـتعد أحد أبنائه منذ الآن لتولى مسئوليتها ، بشرط أن نحاسبه عليها بعد خمس سنوات على الأكثر .

التلفزيون ومواعيده

عندما عينت السيدة ميرفت رجب رئيساً للتلفزيون كتبت عنها فى هـذا المكـان مقالاً باسمها ، لسبب بسيط هو أن ألفت نظرها إلى أمر هـام، وهو ضرورة أن يلتزم التلفزيون بمواعيده فى دقة بالغة ، وفى مقدمـة ذلـك نشـرة الأخبار التى ينبغى أن تبث فى موعدها بالدقيقة والثانية . وليس هذا مستحيلاً على إدارة التلفزيون المصرى ، حتى لا يكـون أقل من تلفزيونات العالم المتقدم ، وكذلك الكثير من التلفزيونات العربية المجاورة.. ثم ذهبت السيدة ميرفت رجب دون أن تفعل شيئاً فى هذا الموضوع ، وجاءت بعدها السيدة زينب سويدان وهى مذيعة قديرة مـثل سـابقتها ، لهـذا فإننى أطرح عليها نفس الطلب السابق ، وهو ضـرورة التزام التلفزيون بمواعيد برامجه دون أى تأخير ، وإذا حدث بعـض التأخـير فلابـد أن يتم الاعتذار عنه للمشاهدين . والأمر الذى يدهشـنى بحق هو إعلان التلفزيون فى الجرائد والمجلات عن برامجه مصـحوبة بمواعـيدها ، ثـم عند التنفيذ يحدث التأخير الذى لا أجد له مبرراً سوى التسيب والإهمال، وعدم محاسبة المسئول عن ذلك .

أذكـر وأنـا فـى بـاريس أنـنى كنت أشترى كل أسبوع مجلة الـتلفزيون، وبالمناسـبة توجد أكثر من مجلة تتنافس فيما بينها على تقديـم الـبرامج ، وتحلـيل مضمونها ، وإرشاد المشاهد إلى أفضل ما

يختاره منها . . فى هذه المجلة توجد مواعيد البرامج محددة بالساعة والدقيقة . وأشهد صادقاً أننى لم أفاجأ خلال عدة سنوات بأى خلل فى بث البرامج فى مواعيدها بالضبط . والناس هناك يعملون حساباً لمن يريد أن يسجل برنامجه المفضل بالفيديو فى ساعة معينة ، وأحياناً يكون خارج المنزل ، أو حتى نائماً، فيضبط جهاز الفيديو على الوقت المحدد لكى يبدأ التسجيل أوتوماتيكياً .

الميزة فى هذا النظام الدقيق ليست فقط فى احترام المشاهد ، وإنما فى تعويده على ضبط الوقت واحترامه ، فلا يعقل أن أعلن له أن برنامجاً سيذاع فى تماما التاسعة ثم لا أبثه له إلا بعد خمس أو عشر دقائق . والأدهى من ذلك أن أعلن له عن برنامج معين أو فيلم معين ثم أقوم – دون أى اعتذار – بإذاعة برنامج آخر ، أو فيلم آخر . .

أنا أعلم أن التلفزيون توجد به إدارة خاصة بمراقبة البرامج ، ولست أدرى هل يدخل فى اختصاصها وأساليب تقييمها إذاعة البرامج فى مواعيدها أم لا ؟ وإذا كانت ملاحظاتها تسجل فهل يأخذ المسئولون على أساسها بمحاسبة المقصرين ، ومكافأة الملتزمين ؟ كل هذا أضعه أمام الرئيسة الجديدة للتلفزيون ، فلعل وعسى أن تهتم بهذا الموضوع الذى يشغلنى من ناحية تربوية أكثر مما يهمنى من جانبه الإعلامى!

العقاب بالنقل

جـرت العـادة فـى الجهاز الإدارى المصرى منذ زمن طويل أن يعاقـب الموظـف المخطـئ أو المهمل بالنقل . وفين ؟ إلى الصعيد ، وقديمـاً كـان إلى السودان . وما زلت أذكر للشاعر إسماعيل صبرى ، عـندما نقلوه من القاهرة إلى قنا ، قصيدة جميلة مطلعها : قالوا نقلت إلـى قـنا / يـا مرحبا بقنا وإسنا . وفيها راح يغيظ رؤساءه بأنهم قد أراحوه من هموم العاصمة ، وارتفاع الأسعار بها (كان هذا منذ حوالى سبعين عاماً) ، وأنه فى قنا أصبح مرتاحاً من رؤية وجوههم الكئيبة ، بـل إنـه أصـبح يوفر ثمن تسخين الماء ، لأن الماء هناك ساخن من حـرارة الجو ، ولا يحتاج لشراء وقود من أجل تسخينه كما يحتاج إلى ذلك أهل العاصمة !

ومـن العجيـب أن هذا التقليد على عدم معقوليته ما زال يجرى حتى اليوم فى كثير من الوزارات والهيئات والمؤسسات ، إلى درجة أن كلمة (سوف تنقل إلى الصعيد) أصبحت تمثل تهديداً حقيقياً لأى موظف، وفـى هذا من الإهانة للمكان ما فيه، إلى جانب ما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس أهله من إحساس بأنهم فى آخر الدنيا ، أو أنهم يعيشون فى وادى الغضـب ، الذى يتم قذف المخطئين إليه لكى يتأدبوا ويتعظوا . وكـل هذا بالطبع غير صحيح فالصعيد هو نصف مصر ، وعلى أرضه قامت الحضارة المصرية القديمة ، التى أنشأها وطورها أجدادنا العظام.

وفـــى الصـــعيد توجـــد المدن والقرى المليئة بالخير ، كما أن عواصم الصعيد وحواضره تمتلئ بالأبنية التقليدية المتحضرة، والفيللات الأنيقة والأصيلة التى كاد أمثالها يختفى من العاصمة . وهذا واضح للعيان فى أسيوط ، والمنيا ، وخاصة فى ملوى . وبالمناسبة أرجو أن يتم (توثيق وتصـــوير هـــذه الثروة المعمارية النادرة فى بلادنا قبل أن يجور عليها الزمن).

أعـــود لمسألة العقاب بالنقل لأؤكد أنه أسلوب إدارى عقيم . وهو يشـــبه فـــى مجال السياسية : النفى خارج البلاد . إلا أن المنفى خارج بلـــده يتمثل عقابه فى الحرمان من أهله ووطنه ، أما هذا المنقول فإنه يشعر الذين حوله بأنهم محرومون من عطف أهل المدينة ، الأمر الذى يـــزيدهم حـــزناً وكآبة . لهذا ينبغى أن تتغير اللوائح الإدارية العقيمة ، وأن يحل محلها قانون لمعاقبة الموظف المخطئ أو المقصر أو المهمل. وعقابه لابد أن يكون فى مكان عمله ، وأن تتدرج مستوياته من التنبيه إلى اللوم إلى الإنذار إلى الخصم ، حتى يصل إلى فقدان الوظيفة . وهنا لابـــد مـــن الإشارة إلى أن عدم استخدام هذه العقوبة الأخيرة هو الذى يساعد على ترهل الجهاز الإدارى، وضعف الأداء فيه . ولعل هذا هو ما يميز الإدارة الغربية المتطورة والسريعة الإيقاع، من الإدارة فى بلادنا ، والـــتى تمشـــى بـــبطء ، وتتوقف أحياناً أمام عبارات من مثل (علشان خاطرى) أو (معلهش) !

كـــان إنشـــاء كليات التربية والتوسع فيها استجابة حقيقية من الدولة لتوفــير كــوادر مؤهلــة من المعلمين لكى تواجه بهم الأعداد المتزايدة من التلامــيذ، والمدارس الجديدة التى تم بناؤها ، وكان المأمول من هذه الكليات الــتى انتشرت فى طول البلاد وعرضها أن تقوم بدورها فى تخريج معلمين أكفــاء يجمعون بين التخصصات المختلفة والدراسات التربوية التى تؤهلهم لتقديم خدمة تعليمية متميزة لأبناء الوطن ، فى فترة من أهم الفترات ، وهى فترة الصبا والفتوة ، التى تنطبع فيها المعلومات ، وترسخ المبادئ ، ويتهيأ العقل لاستقبال قضايا العالم الخارجى ، والتعامل مع قضايا المجتمع .

وفـــى ســـبيل تحقـــيق هـــذا الهدف النبيل ، أرسلت الدولة العديد من البعـــثات ليكمل أصحابها تعليمهم فى الدول المتقدمة ، وعلى رأسها الولايات المـــتحدة ، وقـــد عـــاد العديد من هؤلاء وهو يحمل الدكتوراه فى التربية ، ومـــناهجها ، وأسســـها ، ومـــا يرتـــبط بهـــا من علم نفس الطفل ، ونظم الامـــتحانات ، وتقويم الأداء . . الخ . وراحت العجلة تدور، وكليات التربية تتضخم ، وأعداد الطلاب تتزايد ، والمحاضرات النظرية تطغى على التدريب العملـــى ، وهـــو الأمـــر الـــذى أدى إلى إنتاج أجيال من الخريجين الذين لا يصلون إلى المستوى المطلوب فى المعلمين من العلم والثقافة . .

وعـــندما ســـألنا عـــن الســـبب وجدناه يتمثل أساساً فى غلبة العلوم الـــتربوية علـــى العلـــوم التخصصـــية ، بمعنى أن الطالب الذى يتم إعداده لـــتدريس الرياضـــيات أو العلـــوم أو اللغـــة العربـــية لا يحصـــل من هذه التخصصـــات المهمة إلا على قدر ضئيل جداً ، وأحياناً سطحى ، بالنسبة لما يدرســـه مـــن علـــوم التربـــية والنفس . وهكذا تحولت الوسيلة إلى غاية ،

وانكمشـــت الغايـــة فـــى نطـــاق محدود ، وخرج جيل من المعلمين الذين لا يجـــيدون تخصصاتهم ، وإن كانوا يعرفون الكثير عن كيفية التعليم (نظرياً) وطرق التدريس (منهجياً) ، بينما اختفى الجانب التدريبى أو كاد .

مـــاذا كـــان يحدث قبل ذلك ؟ كان هناك نظام تربوى رائع . وهو أن نســـمح لطـــلاب الجامعـــة أن يتخصصوا لمدة أربع سنوات فى أى تخصص يرغـــبون فيه، ثم بعد التخرج يلتحقون بكلية التربية لمدة عام واحد ، ينقسم إلـــى جانـــب نظـــرى، وجانـــب آخـــر تدريـــبى . وهكذا نحصل على أفضل المدرســـين، نظـــراً لأن مـــن كان يقبل بمحض اختياره على هذه الكلية هم الشـــباب الراغب فعلاً فى التدريس ، وهكذا تكون أمامه الفرصة للاختيار ، واتخاذ القرار فى الوقت المناسب للعمل الذى يرتضيه لمستقبله المهنى .

كنـــت أتابع هذه التجارب وأنا صامت ، لأن الأصوات التربوية العالية كانـــت تملأ الساحة بضرورة أن توجد كليات تربية تبدأ مباشرة بعد الثانوية العامـــة . وكنـــت ألاحـــظ مدى الضعف الذى أصاب المدرسين فى المدارس الإعداديـــة والـــثانوية - إلا من رحم ربى - وأتحسّر على دقة النظام الذى كان معمولاً به ، وتخرج على أساسه أجيال من المدرسين المتميزين .

هل يمكن القول بأنه قد حان أوان الاعتراف بفشل كليات التربية ؟ أم نظل نكابر على استمرار الخطأ ؟ وهل نريد حقاً أن نعد معلمى القرن الحادى والعشـــرين علـــى أســـاس ســـليم ، أم نواصـــل تخريج أجيال من المعلمين الضـــعاف، الذيـــن لن يتخرج من تحت أيديهم سوى تلاميذ ضعاف ؟ ونحن نعلـــم أن الضـــعف لا يليق بحاضرنا ، ولا بمستقبلنا فى ظل منافسة عالمية شرســـة، لا بقاء فيها إلا للأقوى. وأن مصدر القوة الأساسى فى أى مجتمع هو التعليم .

كـــم عدد الحجاج إلى بيت الله الحرام بالضبط ؟ تصوروا أن الأرقام متضاربة ، ولا يمكن التأكد من صحة أى منها حتى اليوم . البعض يقول أكـــثر من مليون ، وهناك من يقول أكثر من مليون ونصف ، وهناك من يقول أكثر من مليونين ، أو حتى ثلاثة ملايين !

لمـــاذا الســـؤال ؟ لمعـــرفة عدد المسلمين الذين ساعدتهم الظروف الحســـنة علـــى أداء الشعيرة الرابعة من شعائر الإسلام . وبالطبع يوجد ملاييـــن المســـلمين الذين كانوا ومازالوا يتمنون أداء تلك الشعيرة ، التى يقومون بها ، استغفاراً لما سبق فى حياتهم من ذنوب ، وتأكيداً على فتح صـــفحة جديـــدة مـــن أعمالهم . ولا شك أن معرفة العدد تشير إلى مدى تمســـك المسلمين بدينهم ، وحرصهم على أداء شعائره . والمؤكد أن كل شـــعيرة يؤديهـــا المسلم فإنها تجعل منه إنساناً فاضلاً ، أو بتعبير آخر ، عضـــواً صـــالحاً فى المجتمع ، يسهم فى بنائه ، ويعمل على استقراره ، ويجهد من أجل رفعته وازدهاره .

الحج له جانبان . الأول فردى شخصى يتعلق بكل إنسان على حدة. فهـــناك ، حيـــث الكعـــبة التى يتجه إليها جميع المسلمين من شتى أنحاء العـــالم فى صلواتهم ، يأتى المسلم لكى يطوف حولها ، ويؤدى مجموعة مـــن المناسك ، وفى كل ذلك يدعو الله تعالى ويبتهل إليه قائلاً: لبيك اللهم لبـــيك ، أى أننى جئت ملبياً دعوتك لى ، خالصاً لك من أهلى وأصدقائى ، طالـــباً غفرانك ومحو ذنوبى ، طامعاً فى رضاك عنى وتوفيقك لى . ومن المقـــرر أنه على قدر صفاء الإنسان وصدق نيته فى التخلص من أخطائه

السابقة يكون غفران الله تعالى له ، وهذا ما يطلق عليه الحج المبرور.

أمـا الجانـب الـثانى للحـج ، فيتمثل فى الإمكانية المتاحة لجميع الحجـاج مـن سـائر بلاد العالم فى الاجتماع ، وتبادل المصالح ، وبحث الأحوال ، واتخاذ القرارات المناسبة . وهذا هو الجانب الجماعى الذى دعا الله سـبحانه المسلمين إليه بقوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) . وإذا كانت المـنافع من الألفاظ التى تشمل كل ما فيه مصلحة للمسلمين ، فإننا ينبغى أن نلاحظ كيف تم التمهيد لها باجتماع المسلمين . ولا يمكن أن تتم منفعة بـدون اجتماع يتلوه اتفاق وتراض ومصالحة . وإذا كانت هذه الأمور تتم فـى الحياة العملية من خلال مؤتمرات ومباحثات وإعداد وترتيبات ، فإن المسـلمين ، وقد تطهروا بالحج ، يكونون فى الوضع الأفضل تماماً لمثل هذه المؤتمرات . فلا يعقل مثلاً أن تتغلب المصلحة الشخصية على الصالح العـام ، أو يعلو صوت السيطرة والغلبة على أصوات المساواة والعدالة ، كمـا لا يعقـل أبداً أن تتم موالاة الأعداء ، ومحاربة المسلمين أو الإيقاع بهم ، كذلك لا يعقل التخلى عن نصرة المظلومين والذين تعرضت أوطانهم لاحـتلال الأجنـبى . أما المعاهدات الاقتصادية ، والاتفاقيات السياسية ، والتنسـيق الأمـنى ، واحترام حقوق الجوار ، والتبادل الثقافى ، وتقوية العلاقات الاجتماعية ، فهى كلها أمور ينبغى على المسلمين أن يتدارسوها عقب أداء فريضة الحج ، وأن يصلوا فيها إلى حلول إيجابية . .

أما أن يندفع الحجاج بعد انتهاء الفريضة إلى شراء السبح والبخور والسجاجيد والجلاليب الصينية والعبايات التايوانية . . فهذا أمر آخر !

الحزام أم العادم

استبشـــرنا جمـــيعاً حين قررت وزارة الداخلية ضرورة استخدام حـــزام الأمان لكل قائدى السيارات ، حفاظاً على حياتهم ، وخاصة عند وقـــوع حـــادث . فقد أثبتت الإحصائيات أن نسبة الحوادث البشرية تقل جداً عند اصطدام السيارات أو انقلابها وخاصة حين يكون السائق ومن يجلـــس إلـــى جواره ملتزمين بربط الحزام الواقى من الارتطام. وعلى الـــرغم مـــن أن الكثير من السائقين كانوا فى بداية صدور هذا القرار مســـتائين من ربط أنفسهم بمقعد السيارة لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن القـــرار إنما وضع ونفذ من أجل الحفاظ على حياة السائقين إلى جانب أرواح مـــن يصحبونهم فى نفس السيارة. وأعتقد أن المجتمع المصرى قـــد اقتـــنع الآن بصواب القرار والحكمة منه . وتلك خطوة جيدة على طريق المرور الطويل.

أتمـــنى الآن أن تـــتم الخطوة الثانية وهى تتعلق مباشرة بصحة المواطنيـــن ، وخاصـــة المشاة ، أو ساكنى البيوت التى تمر السيارات بينها وأقصد بها عادم السيارات الذى ينفث الجحيم نفسه لكى يستقر فى رئة المواطن المسكين ، ولا يقتصر فقط على من يمشى فى الشارع ولا لسكان البيوت والعمارات وأصحاب المحلات التجارية ، بل حتى لسائقى السيارات الأخرى ، وإذا كانت بعض السيارات المكيفة تحاول أن تحمى نفســـها من هذا العادم القاتل بإغلاق نوافذها ، فلا ينبغى أن نتجاهل أن الهـــواء الذى يدخل إلى أجهزة التكييف هو هواء شديد التلوث ، شديد التركيز ، وبالتالى فإنه يرهق جهاز التكييف بها ، ويجعله يعمل بصورة

مضاعفة لكى ينقى الهواء داخل السيارة .

وهنا لابد من توجيه التحية فى هذا الصدد إلى قرار تحويل بعض الأتوبيسات فى القاهرة من استخدام البنزين والسولار إلى استخدام الغاز ، وأعتقد أن هذا جاء من وزارة البيئة ، التى أرجو أن تتبنى مكافحة عوادم السيارات ، وأن تتكاتف مع إدارة المرور بوزارة الداخلية ، لاستصدار قرار بوقف السيارات التى تلوث عوادمها الهواء، وتعصف بصحة المواطنين . وإذا أردنا الاسترشاد بتجربة أوربية جيدة فإنهم فى ألمانيا يكشفون على كل السيارات مرة كل عامين ، والسيارة التى تثبت عدم صلاحيتها للسير ، أو تتسبب فى تلوث البيئة يتم إلغاء تصريحها على الفور . والمسألة بالطبع تمضى بصورة حاسمة ، ولا مجال لأى تهاون أو مجاملة فيها : فإما أن يثبت الكشف على السيارة بالكمبيوتر أنها جيدة جداً أو لا . ولا مكان لتقدير ضعيف أو مقبول أو حتى متوسط !

لهذا فإننى أتساءل : هل كان من الأجدر أن نبدأ بربط الحزام أم بالحد من خطورة العادم ؟ وعلى أية حال فإننا متفائلون . وننتظر قراراً جريئاً يخلص المدن من الدخان ، والصدور من التدمير ، والحياة من العدم أو العادم. وأملنا أن يستجيب لذلك السيد وزير الداخلية ، بحيث لا يخلصنا فقط من العوادم الدخانية بل ومن السيارات التى كادت تختنق بها المدن ، وخاصة تلك التى تستخدم السولار ، ومعها الدراجات البخارية التى لا تسير إلا حولها عاصفة من الدخان.

الدراجات . . حل مقترح

لمــاذا لا يقبل المصريون على استخدام الدراجات فى الذهاب إلى أعمــالهم ؟ ولمــاذا لا نشجع تلاميذ المدارس ، وطلاب الجامعات على الذهــاب مــن وإلــى أماكــن دراستهم ؟ من مزايا الدراجة أنها تحرك العضلات وتقويها ، كما أنها لا تؤذى البيئة بأى ضرر سواء كان دخاناً أو اســتهلاكاً للطــرق الأســفلتية . أما الحوادث فإننا لم نسمع أبداً أن شخصاً قد قتل أو جرح نتيجة اصطدامه بدراجة ! يبقى أمر هام ، وهو ضــرورة تخصــيص مســاحة محددة لها فى الشوارع ، بحيث تصبح حركــتها حــرة وميسورة ، كما ينبغى أن يخصص لها مكان محدد فى الجامعات والمدارس وأماكن العمل ، وهى بالتأكيد أماكن لن تكون أكبر مــن الأماكن التى تركن فيها السيارات . أما سرقتها فينبغى أن يوضع لها عقاب رادع ، حتى لا يتجرأ على سرقتها لصوص متخصصون مثل الأحذية فى المساجد .

قــال لــى أحد الأصدقاء : كيف تريدنى أن أذهب إلى عملى راكباً (عجلــة) ؟ وكــيف ستكون نظرة زملائى ومن هم أقل منى فى الدرجة المالية والإدارية ؟ وهنا تكمن العقبة الرئيسية فى عدم إقبال المصريين على استخدام الدراجات، لأننا نعلم جميعاً أن سعر الدراجة ليس مرهقاً، كمــا أن ســوء حالة الطرق لا يشكل مانعاً أساسياً ، بل إن تعلم ركوب الدراجــة أســهل بكثــير مــن تعلم قيادة السيارة . وهكذا فإن النظرة

الاجتماعية هى التى تقف وراء عدم استخدام تلك الوسيلة السهلة والبسيطة والنظيفة للتنقل من مكان لآخر . وبالطبع لا يمكن أن يتصور أحد أننى أدعو موظفاً أو طالباً يسكن فى شبرا الخيمة أن يستخدم الدراجة فى الوصول إلى ميدان التحرير أو إلى مبنى الجامعة بالجيزة . وإنما المقصود هو استخدام الدراجة فى الأماكن القريبة أو المعقولة . وإذا أردنا أن نقارن بما يحدث فى الغرب ، فإن الدراجة تقوم بدور مهم جداً ، ولا تحيط بها (دونيا) تلك النظرة الاجتماعية التى توجد لدينا . فبعض مديرى المصالح يستخدمونها ، وهناك جامعة بأكملها فى إنجلترا لا يذهب إليها أستاذ أو طالب إلا مستخدماً الدراجة . ومن اللافت للنظر أننى عندما زرت أوربا أخيراً وجدت الشباب قد تجاوزوا الدراجات إلى استخدام الزلاجات ، وهم يمرقون بها فى الشوارع مثل العفاريت تماماً، ولديهم مقدرة فائقة على تجنب العوائق ، والقفز بها من وإلى الأرصفة، وهى بالطبع وسيلة أسرع لكنها أخطر ، لأن الخطأ الواحد فيها قد يكلف صاحبها عدة أيام أو شهور فى الجبس !

أما لماذا أدعو الآن إلى استخدام الدراجات ؟ فلأننى عندما أنظر فى الشوارع أجدها قد اكتظت بالسيارات على نحو مخيف ، وإذا استمر المصريون فى شراء المزيد منها ، وبالتسهيلات التى أصبحت متوافرة، فسوف نجد أنفسنا أمام أزمة حقيقية ، لن تمتلئ فيها الشوارع بالسيارات فحسب ، وإنما سوف تسد مداخل البيوت !

الدروس الخصوصية ثانية

عـادت أزمـة الـدروس الخصوصية المستشرية بعنف فى الجهاز التعلـيمى كلـه إلى الظهور فى هذه الأيام حين بدأت لجنة التعليم بمجلس الشـعب تناقشها ، محاولة إيجاد حلول لها ، ومن بينها تلك الحل العجيب الـذى تـم طـرحه ، وهو العمل على تقنينها حيث تبيّن عدم القدرة على القضاء عليها أو الحد منها . . ومبعث الدهشة هنا يرجع إلى أن الإنسان عندما يفشل فى حل مشكلة يضع تشريعاً لها ، أى قانوناً يقر بشرعية تلك المشكلة ، والتعايش معها . والعجيب أن هذا الأسلوب لو تم تطبيقه على مشـكلات مماثلة كالمخدرات مثلاً لأراح الحكومة من المتابعة والمكافحة وبذل الجهود المضنية من أجل القبض على بعض تجار المخدرات . . ولو أنـنا عجـزنا عـن حل مشكلات المرور فقلنا إن الحوادث التى تتم على المـزلقانات ونتيجة لعدم الالتزام بالسرعة المحددة أو بالإشارات هى أمر طبـيعى أو جزء لا يتجزأ من المرور لما أصبح هناك داع لوجود إدارات للمرور فى كل بلاد العالم . .

الحـل إذن مضحك ، وهو يعبر عن فشل ذريع ، وعجز كامل عن مواجهـة أزمة الدروس الخصوصية بالشجاعة اللازمة . . وأول مظاهر هـذه الشـجاعة إدانة الدروس الخصوصية التى يقوم بها المدرس سواء كانـت فـى المدرسة أو الجامعة ، ووضع عقوبة رادعة لها ، ثم تنفيذها بدون تهاون أو استثناءات . . ولا شك أن هذه العملية تتطلب من الدولة تخصـيص جانـب من نظامها القضائى ، وجانب آخر من نظامها الأمنى لمتابعة مخالفات الدروس الخصوصية ، والتى ينبغى أن تحارب أيضاً على مسـتوى المـدارس والجامعـات بحيث يفصل من مهنته على الفور من

يمـــارس هذا العمل. أما التعلل بضعف المرتبات فتلك حجة لا أساس لها ، وإلا كـــان من المباح للإنسان الفقير أن يسرق ، وهذا ما لا يقبله عقل أو دين . .

وأعود مرة أخرى فأقول إن الدروس الخصوصية (جريمة تعليمية) يشترك فيها ثلاثة عناصر : التلميذ والمدرس وولى الأمر . فالتلميذ يطلب الدرس الخاص لأنه لا يفهم ، والمدرس يقبل لأنه يستفيد ، أما ولى الأمر فهـــو الذى يستجيب لأبنه ، ويدفع للمدرس . وهكذا ينبغى أن نفصل هذه العناصـــر بعضها عن بعض . أما عدم فهم التلميذ فإنه يحتاج إلى تبسيط المقررات ، وتحسين مستوى التأليف ، وشرح كل ما يرد من مصطلحات صـــعبة فـــى ملحـــق بآخـــر كل كتاب . وأما المدرس فينبغى متابعته فى المدرســـة مـــن حيث الأداء ، والحضور ، وعدم الغياب إلا بعذر مقبول . يبقى أولياء الأمور وهؤلاء يحتاجون إلى حملة إعلامية تؤكد لهم أنهم هم المســـئولون أساســـاً عـــن تمويل تلك الجريمة التى تفاقمت عندنا بصفة خاصة حتى أصبحت أزمة.

هـــناك نكتة فرنسية ذات مغزى تقول إن شخصاً ذهب إلى الطبيب ، وعـــندما دخـــل علـــيه ، وضـــع إصبعه على المكتب ، وأخرج من جيبه شاكوشاً باليد الأخرى ثم هوى به على إصبعه ، وسقط يتلوى من الألم . وعلـــى الفور نهض الطبيب لإسعافه ، وبعد أن أفاق من حالته صاح فيه الطبيـــب : لماذا فعلت هذا بنفسك أيها المجنون ؟ فأجابه : لكى أطلعك يا دكتور على حالتى : فأنا كلما قمت بهذا العمل حدثت لى نفس الحالة !

ولا أجد تعليقاً ساخراً على حل الدروس الخصوصية فى بلادنا أبلغ من تلك النكتة.

الدعم العام والخاص

موضـــوع الدعـــم حساس للغاية . فأنت إذا اقتربت منه اتهموك بمحاربـــة الفقـــراء، ومحاولـــة قتل محدودى الدخل . لكن المسألة لها تفصيل . فمن حق الفقراء ومحدودى الدخل أن يحصلوا على احتياجاتهم الضـــرورية بدعم كامل أو جزئى من المجتمع . أما القادرون ومن هم أعلـــى منهم فينبغى أن تتوقف الدولة عن دعمهم . لأنه من الظلم البين أن يحظـــى إنسان لديه سيارة بربع مليون جنيه ، وشقة بنصف مليون برغـــيف خبز مدعوم أو بكيلو سكر أو زجاجة زيت مثل الإنسان الفقير أو محـــدود الدخل . وإذا اتفقنا على ذلك ، وأظن أنه لا أحد يستطيع أن يخـــتلف أو (يـــزايد) فينـــبغى أن نـــتقدم خطوة إلى الأمام بحيث تصدر القوانيـــن وتـــتخذ الإجراءات التى تضمن قصر الدعم على المستحقين بالفعل ، كما تضمن توزيعه عليهم بصورة ميسورة وكريمة .

وبالطـــبع كان لدينا بطاقات التموين التى يتم تسجيل أفراد الأسرة فـــيها لكـــى تمـــنحها الدولة بعض المقررات المدعومة من سكر وزيت وشـــاى وصـــابون ، وقـــد علمـــت أن قراراً وزارياً صدر بإيقاف هذه الـــبطاقات ، وكان قراراً صائباً لأن البطاقات كانت تمنح لكل المواطنين دون الـــنظر إلى حالاتهم الاجتماعية أو مستوياتهم المعيشية ، المعتمدة على دخل شهرى ، أو مستوى معين . . لذلك لابد من إعادة التفكير فى

بطاقـــات تموين أخرى ، تصدر على أساس دخل الأفراد ، وليس عددهم وأن تحدد لها مقررات معينة بدءاً من رغيف الخبز إلى الدقيق والسكر إلى بعض الأمتار من القماش وحتى الدواء والأحذية . . وبالطبع سوف يدعـــى البعض أنهم يستحقون الحصول على مثل هذه البطاقات ، ولكن المـــتابعة اليقظة والإجراءات المعقولة يمكنها أن تنتهى بتصفية أعداد المحتاجيـــن بـــالفعل إلـــى دعم الدولة ، وبهذا نعفى الحكومة من عبء (الدعم العام) الذى يقدم للفقير والغنى على السواء .

إنـــنى أتوقـــف كثيراً أمام منظر السيارة الفخمة جداً عندما ينزل منها صاحبها (الباشا) ويشترى كمية من الخبز الذى يباع فى حى بلدى ثم يضعها فى مؤخرة السيارة ، وينطلق . . وأتساءل : هل من حق هذا الشـــخص بمكانـــته ومركـــزه ودخله أن يحصل على نفس الدعم الذى يحصـــل علـــيه أبـــناء البلد الفقراء ؟ أم أن المسألة محتاجة إلى تفكير وترشيد ؟

وقد يمكن الاتجاه إلى دعم فئات معينة ، أو أصحاب سن معينة ، أو عـــائلات ذات عـــدد معيـــن مـــن الأبناء ، أو أشخاص عاجزين عن الكســـب، أو نســـاء أرامـــل ليس لهن عائل . . المهم ألا يستمر نزيف ميزانية الدولة فى (الدعم العام) الذى يضع الغنى فى نفس خانة الفقير، وأن يصـــبح لهذا الأخير (دعمه الخاص) الذى يستحقه بالفعل . وعلى الله قصد السبيل .

أقصـر حديثى هنا على لاعبى كرة القدم ، الذين نحبهم ، ونهتم بأخبـارهم ، ونتـابع حـركاتهم وسكناتهم فى الملعب ، وتتوقف آمالنا أحيانـاً علـى ما يحققونه لمصر من مكسب ، كما نزرف الدموع على خسـارتهم فـى المـباريات . هـؤلاء اللاعبون هم نجوم الرياضة فى المجـتمع ، وبهـم يتعلق الجيل الجديد ، وينظر إليهم باعتبارهم قدوة يتمـنى الآلاف بـل الملايين من الأطفال أن يكونوا – عندما يكبرون – مـثلهم . والسؤال الآن : هل يدرك لاعبو الكرة مكانتهم تلك فى نفوس الناس ؟ وهل يعلمون أنهم بنجوميتهم قد أصبحوا يؤثرون فى مشاعرهم وحياتهم ؟ أشك فى هذا . . لأن سلوك البعض منهم فى المجتمع لا يدل على ذلك . أحياناً نسمع عن واحد منهم يرد اسمه فى قضية آداب ، أو مخـدرات ، أو تجـاوز للسرعة ! وقد يقال إن هؤلاء اللاعبين بشر ، وأنهم يخطئون مثل سائر البشر ، ولكن المفروض أن الإنسان إذا أصبح شخصـية عامة زادت واجباته والتزاماته تجاه المجتمع ، واشتد تحفظه فـى جميع تصرفاته بحيث لا يظهر منه إلا الجانب الحسن ، أما الجانب السـئ فعليه أن يحرص على إخفائه قدر الاستطاعة ، وكما قيل بحق (إذا بليـتم فاسـتتروا) وذلـك حـتى لا تصبح أعمالهم نموذجاً يحاكيه الآخـرون ، ويقـول الجهلاء : إذا كان فلان وهو من هو قد فعل ذلك ، فلماذا لا نفعل مثله ؟

أما سلوك اللاعبين فى الملعب فلا يقل أهمية عما سبق . فاللاعب الجـيد دائمـاً لاعـب مهذب : لا يعترض على قرارات الحكام ولا يثور

عليهم ولا يتشاجر مع لاعبى الفريق المنافس ، أو يتسبب فى إيذائهم ، وفــى نفــس الوقت يتعاون مع زملائه فى الفريق ، ولا يستأثر دونهم بالفــرص المــتاحة ، بل يؤثرهم على نفسه ، ويساعدهم على تحقيق الأهداف التى هى فى النهاية مكسب لفريقه كله .

والواقــع أن تــاريخ كــرة القدم يحفل بالنماذج المشرفة للاعبين المتميزيــن ، والذين سجلوا أسماءهم بجدارة ليس فقط لدى شعوبهم ، بل فى العالم كله . ولدينا فى هذا الصدد (بيليه) الذى ما زال متواجداً فــى المباريات كرمز مضئ للاعب المتميز رياضياً وخلقياً ، ولدينا فى مصر (محمود الخطيب) الذى لم يبلغ مكانته حتى الآن لاعب مماثل فى كفاءتــه ودماثــة أخلاقــه ، وحسن سلوكه فى الملعب وخارجه . وفى فرنســا الآن (زيــدان) اللاعب الجزائرى الأصل ، والذى ينضم إلى تلك النخــبة المتألقة فنياً . أما الجانب المظلم من الصورة فيمثله (ماردونا) الــذى تــألق فنياً ولكنه سقط أخلاقياً . وعلى الرغم من إعجابنا الشديد بأدائه فى الملعب إلا أن سلوكه المشين فى المجتمع ، والتجاوزات التى ارتكبها قد لطخت صورته الكروية التى كانت بالفعل متميزة .

أتمــنى أن يــدرك لاعــبو كرة القدم أن التفوق الرياضى لابد أن يصــحبه سلوك مهذب فى كل من الملعب والمجتمع . وأن يدركوا أيضاً أن حــب المجتمع تقابله مسئولية صعبة من جانبهم ، وهى أن يكونوا دائماً على المستوى ، وأن يتمسكوا جيداً بشعار : الرياضة أخلاق .

السياحة هى الحل

عقدنـــا ندوة مصغرة جداً تكونت من مجموعة أصدقائى فقط ، وفيهم الاقتصادى والطبيب والفنان والميكانيكى والفلاح . وأجمل ما فى هذه الشلة أن كــل واحــد فيها يحسن الحديث فى غير تخصصه ، كما أنهم جميعاً من هـــواة طـــرح الأسئلة ، والسؤال كما نعلم هو مفتاح خزائن العلم . وعندما جـــرى الحديــث عـــن مســـتقبلنا الاقتصادى فى ظل أزمة السيولة والركود الأخيرة ، توالت الأسئلة : هل هى أزمة عابرة أم أنها نتيجة تراكمات طويلة ســـابقة ؟ وهـــل تخصـــنا وحدنـــا فى مصر أم أنها تضم معظم دول العالم ، وخاصـــة الدول النامية ؟ وما هى الوسائل الفعالة والسريعة للخروج منها ؟ وكـــيف ســـيكون مستوى إنتاجنا إذا ما قورن بالمنتجات العالمية التى سوف تنافســـه على أرضنا فى ظل اتفاقية الجات ؟ وهل يمكن إرجاع سبب الأزمة إلـــى نظامـــنا الاقتصـــادى أم إلـــى طبـــيعة المصريين الذين لا يجيدون فن التســـويق، بيـــنما يتقنون أصول الزراعة والصناعة ؟ وكان من الممكن أن تســـتمر تلـــك الأســـئلة الصعبة أكثر من ذلك ، لولا أن صديقنا الفلاح صاح قـــائلاً: يـــا جماعة ، المصيبة أن الجنيه الذى كان يساوى فى الماضى ستة دولارات قد هبط إلى أقل من ربع دولار ثم أضاف : لقد عاصرت وأنا صغير الجنـــيه المصـــرى يساوى الجنيه الإسترلينى بل ويزيد عليه قرشين ! وهنا قـــال الاقتصـــادى: المسألة ترجع ببساطة إلى مستوى التطور فى الاقتصاد المرتـــبط بعملة الدولار ، واقتصادنا المرتبط بالجنيه . قارنوا وسوف تجدون الحـــل فى أيديكم ؟ قاطعه الميكانيكى : أى حل . إننا لسنا أقل كفاءة من أى شـــعب آخر ، فى تحمل العمل الشاق، وبذل الجهد المضاعف من أجل إنجاز منتج مصرى جيد . لكن مصيبة الجات ، والمواصفات الصعبة التى وضعتها

الـــدول الأجنبـــية ، وراحـــت تطبقها علينا بمنتهى الصرامة جعلت منتجاتنا المصرية تخرج من المنافسة ، وبالتالى تقل قيمتها أو تصبح عديمة القيمة.
وأضـــاف الطبيب : والأدهى من ذلك أننا إذا تفوقنا مثلهم فى سلعة ، ورحنا نصـــدرها لهـــم ، أوقفوهـــا بحجة سخيفة اسمها " الإغراق " ! لكن الفنان اعـــترض قائلاً : إنكم دائماً تمدحون أنفسكم ، ولا تقبلون أن تسلموا بالفارق بيـــنكم وبين نظرائكم. وأنا أتحداكم أن تدلّونى على أى سلعة مصرية تتفوق علـــى مثيلتها المصنوعة فى أى دولة بالخارج . أجاب الفلاح بحسم : جميع المنتجات الزراعية ، والفواكه تستطيع أن تنافس كماً ونوعاً . تراجع الفنان قـــائلاً : أنـــا أقصـــد المنتجات الصناعية . وأكاد أقول إن بلاد شرق آسيا ، المتوســـطة المستوى ، قد تغلبت علينا فى صناعات كثيرة جداً ، وخذ عندك مـــثلاً الجلابيب ، وفوانيس رمضان ! ابتسم الطبيب قائلاً: بصراحة أنا عندى فـــى السيارة فانوس صينى يضئ ويؤذن للصلاة . . لكن الفلاح عاد يسأل : وما الحل ؟ أجاب الاقتصادى بمنتهى الثقة : الحل فى السياحة . فهى السلعة الوحـــيدة الـــتى تمتلك مصر كل عناصرها ، ولا يبقى عليها سوى أن تنشر الوعـــى بهـــا بين أفراد الشعب ، لكى يرتفع عدد السائحين لديها من خمسة ملاييـــن إلـــى خمســـين ملـــيوناً ، كما هو الحال فى أسبانيا مثلاً . وتساءل الفلاح: وهل الوعى وحده هو السبب فى عرقلة السياحة ؟ قال الاقتصادى : أجـــل هو الأساس . فإذا أدرك الشعب ذلك قام من تلقاء نفسه ببناء الفنادق المتعددة المستويات ، ومن أهمها المستوى الثانى المتواضع ، ودرب أبناءه علـــى حســـن استقبال السياح ، والتعامل معهم بالشرف والأمانة إلى جانب الذوق والابتسامة ، وسهل لهم حرية الإقامة والتنقل بين ربوع البلاد سواء فى المدن والريف ، أو فى الأحياء الراقية والأحياء الشعبية. ثم أنهى حديثه قـــائلاً : فـــى كـــل المجالات سوف نتعرض لمنافسة شرسة ، إما فى سوق السياحة وحده فلا أحد يستطيع أن ينافسنا فيه .

أقصـــد بهـــذه الســـيارات تلك التى انتهت صلاحية استخدامها ، وتـــركها أو هجـــرها أصحابها فى الشوارع ، أحياناً مغطاة بقماش قذر ومـــتهرّئ ، وأحـــياناً مكشـــوفة تماماً وصدئة ، وأحياناً ثالثة منزوعة الأعضـــاء الداخلية ، وكذلك العجلات . والسؤال الآن لإدارات المرور ، والسادة رؤساء المدن إن لم يكن للسادة المحافظين : لماذا تتركون هذه الســـيارات الميتة فى الشوارع ، مركونة بجانب الأرصفة ، بحيث تأخذ مكانـــاً يمكـــنه أن يتيح فرصة لأصحاب السيارات المتحركة أو الحية ؟ وهـــل تـــرتاح أعيـــنكم لمـــنظرها وهـــى مخربة وقائمة بين السيارات الصحيحة وبجانب المنازل ؟ وأليس من الممكن ، القريب أو البعيد ، أن تســـتخدم أمـــثال هذه السيارات فى تخزين بعض المواد الضارة (ومنها المخـــدرات) ؟ إننى أتعجب من أن هناك وظيفة لشخص أو مهمة لجهة حكومـــية مـــن واجـــبها مـــتابعة هذه السيارات الميتة والمركونة فى الشـــوارع، والقيام بإزالتها وتشوينها ، أو تغريم أصحابها إذا كانوا هم السبب الرئيسى فى تعطيلها. حدثنى البعض أنهم رأوا بعض المتشردين يقـــيم فى تلك السيارات ويجعل منها مسكناً له . وقيل أيضاً إنها مأوى دائم للكلاب الضالة ، وأحياناً المسعورة ، التى تنقض فى أية لحظة على

أى شـــخص يسير بجانبها . وقيل أيضاً إنها تستخدم فى بعض الأحيان لأعمـــال منافـــية للآداب . والعجيب أننى سمعت ذلك كله من أشخاص محترميـــن ، وهـــذا معـــناه أن الظاهرة موجودة ، وهى تنذر بالخطر . والســـؤال الآن: هل سمع المسئولون عن المرور فى الشوارع عن هذه المخاطر والأضرار التى تكمن داخل هذه السيارات المركونة ؟ ولماذا لا تبلغ سيارات الشرطة الدوّارة عن أمثال تلك السيارات للقيام على الفور بـــرفعها ، ووضـــعها فـــى مكـــان مـــا، مع تغريم صاحبها الذى يريد استردادها، وتحميله بنفقات النقل ، واشغال الطريق ؟

إن بـــلاد العـــالم المتحضـــرة لا توجد بها مثل هذه الظاهرة على الإطلاق . فكل سيارة بها رقم ، ولها صاحب . أما عندنا فهذه السيارات بدون أرقام ، ويبدو كذلك أنها بلا أصحاب ، ولذلك ينبغى إصدار قرارات فوريـــة بنقلها وتنظيف الشوارع منها . وأكاد أؤكد أن بعض الشوارع فـــى القاهرة والجيزة سوف تتخلص من العديد من أمثال هذه السيارات مـــن هذا النوع بها . وبذلك يعود الوجه الحضارى لشوارعنا ومدننا . وفق الله المحافظين ورؤساء المدن إلى ما فيه صالح المجتمع ، وخدمة المواطنين .

السياسة لخدمة الاقتصاد

فى عام 1913 كتب أحمد لطفى السيد مقالاً بدأه بعبارة " السياسة فى خدمة الاقتصاد " وفى رأيى أنها من العبارات القوية التى يمكن أن تصــلح أساساً لاستراتيجية كاملة لدولة، بل حتى لمجموعة دول. ومن العجيب أن مصر قد قضت فترة طويلة من عمرها خلال القرن العشرين ، وهــى تــأخذ بنقــيض هذه الفكرة تماماً . فقد كان الاقتصاد دائماً فى خدمة السياسة ، أى تابعاً لها . وهذا معناه أننا إذا اختلفنا فى السياسة مع بلد معين قاطعناه اقتصادياً ، فلا نصدر له ، ولا نستورد منه ، حتى ولو كان ذلك عائداً بالخسارة علينا فى كلا الحالين .

ولأنــنى من جيل ثورة 52 ، فقد شهدت ذلك بوضوح ، وخاصة عــندما خاصــمنا المعسكر الغربى ، فتوقفت تماماً تعاملاتنا الاقتصادية معــه ، واعــتمدنا بالتالى على المعسكر الشرقى ، مما أدى إلى ضعف شــديد فى قدرتنا التكنولوجية ، وعدم مجاراتنا للثورة الإلكترونية التى تفجرت فى الربع الأخير من القرن العشرين .

لكنــنا فــى عهد السادات ، تنبهنا لأهمية الانفتاح على الغرب ، وبدأنــا فــى الــتعامل الاقتصــادى معــه ، الأمر الذى أحدث قدراً من الانتعاش، ظهرت آثاره للمواطن العادى فى توافر السلع ، وعدم حدوث مطبات فى متطلبات الاستهلاك والإنتاج .

وقــد شــهد عهد مبارك – والحق يقال – سياسة خارجية ناجحة قامــت على أساس الانفتاح المتوازن مع كل دول العالم بدون استثناء ، وقامت سفاراتنا بدور هام فى هذا الصدد ، وهو الأمر الذى وضع مصر

علـــى طــريق صـــحيح ، تمت خلاله عملية إصلاح اقتصادى شامل ، واكتملـــت معـــه عناصر البنية الأساسية من الكهرباء والماء والصرف الصـــحى ، والطـــرق والتليفونات . . وكان لابد من التحول الاقتصادى الذى يخرج به المجتمع من أسلوب القطاع العام ، الذى ثبت فشله ، إلى نظـــام المشـــروعات الخاصـــة ، مـــع ضـــمان حقوق أصحاب الدخول المتوســـطة والضـــعيفة . . وتلك هى المشكلة التى تسعى الدولة حالياً للتغلب عليها .

لكـــن يبقى أن مبدأ تطويع السياسة للاقتصاد يظل من أهم مبادئ نجـــاح المجـــتمعات المتقدمة ، وقد شاهدت ذلك بنفسى ، أثناء إقامتى الطويلة فى فرنسا ، فقد كنت ألاحظ رؤساء الدول الأوربية لا يتحركون خـــارج بلادهـــم فـــى الغالب إلا لتوقيع عقد تجارى فى مجال البيع أو الشـــراء . وكـــان الحصول على عقد مصدر فرحة كبرى فى المجتمع ، بيـــنما كـــان فقدانه مبعث حزن وأسف ، ما يلبث أن يتحول إلى تصميم على الفوز من جديد .

لذلـــك فإننا نتابع باهتمام دعوة الرئيس مبارك إلى إنشاء السوق العربـــية المشتركة، التى هى بمثابة الركيزة الأساسية لتبادل المصالح والمنافع بين الدول العربية، بدلاً من ارتفاع الأصوات بشعارات سياسية جوفـــاء ، جربناها طويلاً ، ولم نجن من ورائها سوى الألم الذى انتهى بنا إلى شعور متحجر باللامبالاة .

اتصل بى السيد محمد عبدالعليم ، المحاسب بمطار القاهرة ، والغيور على ازدهار السياحة فى مصر ، وقال لى بحزن شديد : إلى متى يستمر نزيف الدماء على الأسفلت بهذا الشكل ؟ قلت له : تقصد كثرة حوادث السيارات . قال : هذا أيضاً مهم ، لكن الأهم أن نسمع من وقت لآخر أن أوتوبيساً سياحياً قد صدمته شاحنة متهورة ، فقتلت أو أصابت بعض السياح . ألا يعلم هؤلاء أن البلد الذى يقتل أو يجرح منه سائح لديها إعلام قوى ، يقوم بتكبير الحادثة وتضخيمها ، الأمر الذى يؤثر سلباً على زيارة السياح لمصر . لم أجد ما أجيب به ، لكنى وعدته أن أناشد– من هذا المكان– سائقى الباصات السياحية أن يستشعروا جيداً مسئوليتهم ، وهذا معناه ألا يصلوا بالسرعة إلى أقصى مداها . فمثلاً إذا كان مسموحاً لهم بسرعة مائة كيلو فى الساعة، يمكنهم أن يجعلوها تسعين ، ولن تنهدم الدنيا نتيجة الوصول المتأخر ساعة عن الموعد ، ما دامت السلامة تصحب الركاب . وهنا نقطة جديرة بالاعتبار، وهى أن الذين يسرعون على الطرق لا يعملون حساباً لما قد يكون فيها من مطبات أو انكسارات أو تعرجات . وهذا كله يتطلب منهم الكثير من الحذر ، والكثير من التركيز أثناء القيادة . أذكر أننى عدت ذات يوم من الغردقة فى أوتوبيس سياحى فاخر ، لكن سائقه زاد من سرعته إلى حد ترويع الركاب، فقام أحد الأباء مدفوعاً بصرخات أبنائه ليرجوه أن يخفف السرعة ، لكن السائق رفض أن يستمع لرجائه ، وتدخل عدد من الركاب طالبين أن يهدئ السرعة ، لكن السائق أخذته

العـــزة بـــالإثم ، وصاح فيهم : أنا سائق خبرة ، وأعرف الطريق تماماً مثل كفى ! وأنه يعرف الطريق ، واندفع بسرعته المتهورة ، حتى وقع المحظـــور ، فانفجر إطار السيارة الخلفى. وأذكر يومها أننا تأخرنا عن موعـــد العـــودة إلـــى القاهرة ما يقرب من ثلاثة ساعات ، قضيناها فى تغيير الإطار بعد الاستعانة بسيارة أخرى من سيارات الشركة !

أمـــا أصحاب الشاحنات المتهورة فلا كلام لنا معهم ، وإنما الكلام مـــع إدارة مرور الطرق السريعة التى ينبغى أن تزيد من رقابتها لهم ، وأن تـــنزل بهـــم العقـــاب الذى يستحقونه ، فما أكثر ما نجد شاحنة قد خرجت فجأة من الصحراء المجاورة للطريق دون أى تنبيه ، بل أحياناً مـــا نجدهـــا تســـير فى الاتجاه المعاكس ضاربة بقانون المرور عرض الحائط ، أو عرض الصحراء !

وكـــم أتمـــنى أن يطبق المرور قانون الكشف عن السائقين الذين يقـــودون سياراتهم وقد تعاطوا الخمور أو المخدرات . فالكثير جداً من حـــوادث الطـــرق الســـريعة إنما يرجع لهذين السببين . ونحن نعلم أن معظـــم دول العالم تقوم بهذا الكشف على جانبى الطرق بواسطة أجهزة سهلة الاستعمال ، كالبالونة التى ينفخها السائق فتحدد على الفور نسبة الكحـــول فى دمه . هذا إذا كان لديه دم ! والواقع أن الشخص الذى قبل أن يضـــر نفسه لا ينبغى أن يسمح له المجتمع بضرر الآخرين . ومثل هذا الشخص تصبح المركبة بين يديه مثل المدفع السريع الطلقات يقتل بـــه مـــن يصـــادفه فى طريقه . وقانا الله شر الطريق ، وهدى سائقى الشاحنات المتهورة إلى سواء السبيل .

كمـــا توجد معالم سياحية ، لابد أن توجد حولها شعوب سياحية ، تحـــترم تلك المعالم ، وتحافظ عليها ، وتسهل الطريق إليها ، وتحسن اســـتقبال زائـــريها من كل أنحاء العالم . وأؤكد لكم أن المعلم السياحى الـــذى يمكن أن يراه السائح مرة واحدة ، إذا أحسن استقباله بجانبه ، ووجـــد من الناس المحيطين به الراحة والاحترام والمساعدة دفعه ذلك إلـــى زيارتـــه أكـــثر من مرة ، بل ودفع غيره من الأقارب والأصدقاء والمعـــارف إلى زيارته ، وبذلك يتحول السائح إلى عنصر دعاية للمعلم السياحى ، ويصبح أحد عناصر الجذب السياحى لبلد معين . وهكذا فإن الشـــعوب عليها دور كبير فى ازدهار أو طرد السياحة من بلادها . ولا شك أن البلاد التى تروج فيها السياحة بشكل يلفت النظر ، ويبعث على الدهشة مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا بصفة خاصة يتمتع شعوبها بقدرة خاصة على حسن استقبال السائح وإجادة فن التعامل معه .

ولمـــاذا نذهب بعيداً ، ولدينا لبنان . قال لى أحد الأصدقاء إننى لا أحـــب قضـــاء أجازتى إلا فى لبنان . لماذا ؟ لأننى عندما أذهب إليها ، أقـــوم بتأجـــير مـــنزل بسيط فى جبلها الرائع ، وما أن ننتهى من فك الحقائب حتى يطرق علينا الباب رجل عجوز ولكنه بصحة جيدة ليسألنا عمـــا نحتاجه فى الغد من لحوم أو أسماك وخضروات وفواكه . فنعطيه قائمـــة يقـــوم بتوريدها لنا كاملة ، ودون أن يغالطنا فى أسعارها ، أو يغالى فيها . وفى المقابل من ذلك ، حدثنى أحد الأصدقاء العرب قائلاً : إننى بعت شقتى فى القاهرة بسبب ما عانيته من الشغالات ، والبوابين ،

وسـائقى التاكسـى ، وأصحاب المطاعم العشوائية التى تبعث بقوائمها الخادعـة إلـى باب الشقة لكنها لا تفى باتفاقها معنا فى التليفون . ثم أضـاف بمـرارة : وأجـارك الله يـا أخـى مـن السباكين والنجارين والكهربائية إذا دخلوا الشقة وقاموا بعمل بسيط ، فإنهم يطالبون بمبالغ هائلـة ، ويـتعاملون معنا على أساس أننا أجانب ولا نعرف شيئاً عن مصـر ، مـع أنـنا نعرف ثمن كل سلعة ، وعلى خبرة كبيرة فى البيع والشراء .

أمـا أسـوأ ما يقابله السائح فهو الإلحاح : إلحاح البائع على أن يبـيع له شـيئاً لا يرغب فيه ، ومن المقرر فى (فن السياحة) أن نجيد عـرض بضـائعنا ، وأن نتخير منها ما يريده السائح بعد دراسة جيدة لحاجـته إليها ، ولا يبقى علينا بعد ذلك إلا أن نبتسم فى وجهه . أجل الابتسامة السياحية ضرورية جداً ليس فقط فى تسويق منتجاتنا ، وإنما أيضـاً فـى جذب قلوب السائحين إلى بلادنا . فى مدينة نيس الفرنسية دخلـت أحد محلات التحف ، ورحت أتجول فيها أكثر من نصف ساعة ، دون أن يـتدخل الـبائع ، الجـالس على مكتبه ، حتى أخذت ما أريد ، وعـندئذ نهـض واقفاً ، وجاء مبتسماً ليفاوضنى فى السعر . ولو كنت خرجـت دون أن أشترى شيئاً لكان قد ودعنى أيضاً بابتسامة . هذا أحد فـنون السياحة . فهل نحن مستعدون لإجادته ، أم نظل نتعامل بالفهلوة السـياحية التى ينحصر كل همها فى الحصول على ربح سريع ، لمرة واحدة غير قابلة للتكرار .

بعــد أن يئســنا من أن تقوم جامعة الدول العربية (بعمل) حاسم لإنهــاء مأساة الشعب الفلسطينى فوق أرضه المحتلة ، وغير المحتلة ، فقــد كــنا نــتوقع أن يرتفع (صوتها) على الأقل لكى تستنكر وتشجب وتديــن، وهــذا أضعف الإيمان فى تلك الحالة، التى وصل فيها الجانب الإســرائيلى إلى أقصى ما يمكنه من اعتداء ووحشية وخروج على كل الأعراف الدولية والأخلاقية . قال لى صاحبى : وماذا تريد من الجامعة العربية أن تقول ؟ أجبته : أريدها أن تهدد بإعادة المقاطعة الاقتصادية مــع إســرائيل ، فإن لم يكن فالمقاطعة السياسية الكاملة ، فإن لم يكن فالــتهديد بعــدم التعامل مع الدول التى تساندها وتقدم لها الدعم الذى يســاعدهاً على ضرب الشعب الفلسطينى ، وهذا فضلاً عن القيام بحملة إعلامية تسير فى خطين متوازيين ، أحدهما نحو إسرائيل ، والآخر نحو الرأى العام العالمى .

قــال صاحبى : وهل تعتقد أن هذه التهديدات والحملات الإعلامية ســوف تغير من الواقع الموجود على الأرض ؟ قلت له : إن لم تغيره ، فــيكفى أن تستمر فى تذكير العالم بمأساة فلسطين ، وفى شغل الذاكرة العربــية بصورة اغتصابها ، وانتهاك حقوق شعبها على مرأى ومسمع من الجميع.

لمــاذا مــثلاً لا ترصد جامعة الدول العربية مجموعة من الجوائز لشــباب الباحثيــن والأدباء الشبان فى العالم العربى ، بل وأيضاً لغير العــرب ، تخصص لأفضل بحث أو عمل أدبى يصور المأساة ، ويقترح

حلاً لها ؟

ولمـــاذا لا تحدد جامعة الدول العربية يوماً فى العام ، إن لم يكن فـــى الشـــهر، يســـمى (يـــوم فلسطين) لكى تعقد فيه الندوات ، وتلقى المحاضـــرات ، وتعـــرض الأفـــلام ، وتنشد القصائد التى تسمع العالم العربى ، والغربى أيضاً ، صوت أكثر من مائتى مليون عربى ، يرغبون فى حل للمشكلة ، وإنهاء للمأساة.

ولمـــاذا لا تصدر جامعة الدول العربية كتاباً ، متعدد المستويات ، يـــتحدث بالصـــور والمعلومات الموثقة ، عن تاريخ فلسطين ، ومكانة القـــدس الشـــريف ، وبداية مأساة الاحتلال ، وآثارها البشعة ، وتطور الوضع الفلسطينى حتى الآن.

وأخـــيراً فإنـــنى أتساءل ، ولست أسأل : لماذا خفت صوت السيد عمـــرو موســـى منذ تولى منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية ، وكان مدوياً من قبل حين كان وزيراً لخارجية مصر وحدها ؟ هل هناك محاذيـــر ، أم قـــيود . . أما ماذا بالضبط ؟ قال صاحبى : تعلم أن أى صـــوت قـــد يصيبه الصمم الكامل ، وقد يصاب بالحشرجة ، وقد يصاب بالـــبحة . قلت له : أتمنى أن يسلم صوت جامعة الدول العربية من كل هـــذه الأعراض ، وإذا كان مبحوحاً فأرجو أن يكون ذلك لفترة قصيرة ، حتى يرجع مدوياً لكى يسمعه الجميع.

مـــا زالـــت كلمة الصيانة عندنا قليلة الأهمية بناء على أن نظرة المجتمع إلى القائمين بها أيضاً نظرة غير منصفة فمثلاً المهندس الذى يتخصـــص فـــى الإنشاءات يكون أعلى قيمة – فى نظر المجتمع – من مهـــندس الصـــيانة وكذلـــك الحال بالنسبة لعمال الصيانة . وهذا وضع مقلـــوب . فالصيانة من أهم المهن التى تحفظ الآلات فى حالة جيدة من التشـــغيل والإنتاج ولولاها لأسرع الفساد والعطل إلى تلك الأجهزة الأمر الذى يترتب عليه استبدالها وإنفاق المبالغ الطائلة لشراء أجهزة أخرى بديلة ، وهكذا يلاحظ أن من أسباب إهدار المال العام والخاص أيضاً هو عدم الأخذ بإجراءات الصيانة التى لا تكلفنا إلا القليل ولكنها تقوم بدور هـــام فـــى إطالـــة عمر الآلات والأجهزة وتوفر علينا الكثير من الجهد والمال.

أمـــر آخـــر أكثر أهمية وأريد التركيز عليه هنا وهو أن الصيانة كانـــت المفـــتاح السحرى الذى استطاعت به دول جنوب شرق آسيا أن تدخـــل عصر الصناعة من أوسع أبوابه وأن تصبح منافساً قوياً للدول الغربـــية التى كانت قد احتكرت الصناعة على مدى قرنين كاملين فمثلاً بدأت اليابان بصيانة المعدات التى كانت تشتريها من الغرب ومن مبادئ الصـــيانة أنـــنا نفك الآلة ثم نعيد تركيبها بعد تنظيفها وإصلاح العاطب

منها . . وفى أثناء هذه العملية (الفك والاستبدال والتركيب) تم الوقوف على سر صناعة الآلة والجهاز وبدأ الصانع اليابانى ومعه المهندس بالطبع فى تصنيع آلات بديلة تشبه الآلة الغربية وبالتدريج تتفوق عليها .

ولابد من الاعتراف بأن الصانع المصرى من أذكى صناع العالم وأكثرهم حرفية فهو قادر على فك الآلات ومعرفة العيوب الحادثة بها ثم (خرط) المماثل لها وإعادة تركيبها وتشغيلها . هذا يحدث فى السيارات وماكينات الرى وآلات حفر الآبار وأجهزة التكييف والثلاجات والغسالات . . الخ الشئ الوحيد الذى ينقص الصانع المصرى هو إنتاج قطع الغيار اللازمة له : كيفية سبكها وتشكيلها وضبطها حتى يتمكن من استخدامها فى عمله .

وهكذا يتضح أن الصيانة هى أحد المداخل الهامة إلى تحقيق نهضة صناعية كبرى ، ومن هنا لابد أن تأخذ الصيانة مكانها اللائق بها من اهتمامنا وأن يخصص لها أماكن تعليم وتدريب وتمنح شهادات محترمة على مستوى التعليم المتوسط والتعليم العالى فهى أهم بكثير من بعض التخصصات الموجودة حالياً والتى قد يكون لها وضع اجتماعى براق مع أن إفادتها الحقيقية للمجتمع قليلة للغاية .

الضجيج فى حياتنا

لم يعد تاجر الروبابيكيا ينادى على سلعته ، التى لا تحتوى أصلاً على أى بضاعة ، إلا من خلال الميكرفون ، الذى يقلق به راحة السكان فى كل أحياء العاصمة. ولأن أحداً لا يمنعه من ذلك ، نتيجة عدم وجود قانون يردعه ، فقد راح يقلده عدد آخر من البائعين المتجولين مثل بائع الفراخ الحية ، وبائع البطيخ . . وهكذا أصبحت الشوارع سوقاً مفتوحة للإعــلان عــن البضائع بالصوت الحيانى المزعج، فإذا أضفت إلى ذلك طريقة موزعى أنابيب البوتاجاز ، وطرقهم بالمفك على جسم الأنبوبة ، اكتملــت علـــى أذنـــك وأنت جالس فى بيتك معركة صوتية تحرمك من الـــراحة ، وتلهـــب أعصابك، وتزيد من ارتفاع ضغطك . . وليت الأمر يقف عند هذا ، فهناك كلاكسات السيارات التى يستخدمها بعض الأراذل فى النداء على أصدقائهم ، ثم استريو السيارة الذى يفتحه صاحبه على آخر درجة لكى يسمع الحى كله ، ويلتذ برؤية الناس وهم متضايقون . وإذا كانت هذه المزعجات تحدث بالنهار فإن ما ينتظرك بالليل قد يكون يكون أقسى . فالويل لك إذا رجعت من عملك مرهقاً ، ونويت أن تأوى إلـــى فراشك فى العاشرة مثلاً ، ثم وجدت بالصدفة أن سرادقاً للعزاء قد تم نصبه ، وراحت أصوات المقرئين تتبارى فى إيصال الصدى إلى أبعد مكان على ظهر الأرض ، ظناً منهم أن الناس يسترحمون على الميت ، وهـــذا وهـــم كبـــير . فالميت لن ينفعه إلا عمله . وهذه المظاهرة التى

يقيمها أهله ليست من الدين فى شئ .

الظاهرة التى تحيرنى بحق هى أن الناس أصبحوا متعودين على هذه الأصوات الخارقة للأذن ، وأن الضجيج أصبح هو السمة الغالبة فى حياتهم ، وقد ظهر هذا مع الأسف فى نهر النيل الوديع ، حين تجد قارباً يعبره ، وفوقه مجموعة من الناس يهرجون ، وفى وسطهم كاسيت يصل صوته إلى الشاطئين . . والسؤال البسيط : إذا كان الإنسان يسعد بسماع أغنية فلماذا يفرضها على غيره ممن قد لا يحبون سماعها، أو حتى ممن يفضلون الهدوء والصمت . إننى أتساءل أحياناً هل نحن حقاً أحفاد الفراعنة الذين أنشأوا تلك المعابد الضخمة التى تلف النفس بالسكون ، وتدخل الإنسان فى قلب الصمت لكى يتمكن من أن يفكر ويتأمل ويقترب من أسرار الكون .

إن الفارق بين حى راق وحى متخلف ، أن الحى المتخلف هو الذى يتصايح فيه الصغار ، ويصرخ الكبار ، ويوجد فيه أكثر من محل سمكرى سيارات ، فى حين أن الحى الراقى هو الذى يلفه الهدوء ، وتشمله السكينة ، ويخلو من الباعة الجائلين. يقول مثل إنجليزى : كلما زاد الضجيج قل العائد ، ومثل فرنسى : الضجيج لا ينتج خيراً ، والخير لا ينتج ضجيجاً ، وأجمل منهما ما قاله الشعب المصرى نفسه فى أمثاله: هبله ، ومسكوها طبله ! !

أحسنت كلية التجارة ببنها صنعاً حين عقدت ندوة بعنوان التكامل بيـــن الضريبة والزكاة . وعلى الرغم من أن الموضوع شائك ، وليس ســـهلاً ، فـــإن ما لفت نظرى فى التوصيات اقتراح أن يكون من ضمن مجـــالات الإنفـــاق على الفقراء : طلاب العلم الذين يحتاجون لاستكمال تعلـــيمهم المدرســـى أو الجامعى من أجل النهوض بالمستوى التعليمى للمجتمع . والواقع أن موضوع الزكاة ، وهى الركن الثالث من الشعائر المفروضة على المسلمين ، قد تعرض ، منذ دخول القوانين الغربية إلى كـــل البلاد الإسلامية ، إلى حالة من التوقف الكامل ، ثم حدث له خلال الثلاثيـــن سنة الماضية انتعاشة واضحة بحيث أصبح المسلم الذى يدفع الضريبة للدولة، يقوم أيضاً بدفع الزكاة لجهات معلومة أو غير معلومة. وهـــنا ثـــلاث احـــتمالات لا رابع لها : إما أن ينفقها الجامعون لها فى مصـــارفها الحقيقـــية التى حددها القرآن الكريم وهى ثمانية مصارف ، وإمـــا أن يحـــتجزوها لأنفســـهم وتتضخم بها ثرواتهم المنظورة وغير المنظورة فى الداخل والخارج . وإما أن تستخدم فى تمويل أنشطة غير مـــرغوب فـــيها أو تسئ إلى المجتمع . وطبعاً نحن جميعاً مع الاحتمال الأول الـــذى يفرض حسن النية. لكن يبقى فى نفوسنا بعض الشك الذى يمكن أن يزول بالشفافية من جانب جامعى الزكاة . فلم نسمع مثلاً عن أى جهـــة بنكية أو دينية ممن تعلن عن قبول الزكاة فى وسائل الإعلام أنهـــا أصـــدرت كشف حساب عما أنفقته بالتفصيل فى مصارف الزكاة الشـــرعية ! ولـــم نسمع ثانياً عن مشروع متكامل قد قام بأموال الزكاة

التى يقال إنها تبلغ أرقاماً فلكية ! ولم نسمع أخيراً عن أن أموال الزكاة قد وجهت لخدمة طلاب العلم فى مختلف مجالاته ، على أساس أن العلم مــن أهــم مصـــادر قوة المجتمع ، والله تعالى يقول (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) !

أما العلاقة بين نظام الضريبة الغربى ونظام الزكاة الإسلامى فهى علاقــة لــم يحســمها علمـــاء المسلمين حتى اليوم ، مع أنها من أهم المشــكلات الحقيقــية الــتى ينبغى عليهم مواجهتها بدلاً من انشغالهم بمشكلات أقل منها أهمية كتأجير الأرحام وأمثالها !

ولأنــنى قــد تعودت فى هذا المكان أن أطرح المشكلة مصحوبة دائمــاً بحلهــا ، أو بقدر متواضع من الحل ، فإننى أقترح على جامعى الزكاة فى عصرنا الحاضر ، سواء كانوا أفراداً تثق فيهم الجماهير ، أو بــنوكاً إسلامية ، أو مؤسسات دينية محترمة ، أن يخصصوا أعداداً من المــنح الدراســية لأبناء الأسر محدودى الدخل ، لكى توفر على أولياء أمورهــم مشــقة الإنفــاق علــى أبــنائهم طوال فترة التعليم المدرسى والجــامعى ، هــذه واحدة . أو أن يشتروا جهاز كمبيوتر لكل طالب لا يســتطيع شــراءه مع إمكانية رد الجهاز بعد أن يصبح مستخدمه قادراً علــى شــراء جهـــاز آخر ، أو أن يمولوا بعض البعثات التعليمية التى ترسلها الدولة إلى الخارج لنقل الخبرة العالمية فى مجال معين. وأخيراً أقــول لجــامعى الزكاة فى هذه الأيام : الله الله فى هذه الأموال ، فهى أمانة فى أيديكم ، دفعها إليكم أناس يريدون أن يتطهروا ، فقوموا على توزيعها بما يرضى الله، الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور !

تمـثل الضرائب أكثر من 80% من موازنة الدولة ، ويأتى بعدها (دخـل قناة السويس ، وعائدات الغاز ، ثم أرباح شركات قطاع الأعمال العام . .) ومعنى هذا أن الضرائب هى العنصر الرئيسى الذى ينبغى أن يـتم تحصيله بدقة ، وتوزيعه بتخطيط، وإنفاقه بترشيد . هذا من جانب الحكومـة ، أمـا من جانب المواطنين ، فلابد أن يعتبروا الضريبة التى يقدمها كل منهم عن نشاط معين هى التى تصب فى مجال الخدمة العامة من صحة وإسكان ومواصلات وتعليم . . الخ ، وأن هذه الخدمة العامة كلما زاد تمويلها ارتقى مستواها ، وساعدت على توفير المناخ المناسب للأنشـطة الاقتصادية المختلفة . وهكذا تصبح عندنا عملة ذات وجهين أحدهما الخدمات والآخر الأنشطة الاقتصادية ، ولا يمكن لوجه منهما أن يستقل بنفسه عن الآخر.

فـإذا جئنا إلى الضرائب ، وجدناها تتعرض لخطرين كبيرين هى التجنـب والـتهرب . أما التجنب فيعنى قيام المواطنين أو معظمهم أو بعضهم باستغلال الثغرات القانونية لعدم دفع الضريبة المقررة عليهم ، ويـتم ذلـك عـادة عن طريق استئجار بعض (الشطار) من المحامين والمحاسبين الذين ينجحون فى تقليل أرباح الشخص إلى أقل قدر ممكن، وقصقصـة الضـرائب إلـى أكبر قدر ممكن . وبالطبع هؤلاء يرتبكون جـريمة فـى حق المجتمع ، لأنهم يحرمون الدولة من استمرار تدفق مصـدر الدخـل الرئيسـى بهـا، الأمر الذى يترتب عليه تعطيل حركة التنمية، وتعثر مشروعات البناء والإصلاح.

وأمــا الخطــر الثانى الذى يتهدد الضرائب فهو التهرب الضريبى وذلــك بالمخالفــة الصريحة لنصوص القانون. ويتمثل هذا الخطر فى المحــاولات التى نقرأ عليها بين حين وآخر عن تاجر اختفى من البلد، أو فنان لم يدفع ما عليه من ضرائب الكسب، بعد أن تكون المصلحة قد حددتها بالفعل.

وعــندما تحدثــت مع أحد الخبراء فى الضرائب حول الإجراءات الكفيلة بتحصيل الضرائب من المواطنين على الوجه الصحيح ، أجابنى بحسم إن وضع القوانين وتنفيذ الإجراءات لن تجدى شيئاً إلى فى حدود الخمســة فــى المائة على الأكثر ، وأن التجربة المصرية أثبتت وجود (فراغ فى الثقة) بين المواطن ومصلحة الضرائب ، من هنا ينبغى إعادة بناء تلك الثقة الغائبة بين المواطن والضريبة . وأولى الخطوات فى ذلك هو ما يلمسه المواطن من تحقيق الخدمات نتيجة دفعه للضريبة . وهنا بالطــبع لابــد مــن توافــر الكثير من العناصر التى تأتى فى مقدمتها الشــفافية، والمعاملــة الحسنة ، والمساواة بين الجميع ، وعدم محاباة الأغــنى علــى حساب متوسطى الدخل ، وملء عيون موظفى الضرائب حــتى لا يقعوا فريسة للاغراءات التى لا تلف الرأس فقط ، وإنما تطيح أحياناً بها !

فــى تصورى أننا بهذه الأمور يمكننا أن نحدث التصالح المنشود بيــن المواطــن والضــريبة ، وهو أساس العلاقة الخالدة بين المواطن والحكومة.

الطريق إلى أكتوبر (1)

كانت نكسة الخامس من يونية سنة 1967 كالصحوة المفزعة التى أخرجتنا من حلم جميل . فنحن الجيل الذى تربى على شعارات الوحدة العربية ، والقومية العربية ، ومكافحة الاستعمار فى كل مناطق العالم . فوجئنا بأن دويلة صغيرة مثل إسرائيل تهزم جيوش ثلاث دول أكبر منها عدداً مثل مصر وسوريا والأردن ، ويتوغل جيشها فيحتل كل سيناء ، ويتوقف باختياره على الضفة الشرقية من قناة السويس .

كيف حدث هذا ؟ ولماذا ؟ وبأى شكل ؟ كانت تلك الأسئلة كالخناجر التى تغوص فى جراحنا الغائرة التى أحدثتها النكسة ، ورحنا نتلفت حولنا فلا نجد سوى الانكسار فى العيون ، والحزن فى الوجوه ، واليأس يشل كل حركة ، ويكاد يمتص الهواء من حولنا . ورحنا نسترجع الأخطاء ونحاول تعليقها على بعض الأفراد ، فتبين أننا جميعاً مدانون، وأن كل فرد فينا شارك فى صنع المأساة : إما بالفعل أو بالقول أو بالسكوت .

ولا شك أن الجيش تحمل العبء النفسى الأكبر ، فقد كانت نظرات الشعب إليه قاتلة ، رغم أنها صامتة . وفى قلب هذا الليل الأسود بدأت بشائر الفجر ، وراح الأمل يتولد من جديد ، وقررت القيادة المصرية إصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج ، والسير على الصراط المستقيم .

وبدأت عملية كبرى لتحديث الجيش المصرى ، كان أهمها إدخال عنصر المؤهلات العليا على مستوى الجنود والضباط . وكان هذا ضرورياً لأن هؤلاء الشباب المتعلم والمثقف هو الذى كان يستطيع أن يستوعب التطور التكنولوجى الذى لحق بصناعة السلاح فى العالم ، كما يستطيع أن يتعامل مع نظرية الحرب الحديثة التى أصبحت تشترك فيها كل أنواع الأسلحة فى منظومة واحدة ، وبتوافق زمنى دقيق، ودون أى تعارض فيما بينها .

وكانت السنوات العجاف التى تواصلت منذ يونية 67 حتى أكتوبر 73 هى سنوات كظم الغيظ ، والتقشف فى المعيشة إلى أبعد حد، وتحمل مرارة الهزيمة ، مع الاستعداد الهادئ للتخلص منها .

وهنا لابد من تقديم التحية لجيل كامل من خريجى الجامعات والحاصلين على الدبلومات الذين تم تجنيدهم فى الجيش ، وقضوا أكثر من سبع سنوات وهم يعيشون على الجبهة فى خنادق تحت الأرض ، ولا يأخذون أجازاتهم إلا فى كل شهر عدة أيام قليلة ، ويتحملون البرد والحر ، وتمر عليهم ليالى الشتاء والصيف ، وهم متحفزون لعبور القناة إلى الضفة الأخرى حتى يحرروها من الغاصب الذى احتلها ، وراح يعلن للعالم كله أنه أقام خطاً دفاعياً يستحيل اختراقه ، هو خط بارليف .. ثم كانت المفاجأة.

الطريق إلى أكتوبر (2)

قبل انطلاقة الجيش المصرى فى يوم 5 أكتوبر سنة 73 كان هناك إعداد طويل النفس ، لكنه جرى بهدوء من أجل تحرير الأرض المصرية مـــن غاصـــبها اللعين. وبالطبع امتنع الغرب عن تزويد مصر بالسلاح فلجـــأت إلى الاتحاد السوفيتى حينئذ ، الذى أمدها بالأسلحة الروسية ، الـــتى كانـــت تتميز بالقوة ، ولكنها لا تجارى الأسلحة الغربية فى خفة الحركة والمناورة . . ولهذا كان على الجيش المصرى أن يتصرف فيما هو متاح ، وأن يفكر تبعاً للإمكانيات . ولعل الشعب لا يعرف الكثير عما دار مـــن أفكـــار مختلفة وأحياناً متناقضة حول أفضل وسائل الهجوم ، وكـــيف يكـــون ؟ وأين مكانه ؟ وما هو زمانه ؟ قيلت نظريات كثيرة ، ولمعـــت ابتكارات واختراعات . . وأذكر وأنا مترجم للغة الروسية فى هيئة البحوث العسكرية عندما طرح اقتراح الكوبرى الذى تعبره الدبابات والأفراد على سطح مياه القناة بطريقة الفتح والتوصيل ضحك الكثيرون مـــن ســـذاجة الفكـــرة . ويومها قلنا : وهل سينتظر العدو حتى ينتهى جيشـــنا من وضع الكوبرى على حافة القناة ثم تشبيك وصلاته ؟ وهل ســـيتحمل نقـــل المعـــدات التى سوف تتحرك عليه ، وخاصة الدبابات والمدرعـــات ؟ وأكـــد لنا الخبراء الروس : نحن جربنا هذا فى الحرب العالمـــية ونجحنا ، فقلنا لهم : هذا نجح منذ أكثر من ربع قرن . وهو زمان طويل فى عمر الحروب الحديثة . . وبناء على ذلك طرحت الفكرة جانباً ، وأيقن الخبراء الروس حينئذ أن الجانب المصرى لم يقتنع بها. وهـــنا أقول باطمئنان : لعل استبعاد تلك الفكرة التقليدية حينئذ هو الذى

أدى إلـــى نجاحها فى لحظة العبور ، وضمان السرية الكاملة لها . لكن الفكـــرة العسكرية الكبرى التى تم الأخذ بها ، والتخطيط الجيد لها فهى فكرة الحرب الشاملة التى تشترك فيها كافة الأسلحة بحيث تتعاون كلها فى وقت واحد ، ومن أجل تحقيق هدف محدد .

وقد أثبت المصريون – باعتراف التاريخ العسكرى الحديث – أنهم قـــد اســـتطاعوا أن ينشئوا منظومة متكاملة للهجوم الخاطف والساحق والممتد على مئات الكيلومترات ، شاركت فيها القوات الجوية والبحرية والـــبرية وقـــوات الدفـــاع الجـــوى ، وساهمت فيها الشئون الهندسية والطبـــية والتموينـــية ، واعـــتمدت على عنصر المفاجأة، كما تسلحت بالســـرية ، وانطلقـــت بقـــوة معنوية ضخمة مثل هدير الموج المتدفق فأطاحـــت بخـــط بارلـــيف ، وأسرت العديد من الضباط الإسرائيليين ، وعـــادت الضـــفة الشرقية من القناة محررة ، وتبعتها سيناء الغالية ، ومحيت آثار النكسة السابقة ، وأحست مصر بروعة النصر ، الذى على أساسه راحت تمد يدها بالسلام .

كاد يمر على نصر أكتوبر ما يقرب من ثلاثين عاماً . وصل عمر المشـــاركين فيها إلى ما فوق الخمسين ، وبعضهم أحيل إلى المعاش . لكن هذا الجيل الذى تحمل عذاب النكسة ما زال يشعر بالفخر والسعادة معاً لأنه ساهم فى صنع النصر . . ونحن نعلم أن النصر من عند الله ، يمنحه فقط للذين ينصرونه .

محـــلات الخبـــز

كنا فى الأربعينيات نشترى الخبز فى المدن من محلات متواضعة التجهيز، ومنتشرة فى كل الأحياء الشعبية. وكان بائع الخبز رجلاً طيباً، هـــادئ الطبع. وكان يضع (الخبز الطرى) فى ناحية ، (والخبز الملدّن) فـــى ناحية ، وعندما تطلب منه بعضاً من هذا أو ذاك يحضره بسعادة ، ويعطيه لكل بابتسامة . . فإذا لم يعجبك رغيف محروق ، أو غير كامل الاســـتدارة كان بإمكانك أن تطلب منه تغييره ، فيقوم على الفور بذلك ، لأن المســـألة بالنســـبة له سهلة جداً ، فمن حقه أن يعيد الخبز الذى لم يعجـــب الزبائن إلى الفرن وهذا يسمى (الرجوع) . والملاحظ وراء هذا كله أن الخبز فى المحل كان يغطى بملاءات بيضاء ، كما أن بائع الخبز كان دائماً يمسك فى يده (منشة) حتى يطرد بها أى ذبابة تحدثها نفسها بالاقتراب من الأرفف أو الأرغفة . .

المهم أننا كنا نشترى الخبز بهذا الشكل البسيط ، ولكنه حضارى إلـــى أبعد حد . فقد كنا آمنين على نظافة الخبز ، وحسن الاعتناء به ، والمحافظة عليه من أى حشرات أو دخان أو ملوثات أخرى . .

ومن الغريب أن محلات الخبز راحت تختفى بالتدريج ، ودون أن يحس بها أحد، أو يتنبه أحد لأهميتها القصوى فى مجال صحة الإنسان المصرى ووقايته من الأمراض . . حتى جاء وقت انتقل بيع الخبز إلى الأرصفة ، بل إنه نزل أحياناً إلى أرض الشارع نفسه . . وصار ينادى علـــيه قـــبل مطالع الكبارى ، وعند مداخل ومخارج المدن، ولم يعد من الشـــذوذ أن ترى سيارة فارهة ، ينزل صاحبها ليشترى كمية من الخبز ويضعها داخل (الكبّوت) ، ثم ينطلق بدون مبالاة . .

أتمـــنى أن تعـــود محـــلات الخـــبز ، ولكن هذه المرة بقرار من المحافظيـــن . . حيث ينبغى تخصيص محلات فى بعض المساكن تكون مهمتها بيع الخبز للمواطنين ، وبحيث تكون تحت الرقابة المستمرة من وزارتـــى التمويـــن والصحة . . وبذلك نسترجع أسلوباً حضارياً يليق بمصر . . وأهل مصر .

العمود رقم 100

تعودت أن أحتفظ بالمقالات التى أنشرها فى ملفات ، يختص كل منها بمجلة أو جريدة على حدة ، وذلك لسبب بسيط وهام ، هو ألا أعيد نشر ما سبق أن نشرته من قبل . وعندما راجعت ما تفضل بنشره لى فى جريدة الجمهورية الكاتب الكبير الأستاذ سمير رجب وجدت أن العدد قد وصل إلى 99 مقالاً ، أعترف بأن كلمة واحدة لم تحذف منها ، على الرغم من أننى أحياناً كنت أقسو فى النقد ،أو اشتط فى التعبير !

وهكذا وجدتنى أمام العمود رقم 100 فى الجمهورية ، التى تستحق كل الشكر والتقدير على فتح تلك النافذة أمام أحد أساتذة الجامعات لكى يعبر فيها عن نفسه ، ويتواصل مع المجتمع من خلال تسليط نقطة ضوء على بعض المشكلات والإنجازات ، والحق أننى لم أكتب عن مشكلة معينة إلا وحاولت أن أضع فى نفس الوقت اقتراحاً محدداً بأحد حلولها . كتبت عن ضرورة إنشاء محلات لبيع الخبز ، وأسلوب صحى لبيع اللحوم ، وإعادة العمل ببنديرة التاكسى ، وطرحت مشروع تشجير شواطئ النيل بمليار نخلة، ودعوت المستشفيات الاستثمارية ألا تحجز جثث المتوفين بها ، ونبهت إلى مخاطر الذباب فى الصيف ، وسيارات السرفيس ، والشاحنات المتهورة ، وإزعاج الكلاكس للناس فى بيوتهم ، وحاولت أن أعيد الاعتبار لبعض المهن المنظور إليها نظرة متدنية من المجتمع كالتمريض ، والصيانة ، والسباكة ، وأشرت إلى بعض الأمراض المتفشية فى الجهاز الإدارى كالشللة ، والزمبة ، وغفلة المدير عن المتابعة، وغياب الأخلاق وضعف الضمير . ولم يغب مجلس الشعب عن اهتمامى ، فوجهت إليه تحية على إيجابياته متضمنة فى نفس الوقت إشارات كافية لما فيه من سلبيات ، وقبل أن تتفجر أزمة جريدة النبأ كتبت عن " صحافتنا المتشائمة " ، وتعجب

أصـــدقائى من أن أكتب عن كيفية النهوض بكرة القدم ، واستراحات الطرق السـريعة ، أو أطفال المرأة العاملة فقلت لهم هذه مشكلات نعيشها بالفعل ، فلماذا لا تلقى عليها الأضواء من كل جانب ، لعل وعسى أن ينصلح حالها . ومـا زلت معتزاً بأننى كتبت عن آداب المحمول ، وهو موضوع جديد أرجو أن يـأخذ قـدراً من عناية الإعلام لأنه أصبح يمثل ظاهرة لا يحسن السكوت عنها .

وهـناك موضوع رآه البعض غريباً وهو الألغام التى زرعها شياطين الحـرب العالمـية الثانية فى صحرائنا المصرية ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء إزالـتها ، وهـى ما زالت تسبب لنا الحوادث كما أنها قد منعتنا من استثمار أرضنا خلال نصف قرن ، ولا تعويضات . وكانت أخبار الانتفاضة كالسحابة السـوداء الـتى نصـحو عليها وننام عليها – هذا إذا شعرنا بطعم النوم – فكتبـتِ عـدة مقـالات عـن مشكلة فلسطين ، محاولاً الوصول إلى عمقها الرئيسى وهى أن المسألة تتلخص ببساطة فى استعمار يتطلب المقاومة بكل الوسائل الممكنة حتى تتحرر الأرض ، ويتطهر العرض .

إن كـتابة عمـود يومـى ليست بالأمر السهل ، وإنما هى مسئولية صـعبة للغايـة ، لكنـنى أعترف بأننى لو لم أكن أشعر بقدر كبير من الحب للتعبـير عـن نفسـى أولاً ، وعن مشكلات المجتمع وحلولها ثانيا ما كنت أسـتطيع أن أواصل حتى الآن كتابة هذا العمود . وأنتهز هذه الفرصة لكى أحـيى بكـل الـتقدير كتابنا الصحفيين الكبار الذين يكتبون عموداً يومياً فى جـرائدنا المصرية بكفاءة يعترف بها الجميع ، وهم مستمرون خلال سنوات طويلـة ، وكلمـا تعبـت أقول لنفسى : عليك أن تستمد القوة من هؤلاء ، مـتعهم الله بالصـحة ، وأجرى الحق على أقلامهم . أما قارئ الجمهورية العزيـز فلـه منى كل الشكر على المتابعة ، والاعتذار عما لا يعجبه. فنحن جميعاً نسعى، والكمال لله وحده .

أحـــياناً مـــا ينتاب الكاتب ، أى كاتب ، ساعة يشعر فيها شعوراً محـــبطاً بـــأن كل ما يكتبه أو ينشره لا يؤدى إلى نتيجة ، أو كما يقول المـــثل المصرى الجميل كأنه (ينفخ فى قربة مقطوعة) ومعنى هذا أن القربة لن تمتلئ أبداً بالهواء ، كما أن أنفاسه هى التى سوف تنقطع من كـــثرة الـــنفخ فيما لا يجدى . هذا الشعور إنسانى جداً ، بل يكاد يكون ملازمـــاً ، ليس فقط للكتاب وحدهم ، وإنما لكل المصلحين الذين ظهروا علـــى مدى التاريخ ، وراح كل منهم يكرس وقته وجهده، ويتنازل عن راحـــته وسعادته من أجل أن يبعث فى قومه روح الخلاص من أحوالها السيئة ، ويدفعها بالتالى إلى حياة كريمة تليق بالبشر . حدثنى أحد كبار الكتاب فى مصر قائلاً : لقد طرحت فى كتاباتى ما لا يقل عن مائة فكرة، لـــو أن المجتمع أخذ بها وطبقها لأصبح فى عداد المجتمعات المتقدمة . وفى المقابل من ذلك ، قال لى كاتب آخر : المسألة غير مجدية ، ويبدو لى أن أحداً لا يقرأ ، وإذا قرأ فإنه لا يستجيب ، لذلك فإننى أفضل كسر القلم ، وترك الأوراق بيضاء ، بدلاً من ملئها بكلام ينتهى بالطيران فى الهـــواء ، ثم السقوط أخيراً فى أكوام القمامة! ومن العجيب أن الأنبياء عليهم السلام قد مر بهم مثل هذا الشعور ، وكان رد فعلهم يتراوح بين الغضب والرغبة فى الانتقام ، كما فعل نوح ، عليه السلام ، حين قال :

(رب لا تــذر علـــى الأرض مـــن الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عـــبادك ولا يلـــدوا إلا فاجـــراً كفاراً) ، وبين الصبر والتحمل والدعاء لأقوامـهم بالهداية ، كما فعل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، حين قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

والواقـــع أن شـــكوى المصـــلحين من عدم تحقيق أفكارهم ، ثم شـــكواهم مـــن غـــباء مجتمعاتهم ، وأخيراً شكواهم من عدم جدوى ما يقومـــون به : كل هذه الشكوى تعبر عن مشاعر ترتبط ارتباطاً عضوياً بالرغـــبة فى الإصلاح الذى يعلن عن نفسه فى تجليات متعددة ، ومنها حـــرفة الكتابة . لكن الحقيقة المهمة التى قد تغيب أحياناً عن الكتاب – مهما كانوا كباراً أو حتى عباقرة – هى أنـهم قد خلقوا بهذا الشكل ، أى أن يعطى كل منهم من نفسه ، ويظل يعطى حتى آخر العمر ، تماماً مثل الشـــمعة التى تضئ وهى تتآكل ، والزهرة التى تفوح بالعطر وهى فى طريقها إلى الذبول، والبلبل الذى يصدح وهو على مشارف الشيخوخة.. وهؤلاء هم ملح الأرض ، أى الأفراد الذين تحتاج البشرية إلى عطائهم، كمـــا تحـــتاج إلـــى الماء والهواء ، وبدونهم تصبح الحياة فاقدة للطعم واللون والرائحة . والخلاصة أنها ليست (قربة مقطوعة) تلك التى ينفخ الكتاب ، وإنما هى فقط (قربة كبيرة جداً) تحتاج إلى أنفاس متواصلة، وإصـــرار علـــى ملـــئها مهما كلفت من جهد صاحبها ، واختصرت من سنوات عمره .

وأقصـــد بالفصـــل هـــنا نشر قوات دولية للفصل – مؤقتاً – بين حـــدود الدولة العبرية والمناطق الفلسطينية التى ينبغى الجلاء الفورى عـــنها بعـــد محاولـــة احتلالها الأخيرة من جانب الجيش الإسرائيلى . وبالطـــبع لا يـــأتى هـــذا الحل من فراغ ، أو حتى من تحيز لطرف ضد الطـــرف الآخـــر ، وإنما من واقع فشل إسرائيل فى الحافظ على أمنها الداخلـــى، والـــذى تحاول جاهدة ومنذ خمسين عاماً أن تحميه من (دبة النملة) ومع ذلك، فإنه معرض دائماً للاختراق ، وعدم الصمود أمام أى هجمـــة مـــن شاب أو شابة فلسطينية ، يبلغ بها اليأس منتهاه ، فتفجر نفسها فى قلب المدن الإسرائيلية المدججة بالسلاح !

لقـــد كـــان من أهم شروط شارون على السلطة الفلسطينية إيقاف الهجمـــات الاستشـــهادية (والتى يسميها إرهابية !) لمدة شهر أو حتى لمـــدة أسبوع ، ولم تستطع السلطة تحقيق هذا المطلب المستحيل ، لأنه فـــى ظـــل الاحـــتلال الجاثم على الصدور والمدنس للأرض ، لا يمكن للشباب المتحمس أن يمسك نفسه عن التعبير ،الذى لم تعد أمامه وسيلة أخـــرى ســـوى التفجـــير . وهذا معناه ببساطة أنه ما دام هناك احتلال فســـوف تكـــون مقاومة ، ومن حق هذه المقاومة ، بل من واجبها أن تـــتخذ لنفســـها كافـــة الوسائل لإقلاق راحة الاحتلال ، حتى يجلو عن الأرض ، ويتوقف عن العسف والطغيان.

لقد ظل الإسرائيليون لسنوات طويلة يزعمون للعالم كله أنهم ضحايا مساكين ، يعيشون وسط العرب المتعصبين ، الذين يسعون لافتراسهم . ولكنهم من خلال ممارسة احتلالهم لفلسطين ، ومحاولات إذلالهم للشعب الفلسطينى ، تكشف للعالم كله أنهم لا يختلفون بل يفوقون النازيين ، إلى درجة أن بعض البلاد الأوربية راحت تطلق عليه مصطلح (النازيين الجدد) .

ومن ناحية أخرى ، فإن البلاد العربية لم تستخدم – حتى الآن – كل أسلحتها أو حتى بعضها ضد إسرائيل ، ليس خوفاً منها ، وإنما مراعاة للدولة الكبرى التى تساندها وهى الولايات المتحدة الأمريكية . ولعل هذه الدولة قد أدركت – بعد فوات الأوان – أن الكراهية التى تتزايد فى نفوس الشعوب ضدها إنما نشأت بسبب مساندتها لإسرائيل . وأنا شخصياً أتعجب : ما ذنب الشعب الأمريكى الطيب لكى يتحمل كل هذه الكراهية من العالم بسبب وقوف حكومته القصيرة النظر إلى جانب إسرائيل ؟ !

أعود للحل السريع ، والحاسم ، والذى لا أرى غيره فى الوقت القريب وهو ضرورة نشر قوات دولية لحفظ السلام بين إسرائيل والفلسطينيين ، وسوف يوفر هذا الحل التهدئة المطلوبة على الجانبين : لأنه سوف يحمى الفلسطينيين من عسف الاحتلال ، ويمنع عن إسرائيل هجمات الاستشهاديين . . بعد ذلك ، يمكن أن نتحدث عن المفاوضات : متى تبدأ ؟ وكيف تدار ؟ وإلى أى هدف تتجه ؟

لابــد أن نعــترف بأن بعض القنوات الفضائية العربية قد تقدمت علـــى القــنوات الأرضية ببعض النقاط . ولم يأت ذلك من فراغ ، وإنما جــاء نتيجة دراسة جيدة لواقع المشاهد المعاصر ، ومعرفة ما يرضيه ومـــا يجذبــه ، ثــم تقديم ذلك من خلال تقنية عالية، وإمكانات مادية وبشــرية يــبدو بالفعل أنها مدعومة بدون حدود . وإذا عرفنا مثلاً كم يتكلف فريق المراسلين إلى مكان أى حدث فى العالم ، من مواصلات ، وإقامة، وموافقات مسبقة تتيح له حرية الحركة والتصوير ، وما يتطلبه ذلــك مـــن أمـــوال وعلاقات لأدركنا أن ما تعرضه علينا قناة تلفزيونية واحدة قد يصل ببساطة إلى ملايين الجنيهات .

وفـــى غمـــرة هـــذا النجاح ، راح العرب - كالعادة - يضربون بعضـــهم بعضـــاً تحــت الحزام ، وطبعاً هذا ممنوع فى الملاكمة ، لكنه أصـــبح مســـموحاً به فى الإعلام الفضائى الذى تستخدمه الدول العربية ضـــد بعضـــها بل وضد مصالحها ، إلى حد أن المشاهد الذكى يمكنه أن يتبيـــن بعض الأصابع الأجنبية الماكرة تحرك الكثير من الخيوط . وإلا بماذا نفسر مثلاً قيام قناة فضائية معينة بمواصلة الهجوم على مصر ، ومحاولاتهـــا المـــتكررة التركـــيز على أى سلبية قد تلتقطها من هنا أو هـــناك، وذلـــك فـــى نفس الوقت الذى تخرس فيه هذه القناة تماماً عما يحدث فى المكان الذى تبث منه ، أو حتى فى الأماكن المحيطة به.

لقــد كــنا نتمنى للإعلام الفضائى العربى أن يكون على مستوى مثيله فى الغرب من حيث الكفاءة وسرعة تقديم الخبر والعمق فى تحليل

المعلومة من أجل مزيد من تنوير المواطن العربى ، الذى يحتاج بالفعل إلـــى أن يعيش أحداث العالم المعاصر ، وقد أصبح – كما يقال – قرية صـــغيرة . لكن الملاحظ أن (النوايا) معطوبة ، وأن الوسائل الجيدة قد فســدت فـــى أيـــدى البشر ، وأن الأهداف النبيلة التى ندعو إليها مثل النهضـــة والصـــمود فـــى عالم المنافسة الحرة مع الأخذ بوسائل التقدم الحقيقية ، قد غابت – مع الأسف – عن تلك القنوات الفضائية العربية.

وبالطـــبع سوف يؤدى هذا الوضع إلى ردود أفعال تكلفنا الكثير . فلكـــى نواجـــه قناة فضائية عربية (مغرضة) لابد أن ننشئ قناة عربية تقـــوم بالـــرد عليها ، وتصحيح الحقائق التى تقلبها . وهكذا ننتقل من ساحة الصراع العسكرى على الحدود إلى ساحة الحرب الكلامية التى لا يسمعها إلا أبناء العالم العربى ، تاركين المجال مفتوحاً وواسعاً للإعلام الغربى لكى يشوه الصورة العربية بأسوأ مما هى سيئة . .

هـــل نقـــول للقائميـــن على هذه الفضائيات : رفقاً بأبناء الوطن العـــربى ، وخاصة فى تلك المرحلة التى نحتاج فيها إلى التضامن بدل الفرقة ، وإلى التفاهم بدل التشرذم، وإلى المسامحة بدل التعصب . . أم نقـــول لهـــم : إنكـــم تشترون ببيع المبادئ القومية ثمناً قليلاً ، وأنكم تلوثـــون الســـماء العربـــية الصافية بما تبثونه فيها من برامج العداء والكراهية . . وأخيراً لابد أن نثق فى وعى المواطن العربى الذى سوف يلفظ – عاجلاً أو آجلاً – كل ما يعارض قيمه ومبادئه .

ظللــت فترة طويلة لا أعرف بالتحديد معنى هذه الكلمة ، إلى أن علمــت أخيراً أنها تعنى ببساطة إخراج الأغنية للتليفزيون ، بمعنى أن يتم تصوير المطرب أو المطربة وهى تغنى فى مشاهد متتالية ، وتكون الخلفــية بعــض المناظر الطبيعية ، مصحوبة بمجموعة من الراقصين والراقصات لإضفاء قدر من الجاذبية أو الإبهار على الأغنية . وقد نشأ هذا الأسلوب منذ حوالى عشرين سنة فى الغرب ، وكان الدافع إليه هو الملــل مــن نمط المطرب الذى يجلس على كرسى ، أو الذى يظل واقفاً أمام الميكروفون لفترة قد تطول أو تقصر . ولأن الغربيين يغيرون دائماً مــن (الموضة) فقد اختصروا زمن الأغنية إلى ثلاث دقائق فقط (لاحظ أن بعــض أغانى أم كلثوم عندنا تقرب من الساعة) ، ثم عندما شعروا بالحاجــة إلى شئ آخر مختلف أضافوا للأغنية المصورة فى التليفزيون عــدة مناظرة أو مواقف لإبعاد الملل عن عيون المشاهدين . ثم . . ثم انتقل هذا الأسلوب إلينا ، وبالطبع رحنا نحاكيه ، ونسرف – كالعادة – فــى المحاكــاة ، إلــى حد وصلت فيه الأغنية المصورة إلى حالة من الهيســتريا ، الــتى يغلــب فيها المنظر المساعد على الصوت واللحن والأداء . ولأن أغانى الشباب تفتقد إلى عنصر أو أكثر من عناصر هذا المثلــث الهام ، فقد أسرف مخرجو الفيديو كليب إسرافاً خرج بهم عن العرف والتقاليد ، بحيث أصبح النظر إلى بعض الأغانى المصورة بهذا

الشـــكل عــبارة عن استعراض شبه عار لمجموعة من الفتيات ، اللاتى يستعرضن أجسامهن ، ولا يضفن أى شئ إلى معنى الأغنية، أو لحنها.

والســؤال الآن : هل نلوم المطرب الذى قبل هذا العمل ؟ أم نلوم المخــرج الــذى صــمّمه ونفذه ؟ أم نلوم الرقابة على التليفزيون التى تســمح بعرضــه علــى شــبابنا ، من الأولاد والبنات ، الذين فى سن المــراهقة ، والذين يشكو الكثير من أولياء أمورهم حين يشاهدون هذه الأغانى تعرض صباحاً ومساء ، ودون إعلان عنها حتى يمكن تجنبها ، أو إغــلاق التليفزيون عند بثها . حدثنى واحد من هؤلاء وهو غاضب جداً : كيف يقوم تليفزيون الدولة بهذا العمل ، ويرضى المسئولون فيه بعرض هذه الصور الخليعة على أبنائنا ؟ أما الآخر فقد أضحكنى بمرارة عندما قال لى : والنبى يا أستاذ ، أرجو أن تكتب عن هذا الذى يسمونه الفيديو كلب (قالها بفتح الكاف وبسكون اللام).

والواقع أن الفن لا ينبغى أن يصدم معاصريه ، بل عليه أن يعبر عــنهم ، وأن يكــون بصدق مرآة حقيقية لهم . وإذا كانت هذه القاعدة تطبق بحذافيرها فى الغرب ، فلماذا لا تطبق عندنا ، خاصة وأن تاريخنا الفــنى حــافل بالعديد من الأعمال المتميزة ، كما أن الموروث الشعبى يزخــر بمادة ضخمة ومتنوعة يمكن الاستمداد منها . وأخيراً فإن الفن الحقيقى هو الذى يسعد الناس ، وليس هو الذى يجلب لهم العكننة !

الفيزا كارت وتوابعها

اندهش صديقى حين علم أننى لم أستخرج فيزا كارت حتى الآن . سـألته : ومـا فوائدها . نظر إلى باستغراب شديد وقال : إنك لا تعيش عصرك . فهى توفر عليك الكثير من الأعباء ، وبها تستطيع أن تشترى بالتخفيض من بعض المحلات ، كما يمكنك أن تصرف بها نقوداً من أى بلـد فـى العـالم دون أن تحمل فى جيبك دولارات . قلت له : هذه أهم فـائدة. وبـالفعل استعلمت وسعيت واستخرجت فيزا جميلة جداً عليها صـورتى الشخصـية ، ولها رقم سرى لا يستخدمه غيرى . ولم أشعر بأهميـتها الفعلـية إلا عـندما سـافرت إلى تونس وسحبت بها نقوداً تونسـية، ثـم سـافرت بعـد ذلك إلى قطر وسحبت بها نقودا قطرية ، وأصبحت قاعدتى ألا أبحث عن دولارات . ولا أحملها معى، وأظل خائفاً على ضياعها منى فى زحام المطارات أو الفنادق .

لكـن كمـا يقول المثل المصرى القديم : جات الحزينة تفرح ما لقيتشـى لهـا مطرح . والذى حدث أن عددا من شياطين المصريين قد أسـاءوا اسـتغلال هذه الفيزا كارت ، فراحوا فى الخارج يسحبون بها الـدولارات لكـى يحاسبهم عليها البنك بالسعر الرسمى ، الذى كان أقل من بكثير من سعره فى السوق السوداء . وطبعاً فتحوا بذلك ثغرة تعتبر الأولـى فـى نظام التعامل المصرفى السريع ! ! لهذا قررت الحكومة – حفاظاً على النقد الأجنبى الذى راح يتسرب بهذه الطريقة إلى الخارج – تحديد المبلغ الذى يصرفه المصرى بالفيزا كارت فى الخارج . ولا شك أنه إجراء مهم . يفيد البلد . لكنه يضر أحياناً بمن يحتاج إلى مبلغ كبير

من أمواله الخاصة . وهذا يعنى أن الفيزا لم تعد صالحة لكل الأحوال ، وإنمـــا لحالـــة واحدة فقط يجرى التعامل فيها بالمبالغ البسيطة، أو كما نقول بمصروف الجيب فى الخارج ! !

ثـــم حدث الأسوأ . وهو زيادة نسبة العمولة التى تحصلها البنوك علـــى كـــل عملية صرف يقوم بها المصرى فى الخارج ، ولذلك أصبح المـــبلغ الذى يدفعه المصرى بالجنيه عندما يعود مبالغاً فيه عن القيمة الحقيقية التى صرفها فى الخارج .

وســـوف أضرب مثالاً واحداً على ذلك . فقد سحبت وأنا فى قطر مبلغ 2700 ريالاً ، أى ما يعادل 740 دولار وعندما رجعت – وكان ذلك قـــبل إطلاق حرية الجنيه المصرى – وجدت البنك يطالبنى بمبلغ 3635 جنـــيهاً – أى أنـــه حســـب الدولار بما فيها عمولته ، بأربعة جنيهات وتسعين قرشاً . . فى حين أن سعره الرسمى حينئذ كان أربعة جنيهات وكذا وأربعين قرشاً ! ! قلت لصاحبى ، الذى كان متحمساً للفيزا كارت: هل رأيت ؟ لقد أخذوا منى أكثر مما ينبغى . فرد ببساطة : لكن ألم تكن المســـألة عصرية ومريحة لك ؟ بلعت ريقى وسكت مرغماً ، وأنا على يقيـــن كـــامل من أن كل التطورات العصرية تقع بتبعاتها على المواطن الطيب ، فى حين أن الذى يستفيد منها هم الأشرار وحدهم !

بقـــى ســـؤال أخير : لماذا تصر البنوك الأهلية عندنا فى إرسال فواتير الفيزا كارت باللغة الإنجليزية ، ولا تكتبها بالعربى الفصيح ؟ !

هـــل رأيـــت طـــريق القاهـــرة الفيوم الرائع ، الذى قامت الدولة مشـــكورة برصـــفه ، وتقســـيمه إلى ذهاب وعودة ، مع جزيرة واسعة تفصـــل بينهما ، يمكن أن يتم تشجيرها فتصبح جنة ، كما يمكن أن تتم إنارة الطريق كله بالتعاون بين محافظتى الجيزة والفيوم وبالتالى يصبح من أجمل الطرق فى مصر كلها . .

لقـــد اندهشـــت كثيراً من عدم وجود أى استراحة على جانبى هذا الطـــريق الـــرائع! والـــذى تظل حركة السيارات الخاصة ، وأتوبيسات الـــرحلات الســـياحية رائحـــة وغادية عليه دون أن تتوقف للحظات فى إحدى الاستراحات للاستجمام ، والتزود لما يلزم السائح أو المسافر من وإلى الفيوم .

ومـــن العجيب أن الأرض الصحراوية الجرداء هى المنظر الوحيد الـــذى يصاحب المسافر فى هذا الطريق ، مما يجعل المسافة تطول جداً عليه إلى حد الملل والقرف ، بينما هو لا يتجاوز المائة كيلو !

لقـــد تساءلت وأنا أعبر هذا الطريق بالصدفة منذ عدة أيام : هل وزارة الســـياحة على علم بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن تنشأ على

هـــذا الطريق ؟ وأين المستثمرون الذين يبحثون عن الربح الوفير الذى يمكـــن أن تقدمه إليهم الفرص المتاحة على جانبيه ؟ وكم عدد الشباب الذى يمكن تشغيلهم فى الاستراحات والخدمات التى تقام عليه؟

ثـــم هـــل حدث اجتماع واحد بين محافظتى الجيزة والفيوم حول إمكانـــية اســـتغلال وتطوير هذا الطريق بحيث يرجع العائد الضخم منه على أهالى المحافظتين ؟ وإذا كان قد تم فما هى نتائجه ؟

إن الفيوم من أعرق وأجمل محافظات مصر . وأرضها الخضراء مليئة بالخير، وأهلها البسطاء يستحقون الكثير مما يمكن أن تقدمه لهم المشروعات السياحية الواعدة لبلدهم .

أتمنى أن تكون الفيوم بالنسبة لأهالى القاهرة الكبرى منطقة جذب ســـياحى ، لـــيس فقط فى المناسبات والرحلات المدرسية ، وإنما على مســـتوى الأســـرة المصـــرية ، التى يمكن أن تجد فى قلب تلك البقعة الخضـــراء مكانـــاً تسعد فيه بقضاء يوم جميل ، وأن تعود منه محملة ببعض خيرات الريف المصرى ، وفى مقدمتها العنب الفيومى ، والدجاج الفيومى . . إلى جانب استنشاق قدر من هواء الحقول النقى ، والتمتع برؤية بركة قارون ، مع الاعتبار بما فعله الله بصاحبها !

يغيظنى جداً أن يطلب أهل المدينة من القرية أن تكون منتجة ، وهم أنفسهم لا ينتجون ، بل ويقصدون أحياناً أن يأتى إليهم إنتاج القرية وهم نــائمون ، وفى كل الأحوال فإنهم يريدون أن يجعلوا القرية تكفى نفسها بنفســها كمــا كانــت (أيام زمان) ! والواقع أن هذه (الأيام زمان) لم تعد موجــودة ، كما أنها لن توجد فى المستقبل ، نظراً للتطورات التى لحقت بالإنســان فى كل من المدينة والقرية على السواء، ليس فقط عندنا ، بل فــى كل أنحاء العالم . والذى يريد أن يتأكد من ذلك عليه أن يقوم بحسبة بســيطة بيــن عدد المتعلمين فى أى قرية مصرية منذ عشرين أو ثلاثين ســنة وبيــنهم الآن ، وحسبة أخرى بين عدد المنازل التى بُنيت بالطوب الحجرى والمنازل ذات الطوب اللبن (النئ) ، وحسبة ثالثة بين عدد منازل القــرية الــتى كانت تشرب من (الطرمبة) والتى تشرب الآن مباشرة من الحنفــيات ، ثــم أخــيراً عــدد أجهزة الراديو والتليفزيون والفيديو التى انتشــرت فى القرية ، وحلت محل (السامر) الذى لم يكن يظهر بها إلا فى أيام معدودة ، ومناسبات قليلة جداً طوال العام .

صــحيح أن كــل بيــت فى القرية كان لديه الفرن الذى يخبز فيه ، والبقرة التى تدر اللبن ، فتخرج منه الزبدة والسمن والجبن ، ومجموعة الطــيور الــتى تــربى فــى الحوش كالأوز والبط والدجاج والحمام، التى يســتخلص مــنها اللحــم الأبــيض ، فإذا أضيف إلى ذلك بعض الخضر والفواكه التى تأتى من الحقول لم يعد هناك ما يدفع ابن القرية إلى شراء شئ من المدينة ، اللهم إلا ملابسه ، وأدوات عمله .

لكـن سـنة التطوير التى شملت كل المجالات ، لم تستثن القرية ، الـتى أدخلت البوتاجاز والثلاجة والتليفزيون وكل وسائل التقدم الحضارى الحديـثة ، وهذه (الأجهزة) غيرت من بعض العادات التقاليد التى عرفتها القـرية المصـرية مـنذ آلاف السـنين ، وأدخلتها بقوة إلى قلب العصر الحديـث، بـل إن أسـاليب الزراعة القديمة قد بدأت تحل محلها أساليب جديـدة، فمـثلاً غمر الأرض بالماء ثبت أنه أقل فائدة من ريها بالرش أو التنقـيط ، وزراعة محاصيل معينة ظهر أنها تدر ربحاً أكثر من محاصيل أخرى لم يكن يعرف غيرها الفلاح .

لقد تغير كل ذلك ، والوحيدة التى يبدو أنها لم تتغير هى نظرة أهل المديـنة للقـرية المصـرية . فهم يريدونها أن تظل على حالها كما كانت بالأمس القريب ، بل والأمس البعيد ! لذلك فإننى أقول لهؤلاء : أن القرية المصـرية كانت منتجة فى الماضى ، وما زالت منتجة فى شكلها الجديد . والدليل على ذلك أنك إذا تجولت فى الريف المصرى كله لن تجد شبراً من الأرض القابلـة للزراعة غير مزروع ! والدليل على ذلك أيضاً أن الإنتاج الزراعى يتزايد باستمرار ، وقد شهدنا ما حدث لمحصول الأرز هذا العام. فقـد زاد الإنـتاج عمـا تتطلبه حاجة البلاد . وتمثلت المشكلة فى كيفية التصدير ، وهذا من صميم اختصاص أهل المدينة ؛ فماذا فعلوا ؟

تحية للقرية المصرية التى تنتج فى صمت ، وتحية للفلاح المصرى الـذى مـا زالـت تغطى ريشته العبقرية أرض مصر السوداء . . باللون الأخضر !

فجـأة وعلـى غـير توقع ، وجد العرب والمسلمون أنفسهم – عقب أحـداث سبتمبر المروعة بالولايات المتحدة الأمريكية – فى معسكر وحد، لا يـتم الـتفريق فيه بين الاعتدال والتطرف ،ولا بين الصداقة والعداوة ، ولا حـتى بيـن الحوار والمقاطعة . وإذا كانت دوافع الغضب الأمريكى متصورة لـدى أفـراد أو جماعـات أمريكـية قامت بالاعتداء على عرب أو مسلمين أمـريكان بالجنسية ، فما الذى يجعلها مبررة فى بلجيكا أو استراليا ؟ وهكذا لا يمكـن أن نجـد تفسيراً لذلك إلا فى روح الكراهية الكامنة فى النفوس ، والـتى تنـتظر أدنـى فرصة لكى تدفع هؤلاء المتهورين إلى الاعتداء على العـرب والمسـلمين ؟ إن الجاليات موجودة فى كل بلاد العالم . ولا يتصور أحـد أن يـتم الاعتداء عليها بمجرد أن البلد الذى تنتمى إليه قد اتخذ موقفاً سياسـياً مختلفاً مع البلد الذى تقيم فيه . وإذا أبعدنا فى الخيال ، فأقصى ما يمكـن تصـوره هـو ترحـيل الجالية إلى بلدها المعادى خوفاً على حياتها ومصـالحها مـن اعتداءات الشعب المحلى. أما ما شهدناه أخيراً فى أمريكا واسـتراليا فإنـه ينـتمى بدون شك إلى نمط من الهمجية والوحشية وعدم التحضـر . حكـى لـى صديق قادم من فرنسا أن ركاب الأتوبيس قد تركو د بمجـرد أن صـعد فـيه ، وهو بالطبع يحمل هيئته العربية البادية من لون شعره وعينيه ! إلى هذا الحد أصبح (العربى) مخيفاً ينبغى تجنبه ، والابتعاد عـنه ، وقـد سـمعنا أنه لا يذهب إلى أى مطار أوربى أو أمريكى إلا ويتم تفتيشـه بقسـوة ، وكأنهم يقولون له : نحن نفضل ألا تصعد إلى الطائرة ؟ وهكـذا تحـول حـادث واحـد إلى تحطيم أسس علاقة تاريخية بين الغرب والمسلمين تجاوزت الألف عام ، وصلات متعددة ترجع لأكثر من مائتى عام

فى العصر الحديث.

ألا يجعلنا هذا الموقف نعيد النظر فى تلك العلاقة ، وظروفها ، وأسسها ، ومجالاتها ، وآفاقها ؟ ألا يدفعنا ذلك إلى وقفة مع الذات ، ومع الآخر لوضع النقاط على الحروف وتحديد من المخطئ ومن المصيب ؟ ولكى تصبح الأمور أكثر وضوحاً علينا جميعاً أن نبدأ من نقطة أساسية وهى فشل كل من المسلمين والغرب فى إقامة علاقة تعايش ، على مستوى طيب ، لتتيح للطرفين معاً أن يحصلا على أكبر الفوائد الممكنة ، وأن يتجنبا فى نفس الوقت أكبر قدر من الخسائر .

ولكى نبدأ من البداية الحقيقية ، أطرح هنا اقتراحاً محدداً ، وهو يتمثل فى ضرورة التفرقة بين الثأر والقصاص. أما الثأر فمفهومه بدائى ، كانت تلجأ إليه القبائل المتناحرة ويتمثل فى قتل القاتل أو أى شخص آخر مساو له ، وقد يتجاوز أصحاب الثأر فيقتلون عدداً كبيراً من أفراد القبيلة فى مقابل قتيلهم . والمهم أن هذا يحدث عادة بعيداً عن قانون ينتظم الجميع. أما القصاص وهو المفهوم الذى جاء به الإسلام فيعنى أن تقوم (الحكومة) بالقبض على القاتل نفسه ، وليس أى شخص من أسرته ، ثم تقتص منه ، أى تقتله فى مقابل عملية القتل الذى قام بها ، ولا يتم ذلك إلا بعد أن تعرض على أهل القتيل (الدية) وهى عبارة عن تعويض مالى كبير، فإذا قبلوه ، وعفوا عن القاتل كان بها ، وإلا فإنه يقتل . وقد عبر القرآن الكريم عن هذه العملية بالعبارة الرائعة التى تقول (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) أى أنه على الرغم من أنه قتل للقاتل إلا أنه يمنع ذلك فيما بعد من خلال الردع ، كما أنه قد يتضمن العفو ، فينجو القاتل بفضله .هذا هو أحد مفاهيم الإسلام الراقية . فهل يدركها الغرب ؟ وهل نجح المسلمون فى نقلها إليهم لكى يدركوا مدى عدالة الإسلام وتسامحه؟

القناة الثالثة . . عفواً

بـــدأت هذه القناة واستمرت خفيفة الظل ، سريعة الإيقاع ، خالية من التكلف والجمود اللذين يسيطران عادة على القناتين الأولى والثانية. والواقـــع أنهـــا ضـــمت مجموعـــة من المذيعين والمذيعات البسيطات والبسطاء ، نجحوا فى أن يقدموا لنا لوناً متميزاً ، ويكاد يكون شبابياً ، تمامـــاً كمـــا ســـبق أن أنشأت الإذاعة المصرية العريقة إذاعة الشرق الأوسط التى كانت قريبة جداً من هذا اللون . وبهذا الشكل سبقت القناة الثالثة نظيراتها من القنوات الفضائية التى نشاهدها حالياً فى المنطقة .

لكننا فوجئنا فى الآونة الأخيرة ، وتحت رئاسة مذيعة قديمة ، أن القـــناة الثالـــثة قد فقدت شكلها ولونها وحتى طعمها ، ويبدو أن قيوداً وضـــعت على المذيعين والمذيعات فيها جعلتهم يتصرفون بصورة غير طبيعـــية ، كمـــا أن بعـــض البرامج التى حملت أسماء أجنبية لم تعجب الجمهور المصرى الذى قد يعجب بالمعاصرة أحياناً لكنه لا يرضى بغير الأصالة العربية .

قـــرأت الكثير عن انتقادات موجهة للقناة الثالثة وسمعت أكثر من الذين كانوا يشاهدونها ، واضطروا آسفين إلى إغلاقها .وقد دفعنى ذلك للتســـاؤل : هـــل يصـــلح المذيع ، حتى ولو كان جيداً ، أن (يدير) قناة تلفزيونـــية أو إذاعية ؟ وهل من الضرورى أن ينتقل نجاحه كمذيع إلى نجاحه كمدير ؟ أؤكد أن الإجابة بالنفى . وسوف يظل من أخطاء الإعلام

أن تسـند المناصب القيادية فيه لأصحاب المهنة الإعلامية المحترفين .
ويكفـى أن أذكـر أن أبـرز عيوب هذا الإسناد يتمثل فى نفى أو طرد الإعلاميين المتميزين نتيجة الغيرة ، والقضاء على التنافس الذى يكون دائمـاً لصـالح الجمهـور . أما الأمر الآخر فهو أن المهنة الإعلامية تتضـمن قدراً كبيراً من الموهبة والمؤهلات الشخصية للنجاح فى حين أن العمـل الإدارى يحتاج إلى متطلبات أخرى قد لا تتوافر فى الإعلامى النـاجح . وفى كل الوسائل الإعلامية الأجنبية لا يمكنك أن تتبين أسماء مـن يديرون العمل ، فقط تقرأ وتسمع وتشاهد إعلاميين متألقين ، يقدم كل منهم أفضل ما لديه لكى يمتع الناس . أما نحن فقد جعلنا الإعلاميين الموهوبيـن يتحولون إلى إداريين ، فيفشلون فى الإعلام والإدارة معاً.
نفـس الشئ ألاحظه ايضاً فى الصفحات الأدبية بالجرائد ، وذلك عندما يـتولى شـاعر أو قصـاص رئاسة تحرير صفحة أدبية معينة ، فنجده يحجب زملاءه وربما مَنْ هم أكثر موهبة منه فى الشعر أو القصة بدافع الغـيرة من أعمالهم المتميزة ، وظناً منه بأن يتفرد وحده فى الساحة .
كذلـك رئيسـة أو رئـيس القناة الذى (يغار) ممن هم أصغر منه سناً، وأعلى موهبة . .

تمنياتى للقناة الثالثة أن تعود سيرتها الأولى ، فى عصر إعلامى هى أحوج ما تكون فيه إلى التلقائية ، وخفة الظل .

الكتاب المدرسى

مــرة أخرى ، راحت الهمهمات تدور حول الكتاب المدرسى : من يخصصه ؟ ومن يؤلفه ؟ ومن يطبعه ؟ ويبدو أن هذه الأسئلة الرئيسية الـثلاثة أصــبحت مترابطة ، وإذا حاولت أن تفصل بينها وجدت خيوطاً وحــبالاً متشــابكة ، كمــا أن الاقتراب منها يكاد يكون مغامرة محفوفة بالمخاطــر . ومــع ذلــك لابــد من ابداء الرأى فى الموضوع من أجل مستقبل الأجيال القادمة ، والتى إذا علمناها اليوم بصورة جيدة فسوف تتحمل المسئولية غداً على النحو المأمول . .

الملاحظ أن (الكتاب المدرسى) يخرج فى كل عام للتلاميذ ويوزع علــيهم ، لكــنهم مــا يلبثون أن يتركوه فى ركن مهجور من البيت ، ويســرعوا بشــراء (الكتــب المساعدة) ، والتى أصبحت الآن متعددة . لمــاذا؟ لأن التلمــيذ يجد فيها نفس المادة العلمية التى توجد فى كتاب الــوزارة ، مضــافاً إلــيها المــزيد من التبسيط ، والشرح ، والأسئلة والمصحوبة بإجاباتها الصحيحة ، وهنا أتساءل ، كما سبق أن تساءلت فــى مقــال سابق: لماذا لا يتم تقرير هذا الكتاب المساعد بدلاً من كتاب الوزارة ؟ ولماذا نصر على أن يظل لدينا وسيلتا مواصلات تؤديان إلى نفــس الهــدف بدلاً من وسيلة واحدة أبسط وأسهل وأكثر وضوحاً ؟ ثم مــن الــذى يؤلــف الكتاب المساعد ؟ لو تأملت الأسماء لوجدتها لعدد محترم جداً من كبار الموجهين السابقين فى مختلف المواد المدرسية ، يعنى ناس عندهم خبرة وكفاءة وتجربة طويلة فى تقدير عقلية التلميذ ، ومعــرفة مــا يحتاج إليه وما لا يحتاج . . وفى نفس الوقت لو تأملت

كتاب الوزارة لوجدت أسماء مؤلفيه مجموعة من المدرسين ، والمدرسين الأوائل ، الذين اجتاز كتابهم المسابقة التى يحكم فيها كبار الموجهين بالوزارة ، وأحياناً من خارجها . يعنى لدينا هنا جهد مكرر يمكن أن يختصر ببساطة إلى جهد واحد ، وسوف يؤدى إلى نفس النتيجة ، ومن أقصر الطرق .

ليت المسألة تقف عند هذا الحد ، فإن (المدرس الخصوصى) قد أتقن هو الآخر مهنته ، وأصبح على معرفة كاملة بمفردات المقرر الدراسى ، بحيث يمكنه أن يلخصه للتلميذ فى وريقات معدودة ، ومن العجيب أن التلميذ يكتفى بهذا القدر ويدخل الامتحان وينجح . . وهكذا أصبحنا نجد أنفسنا أمام ثلاث مراحل : مرحلة كتاب الوزارة الذى يتم تسلمه وإهماله ، ثم الكتاب المساعد الذى قد يعتمد عليه بضع التلاميذ من ذوى الدخل المحدود ويساعدهم فى قراءته أولياء الأمور ، وأخيراً مرحلة الدروس الخصوصية التى تقفز فوق المرحلتين السابقتين ، وتقدم خلاصة المعرفة المدرسية للتلميذ فى شكل حبوب مركزة تشبه الفيتامينات !

إننى أمام هذه المأساة أكاد أقف حائراً . فلا الوزارة تستطيع إلغاء الكتاب المدرسى . ولا أى جهة غيرها يمكنها أن تمنع الكتاب المساعد. أما محترفو الدروس الخصوصية فإنهم قد أصبحوا مثل النمل أو الصراصير التى غزت المطبخ ، ولم يعد يوجد حل لها إلا فى التطهير الكامل للمكان ، بما فى ذلك رش جميع أركانه بالمبيدات!

الكتاب كهدية

عندما يزور المصريون بعضهم بعضاً يحملون معهم فى الغالب أنواع الهدايا التى تتراوح بين الفاكهة ، والحلويات . وإذا كانوا قادمين من الريف حملـوا معهـم الخـبز والأرز والبـيض وبعض الطيور ، إلى جانب الفطير المشـلتت والعسـل الأبيض . أما فى الأحياء الراقية فيمكن أن تكون الهدية عـبارة عـن باقة ورد (طبيعى أو صناعى وأخيراً مجفف) وإن كان ذلك فى أضيق الحدود .

أمـا فـى الأعـياد والمواسـم ، فـتقوم كروت المعايدة والاتصالات التليفونـية بـدور الهدايـا . وفى الآونة الأخيرة ، بدأت تشيع وخاصة بين الشـباب رسـائل التلـيفون المحمول لنفس الغرض وبعضها مكتوب كما أن بعضـها الآخر مصور . أما هدايا القادمين من السفر الخارجى، فتتمثل عادة فـى الملابس ، الحريمى والرجالى (قمصان وكرافتات) ، وفيما يتعلق بهدايا الحجـاج العائديـن تكـون تارة هى السبحة أو السجادة ، وتارة أخرى هى الجلاليب والعباءات .

وهكـذا تـتعدد هدايا المصريين وتتنوع حسب الظروف ، وتبعاً للبيئة الاجتماعية والثقافية . لكن الملاحظ أنها تخلو كلها من (الكتاب) كهدية يمكن أن تحمـل معـنى المودة والتآلف . ومن المعروف أن التهادى بالكتب يحتل فـى الغـرب مكانة كبيرة، وقد عاش بيننا الغربيون فترة طويلة ، لكنهم لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن ينقلوا إلينا تلك العادة الجميلة . قد يقال لأن نسبة الأمـية لدينا كبيرة . فليكن . لكن لدينا فى المقابل نسبة كبيرة من المتعلمين والمثقفيـن . وبذلـك يصبح السؤال : لماذا لم يصبح (الكتاب) بالنسبة لهذه الفئة موضع تقدير ، حتى يمكن تبادله ، وإهداؤه . .

والواقــع أن الكــتاب يعتبر من أجمل الهدايا التى يمكن أن تحل محل الكثــير مــن الهدايا المتداولة فى مجتمعنا ، خاصة وأن بعض تلك الهدايا لم يعــد يتمشــى مــع العادات الصحية فى الغذاء ، كالحلويات ، أو النشويات المليــئة بــالدهون . كذلك فإن الكتاب – كما هو معروف – من الهدايا التى تــبقى لفترة طويلة ، بل إنه يصلح لكى يعاد إهداؤه إلى آخرين . وهكذا فإن فائدتــه طويلــة الأجل ، ومضاعفة ، وذلك بخلاف الهدايا المتداولة التى لا تلبــث سوى فترة قصيرة ، كالورود مثلاً ، التى تذبل بعد يوم أو يومين ، أو الجاتوه الذى يفسد إذا لم يؤكل فى نفس المدة تقريباً .

إن دخــول الكــتاب فى دائرة الهدايا سوف يدفع القائمين على نشره وتوزيعــه إلــى مزيد من العناية بشكله ، وتوفيره بصورة جميلة وجذابة ، كذلــك فإن المؤلفين سوف تنفتح أمامهم آفاق واسعة ، ومجالات متعددة فى سبيل الاستجابة لأذواق الناس .

عندما كنت فى فرنسا وجدت الناس هنك يتهادون غالباً إما بالكتب أو بالاســطوانات . وكلاهما من وسائل الثقافة الرفيعة . ولديهم فى هذا المجال طرائف . من ذلك أن صديقاً لى مرضت صديقته ، فألح على فى الذهاب معه لشــراء هدية لها. وتوقعت أنه سيشترى لها ورداً أو لعبة ذهبية ، لكنه دخل مكتبة ، وسأل البائع عن كتاب يتحدث عن استنبات الزهور والعناية بها. أما الآخر فاشترى لصديقته كتاباً عن الغوريلا يمتلئ بالصور المرعبة ، وعندما ســألته عــن رد فعلهــا ، أجــاب : كانت فى غاية السعادة ، وقطعت بعض الصور منه لكى تعلقها على الحائط ! !

أتمــنى أن يأتى اليوم الذى يصبح فيه (الكتاب) جزءاً من الهدايا التى نتبادلها فى الأعياد والمناسبات ، فنتعلم منها ، ونعلم بها الآخرين ! !

الكتابة والاستجابة

يظـــن بعض الكتاب والكثير من القراء أن الكتابة عن أى خطأ فى المجـــتمع تعـــنى قيام الجهة المسئولة بإصلاحه على الفور . لكن هذا (الظن) لا يوجد له أساس من الواقع ، وإن كان يعتمد على أساس كبير مـــن العقل والمنطق والحكمة . ومن قال أن الحياة تسير بهذه الأمور . إن اللامعقول يمثل جزءاً كبيراً مما يمارسه الناس فى حياتهم اليومية ، وما تصدره حكومات العالم من قرارات . واعترف أننى كنت من هؤلاء الذيـــن يظنون أن الكلمة المكتوبة ينبغى أن يتم تنفيذها ، وأحياناً كنت أصرخ مع زملائى قائلاً : لماذا لا ينفذون ما نشرته الجرائد من أفكار ؟ أو لماذا لا يصلحون ما أشارت إليه من أخطاء ؟ لكن التجارب المتراكمة علمتنى أنه ليس من الضرورى أن يتم تنفيذ الأفكار بمجرد إعلانها ، أو إصلاح الأخطاء بمجرد التنبيه إليها . وذلك لأسباب عديدة منها أولاً أن المســئولين عـــن التنفيذ أو الإصلاح عادة ما يستكبرون تجاه ما يوجه إلـــيهم ، ويقولون لأنفسهم وما الذى يدعونى لسماع كلام هذا الكاتب أو ذاك ، وهـــو لـــيس مســـئولاً . كمـــا أننى لست مرءوسا له . ثانياً أن المســـئول ينظر عادة أو دائما للنقد على أنه جزء من سهام الحاقدين . وهؤلاء ينبغى عدم الاكتراث بهم . وبما يثرثرون به فى كتاباتهم التى لا تخـــرج عن كونها " كلام جرائد " . وأخيراً فإن المسئول إذا ما وجد أن رئيســـه لـــم يلفت نظره إلى المنشور فى الصحف حسب أن الأمر غير مهم، وبالتالى فإنه لا يستحق التنفيذ أو حتى مجرد الرد . وهكذا تتحول الكـــتابة بمرور الوقت ، وبعدم الاستجابة إلى أفكارها البناءة إلى مجرد

كلام فى كلام ، وتفقد الصحافة رسالتها الأساسية فى تقدم المجتمعات ، والارتقاء بمستوى الأداء فيها .

صــحيح أن هــناك الكثير من النقد الذى يحمل التجريح ، وكذلك الإســاءة الشخصــية لــبعض المســئولين وهذا أمر غير مطلوب على الإطلاق . فالذى يريد أن يصلح لا ينبغى أن يسئ إلى الأشخاص ، وإنما يوجــه اهــتمامه إلــى الإجــراءات والقــرارات والتوجهات بعيداً عن الأشخاص ، وهناك العديد من كتابنا الصحفيين الكبار الذين لديهم مقدرة فائقة على ممارسة هذا النقد الموضوعى البناء.

لكــن الأمــر الذى يظل محيراً هو أن بعض الأخطاء تكون ظاهرة للعيان ، ولها تأثيرها السلبى على المجتمع ، ومع ذلك تظل سارية على الرغم من كثرة التنبيه لها ، والكتابة عنها ، ومما أذكره فى هذا الصدد أنــنى كتبــت أكــثر من مرة عن ضرورة إعلان تسعيرة محددة لبنديرة التاكســى ، وتخصــيص محلات لبيع الخبز بدلاً من الأرصفة والأكشاك الخشبية ، والاهتمام بالسباكة عند بناء العمارات الجديدة ، وعدم وضع مواســير المجــارى فيها على واجهة الشوارع ، والقضاء على ظاهرة التســول فــى إشــارات المرور ، ونزع السلاسل التى يحجز بها بعض الســكان أماكــن لســياراتهم من أمام العمارات ، وتوحيد شكل وحجم المطبات الصناعية ، وتحريم استخدام الكلاكس للمناداة على الناس فى بــيوتهم ، وعدم التهاون فى عقاب مرتكبى الغش الزراعى والصناعى والتجارى ، والتوسع فى إنشاء دور الحضانة لمساعدة المرأة العاملة . وهــذه فقط مجرد أمثلة مما نشرته هنا . وكنت أرجو وآمل وأتمنى أن يحدث التوافق المنشود بين الكتابة . . والاستجابة !

الكلاكس

يعتـــبر الكلاكـــس فــى كــل بلاد العالم ، وخاصة التى اخترعت الســيارات وتنـــتج منها على مستوى كبير ، مجرد آلة تنبيه لا يطلقها سائق السيارة إلا عن توقع كارثة ، مثل صدم أحد المشاة ، أو الارتطام المؤكــد بســيارة أخــرى . أمـــا فيما عدا ذلك فإن السائق الذى يطلق الكلاكـــس يعتـــبر مخالفـــاً لقوانين المرور ، التى تحترم آذان الناس ، وتصـــونها من الإزعاج والضجة ، وكل ما يمكنه أن يؤثر على أعصاب الإنسان .

لقـــد عشـــت فـــى فرنسا ما يقرب من سبع سنوات ولا أذكر أننى ســـمعت كلاكـــس سيارة يتم إطلاقه بدون داع على الإطلاق . وقد حدث أننى عندما اشتريت سيارة هناك ، كنت أخرج بها على الطرق السريعة، أو الطـــرق الجانبية التى تخترق أحياناً الحقول الشاسعة والغابات ، فلا أجـــد سائقاً يطلق الكلاكس ! وقد حدث مرة أن صبحت بعض أصدقائى المصـــريين . وعندما وجدت الطريق خالياً تماماً ضغطت على الكلاكس لكى أسمع صوته . وأتأكد من أنه يعمل . .

إلـــى هذا الحد ، كان الجميع يحترم قوانين المرور ، وخاصة فى هذا المجال الهام . وقد أسعدنى بحق أن يصدر السيد محافظ الإسكندرية قـــراراً بعدم استخدام الكلاكس ، وعندما زرت تلك المدينة الساحرة منذ

فترة . وجدتها قد خلت من الضوضاء التى تسببها كلاكسات السيارات . بسبب أحيانا . وبدون سبب فى معظم الأحيان

ومـــن حسن حظى أن لى صديقاً عاقلاً ، أحاول معه أن أحلل تلك الظواهـــر الشاذة فى حياتنا ، وقد توصلت معه إلى عدة أسباب لانتشار الكلاكـــس فى المجتمع المصرى ، منها أنه يستخدم للمناداة من السيارة على شخص يسكن فى أحد الأدوار العالية بدلاً من الصعود إليه . ومنها أنـــه يســـتخدم بصـــورة عشـــوائية تماماً فى مواكب الأفراح التى تعبر الشوارع ، وتقلق راحة الناس فى بيوتهم ، ومنها أن الكلاكس يستخدم فـــى (الشـــتيمة) . . ويحدث هذا فى العادة بين أصحاب السيارات مع بعضـــهم البعض ومنها أخيراً أنه قد يستخدم لمعاكسة البنات بقصد لفـــت أنظارهن أما سيارات السرفيس وأحياناً بعض أتوبيسات النقل العـــام فإنهـــا تســـتخدم الكلاكس انتقاماً من الناس . وهذا أمر يستحق دراســـته مـــن علماء النفس لمعرفة الدوافع الكامنة وراء هذا السلوك العدوانى

حفظـــنا الله وإياكم من صوت الكلاكس . وخاصة عندما نكون فى حاجـــة إلـــى خمس دقائق فقط من الراحة فى بيوتنا ، أو بعض التفكير ونحن نسير على رصيف الشارع .

لا شــك أنــنا مقبلون على مرحلة جديدة من التواصل مع العالم تتطلــب مــزيداً من التعرف على ثقافاتهم ، والاتصال المباشر بمختلف شــعوبه . ولا يــتأتى ذلك الأمر إلا من خلال اللغة . ولما كانت اللغة الإنجلــيزية بالذات قد أصبحت الآن هى اللغة العالمية الأولى ، فمن حق أبنائــنا أن يــتزودوا بها لكى يستطيعوا التواصل المنشود . والواقع أن مصــر بحكم موقعها تمثل نقطة لقاء ثقافى وحضارى بين ثلاث قارات مباشــرة ، هــى أفريقــيا وآسيا وأوربا . وقارتين غير مباشرتين هى أمــريكا واستراليا . ومن هنا فإنها منذ نشأة نظامها التعليمى فى القرن التاســع عشر تقوم بإعطاء أهمية للغة الإنجليزية بصفة خاصة ، تليها الفرنســية ثم الألمانية . ولست أدرى لماذا أهملت كثيراً اللغة الأسبانية الــتى تــتكلم بهــا كتلة هائلة من شعوب أمريكا اللاتينية . وفى الوقت الراهن برزت الحاجة إلى معرفة لغات آسيوية مثل اليابانية والصينية . إلى جانب الأندونيسية والماليزيه والأردية

وقــد كان المنهج التعلمى التقليدى يقوم على تزويد التلميذ باللغة الأجنبــية فى مرحلة الدراسة الإعدادية ، بينما يترك المرحلة الابتدائية (6- 12) ســنة لكى يتقن لغته القومية ، وهى اللغة العربية ولا شك أن مرحلة تعليمية قد مرت فى النصف الأول من القرن العشرين شهدت

استيعاباً جيداً من جانب التلاميذ للغة الأجنبية ، وإجادة فى نفس الوقت من جانب المدرسين الذين كانوا يقومون بهذه المسئولية ، وكانت النتيجة أن تخرج عدد كبير من الجيل الماضى وهم يجيدون اللغة العربية إلى جانب لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية . وفى هذا الصدد يمكن أن أشير إلى المرحوم عبدالرحمن بدوى الذى لم يحصل على الدكتوراه من الخارج ، وكان يجيد مجموعة من اللغات أهمها الفرنسية والإنجليزية ، بالإضافة إلى الألمانية والأسبانية وطبعاً اللاتينية واليونانية . وعندما سألته أجابنى بحسم أنه تعلم اللغتين الأوليين فى المدرسة ، ثم أضاف إليهما الباقى بمجهوده الشخصى . لكن الدكتورة منى حسن بجامعة القاهرة أكدت لى أن تعلم اللغات وإجادتها يرتبطان بقدرة خاصة لدى بعض الأشخاص . وهذا يعنى أن الاعتماد على التعليم ليس إلا أمراً ثانوياً.

المهم أن قرار وزارة التربية الجديد بتعليم أبنائنا اللغة الأجنبية فى مرحلة الابتدائية من العام القادم ، نرجو أن يتحقق منه أمران : الأول أن يجيد لغة أجنبية منذ نعومة أظفاره ، وفى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وألا يطغى تعلمهم اللغة الأجنبية على تعلم لغتهم القومية ، وهى اللغة العربية ، وأعتقد أن الهدف إذا كان واضحاً فإن الوسائل المختلفة التى تؤدى إليه يمكن أن تكون محل نظر ، وهذا الهدف هو (اتقان اللغة العربية إلى جانب إجادة لغة أجنبية) والله ولى التوفيق .

دخـل التليفون المحمول إلى مجتمعنا بغير استئذان ، وما لبث أن أصـبح بسـرعة جـزءاً مـن حياتنا ، وارتبط استخدامه بالعديد من السـلوكيات ، الـتى رأى فـيها البعض مظهرية كذابة ، بينما اعتبرها البعض الآخر ضرورة عصرية من ضروريات الحياة .

لا شك أن كثيراً من الشباب يسرفون فى استخدام المحمول ، من خـلال أحاديـث طويلة ودردشة فارغة لا تجلب عليهم وعلى أسرهم إلا فـاتورة مثقلة . ولا شك أن بعض قائدى السيارات يستخدمونه من قبيل إظهـار الوجاهة والأهمية ، لكن التليفون المحمول أصبح مفيداً جداً فى حالات كثيرة ، فمثلاً توافره لدى الميكانيكى مهم جداً ، لكى نجده فى أى وقـت ، ويسعفك فى أى موقف . ووجوده مع الكهربائى أو السباك من أهـم مـا يكـون لـنفس السبب . . وطبعاً التليفون المحمول مهم جداً للأطـباء حـتى يمكـن للمرضـى أن يتصلوا بهم عند حدوث أى أزمة عارضة .

لكـن التليفون المحمول ، وإن كان ضروريا فى بعض الأماكن ، فهو مرفوض فى بعضها الآخر ، ومن ذلك مثلاً وجوده مع التلاميذ فى المدرسة أو الطلاب داخل المحاضرات فى الجامعة ، أو الموظفين داخل الاجـتماعات . ومن أسخف ما يحدث أن يدخل موظف إلى مكتب مدير مصلحة ، ومعه المحمول ، فيرن وهو يحدثه ، أو حتى قبل أن يحدثه ! كذلـك من قلة الذوق أن يرفع صاحب المحمول الموسيقى المنبعثة منه، وتسمع عالية داخل اجتماع لا يكون هو رئيسا له وقد شاهدت بعضهم

يـــترك الجرس يرن ، ولا يسرع بإسكاته إلا بعد وقت طويل ، دون أن يشعر باستياء الحاضرين ، وكظم الغيظ لدى رئيس الجلسة . .

إن تســـجيل هذه السلبيات فى استخدام المحمول يجعلنا نفكر جدياً فى وضع مجموعة من الضوابط أو الآداب الخاصة به ، لأنه نمط غريب دخل إلى حياتنا ، فقد كنا من قبل نتوجه إلى مكان التليفون ، ولا نتحدث فـــيه إلا منفردين أو منعزلين عن الناس ، أما الآن فقد أصبح المحمول فـــى جيوب الرجال ، وحقائب السيدات ، وفى أحزمة الشباب .. وليس هـــذا عيـــباً على الإطلاق ، وإنما العيب هو فى سوء استخدامه، وعدم مـــراعاة الآداب العامـــة الـــتى تدعونا إلى احترام الأكبر منا فى السن والمقـــام ، وعـــدم انشـــغال المستمع عن المتحدث إليه أثناء الحديث ، وتجنـــب إزعاج الفرد لجماعة يبحثون معاً موضوعاً هاماً ، وأرجو أن تتأمل معى منظر الشخص الذى يرن محموله وهو فى اجتماع ، فينحنى علـــيه ، ثـــم يقوم متستراً لكى يتحدث فيه بعيداً عنهم ، وأحياناً يتحدث أمامهم بصوت عالٍ جداً . . وأسخف من ذلك الضيف الذى يستقبله أهل المنزل فينشغل عنهم بالرد على محموله ، ويتركهم جالسين حزانى على حـــالهم ، آسفين لما أعطوه له من اهتمام . . أخشى إذا لم نضع آداباً للمحمول أن ينفلت الزمام ، ونجد أنفسنا فى فوضى محمولية !

يشير تحليل المضمون المبدئى لمعظم الأفلام والمسلسلات التى يقدمها إعلامنا أن المال شر كله ، بدءاً من طريقة الحصول عليه بالعنف أو بالاحتيال ، وانتهاء بإنفاقه أو تبديده فيما لا يفيد ، بل غالباً فيما يضر . والخلاصة أن المال لا يحقق السعادة ، بل إنه دائماً طريق الشقاء والتعاسة .

والواقع أن هذه نظرة قاصرة ، وهى ليست صحيحة على إطلاقها. لأنها قد تدفع الكثير من الشباب إلى كراهية المال ، وبالتالى إلى عدم الإقبال بحماسة على اكتسابه من مختلف الطرق الصحيحة التى تؤدى إليه . والحقيقة أن المال ليس شراً فى حد ذاته ، كما أنه ليس خيراً فى حد ذاته ، وإنما هو مجرد وسيلة يمكن أن يستخدمها الإنسان فى الخير أو الشر . لكن الثابت أن الناس فى كل زمان ومكان إنما يعملون ويبذلون جهودهم من أجل الحصول على المال الذى يحقق متطلباتهم أولاً ، ثم رغباتهم وأمنياتهم ثانياً . أما أن تتحول نظرة المجتمع إلى المال على أنه شر خالص، وأن الأغنياء كلهم يستحقون العقاب ، والتشفى فيهم ، فهذا ما ينبغى أن يعاد النظر فيه ، وأنا أقول ذلك لأن ثقافتنا تحتوى على الكثير ، والكثير جداً ، من مواقف الزهد فى المال ، وبالتالى احتقار من يسعى إليه ، والابتعاد عمن يحصل عليه .

وإذا كان صحيحاً أن التاريخ قد سجل لنا أسماء شخصيات ثرية جداً ، كان المال سبب طغيانها وعنادها مثل قارون الذى كانت مفاتيح خزائنه يُرهق حملها جماعة من الأقوياء ، فإن التاريخ قد سكت عن

الكثــير جــداً من الفقراء التعساء ، الذين كان الفقر سبباً فى ارتكابهم مختلف الجرائم بما فيها القتل ، والسرقة ، والخيانة والاغتصاب . وفى المقــابل مـــن ذلــك هناك أمثلة مضيئة لأغنياء استخدموا أموالهم فى الخــير، مثل الصدّيق أبى بكر ، والصحابى عبدالرحمن بن عوف . إذن المســألة لا تــتعلق بالمال فى ذاته ، وإنما فى أسلوب الحصول عليه ، وطرق استخدامه . وقد وصف القرآن الكريم المال بأنه (زينة) الحياة الدنيا ، وليس الآخرة طبعاً ، كما وصف أيضاً بأنه (فتنة) أى موضع اختـــبار ، يتميز فيه وبه الطيب من الخبيث ، والواقع أن نظرة الإسلام إلى المال نظرة معتدلة جداً ، فهو يعتبر أحد وسائل تعمير الأرض التى دعا إليها، لكن ينبغى ألا يتمكن من قلب المؤمن ، ويسيطر عليه ، كما قيل بحق إن المال إما أن يكون عبداً أو سيداً .

وعندما نقارن ذلك بنظرة الشعوب الأخرى إلى المال نجدها تضفى علــيه قيمة بالغة . فاليونان يرون أن المال عصب الأعمال ، والتوراة تؤكــد أن المال يحمى صاحبه ويصونه ، والتلمود يقول أن المال يطهر أى شـــئ ! وكان الأوربيون فى العصور الوسطى يرون أنك إذا بارزت بســـيف من المال فسيكون النصر دائماً حليفك. ويقول الألمان : أن الله يحكـــم فـــى السماء ، والمال فى الأرض . ويرى الإنجليز أن المال هو الــثمرة الناضـــجة فـــى كــل مواسم السنة . ويقول الأسبان إن أفضل مؤسســـة فـــى العالم هى المال ، والدانمركيون يرون أن المال أبلغ من دســـتة خطباء فى البرلمان ، ويؤكد الفرنسيون أن المال يعتبر بالنسبة للإنســـان يداً ثالثة ، ويقول الروس إن الشخص الذى لديه مال يستطيع أن يبتلع من ليس لديهم، وأقسى ما قيل عن المال إنه بدونه لا يمكن أن توجد بلد اسمها سويسرا .

المتنزهات العامة

المتـــنزهات العامة هى الحدائق العامة التى يجد الإنسان من وقت لآخــر حاجـــة إلـــى الذهـــاب إليها ، ليمتع بصره بالخضرة والزهور ، ويســـتمع إلـــى أصوات الطيور ، ويتقابل مع الطبيعة الجميلة فى لحظة ينسى فيها همومه ، ويغسل أحزان قلبه ، وليعود بعدها إلى عمله وهو أوفر نشاطاً ، وأكثر حيوية .

كـــم مـــن هذه المتنزهات عندنا ؟ لا يوجد سوى مكانين اثنين ، حديقـــة الحـــيوان والقناطر الخيرية ، بينما راحت القاهرة ، والجيزة طـــبعاً، تطـــرد الخضـــرة ، وتصب مكانها الأسمنت والأسفلت حتى أن أشجار الشوارع كادت تختنق منهما .

لا مـــانع أبداً من أن تتسع المدن ، وتكبر ، وتتضخم ، ولكن من الضرورى أن تحفظ لسكانها مساحة من المتنزهات العامة لكى يخرجوا إليها من بيوتهم يريحوا النفس والبدن ، ويستنشقوا الهواء والعبير .

أننى أحيى بعض المحافظات التى اهتمت بالخضرة فى شوارعها ، وبصفة خاصة فى مداخلها ، ولكنها ما زالت بحاجة إلى إيجاد متنزهات عامة لأبنائها .

ودعونـــى أصـــارحكم القول بأننى أحسد المدن الكبرى فى أوربا كباريس وروما ولندن ، التى تمتلئ بالمتنزهات العامة فى قلبها ، وعلى أطـــرافها . ومـــن المعلوم أن القاهرة كانت تتوسطها حديقة الأزبكية ، التى تم فى ليلة واحدة القضاء عليها حتى لا تعوق اتصال شارع الأزهر بشـــارع 26 يولـــيو (فـــؤاد سابقاً) . ومن يومها انقسمت الحديقة إلى قسمين ، حزينين ، ومنذ ذلك الوقت لم تقم لها قائمة .

أمـــا حديقـــة الأورمان فلا بأس بها على الإطلاق ، ولكن الدخول إليها مشروط برسوم يدفعها المواطن . وهذا غير مطلوب على الإطلاق . لأننا بهذا نجعلها حديقة خاصة ، وتكاد بهذا الشكل تقترب من النوادى التى لا يدخلها إلى المشتركون فيها .

نفـــس الأمـــر ينطبق على حديقة مسكينة فى المنيرة ، أقيمت فى المكان القديم لكلية دار العلوم ، واشترط القائمون على الكلية حينئذ أن يـــتركوا المكـــان بشـــرط أن يقام عليه حديقة تحمل اسم دار العلوم ، وبـــالفعل اســـتجابت المحافظـــة . لكنها جعلتها أيضاً برسوم ، وتركت عربات النقل وورش إصلاح السيارات تحيط بها من كل جانب !

على أية حال ، لن أقول للسادة المحافظين أكثر من أن المتنزهات هى التى تحفظ على المدن صحتها البيئية كما أنها هى التى تحفظ على أبنائها صحتهم النفسية .

أكاد أقول إن المجلات التى تصدر مرة كل أسبوع أو كل شهر إذا لـــم تطور نفسها ، وتعدل من أسلوبها ومادتها سوف (تروح عليها) ، نظراً لما أصبحت تتميز به وسائل الإعلام السريعة الإيقاع واللحظية أى الـــتى تقـــدم الأخـــبار لحظة بلحظة من إشباع حاجة القراء إلى معرفة الإحداث من خلال عرضا الأخبار فور وقوعها.

لقد أصبحت هذه المجلات (تصعب على) عندما أجدها تتحدث عن خبر مضى عليه أربعة أو خمسة أيام ، وتزيد المأساة عندما نتحدث عن موضـــوع بصـــورة تحتمل الإيجاب والسلب ، بينما يكون قد تم حسمه لصالح واحد منهما قبل أن تَظهر المجلة بيوم أو يومين.

واسمحوا لى أن أقدم مثالاً أو اثنين : عندما تصدر مجلة تقول أن المعركة الانتخابية فى البلد الفلانى مشتعلة ، وأن المتنافسين عليها هما فـــلان وفلان ، ثم تقدم استطلاعاً للرأى لدى المختصين والجمهور حول واحـــد منهما ، وعندما تظهر النتيجة بهذا التحقيق الصحفى يكون أحد المرشحين قد فاز بالفعل !

مـــثال آخر : عندما تعرض قضية ما على مجلس الأمن ، وتنتهى بها المناقشات إلى التصويت النهائى ، وتروح المجلة تستطلع الآراء ، وتقـــدم الـــتوقعات ، وأحـــياناً تتهور فترجح أحد الاحتماليين ، ثم يأتى

التصـــويت فـــى الجانب المقابل ، ويعلم به الناس قبل صدورها وعلى صفحة خلافها هذا التقرير العظيم !

لهـــذا فإنـــنى أقـــترح علـــى تلك المجلات الأسبوعية ، وبالطبع الشـــهرية ، أن تـــتخلى عـــن تقديـــم الأخبار ذات الطابع المستقبلى ، وتتخصـــص فـــى التعلـــيق على الأحداث التى وقعت بالفعل ، وفى أكثر الاحـــتمالات يمكنها أن تقوم بتحليل الواقع تحليلاً موضوعياً يعتمد على مخـــتلف الآراء لكـــبار رجـــال السياسة والفكر . المهم أن تتنازل عن الأخبار السريعة تاركة إياها لوسائل إعلام أخرى أصبحت أكثر استجابة وكفـــاءة ، ويكفـــى أن نعلـــم مثلاً أننا أصبحنا نقرأ عنواين ومحتويات الجريدة نفسها على الإنترنت ، حتى قبل أن يتسلمها موزعو الجرائد . وهناك بعض الأصدقاء يقولون لى أنهم يكتفون بقراءة الجرائد العربية ، فضلاً عن الأجنبية على شبكة الإنترنت ، ولم يعودوا يشترونها.

لا شـــك أننا أصبحنا بالفعل نعيش فى عصر الصورة المتحركة ، وليس الكلمة المكتوبة . وأن تلك (المكتوبات) التى نتداولها اليوم سوف ينحصـــر دورها بمرور الوقت إلى العمل الأرشيفى . لكن العالم ، ونحن جـــزء مـــنه ، لا يريد أن يتخلى بسهولة عن تقاليده التى اكتسبها على مـــدى مئات ، بل آلاف السنين ، ومع ذلك فإن التطورات الحديثة تلحق بكل جوانب الحياة ، ومن الطبيعى أن تكون لها الغلبة فى نهاية الأمر.

ارتفعــت فواتير المحمول حتى بلغت ، فيما يقال ، ثلاثة مليارات جنــيه ، تم إنفاقها من جيوب المصريين . وعلى ماذا ؟ على مكالمات أكــثر مــن 95% مــنها تدور حول مسائل عائلية ، وأخبار شخصية ، وأشــواق وتــنهدات . . وأخــيراً وجـد الآباء أن الميزانية العائلية قد اضــطربت ، فأســرعوا بمناشــدة أبنائهم وأحياناً توبيخهم على كثرة اســتخدام التلــيفون المحمــول ، أو الحديــث من التليفون العادى إلى المحمــول نظــراً لارتفــاع ثمــن المكالمات (الدقائق العشرة بخمسة جنيهات . .) والواقع أن الأبناء (وهم بالفعل أولاد حلال) قد استجابوا لآبــائهم ، فتراجعوا خطوة للخلف ، وقبلوا استخدام الكارت الذى يحدد لهــم الزمــن ، ويــنذرهم بمــرور الدقائق (وقد سبق أن قال لنا أمير الشــعراء أحمــد شــوقى : دقــات قلب المرء قائله له إن الحياة دقائق وثوانى) .

والملاحــظ أن ظاهرة انفجار المحمول قد بدأت تهدأ . وفى رأيى أنهــا سترجع إلى حد الاعتدال ، نظراً لأن الشعب المصرى من طبيعته ذلــك . فهو يرفض التطرف فى الأمور ، ويفضل دائماً الوسطية . كما أنــه شعب متواضع لا يحب التظاهر والنفخة الكدابة . وقد أصابت هذه الــنفخة الكثيريــن ممن استخدموا المحمول ، حتى إننى شاهدت أحدهم يؤكــد لــى أنــه لــم يــترك تجربة نوع جديد من أجيال المحمول إلا واســتخدمه، فإذا ظهرت ماركة أحدث ، بإمكانيات أفضل سارع بالتخلى عن الجهاز القديم واشترى الحديث . وهناك من شاهدته يحمل جهازين

مــن المحمــول فى جيوبه ، وذلك قبل أن يخترع جهاز واحد يمكنه أن يــتحمل رقميــن مختلفيــن . وهــناك من سمعت أنه يحدث زوجته من المحمول وهو على السلم ، أو من الأساسنير ، بل الأغرب من هذا كله أن هناك من يحدث زوجته من المحمول وهما فى نفس الشقة ، وأحياناً أمام الضيوف الذين يحسبون أن المكالمة خارجية .

أما أسخف مكان يرن فيه المحمول فهو أثناء الاجتماعات المهمة، ولســت أدرى لمــاذا لا يصدر قرار بإغلاقها أثناء تلك الاجتماعات كما حدث فى قانون المرور ، وأحياناً يدخل الموظف على رئيس العمل وهو يمسك بالمحمول ، الذى يمكنه أن يرن فى أى وقت . ويغيظك للغاية أن تجــد إنساناً محترماً وقد اختار لجرس محموله موسيقى زاعقة وضعت خصيصاً للشباب !

لكــن المحمــول يظل مهماً جداً لدى الطبيب والضابط وميكانيكى الســيارات ، والســباك ، والكهربائى ، وكذلك لدى الفتاة التى تضطرها ظروف عملها للتأخر عن المنزل حتى تطمئن أسرتها على أحوالها .

هــناك حتى الآن شركتان للمحمول تتقاسمان الأرباح الهائلة التى يدفعهــا المصــريون مــن حر أموالهم ، وقد سمعنا عن شركات أخرى تنتظر فى الغابة لكى تنقض معهما على ما تبقى من اللحم الحى . لكننى شخصياً لا أتوقع أنها ستحصد نفس الأرباح ، لسبب بسيط جداً ، هو أن المصــريين قــد بــدءوا (يعقلون) ، والعاقل هو الذى يسمع كثيراً، ولا يتحدث إلا قليلاً .

مــاذا نفعل عندما نسمع مذيع نشرة أخبار فى التليفزيون يقول : (يعتبر أنها محاولة) بفتح التاء وتنوينها بصورة صارخة ، وبذلك يكسر القــاعدة الــنحوية التى تم الاستقرار عليها منذ ألفى عام والتى تقضى (بــرفع اســم إن) . . هذا مجرد نموذج صارخ لعدم تمرس المذيعين بنطق اللغة العربية نطقاً صحيحاً ، وكذلك التدريب المستمر على أدائها بصــورة تــتفق مــع قواعدهــا المقررة . وإذا كان لكل مهنة أصولها وآدابهــا، فإن أول أصول مهنة المذيع هو إجادة اللغة العربية وإعطاء أصواتها حقها من الترقيق والتفخيم ، وكذلك حركاتها من الضم والرفع والنصــب والجــر ، إلــى جانب تقسيم الجملة تبعاً لعلامات الترقيم أى مراعاة النقطة والفصلة ، وعلامة الاستفهام ، أو التعجب . . كذلك من آداب مهنة مذيع النشرة أن يكون صوته محايداً فى كل الأحوال ، بمعنى أنــه لا يحزن فى موقف الفرح ، ولا يبتسم وهو يتحدث عن مصيبة أو كارثــة . . أما مظهر المذيع أو المذيعة فهو أيضاً مهم جداً ، لكنه ليس الشــئ الوحيد المطلوب ، وإنما هو كالغلاف للهدية المقدمة . فكيف بنا لو استقبلنا هدية من أحد الأصدقاء وهى ملفوفة فى ورق سلوفان جميل المــنظر ، ومزيــن بالأشــرطة والورود ، ثم فتحناها فوجدناها عديمة القــيمة أو فاسدة ؟ ! لقد سبق أن هاجمت قناة الجزيرة (اللندنية سابقاً)

عـــدة مرات بسبب توجهاتها ، وسياستها الماكرة ، ولكننى أظل معترفاً بـــأن المذيعيـــن والمذيعات فيها ، وكذلك المراسلين ممن يجيدون اللغة العربـــية نطقـــاً وأداءً ، وهـــو أحد أسباب انتشار تلك القناة بين قنوات عربـــية عديـــدة فى المنطقة . والسؤال الآن : لماذا لا يتعلم المذيع أو المذيعـــة المصـــرية مـــن الآخرين ؟ ولماذا لا يبحث عن مواطن التميز فيحاكـــيها ، ويتجنب فى نفس الوقت ضعف المستوى ، وسقطات الأداء اللغوى . وبالمناسبة أود أن أنبه إلى حقيقة ناصعة ، وهى شدة الارتباط بيـــن اللغة والفكر ، فالمذيع المثقف هو الذى يمكنه أن يعبر عن نفسه ببســـاطة وتلقائية ، وكذلك بأسلوب لغوى صحيح ، بينما المذيع الضحل الـــثقافة هو الذى تراه ضعيفاً ، متردداً ، لا يكاد يستمر فى نطق جملة واحدة ، كما أنه لا يستطيع أن يربط جيداً بين جملة وأخرى . .

إن الـــتقدم الذى ننشده لمجتمعنا ، والذى يستحقه بالفعل ، ينبغى أن يكـــون فى كل المجالات ، وعلى كل المستويات . ومن المعروف أن هـــذا التقدم لن يتم إلا بإتقان كل فرد منا لمهنته ، وإذا كان الإتقان هو دائماً أساس التقدم ، فإنه فى الوقت الحاضر من أهم المبادئ التى ينبغى التمســـك بهـــا وتحقيقها ، لأننا نعيش عصر المنافسة الحرة بين سائر الأمـــم ، ولكى نثبت ذاتنا لن يتم ذلك إلا بتقديم أفضل ما لدينا . ونحن والحمد لله أمة عريقة لها تاريخها الطويل ، وحضارتها الراسخة .

أكتـــب الآن ، وبعد أن هدأت الزوبعة عن موضوع الخلع ، الذى جعــل الرجال حينها يصرخون بصوت عالٍ ، خوفاً من انفلات الزوجات واســتخدام الكثيرات منهن لهذا الحق ، فتنهدم بيوت ، ويشرد أطفال ، ويسقط من عروشهم أزواج ظلوا طوال حياتهم يأمرون وينهون ، وهم علــى ثقة كاملة بأنهم أصحاب البيت بما فيه ، وبمن فيه ! لكن الأمور ســارت فى مجراها الصحيح ، وتفهم الشعب المصرى حقيقة الوضع ، وأدرك بسرعة أن الخلع من حق المرأة كما أن الطلاق من حق الرجل. وأن المســألة تــرجع لأصــول دينية كما أنها تتمشى مع بداهة العقل، وطبيعة الأمور . المهم أن ظن الكثير من الرجال قد خاب ، عندما خلت المحاكم – تقريباً – من قضايا الخلع ، وثبت أن المرأة المتزوجة أعقل بكثير من الزوج الأخرق الذى يستخدم الطلاق بالحق وبالباطل ، بل إنه يتلذذ أحياناً بالنطق به دون أن يعرف عواقبه ، وما أشبهه بالطفل الذى يســتخدم زماره ، أو الطفلة التى تطرقع فى فهما لبانة ! ظهرت المرأة المصــرية على حقيقتها : أكثر عقلاً ورزانة ، وأشد حرصاً على كيان بيــتها ، ومســتقبل أطفالهــا ، وسمعة أسرتها . وإذا كانت أيام الحياة الزوجية يتقاسمها الهناء والشقاء ، والفرح والحزن ، والراحة والتعب، فإن المرأة أكثر رضا بها من الرجل ، وهى أشد تحملاً منه لمسئولياتها

ومشاكلها . وإذا كان هناك الكثير من الرجال المتزوجين الذين يتململون مـــن زوجـــاتهم ، إمـــا لأنهم تزوجوا عن غير حب ، أو لأن الحب قد انكمش وجف ، فإن هناك فى المقابل من ذلك العديد من الزوجات اللاتى يشعرن بنفس تلك المشاعر ، وربما على نحو أكثر حدة لكنهن يرتفعن علـــيها مـــن أجل أن تسير بهن إلى بر الأمان سفينة الزواج . من هنا فإننى أتوجه إلى المرأة المصرية - بعد مرور وقت كاف على استقرار القـــانون - بكـــل التحـــية والـــتقدير على موقفها الصامد من المطالبة بالحصـــول علـــى حـــق الخلع ، ثم بالمحافظة فى نفس الوقت على هذا الحق ، وعدم إساءة استخدامه ضد الزوج ، الذى كان يظن أنها بمجرد حصولها عليه ، سوف تغلق دونه باب الشقة ، وتغير الكالون . والواقع أنـــنى مـــا زلت أذكر جيداً أن أكثر من صديق حدثنى عن رفضه القاطع لهـــذا الحـــق أن يعطـــى للزوجة ، محاولاً التعلل بأسباب تاريخية ، أو بتقالـــيد اجتماعية ، أو حتى بتعليلات فقهية ، لكنه كان فى حقيقة الأمر يعبر عن خوف دفين بأن زوجته سوف تعتمد على هذا الحق فى تعاملها معـــه ، فـــترفع صوتها عليه ، أو ترفض تنفيذ طلباته ، أو تتمرد على قـــيادته للبيت ، لكنه فوجئ بأن الزوجة المصرية ، الطيبة والأصيلة ، تمـــارس حياتها بنفس البساطة والطاعة والتعاون التى كانت عليها قبل صدور قانون الخلع . وهكذا ثارت الزوبعة ، ثم انتهت على خير .

المحمول فى المسجد

سبق أن كتبت هنا عن آداب المحمول ، باعتباره جهازاً دخل إلى مجتمعـنا فجـأة، وأصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس القادرين على شرائه ودفع فواتيره ، ولأنه من مستحدثات العصر فقد بدأت على الفور تجاوزات استخدامه ، وأسرف أصحابه فى ذلك إلى حد أنك تندهش من المواقـف التى يستخدمونه فيها ، وهم لا يدركون أنها مواقف لا يصح أبداً أن تتحمل هذا المحمول ! من ذلك مثلاً أن يدخل موظف على رئيسه فى العمل ، وفى يده المحمول ، ثم يرن الجرس ، ويقوم بالرد عليه فى مكتـب رئـيس المصـلحة ! ومن ذلك أيضاً أن تعقد لجنة ، ثم تنطلق أجـراس المحمـول الموضـوعة أمام أعضائها بموسيقى صاخبة تثير الأعصـاب ، الأمـر الذى يشتت انتباه الجالسين ، ويرفع ضغط رئيس الجلسة دون أن يعترض تأدباً ! والأسوأ من ذلك أن يقوم عضو اللجنة بالرد على المكالمة بصوت عال يغطى على ما يجرى من مداولات . وقد أحسن قانون المرور صنعاً حين وضع غرامة على السائق الذى يتحدث أثـناء قيادة سيارته فى المحمول حرصاً على حياته ، وحياة المواطنين من حوله . وإلى جانب قانون المرور ، فقد حرمت المدارس والجامعات اصـطحاب المحمول داخل لجان الامتحان باعتباره إحدى وسائل الغش المحتملة . وبالفعل حدثت بعض المخالفات فى هذا المجال ، وتم عقابها على الفور . أما باقى التجاوزات فى استخدام المحمول فقد تركت للذوق

المصـــرى ، والـــذى يحـــدده مســـتوى الـــثقافة والآداب العامة وتقاليد المجتمع.

لكن أبرز ما ظهر من تجاوزات هو انطلاق رنين جرس المحمول فـــى المساجد أثناء أداء الصلاة ، وما ينتج عن ذلك من تشتيت لانتباه المصـــلين ، وإيـــذاء لمشاعر الخشوع التى ينبغى أن تصحب الصلاة . ولأن المحمول لم يظهر فى عهد أئمة الفقه الكبار من أمثال أبى حنيفة ومـــالك والشافعى وابن حنبل ، فإننا لا نجد أحكاماً خاصة بذلك ، ومن المؤكـــد أنـــه لـــو ظهـــر فـــى عصرهم لأصدروا فتواهم بضرورة عدم اصـــطحابه داخل المسجد ، أو على الأقل غلقه فيه . لكن آداب الصلاة تقـــرر كراهـــية كـــل مـــا من شأنه أن يشتت ذهن المصلى مثل زخرفة الســـجاجيد ، والمـــبالغة فـــى تزيين جدران المساجد ، وكذلك عدم قيام المصلى بأى حركة خارجة عن أفعال الصلاة المحددة ، كالعبث بثوبه أو بـــبدنه أو الإشارة بيديه . والغرض من ذلك كله هو تركيز المصلى كل أفكـــاره ومشـــاعره فـــى الصلاة ، التى هى لحظة قرب من الله تعالى ، بحيـــث لا يـــتلهى عنها بأى شئ آخر . جاء فى الأثر أن رسول الله ، صـــلى الله علـــيه وسلم ، عندما شاهد رجلاً يصلى فى المسجد ، وهو يعبـــث بلحيـــته قـــال : لو خشع هذا لخشعت جوارحه ، أى لامتنع عن التلهى عن الصلاة بلحيته ، فما بالك بالتلهى بجرس المحمول !

أتابع بالكثير من اللامبالاة كتابات أولئك الذين يعارضون بتحمس لا معـــنى له تولى المرأة مناصب معينة . وأتعجب فى نفس الوقت من أنهـــم يـــتركونها فى البيت تتولى العديد من المسئوليات المهمة جداً ، بينما يحرمون عليها أن تقترب من المناصب التى يستأثرون هم وحدهم بها.

وقـــد تجلى فشل أولئك الرافضين للمرأة عندما ثارت مسألة الخلع فانزعجوا أشد الانزعاج ، على الرغم من أن حق الخلع ثابت فى السنة النـــبوية ، ويتمشـــى مـــع تعاليم القرآن الكريم التى لا تفرض على أى إنســـان ، رجلاً كان أم امرأة ، سلطة إنسان آخر، يتحكم فيه ، ولا يتيح له الانفصال عنه إذا أراد . وكما أنه لا إكراه فى الدين ، فكذلك لا إكراه فـــى الزواج ، ولا إكراه فى استمراره . ولو فهم أولئك الرافضون دائماً روح القـــرآن لارتاحوا وأراحونا من التشنج الذى يؤدى إلى التعصب ، والذى ينتهى عادة بالإرهاب.

أمـــا كـــون المـــرأة قاضية فهى مسألة منتهية . ويكفى أن يعلم الرافضون لتوليها هذا المنصب أنها قد أصبحت منذ فترة طويلة أستاذة فى كليات الحقوق ، التى يتخرج منها المحامون ووكلاء النيابة والقضاة والمستشـــارون . وطـــبعاً لا يعقـــل يـــا سادة أن تدرس المرأة القانون وأصوله للطلاب ، ثم تحرم من المهنة التى تنتهى إليها تلك الدراسة .

أما عمل المرأة عموماً ، فأريد أن أشير فيه إلى ظاهرة واضحة كالشمس ، ولكن الرافضين للمرأة يكادون لا يرونها . وهى ظاهرة عمل المرأة فى الريف : فهى تصحو قبل زوجها وأولادها لتحلب الجاموسة ، وتشـــعل الفرن ، وتخبز الخبز أو الفطير، وتحضر طعام الإفطار ، وبعد أن تـــودع زوجهـــا وأولادهـــا بالسلامة إلى عملهم بالغيط ، تستمر فى تنظيف البيت ، وإعداد الغداء ، وكثيراً ما تحمله على رأسها وتذهب به إلى زوجها فى الغيط ، وبعد تناوله تعود بالمواعين لتغسلها فى الترعة أو تظل معه لمساعدته فى بعض أعمال الزراعة الصعبة . وعندما تعود إلـــى البيت يكون من واجبها إعداد العشاء ، وتوضيب الفرشة لكل من الـــزوج والأولاد .ومن المعروف أنها تكون آخر من ينام ومع ذلك فهى أول من يستيقظ .

أقـــول لمعارضى عمل المرأة (فى المدينة) : لماذا لا تمنعون تلك الفلاحـــة المسكينة مما هى فيه ؟ أو تدعون إلى تخفيف بعض ما تقوم به؟ بينما تركزون حديثكم وغضبكم ومقالاتكم على امرأة المدينة حينما تخـــرج من الساعة الثامنة صباحاً إلى الثانية ظهراً للعمل فى المصالح الحكومية.

مـــتى يـــتطابق ظاهر الإنسان الشرقى مع باطنة ؟ وأطال الله فى عمـــر نجيـــب محفوظ الذى كشف لنا عن تناقضه المشين الذى ظهر به سى السيد فى الثلاثية ! !

المصـــريون شعب أصيل . يمتد تاريخه عبر آلاف السنين . وقد نجح منذ قرون طويلة فى إقامة حضارة مزدهرة على ضفاف النيل ، تركت آثارها العظيمة حتى اليوم. كمـــا شـــغلته مسائل الحياة والموت ففكر فيها ، واستطاع أن يتوصل إلى عدة مفاهيم دينـــية صحيحة ، مثل توحيد الله ، والبعث بعد الموت ، وما يتعلق بها من أفكار الثواب والعقـــاب والجنة والجحيم ، لذلك عندما جاءت الأديان السماوية رحب بها ، واستقبلها علـــى الفـــور لأنهـــا استجابت لحاجة كان يحس بها من قبل . . وتشير الدلائل إلى أن الشـــعب المصـــرى عـــندما تـــتاح له فرصة العمل الكبير فإنه ينجزها بكفاءة عالية . والمثال على ذلك أهرامات الجيزة ، ومعابد الكرنك ، ثم قناة السويس ، والسد العالى.

صـــحيح أنـــنا نشـــاهد المصـــريين كسالى على المقاهى ، يجلسون فى تراخٍ ، ويلعـــبون الطاولـــة أو يدخـــنون الشيشة ، وهذا هو ما يلاحظه أيضاً أى سائح أجنبى فيســـرع إلـــى وصـــف المصريين بعدم الإقبال على العمل ، والبعد عن النشاط . لكنك تلاحـــظ فى نفس الوقت أن هؤلاء الكسالى على المقاهى عندما يفاجأون بوقوع حادثة فـــى الشارع ، كأن تصدم سيارة صبياً صغيراً ، فإنهم يسرعون بكل همة وشهامة إلى موقـــع الحادث ، ويسرعون بنقل المصاب إلى أقرب مستشفى ، والقبض على مرتكب الحادث لتسليمه إلى الشرطة .

وهكـــذا لـــم يكن موغلاً فى الخيال ذلك الفنان المصرى القديم الذى أبدع تمثال (أبـــو الهـــول) الذى جعله على هيئة أسد برأس إنسان ، يجلس على شاطئ الصحراء المترامـــية ، ليراقـــب الزمـــن ، ويلاحـــظ تقلبات العصور ، دون أن تبدو على وجهه علامـــات التأثر والانفعال . ولعل هذا ما جعل الفنان المصرى الكبير مختار يبدع تمثاله الـــرائع المســـمى (نهضـــة مصـــر) الذى جعل فيه الأسد ينهض بقدميه ، بينما فلاحة مصرية تضع يدها على رأسه ، وكأن مصر قد أيقظت أبا الهول من رقدته التاريخية .

ولأن المصـــريين قـــد تعودوا على الأعمال الكبرى ، فإنهم لا يقبلون عادة على الأعمـــال البســـيطة أو الصـــغيرة، ويستنكفون غالباً من العمل اليدوى ، مع أن الحياة المعاصـــرة أصـــبحت تتطلـــب تغيير عاداتهم فى هذا الميدان . وإذا قارنت بينهم وبين

الصـــينيين مثلاً لوجدت هؤلاء يقبلون على العمل الفردى بنشاط ، ومن مجموع العمل الفـــردى يـــتكون الإنـــتاج الكبير . أما المصرى فإنه يريد أن يبنى مصنعاً كبيراً ، وألا يكـــون له فـــيه شـــركاء . وهـــذا يتـــنافى مـــع الاتجاه العالمى الذى لم يعد ينطلق إلا بالمشـــاركة ، بـــل ودمـــج الشـــركات الكبرى مع بعضها البعض . . لكن المصريين لا يرحـــبون عـــادة بالعمل الجماعى ، وخاصة فى مجالى الصناعة والتجارة ، بل إنهم لا يقـــبلون كمـــا يقـــبل الغربيون على تجميع أنفسهم فى نقابات ، وإذا فعلوا فسريعاً ما يختلفون ويفترقون .

وبالنسبة للنظام ، أذكر أن الإمام محمد عبده كتب عن المصريين مقالاً ذكر فيه أنهـــم " شـــعب جـــبل على عدم حب النظام . وإذا فرض عليه ، ظل يعمل بكل الوسائل حـــتى يـــتخلص مـــنه " – وأؤكد أننى أحاول أن أجد ثغرة فى صحة هذه العبارة ، فلا أســـتطيع . ويكفـــى أن تـــتأمل مـــنظر طابور يقف فيه المصريون ، أو تشاهد طريقة قـــيادتهم للســـيارات وعـــدم التزامهم بإشارات المرور. وهنا مثل قريب ، عندما قررت وزارة الداخلـــية المصـــرية ضـــرورة اســـتخدام ســـائقى السيارات لأربطة الأمان فى الســـيارات – وهـــذا بالمناســـبة يحدث فى كل دول العالم حفاظاً على أرواح السائقين أنفســـهم – فقـــد تذمـــر المصريون وما زالوا ، لأنهم يشعرون أن هناك (نظاماً) يطبق علـــيهم . ومن أعجب ما شاهدت بهذه المناسبة سائق تاكسى يضع حزاماً مفكوكاً من الســـيارة علـــى صـــدره ، حـــتى يوهـــم رجـــال المرور بأنه ملتزم بالقانون من حيث الظاهر فقط !

تـــبقى الإشـــارة إلـــى قـــيمة الوقت عند المصريين . وطبعاً كلنا يعرف أن هنا تجـــاوزات كثـــيرة . فـــالذى يعـــدك بالحضور فى الساعة الخامسة ، يمكن ببساطة أن يحضـــر الخامســـة والنصـــف أو فى السادسة . لذلك فإنهم يفضلون أن يعدوا بالمجئ (بعـــد العصر) أو (بعد العشاء) حتى يظل الوقت مفتوحاً . . وهم يتعجبون جداً وأحياناً يغضـــبون إذا وجـــدوك متشـــدداً معهم فى الالتزام بالمواعيد . وفى تصورهم أن تأخير ساعة لن يصنع شيئاً فى مسيرة الزمن الممتد بين الأزلية والأبدية.

حدثــت هذه الواقعة فى المركز الرئيسى لأحد أكبر البنوك عندنا ، حيــث ذهبت سيدة تفك وديعة لها من أجل العلاج ، وعلى الفور تحلق حولها الموظفون : لماذا ؟ سوف تخسرين الفوائد ؟ انتظرى حتى يحين أجــل الوديعــة ! سمعت السيدة كل ذلك ، لكنها قالت لهم بإرهاق : يا جماعــة أنــا محــتاجة للــنقود الآن من أجل إجراء عملية عاجلة فى المستشفى . انصرف عنها الموظفون ، وتركوها لموظف الشباك ، الذى قــال لهــا بوجــه عبوســى : طيب روحى صوّرى البطاقة الشخصية (وش وضـــهر) ! سألته: أين ؟ قال : خارج البنك ، لأن ماكينات البنك كلها معطلة ! ولأن البنك له سلالم كثيرة ، والسيدة مريضة ، فقد وقفت عاجــزة عــن الحركة ، وراحت تبكى حتى عطف عليها عسكرى طيب القلب ، وأخذ منها البطاقة الشخصية ، وذهب فصورها لها، ثم استمرت الإجراءات التى تجاوزت أربع ساعات كاملة !

عــندما حكت هذه السيدة تلك الواقعة ، لم أكد أصدقها . إذ كيف يــتم الــتعامل مع عملاء البنك الذى أنشئ أهليا لخدمة الشعب المصرى بهــذا الأسلوب اللاإنسانى ! وقفز لذهنى ما كنت ألاحظه فى أحد البنوك الصــغيرة بــباريس ، حيث لم يكن يوجد به سوى موظفين اثنين على الشــباك ، ومديــرة جالسة خلفهما . فإذا بلغ عدد المتعاملين أكثر من اثنيــن نهضــت المديرة على الفور ، وتعاملت مع الشخص الثالث على

أنهـــا مجرد موظفة شباك . . وبهذا الأسلوب لم يكن يوجد فى البنك أى زحام على الإطلاق.

أعــود لهــذه المعاملة البنكية فى مصر لكى أنبه أهل الاقتصاد ، وخـــبراءه ، والمتحدثيـــن فى ندواته ومؤتمراته ، عن أهمية (التعامل الإنسانى) داخل البنوك ، باعتباره جزءاً لا يتجزأ من النشاط الاقتصادى الناجح ، وليس إلا كمالياً أو تجميلياً قد نجده فى بعض البنوك ولا نجده فى غيرها.

وأقــول للسيد الهمام مدير ذلك البنك الرئيسى إذا كانت إجراءات صرف النقود للعملاء تتطلب تصوير البطاقة الشخصية فينبغى عليك أن توفر لكل موظف ماكينة يقوم هو نفسه بالتصوير عليها للعملاء.

أمـــا موظفو البنوك فلابد أن يفهموا جيداً أنهم يعملون فى أخطر أماكـــن النشـــاط الاقتصــــادى المصرى ، والذى لا يعجبه عمله فى هذا المكـــان يمكنه أن يغادره إلى مكان آخر وبذلك يتيح الفرصة لغيره من الشـــباب الذى يمكنه أن يحسن استقبال العملاء ، وأن يأخذ بأيدى كبار الســـن والمرضى والبسطاء ليحقق لهم ما يريدونه من البنك ، بدلاً من أن يعقد لهم الإجراءات ، ويكلفهم من أمرهم عسراً . .

وأخـــيراً أريد أن أقول : إن البنوك فى أى مجتمع هى تماماً مثل القلـــوب بالنســـبة لأجســـام البشر . وعلى مقدار صحتها وقوتها تكون ســـلامة الجسم وحيويته ، كذلك على قدر ضعفها ومرضها يكون ضعفه وانتكاسته !

أى مقاومة للاحتلال فى العالم لابد أن تعتمد على جناحين أحدهما عسكرى والآخر سياسى . وكل منهما لابد أن يكون متناسقاً تماماً مع الآخر ، بحيث يمهد الجانب العسكرى الأرض للجانب السياسى ، كما يتيح الجانب السياسى فرصة الحركة والمناورة للجانب العسكرى .

تشهد بذلك كل حركات المقاومة التى حدثت فى العالم كله ضد الاحتلال . والمهم ألا يلقى الجانب العسكرى سلاحه إلا بعد أن يحصل الجانب السياسى على كل النتائج المترتبة عليه ، ويحقق الأهداف الكبرى التى تجمع الجانبين .

ولم يحدث أن شهدنا فى تاريخ المقاومة انفصالاً أو اختلافاً أو تنافساً رديئاً بين الجانب السياسى والجانب العسكرى ، بل كانا دائماً متفقين ومتضامنين . وهنا تأتى أهمية رموز الجانب السياسى والجانب العسكرى ، بحيث تكون كلها متفقة على تكتيك محدد لعمل المقاومة اليومى ، واستراتيجية كبرى لتحركها على المدى الطويل .

لكننا إذا حاولنا أن نطبق هذه الأصول على المقاومة الفلسطينية وجدنا الكثير منها غائباً أو غير متوافر بصورة كاملة. والملاحظة الأهم أن هذه المقاومة تتمثل فى جانبين أحدهما هو السلطة الفلسطينية التى

يمكــن أن تطلــق عليها الجانب السياسى، والآخر هو مجموع الفصائل الإســلامية (حمــاس والجهــاد . . .) التى يمكن أيضاً أن تطلق عليها الجانــب العســكرى . ومن الواضح أن الجانبين منفصلان أحدهما عن الآخــر، إن لــم يكونا متناقضين . ومعنى هذا أن الجانب السياسى فى المقاومــة الفلسطينية يتحرك بدون أن يكون له على الأرض قوة تمكنه مــن التفاوض المتكافئ مع قوى الاحتلال ، بينما الجانب العسكرى يقوم بأعمــال فردية متناثرة لا يتحقق من ورائها أى مردود سياسى ، الأمر الــذى جعل إسرائيل فى موقف أفضل ، فهى من ناحية لا تعطى للجانب السياسى أى اعتبار ، على أساس فقدانه للسند العسكرى ، بينما تحاول بكل وسائلها أن تدمغ الجانب العسكرى بالتطرف والإرهاب ، مما يفقده الكثير من التعاطف الدولى .

مــا هو الحل ؟ أن تنتهز القيادة الفلسطينية الفرصة المعطاة لها حالــياً لإصلاح شئونها ، فتقوم بتوحيد الصف الفلسطينى بكل فصائله ، مــن خــلال مشاركة حقيقية فى كل من العمل السياسى والعسكرى . . وبــدون ذلــك ، سوف يظل الجناحان منفصلين ، بحيث يتحرك أحدهما بيــنما الآخر ساكن ، أو يحاول أن ينهض أحدهما فلا يجد من الآخر أى دعــم . وأؤكــد أن أى مقاومــة للاحتلال فى العالم لم تنجح إلا بتوحيد صــفوفها، وتوزيــع الأدوار علــى أبطالها ، سواء كانوا عسكريين أو سياسيين .

لن تنتهى وظيفة المقهى ، أو بالعامية (القهوة) من أى مجتمع . فهـى المكـان الـذى يذهـب إليه الفرد أو الشلة لقضاء وقت الراحة والتسـلية ، بعـيداً عن جدران الشقة، ومشكلات البيت . وفى كل مدن العالم توجد المقاهى : لندن وباريس وبرلين وروما ومدريد والقاهرة . كما أنها توجد فى القرى ، لكنها تكون أكثر بساطة . وفى كل الأحوال ، لابـد أن تـتوافر فـى المقهى كل مقومات الراحة والتسلية . فلابد من وجـود الكراسـى المريحة ، التى تسمح لفرد واحد بالجلوس كما تتيح الفرصـة لفرديـن أن يجلسا متواجهين ، وكذلك تسمح لخمسة أو ستة أشـخاص أن يـتحلقوا حـول إحـدى الطاولات . وطبعاً لابد من توافر المشـروبات الساخنة والباردة إلى جانب بعض السندويتشات أو الأكلات الخفـيفة ، ومـن المهـم أن يحتوى أى مقهى على دورة مياه ، وكذل كابيـنة تليفون . أما الجرسون فينبغى أن يكون خفيف الحركة مستجيباً لتحقيق مختلف المطالب والأذواق لرواد المقهى . ولا يقتصر دوره على تقديـم الطلبات ، بل إنه يساعد فى إشعال سيجارة لشخص جالس ، أو إرشاد شخص عابر إلى مكان معين.

كانـت لديـنا فـى القاهرة العديد من المقاهى التى حصلت على شـهرتها مـن خـلال تقديم خدمة جيدة لزبائنها . بعض المقاهى كان يجلـس عليها الأدباء ، وبعضها اختص بالفنانين وأهل الطرب . وهناك بعض المقاهى التى يتجمع فيها أهل حرفة معينة، وأحياناً ما يتجمع فى مقهـى معيـن أصحاب المعاشات ، كما أن هناك من المقاهى ما اشتهر

أساســاً بــتقديم الشيشة ، فإذا ما أوقعك حظك فى الجلوس على إحداها وطلبت شاياً ، نظر إليك الجرسون باستغراب .

وتختص المقاهى المصرية بتوفير الكوتشينة والطاولة لزبائنها ، بيــنما تخلو المقاهى الأوربية من ذلك ، ويوجد بدلاً منها ماكينة ألعاب (فليــبرز) تعمــل بالعملــة ، إلى جانب ماكينة أخرى لاختيار اسطوانة معيــنة - وطبعاً تأتى أهمية المقاهى الأوربية من استيعابها للناس عند هطــول المطــر فجأة ، فنجدهم يسرعون للاحتماء داخلها حتى ينتهى المطــر . وتــبقى بــاريس هى أجمل مدن العالم فى خدمات مقاهيها ، ومــتعة الجلــوس علــيها . لكن الملاحظ أن المقاهى الأوربية لا تفتح أبوابهــا مــنذ الصــباح الباكر، بل إنها لا تستقبل زبائنها إلا قريباً من منتصــف الــنهار ، حيث يمنح الموظفون والعمال ساعة راحة لتناول الغــداء وعــندئذ تمتلــئ المقاهى بهم ، حيث يتناول معظمهم وجباتهم الخفــيفة أو مشــروباتهم وهم وقوف . أما المقهى المصرى فإن يفتح أبوابــه مــنذ الصباح الباكر، وحتى قبل أن تبدأ فترة العمل الرسمية . وكثــير من المقاهى عندنا تخلو من دورة المياه ، وهذا عيب كبير يؤثر فــى إقــبال السياح عليها . وقد سبق أن كتبت أن سائحاً لو تمشى من مــيدان الــتحرير حــتى القلعة فإنه لن يجد مقهى واحد به دورة مياه نظيفة، فضلاً عن كابينة التليفون .

إن المقاهى أصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من السياحة ، ولابد من الاهتمام بها ، وتشجيع إنشائها وتطويرها ، والعمل على أن يتوافر بها للزبائــن كــل وسائل الراحة والتسلية ، وأن تستفيد بذلك من المقاهى الأوربــية ، التى لا يكاد يذهب أى سائح إليها إلا وجلس فيها ، وأنفق بها بعض نقوده ، الأمر الذى يعود بالنفع على أهل البلد جميعاً.

الورد المستورد

نشـــأت فى الأحياء الشعبية العريقة بالقاهرة ، حى الدرب الأحمر وحـــى الحســـين، اللذيـــن يخلوان تماماً من أى حديقة ، نتيجة تكدّس مـــنازلهما ، وكـــثرة عـــدد سكانهما . لذلك فإن أجمل ما كنت أفتتح به صباحى كل يوم هو سماع أغنية (الورد جميل) التى كانت تشدو بها أم كلـــثوم فـــى الـــراديو ، فتشيع فى نفسى الإحساس بأنواع الورود التى تتحدث عنها : الأبيض والأحمر والأصفر ، وتجعلنى كأنى أشاهد حديقة بكاملها !

ومـــرت الأيام ، وأنا أحلم بإقامتى فى منزل بحديقة ، تتفتح فيها الـــورود ، وتتنقل بينها الفراشات . لكن هذا الحلم لم يتحقق ، اللهم إلا فـــى فترات متباعدة ، من خلال زيارة عابرة لحديقة عامة ، أو خاصة بـــأحد النوادى ، أو فى بلد أوربى . ولكى أحقق حلمى فى رؤية الورد من حولى ، لجأت مثل الجميع إلى شراء الورد الصناعى، ووضعته فى أركـــان المنزل ، محاولاً – عبثاً – أن أعوض به حضور الورد الطبيعى النابض بالحياة والرائحة الزكية والجمال الربانى . .

لكنـــنى لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أن تجار الورد الطبيعى عـــندنا يســـتوردونه من الخارج ، وبالعملة الصعبة ! أكد لى ذلك أحد أصدقائى عندما ذهب لعيادة مريض فى إحدى المستشفيات الاستثمارية، ووجد بجوارها بائع زهور ، وعندما طلب منه (بوكيه ورد) سأله : ورد

محلـــى أو مســـتورد ؟ فقال له بكم هذا وذاك؟ فأجابه : الوردة المحلى بنصـــف جنـــيه ، والمســـتوردة بجنيهين ونصف ، نظرت إلى صديقى بدهشـــة فحـــاول تهدئتى قائلاً : لكن بصراحة . الوردة وردة بصحيح . فهـــى ممتلـــئة وتفيض صحة ويمكن أن تبقى لعدة أيام . قلت : ومهما يكن ، فإن الورد المصرى ما زال مشهوراً بطيب رائحته التى لا يدانيه فـــيها أى ورد فى العالم ، لأنه قد شرب من ماء النيل . وهذا الماء له عذوبة خاصة ، تجعل النباتات التى تروى به أصح وأبرك من غيره فى شـــتى أنحـــاء العـــالم ! ثم هل عجز أهل الحدائق فى مصر عن حاجة الســـوق ، حـــتى يضـــطر تجار الورد إلى استيراده من الخارج بالعملة الصـــعبة ، الـــتى نحن أحوج ما نكون إلى عدم تبذيرها فى الكماليات ؟ ومـــاذا لـــو فكـــر المصريون قليلاً فى عاداتهم التى نشأوا عليها بحيث يضيفون إليها – ولا أقول ينقصون منها – وهى إهداء أصدقائهم وحتى مرضاهم كتاباً مفيداً ، يتسلى به المريض فى أثناء مرضه، ويضعه فى مكتبته بعد أن يشفيه الله .

ومع ذلك فسوف تظل الورود من أجمل مخلوقات الله ، ننظر إليها فنسبحه ، ونشمها فنسبحه ، ونتهادى بها فيشكر بعضنا بعضاً عليها . والحديـــث النبوى يقول : من لم يشكر الناس لم يشكر الله . فهى أيضاً وســـيلة إلـــى شكره وذكره . أما الذى لا يمكن قبوله أبداً فهو استيراد الـــورد فى فترة تمر بها البلاد بمنعطف اقتصادى صعب، يتطلب المزيد من الحرص فى الاستيراد ، والتوسع على قدر الطاقة فى التصدير .

عندنا فى مصر مثل شعبى جميل يقول (القرد فى عين أمه غزال) ومعناه ببساطة أن الحكم على الجمال أمر نسبى ، أى أنه يتعلق بوجهة نظـــر كل شخص وهى ترجع إلى التحيز ، والذوق ، ويتحكم فيها الحب والكره . والدليل على ذلك أن قبح القرد أمر مجمع عليه ، لكنه يبدو فى عيـــنى أمـــه أجمل المخلوقات . وهناك مثل إغريقى (أى يونانى قديم) يقـــول (إن مـــاء البحر ضار بالإنسان ، لكنه نعمة للأسماك) وهنا لا ترتبط النسبية بإصدار الأحكام ، وإنما بالفائدة العملية التى تحصل عليها الأطـــراف المخـــتلفة . فالإنسان لا يمكنه أن يشرب من ماء البحر نظراً لملوحته الطاغية، بينما هو المكان الطبيعى لحياة الأسماك ، فيه تتنفس، وبـــه تعـــيش . وهذا قريب جداً من مثل آخر يقول (إن الشمس تذيب الشـــمع ، لكـــنها تجفف الطين) أى أن المؤثر الواحد قد يحدث أثرين متضـــادين تمامـــاً . ولـــدى الأتـــراك مثل يقول (إن الماء الذى تعبره بسهولة يمكنه أن يغرق غيرك) كذلك تبدو النسبية أوضح ما تكون فى المثل الألبانى الذى يقول (إن القط فى عيون الفئران . . أسد) والمثل الألمـــانى الآخـــر الـــذى يقـــرر (أن القـــزم يرى الناس كلهم عمالقة) والفرنســـيون يـــرون أن (الصقر فى منزل ليس سوى أحمق فى منزل آخـــر) وهكـــذا تؤكد حكمة الشعوب ، المتمثلة فى أمثالها الشعبية أن الحقـــيقة أكـــبر مـــن يحيط بها عقل واحد ، كما أن الجبل لا يمكن أن

تســتوعبه نظــرة واحــدة . وهــذا يؤكد أن أحكامنا على الأشياء تظل خاصــة، وجزئــية ، بــل ونســبية أى مرتبطة بمدى قدرتنا ، وبسعة معلوماتنا ، وبقوة أو ضعف تعبيرنا عنها فى كلمات اللغة .

وإذا كان اينشتين قد صاغ النظرية النسبية فى مجال الرياضيات ، وكانــت هــى نقطة الانطلاق الكبرى فى تقدم العلوم الحديثة كلها ، فإن الشعوب بحكمتها الفطرية قد توصلت قبله بأزمان طويلة إلى أن الكون الدائم الحركة لا يمكن أن نحكم عليه حكماً ثابتاً ، يصلح فى كل الأوقات، لأنه يتغير باستمرار ، والظروف التى تحيط به تتغير كذلك ، وأخيراً فإن ملاحظتــنا له لابد أيضاً أن تتابع هذا التغير . وقديماً قيل (إنك لا تضع يــدك فــى النهر الواحد مرتين) . ومعناه أنك إذا وضعت يدك فى ماء الــنهر ، فى مكان محدد ، وجدت الماء يجرى حول يدك ، ولا يتوقف ، وهذا معناه أن المكان الذى وضعت يدك فيه ليس ثابتاً ، وإنما هو متغير بتغير الماء الجارى .

لماذا أقول ذلك كله ؟ لكى أثبت لأحد أصدقائى ممن يتمسكون جداً بــآرائهم ، ويعتبرونها – هى وحدها – الصحيحة أننا يمكن أن نختلف فى الحكم على الأشياء ، وأن هذا الاختلاف هو فى حد ذاته اقتراب عبْر طــرق مــتعددة مــن الحقيقة . وقديماً قال أحد أسلافنا الأفاضل (رأيى صــواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب). ليتنا نفكر قلــيلاً فى ذلك أو نحاول أن نطبقه على أنفسنا ، حتى نخرج من الحوار الذى قد تتعدد فيه الآراء ، بل وتتناقض ، ونحن دائماً أصدقاء .

النظافة وشخصية المحافظات

أتوجه بحديثى هذا إلى جميع السادة المحافظين ، المسئولين أولاً وأخيراً عن نظافة محافظاتهم ، ابتداء مما يسمى الأحياء الراقية حتى المناطق العشوائية . ولا شك أن بند النظافة يوجد فى ميزانية كل محافظة . فإذا كان كافياً لابد أن يتم إنفاقه على كل متطلبات النظافة ومكافآت عمالها ، وإذا لم يكن كافياً بذل المحافظ أقصى الجهد لكى يوفر له ما يلزمه من البنود الأخرى ، أو دعا رجال الأعمال فى محافظته للمساهمة فى تمويل هذا البند الهام ، لكى تظهر المحافظة فى أبهى صورة ، وتتمشى مع التطور الحضارى الذى ننشده لكل ربوع مصر.

ليست إزالة القذارة من المكان بالأمر المستحيل ، أو الصعب ، وخاصة إذا اتجهت الإرادة لذلك ، وتم تفعيل جهاز النظافة الملحق به أيضاً مهمة التجميل . . وبالطبع لا يوجد تجميل قبل أن تتوافر النظافة . فالمرأة لا تضع المكياج على وجهها إلا بعد أن تغسله بالماء . وكذلك المدن لا يصح أن تضع على مداخلها أقواس النصر ولمبات النيون ، قبل أن ترفع من شوارعها أكوام القمامة ، وتزيل من طرقاتها المياه الراكدة ، وتسفلت شوارعها المتربة ، وتسد ما بها من حفر وانكسارات.

وهناك قاعدة ذهبية فى هذا المجال ، وهى التى ندعو إليها كل محافظ ، بحيث يتفضل بالمرور على كل الشوارع فى محافظته ، وأن يزور كل الأحياء ، وأن يتفقد الأركان المظلمة ، والزوايا المهجورة ، لأن الموظفين المسئولين عن النظافة والتجميل حين يرون أنه يفعل ذلك، فإنهم يقومون على الفور بأداء عملهم على أكمل وجه ، وإلا نالهم العقاب أو حتى العتاب . أما أن يكتفى المحافظ بالمرور من شوارع محدودة ، ولا يخترق موكبه سوى أحياء بعينها ، فإن ذلك يدفع أولئك الموظفين إلى إهمال ما سواها ، مع الاكتفاء فقط بتجميل ما تقع عليه عين المحافظ ، وسفلتة الطريق الذى تعبره سيارته .

لكن المسألة لا تقتصر على الاهتمام أو المرور فحسب ، بل إنها تعتمد قبل كل شئ على نظرة جمالية للمكان كله . وهذه النظرة يمكن أن يشارك فيها المتخصصون والفنانون التشكيليون من أبناء كل محافظة ، مع الاستعانة عند الضرورة بزملائهم من المحافظات الأخرى. وإذا كنت أتمنى أن تظهر كل محافظة فى مصر بطابعها الخاص ، وشخصيتها النابعة من تقاليد أهلها وعاداتهم ، بحيث إذا تجول فيها السائح، الأجنبى أو حتى المصرى ، أحسّ بأنه ينتقل من طابع محافظة إلى طابع محافظة أخرى ، وذلك على الرغم من أن المحافظات كلها مصرية ، تماماً مثل الإخوة والأخوات من أب وأم واحدة : يجتمعون فى النسب ، ويتميز أحدهم عن الآخر بالأسماء والملامح.

النيل يا هوه ه !

بين جزيرة الدهب صاحبة الأزمة الشهيرة وشارع البحر الأعظم ، يحـدث فـى مصر الآن ما لم يكن فى الحسبان ، وما لم يتم فى عهود الفراعـنة ، والرومان ، والشراكسة ، وهى عملية ردم (داخل المجرى المائى) ، ولا يعنينى على الإطلاق الهدف من الردم ، ولا مدى ما يحققه مـن اسـتثمارات أو خلافه ، وإنما الذى يعنينى ويعنى كل مصرى فى المقـام الأول هو مجرى " النهر الخالد " الذى يجرى تضييقه وخنقه ، والتدخل فى سريان مياهه العذبة بسهولة وسلاسة .

وبـدلاً مـن أن نقيم على امتداد هذا النهر الخالد ضفافاً أسمنتية لعدم تسرب مياهه فى الشطئان الطينية الرخوة ، فإننا ندخل إلى (مجراه المقدس) ونبنى فيها بالمسلح والأسمنت ! !

ومما قـرأته عـن الموضـوع ، وأنا مندهش ، أن هذا (العمل الشـنيع) داخل مجرى النيل لا يتبع الحكومة مباشرة ، وإنما هو لصالح أحـد الأشـخاص ، لذلك فإننى أقول باعتبارى أحد أبناء النيل الخالد أن الحكومـة نفسـها لا يحق لها أن تفعل شيئاً من ذلك فى وسط المجرى المقـدس للنـيل ، وحتى إذا عملت استفتاء شعبياً على ذلك فى عصر

معيـــن ، فمـــن حـــق الأجيال اللاحقة أن تعترض على ذلك فى العصور اللاحقة ، لأنه يظل حقاً أصيلاً من حقوقها على مر السنين !

لقـــد ســـبق أن كتبت عن النيل قصيدة أدنت فيها المبانى الشاهقة التى أخفته عن العيون ، والنوادى العشوائية التى حجبته عن المشاة ، وســـبق أن كتـــب أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدته العصماء فى نيل مصـــر العظـــيم ، وهـــى التى تشدو بها سيدة الغناء العربى أم كلثوم ، وكانت أحد أسباب شهرتها . واليوم أقول إن النيل (ثروة قومية) بمعنى الكلمـــة ، لابـــد من (تجريم) أى عمل يتجه للمساس به ، أو تشويهه . وكـــل مـــا ينـــبغى علينا عمله – بعد الاستفادة العظيمة منه ، باعتباره شريان الحياة لنا جميعاً – هو القيام بتجميل شواطئه ، وتطهير مجراه ، وعدم تلويث مياهه ، والحد من الاعتداء على أى قطرة منه ، أو التبذير فيها .

إننى أناشد تدخل السيد الرئيس محمد حسنى مبارك لكى يوقف ما يجـــرى فـــى النيل أمام جزيرة الدهب ، فهو القادر على إصدار القرار الحاسم فى هذا الشأن ، ما دام هناك من يخوض فى ماء النيل على هذا النحو الصامت والمريب دون خوف ولا خجل !

كنـت يومها لم أتجاوز العاشرة ، وراح مدرس الجغرافيا يحاول جـاهداً أن يثبت لنا فى الفصل أن الأرض كروية . وعندما أتاح لنا أن نسـأل قال أحدنا : إذا كانت كذلك فكيف يعيش الناس الذين يسكنون فى أسـفلها هل تصبح رؤوسهم إلى أسفل ؟ وعندما قال أن الكرة الأرضية تـتحرك : سـألنا بسخرية الأطفال : ولماذا لا نتناثر من سطحها؟ وفى الحصـة التالية أحضر المدرس نموذجاً من الكرة الأرضية ، وراح يلفه فتـتحرك معـه الشـمس والقمر ولم تدخل عقولنا الصغيرة حينئذ تلك الفكرة ، ولكننا قلنا لأنفسنا: مادام المدرس وهو من الكبار مقتنعاً بذلك، فلابد أن تكون هذه هى الحقيقة.

وفـى نفـس العمر ، عرض علينا فى المعمل تجربة كيميائية ، وضـع فى سائل أحمر على سائل أصفر ، فخرج سائل بنفسجى اللون . وأعجبتنا الفكرة من حيث الظاهر ، لكننا لم ندرك حينئذ تداخل الجزئيات وامـتزاجها ، وخـروج عناصـر جديدة مختلفة الحجم والشكل واللون منها..

أمـا الصدمة الثالثة ، فكانت عندما أخبرنا مدرس الجيولوجيا أن عمـر الأرض يتجاوز ملايين السنين ، بينما أكد لنا مدرس التاريخ أن أقدم الحضارات الإنسانية على ظهر الأرض لم تتجاوز عدة آلاف سنة ، عشـرة آلاف علـى الأكـثر . . ويومها قال أحدنا ساخراً : ومن الذى يمكنه أن يؤكد لنا صدق هذه الملايين ؟

كانـــت هـــذه المعلومات تلقى إلينا ولا نقبلها بإجماع كامل ، ولا بتصـــديق كـــامل . وكـــان الكثير منا لا يفهم ، والكثير أيضاً يشك فيما يقـــال.. ولكـــنها بمـــرور الوقت ، استقرت فى أعماقنا بل إنها أصبحت جـــزءاً مـــن ثقافتـــنا ، وأحياناً ما نحاول أن نعرضها لأبنائنا فننجح أو نفشل. المهم أن الوسائل التعليمية قد تطورت كثيراً فى العصر الحاضر، وأصـــبحت تســـاعد المـــدرس كثيراً فى نقل المعلومات للتلاميذ ، وفى تسهيل الفهم على هؤلاء من خلال الرؤية المباشرة للنماذج المتطورة ، أو الصور المتحركة.. وبالطبع لو كان لدينا فيلم فى الماضى عن صورة الأرض وهـــى ملـــتقطة من الفضاء الخارجى لكان قد أغنانا كثيراً عن الـــنماذج البدائـــية التى كانت تعرض بها عملياً صورة الأرض . وكذلك الحال فى رؤية الشلالات ، والبراكين ، والعواصف ، والبرق ، والرعد ومختلف الظواهر الطبيعية المتكررة والاستثنائية . من هنا تأتى أهمية الأفـــلام العلمية والتسجيلية التى ترصد نشأة الظواهر الطبيعية ، وتتبع تطورها ، وتبين تأثيرها على البيئة والإنسان.

فـــى تصورى أن التلفزيون التعليمى أصبح ضرورة حيوية ينبغى أن يدخـــل فصـــول التلاميذ فى المدارس ، وأن تستعين به الجامعة فى المحاضـــرات والمعـــامل . لأن الحديث عن (الشئ) لن يكون أبداً على مســـتوى رؤيته المباشرة ، فضلاً عن أنه يوفر على الكثير من العقول الـــتى لا تصـــدق ، أو الـــتى تشك من الاستغراب والحيرة ، ويقدم لها المعلومـــة وهى مصحوبة بالصوت والصورة . إن تطور التعليم مرتبط باستخدام الوسائل التعليمية وفى مقدمتها التلفزيون التعليمى ، الذى ما زلت مقتنعاً بضرورته لتطوير التعليم فى بلادنا.

مـــا الذى يمنع قيام مثل هذا الكيان فى المنطقة العربية التى تمتد مـــن المحيط إلى الخليج ، على قطعة أرض واحدة ، يسكنها مواطنون من جنس عربى ، يتكلمون كلهم اللغة العربية ، وتجمع غالبيتهم عقيدة واحـــدة ، ويربط بينهم تاريخ مشترك ، وينتظرهم مستقبل واحد ، كذلك فـــإن مصـــالحهم متقاربة ، والمصائب التى تقع على واحد منهم تؤثر بالضرورة على باقى إخوانهم ؟

فى رأيى أن هذا السؤال ينبغى أن يطرحه كل منا على نفسه ، ثم يعيد طرحه على أبنائه ، بحيث يظل هماً مؤرقاً يبحث كل منا عن إجابته بالطـــريقة الـــتى تحلو له . ولا مانع أبداً من أن تختلف حوله الآراء ، وتـــتعدد وجهـــات الـــنظر ، وتقوم المذاهب وتقعد ، لكن المهم أن يظل السؤال مطروحاً لأنه لا يعنى غياب فكرته فى زمن من الأزمان الرديئة غـــيابها من أزمنة أخرى قادمة . وإذا كان من أهم العقبات التى تحول دون الإجابـــة عـــن هـــذا السؤال مسألة الحكم ، أى من الذى يحكم تلك الكتلة الهائلة من السكان ، والذين تتعدد شعوبهم وتتباين ثقافاتهم ، فإن هـــذه العقـــبة يمكن تأجيلها لتصبح آخر جزء فى الإجابة . أما الأجزاء الأولـــى فينـــبغى أن تـــبدأ بالجانـــب التعلـــيمى والثقافى ، يليه الجانب القـــانونى، ثم الجانب الاقتصادى وهكذا حتى نصل إلى الجانب العسكرى الذى يسبق مباشرة الجانب السياسى .

قال لى صاحبى الواقعى : إنك تحلم . هل تريد إحياء فكرة القومية العربـــية مـــن جديد ؟ ! قلت : كلا ، وإنما الذى أقصده هو إنشاء تجمع

عربى كبير يجرى التمهيد له من الآن خطوة خطوة ، ولا يتم تنفيذه أو حتى الإعلان عنه إلا بعد اتخاذ الخطوات التنفيذية الكفيلة بنجاحه . ولا شك أن المسألة تحتاج إلى دراسات يقوم بها باحثون متخصصون ، ينطلقون من الواقع المحسوس ، ويلتزمون بالمنهج العلمى الصحيح .

عاد صاحبى الواقعى يقول لى : لا تتعب نفسك ، فإن العرب ليسوا سوى ظاهرة صوتية ، يتحدثون ولا يعملون ، وكما ترى فإن تأثيرهم فى الأحداث العالمية يكاد يكون معدوماً . قلت له : وإلى متى يظلون كذلك . إننى من المؤمنين بأن الذى لا يتقدم مع المتقدمين لا يقف فى مكانه فحسب ، وإنما يرجع إلى الوراء . كذلك ما يجرى فى العالم من تطورات ، من أهمها النظام العالمى الجديد ، لن تدع شعباً يعيش فى راحة بال ، وإنما سوف تطرق عليه الأبواب والنوافذ ، بل سوف تفتحها عليه غصباً إذا لم يفتحها هو برضاه .

قال لى صاحبى : لقد رأينا كيف تهاوت وحدة مصر والسودان ، ثم وحدة مصر وسوريا ، ثم وحدة مصر وسوريا وليبيا ، تماماً كما تهاوى الاتحاد العربى بين مصر وسوريا والعراق ، ولا يكاد يقف على قدميه الاتحاد المغاربى ، أما اتحاد دول الخليج فقد بدأ يعانى هو الآخر.. قلت له : أن هذه المحاولات دليل على أن الفكرة حيّة لدى العرب . وإذا لم يحالفها الحظ مرة أو مرات ، فمن الممكن جداً أن يحالفها ذات يوم . ومن يدرى ؟

بدلاً من ديلسبس

علـــى الناصـــية الـــتى يلـــتقى فيها البحر الأبيض مع مدخل قناة الســـويس ، أسقطت المقاومة الشعبية الباسلة ببورسعيد تمثال ديلسبس سنة 1956 ، بعد أن تصدت لقوى العدوان الثلاثى الغاشم على مصر ، والذى اشتركت فيه كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل . وكان هذا العمل الشعبى تجسيداً لرغبة المصريين جميعاً من منطلق وطنى خالص . فلا يعقـــل أن نـــرفع تمثالاً لديلسبس الفرنسى ، بينما تهاجمنا دولته بهذا الشكل الصارخ . وإذا كنا قد أقمنا له تمثالاً ، اعترافاً منا كدولة وشعب متحضـــر بأنـــه صـــاحب فكـــرة وصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة الســـويس ، فـــإن الاعتـــبارات الوطنـــية لا تتـــناقض أبداً مع السلوك الحضارى ، بل إنها تؤازره وتمتزج به .

والواقـــع أن قـــاعدة التمثال ما زالت حتى اليوم تعبر عن صلابة الشعب المصرى فى مواجهة أى عدوان خارجى ، لكنها ينبغى أن تكون قـــاعدة فى نفس الوقت لأى تمثال يعبر عن هذا المعنى فى ذلك الموقع الفـــريد علـــى طـــرف القـــناة . وأضـــع أمام الفنانين التشكيليين عدة اقتراحات:

أولاً : نحـــت تمـــثال جماعى للفلاحين الذين حفروا قناة السويس بفؤوسهم الصدئة ، وسواعدهم العارية ، وبطونهم الخاوية ، وطواقيهم الصوفية ، وأرجلهم الحافية !

ثانـــياً : إقامة نصب تذكارى لشهداء العدوان الثلاثى يعبر ببساطة عـــن تلـــك الملحمــــة الـــرائعة التى اشترك فيها الشعب مع الجيش مع الشرطة ، وقامت فيها قوات الدفاع الشعبى بدور هام ومؤثر .

ثالثاً : ابتكار مجسم يعبر عن نهضة مصر الحديثة ، وتطلعها إلى السلام والاستقرار والازدهار .

رابعـــاً : اخـــتراع مجسم يعبر عن ترحيب مصر بالقادمين إليها زائرين أو سائحين ، أو عابرين باحترام فى قناة السويس .

أمـــا تمثال ديلسبس فينبغى الإبقاء عليه ، مع ضرورة وضعه فى منزله المطل على بحيرة التمساح بالإسماعيلية ليكون مزاراً سياحياً لمن يرغب زيارته من المصريين والسائحين الأجانب ، وكفانا مشاحنات بين بورســـعيد والإســـماعيلية حول أحقية كل منهما بالتمثال ، بل إننا بهذا الحل سوف نرضى الاثنين معاً : فالإسماعيلية تأخذ التمثال عندها وتقيم مـــن بيـــت ديلسبس مزاراً سياحياً يفيدها ، وبورسعيد تقيم على قاعدة التمثال الفارغ منذ 45 عاماً عملاً فنياً متميزاً ، يصبح هو الآخر مزاراً ســـياحياً مفيداً لها . وهذا هو التفكير للمستقبل . . بدلاً من العناد الذى طال أمده ، ولم يأت بأى نتيجة لكل الأطراف .

برامج آخر الليل

هناك برامج تلفزيونية يضعها مصممو خريطة التلفزيون فى فترة متأخرة من الليل . وحين تكون مثل هذه البرامج عديمة القيمة فلا بأس مـــن وضـــعها حـــتى فـــى فترة ما قبل الفجر ، لكى لا يراها أحد . أما المشـــكلة فهى وضع برامج مهمة ومتميزة فى فترة متأخرة من الليل ، تترك المشاهدين فى حيرة : هل يظلون ساهرين لمشاهدتها والاستمتاع بهـــا ، أم ينامون ويريحون أجسامهم وأعصابهم لكى ينهضوا مبكرين لاستقبال يوم عمل جديد ، يساهم فى دفع حركة التنمية بالمجتمع .

وسوف أتوقف هنا للحديث عن برنامج محترم جداً ، ومقدمته هى الأخـــرى غايـــة فى الاحترام ، وهو (نادى السينما) الذى يستضيف أحد المتخصصين للحديث حول الفيلم المختار ، وكذلك للتعقيب عليه بعد أن ينـــتهى عرضه ، بالإضافة إلى كثير من المعلومات الجادة حول الفيلم ، وصـــناعته ، وإخراجه ، والمساهمين فيه ، ومكانته فى تاريخ السينما العالمـــية . . الـــبرنامج طبعاً طويل من حيث زمنه ، وهو يحتاج على الأقـــل لســـاعتين ونصف أو ثلاثة ، وهى ليست خسارة فيه . وقد كان القائمون على الخريطة التلفزيونية من قبل يدركون هذه الجوانب كلها ، لكـــن أســـلافهم الحاليـــن يتصـــرفون بالكثير من اللامبالاة ، فيضعون البرنامج بعد الساعة الثانية عشرة ، وطبعاً تسبقه كمية لا بأس بها من

الإعلانات ، إلى درجة أنه لا يبدأ قبل الثانية عشرة والنصف أو حوالى الواحدة . تصور معى أن يبدأ برنامج جيد فى الواحدة بعد منتصف الليل لكــى يستمر حتى الثالثة أو الثالثة والنصف قبل فجر اليوم التالى : من الـذى سيشاهده ؟ ومن الذى سيهجر فراشه ويظل صاحياً أمام الشاشة الصغيرة ليكمل البرنامج ؟ وكيف سيقوم مثل هذا المواطن إلى عمله فى الصــباح ؟ سوف يرد أهل التلفزيون الأفذاذ أن المسألة حرية ، وأن كل إنسان أمامه ذر الجهاز : إما أن يفتحه أو يغلقه إذا لم يعجبه شئ فيه . وتلك إجابة غير مسئولة من أشخاص مسئولين . فالمواطن المصرى له حق مشاهدة الأفلام العالمية لكى يتثقف ويتنور ويرى ما ينتجه العالم . وبالــتالى فــإن مــن حقوقه على التلفزيون أن توضع له البرامج التى يحــبها ويريد رؤيتها ويستفيد منها فى الوقت المناسب له . وفى نفس الوقــت لابد من إعطاء جسده وروحه وأعصابه فرصة الراحة لكى يبدأ الــيوم التالى وهو نشيط معافى . . لكن أهل التلفزيون يريدون – فيما يــبدو – أن يقوم الناس إلى أعمالهم فى اليوم التالى وهم يترنحون من السهر ، أو يتحسرون على ما لم يشاهدوه إذا قرروا النوم ! !

بريق الذهب

أسارع فأنبه القارئ إلى أن هذا العنوان لا يدخل فى مجال التشبيهات البلاغية، وإنما هو على الحقيقة . فقد لاحظت أن الذهب الذى يستخدم فى الأساور والخواتم والأقراط ، والحلى عموماً ، لم يعد له ذلك البريق الخاطف الذى كان له فى الماضى ، وإنما بدأ لونه يبهت وتنطفئ لمعته ، ويقترب كثيراً من لون النحاس ، فما الذى حدث؟

قالت لى سيدة : إننى لم أعد أستخدم الذهب فى الزينة ، وأصبحت أفضل عليه الإكسسوارات ، لأنها من ناحية أكثر جمالاً ولمعاناً ، ومن ناحية أخرى ، لا تعرضنى للسرقة أو الخطف ، وبالتالى تحمينى من طمع اللصوص ، وتهور شباب البانجو !

وقال لى صائغ : سوق الذهب نايم : والأسباب كثيرة ، ويأتى فى مقدمتها : منافسة المشغولات الذهبية الواردة من الخارج ، وفى مقدمتها الهند وإيطاليا ، وإقبال الشابات على الإكسسوارات ، وكذلك الفضة .

وعندما أطلعنى على بعض المشغولات الذهبية المستوردة وقارنتها بإنتاجنا المحلى وجدت الفارق واضحاً ، بل صارخاً ، فالصانع المصرى لم يطور – مع الأسف – من وسائله القديمة ، ولم يبتكر أشكالاً جديدة اللهم إلا فى حدود ضيقة للغاية، بينما تطورت التقنية الأجنبية تطوراً هائلاً ، كما تنوعت مجالات الابتكار بحيث أصبح فى

الإمكـــان إخـــراج قطع فنية ، على أعلى مستوى من التصنيع المتقن ، والذى يبهر الأبصار بجماله وروعته .

لقد رحت أتأمل فى الذهب المستورد والذهب المحلى طويلاً ، وأنا حزيـــن علـــى ذهبنا الذى ذبلت نضرته ، وجف بريقه ، وتلوى وتعرّج وانـــبعج ، وأصبح يحمل كل مواصفات المرض ، وتجاعيد الشيخوخة ! وقلـــت لنفسى : لو أن الصانع المصرى الأصيل أخلص فى حب مهنته ، وتجـــرد للعطـــاء فـــيها لكان قد حافظ على جمالها ورونقها ، ولو أنه استقبل ما يحدث فى العالم بعين فاحصة ، وتأمل وتعلم وقارن ، لكان قد دفعـــه ذلـــك إلـــى تطوير وسائله ، وأدواته ، ووضع نفسه على درب الابتكار الذى لا حدود له . .

الواقـــع أن صياغة الذهب عمل فنّى بالدرجة الأولى قبل أن تكون صـــناعة وتجارة رابحتين . . من هنا لابد أن يدعى لها الفنانون ، وأن تقـــام لهـــا المســـابقات ، وترصـــد الجوائز للأعمال المتقنة والجديدة والمبـــتكرة . وفى هذا المجال ، أقترح عقد مسابقة سنوية تحت عنوان (مسابقة توت عنخ آمون) فى صياغة الحلى الذهبية الجميلة والرائعة ، لكى تذكر الصانع المصرى بالقناع الذهبى النادر لذلك الفرعون الذى ما زال يخطـــف أبصـــار العالم كله بإتقانه وروعته ، ولكى نتمكن – مرة أخرى – من الإبداع والابتكار ، فى مجال كنا قد سبقنا إليه ، وسجل لنا التاريخ ريادتنا فيه .

بعــد الاحــتلال الأمريكى للعراق ، واستمرار الاحتلال الإسرائيلى الفلســطينى ، أصبح العرب من بين شعوب العالم كله هم الأمة الوحيدة الــتى يوجــد فــيها الاستعمار العسكرى على هذا النحو المهين . ومن العجيــب أنهــم مــا زالــوا أيضاً هم الأمة الوحيدة التى لا تقبل سماع النصيحة . وإذا سمعتها مرغمة لم تعمل بها . وبالمقارنة البسيطة: ما الذى جعل شعوب جنوب وشرق أسيا التى بدأت نهضتها مع العرب ، بل حــتى بعدهم ، تخرج من حالتها التقليدية المتخلفة ، وتتسابق مع أعتى الدول الغربية فى مجال التطور والتحديث ؟ الإجابة فى رأيى ببساطة أن هــذه الــدول تتمتع بقدرة كبيرة على حسن الإصغاء ، وعلى الاعتراف بأوضــاعها المتخلفة ، الأمر الذى جعلها تتعلم من غيرها ، وتحاكيهم ، ثــم تــتفوق علــيهم . أمــا العــرب الأشاوس ، فما زالوا حتى اليوم يســتكبرون أن يقــال لهــم أنكم متخلفون وتحتاجون إلى الأخذ بعوامل التقدم .

وإذا استعرضــنا الخريطة العربية التى تمتد من الكويت والعراق حــتى الغــرب لــم نجد بلدين عربيين متجاورين إلا وبينهما خصومة وتنافر، ونزاع صريح أو مكتوم على الحدود التى رسمها لهم الاستعمار الغــربى قــبل رحيله من بلادهم . هذا موجود بين المغرب والجزائر ،

وبيـــن تونس وليبيا ، وبين مصر والسودان ، وبين اليمن والسعودية ، وبيـــن ســـلطنة عمان والإمارات ، وبين قطر والبحرين ، وبين العراق والكويـــت . ولذلك لابد أن تبدأ الخطوة الأولى من هنا ، أى من الاتفاق علـــى ترســـيم الحـــدود ، وإنهـــاء الخلافات ، وإلا فإنها سوف تستمر لعشـــرات وربمـــا لمـــئات السنين ، وسوف تثار كلما ظهرت أزمة بين بلدين، أو حدثت زوبعة بينها فى فنجان !

لا شـــك أن قوة العرب ، وبالتالى قيمتهم الدولية ستظل كامنة فى وحدتهم . ولا أقصد بالوحدة هنا أن يندمج الجميع فى ظل دولة واحدة ، فهذا مستحيل ، وإنما أن يتكاتفوا عند الضرورة تحت راية واحدة ، وأن يكـــون لهـــم موقف موحد تجاه التحديات. تلك أساسيات ينبغى أن تتأكد فيما بينهم ، لكى لا يتكرر ما وقع للكويت من العراق سنة 1990 . أما أن يحاول العرب التجمع بينما هم فى واقعهم متفرقون ومتوترون فتلك محاولة لن يُكتب لها النجاح أبداً . نفس ما يصدق على خلافات الحدود بيـــن الـــدول العربية ينطبق على المقاومة الفلسطينية التى لم تستطيع حـــتى الآن أن توحد صفوفها العسكرية والسياسية لكى تكون لها حركة فاعلـــة فـــى الوصـــول إلى أهدافها . والمصيبة أن العراق الشقيق فى وضـــعه الحـــالى يحمل من عوامل التشرذم أكثر مما يحمل من عوامل الاندمـــاج والوحدة . وأنا شخصياً غير متفائل بمستقبله السياسى الذى يعلن الأمريكيون ويؤكدون أنه سيكون وردياً ! !

بنديـــرة التاكســـى

لا يحدث فى أى مدينة متحضرة أن يتعامل فيها الركاب مع سائق التاكســى (بالفصال) ! كما لا يحدث فى أى مدينة متحضرة أن يسألك ســـائق التاكســـى من فتحة الشباك عن قصدك ووجهتك ، فإذا لم تعجب ســـيادته (ســـاق فـــيها) وتركك على حافة الطريق ، تستجدى سائق تاكســـى آخـــر ! كذلـــك لا تجد فى أى مدينة متحضرة أن يحشد سائق التاكســـى عـــدة ركاب فى توصيلة واحدة ، ثم يسقط كلاً منهم فى مكان معين ، ويدور يلف بالآخرين ، ويلتقط غيرهم من الطريق . .

الـــذى أتوقعه ، وقد صدر قانون جديد للمرور ، وحدث قدر كبير مـــن التزام السادة المواطنين ، وحزم السادة ضباط المرور ، أن يصدر قـــانون التاكســـى ، يـــبدأ مـــن تحديـــد سعر البنديرة ، ويلزم صاحبه باصطحاب أى راكب يطلبه لتوصيله إلى الوجهة التى يريدها ، كما يمنع علـــيه بـــتاتاً إشراك أكثر من راكب واحد أو عائلة واحدة فى التوصيلة الواحـــدة ، وذلـــك لأن التاكسى وسيلة مواصلات ، تقع فى مكانة وسط

بين السيارة الخاصة ، وبين وسيلة المواصلات العامة التى يشترك فيها العديد من الركاب .

إنـــنى أحـــزن كثـــيراً عندما أرى سائحاً لا يعرف العربية ، وهو يحاول جاهداً أن ينطق للسائق باسم الوجهة التى يريدها فلا يستطيع ، ثم يتركه التاكسى ويمضى . . كما أحزن كثيراً للسيدة العجوز أو المرأة التى تحمل طفلاً وهى تجرى وراء التاكسى لتخبره بوجهتها ، ثم يتركها ويمضـــى . . إن كـــل هـــذه الممارسات غير الحضارية يتوقف القضاء علـــيها بإصـــدار قـــانون التاكسى الذى أشرت إليه ، وأعتقد أنه قد آن الأوان بالفعل لإصداره ، حتى تظهر المدن المصرية بالصورة الحضارية الـــتى نريدها فى مطلع الألفية الثالثة . . لقد بدأنا أولى الخطوات ، من تحديـــث وإحـــلال للبنـــية الأساسية التى تشمل مياة الشرب والمجارى والكهـــرباء والتلـــيفونات والغاز . . وأصبح الطريق مفتوحاً أمام باقى خطـــوات البناء الحضارى الذى لا ينبغى أن يقتصر على المدن الكبرى كالقاهـــرة والإســـكندرية . . وإنمـــا يجب أن يعم سائر المدن المصرية الجميلة ، فى الوجهين البحرى والقبلى . .

عندما سمعت أن لدينا فى مصر حوالى سبعين بنكاً ، تذكرت قول الشاعر العربى : إنى لأفتح عينى حين أفتحها / على كثير ولكن لا أرى أحــداً . . وقــد خابــت معظم تلك البنوك فى إدارتها ، وسلمت أموالها لمجموعــة مــن النصابين ، الذين أطلقوا على أنفسهم رجال الأعمال ، وهم لا يمتون لهذا المصطلح المحترم بأى صلة . والدليل على ذلك أن جمعــية رجال الأعمال باعتراف رئيسها على شاشة التلفزيون المصرى لا تضم أكثر من 450 شخصاً ، بينما الذين كانوا يريدون الانضمام إليها يــبلغون أكــثر مــن أربعة آلاف . فلماذا رفضتهم الجمعية ؟ كما يقول رئيســها إن الجمعــية حريصــة على سمعة أعضائها الحقيقيين – أى الأربعمائة – ولذلك لم تمنح عضويتها لسائر الأربعة آلاف نصاب . .

طــبعاً النصــب فــن قديم صحب الإنسان منذ وجد على الأرض ، وسيظل من أهم عيوبه حتى تنتهى حياته فوقها . هناك من ينصب عليك فــى البيع فيعطيك سلعة معطوبة على أنها سليمة ، أو بايته على أنها طازجــة ، أو منتهية الصلاحية على أنها صالحة للاستهلاك الآدمى . . وهــناك مــن تذهــب لتشترى منه كيلو تفاح فيعطيك حبتين أو ثلاثة لا تصــلح للأكــل ، وتضطر إلى إلقائها فى القمامة ، وهناك من يبيع لك قطعــة أرض أو شقة ثم تكتشف أن بها عيباً أساسياً ، أو أنها مشتبكة مــع مشترين آخرين . وهناك المحامى الذى يؤكد لك أن كسب القضية

مضمون ، ويأخذ منك أتعاباً ضخمة ، ثم تخسرها ولا تراه بعد ذلك لكى يعـتذر لـك . . وأنـا نفسى نصبوا علىّ فى شراء قطع غيار سيارة ، اشـتريتها علـى أنها جديدة ومكتوب على أوراقها اسم المصنع والبلد الأجنبى ثم تبين أنها مستعملة أعيد طلاؤها وجلفنتها ثم عرضت للبيع ، وعندما حاولنا تشغيل السيارة لم تعمل ، فاضطررت لشراء قطعة أخرى غيرها . .

لماذا إذن لا ينصب بعض هؤلاء على البنوك التى تمتلئ بالمال ؟ والواقـع أن ظاهـرة كثرة البنوك فى مصر قد أغرت هؤلاء بالتفنن فى النصـب علـيها . والأدهى من ذلك أن عدداً من العاملين فى البنوك قد سهلوا لهم عمليات النصب ، ولابد أنهم شاركوهم فى الحصول على قدر من الغنيمة . . وهنا مربط الفرس كما يقولون . فلو أننا أمسكنا بهؤلاء الموظفيـن ، وحاسـبناهم لأوقفـنا نزيف النصب على البنوك ، ونزح أموالهـا بـتلك الصـورة التى جعلت كل المواطنين مستاءين ، ودفعت الرئيس مبارك إلى أن يعلن عن ضرورة عقاب الهاربين بأموال البنوك دون وجـه حـق ، فـى نفـس الوقت الذى تقوم فيه الدولة بمساعدة المتعثرين فى السداد ، لظروف خارجة عن إرادتهم . .

أتمـنى أن تسـتفيد البنوك (الكثيرة جداً) عندنا من عدم الوقوع فريسـة لمحـاولات النصب ، وأن تضع فى داخلها لافتات تحمل المثل المصرى الصادق الذى يقول أن (المال السايب يعلم السرقة).

بيت الزكاة المصرى

عاد الجدل يدور فى الآونة الأخيرة حول أموال الزكاة : كيف يتم تنظيم عمليات جمعها من الراغبين فى إخراجها ؟ وكيف يمكن الاستفادة مـــنها فـــى مشروعات التنمية وإصلاح الأحوال ؟ وتعددت الاقتراحات ، وغضـــب الـــبعض ، وقـــال الـــبعض الآخر : دعوا الأمور كما هى . . والواقع أننى منذ عدة سنوات قد اقترحت إنشاء مؤسسة عامة للزكاة ، تحت اسم بيت الزكاة المصرى ، يكون على غرار بيت الزكاة الكويتى ، وفـــيه يمكن أن تصب كل أموال الزكاة ، مع تحديد رغبة كل مسلم فى القنوات التى تصرف فيها . فهناك من يفضل بناء المساجد . وهناك من يرغـــب فى بناء مدارس ، أو مصانع ، أو مستشفيات . وهناك من يريد أن تذهـــب إلى الأيتام ، والأرامل ، وذوى الحالات الحرجة . . وكل هذه رغـــبات طيـــبة يـــباركها الإسلام ، الذى حدد عدة مصارف للزكاة فى القرآن الكريم ، ولكنه فتح الباب فى العديد من آياته لعمل الخير ، وبذل المعـــروف . ولعلنا نذكر أن أبا بكر الصديق خرج عن ماله كله للدولة الإســـلامية الوليدة، وأن عثمان بن عفان جهز من ماله جيشاً بأكمله . المهـــم أن يـــنظم المســـلمون هذا المصرف الهام والذى يمثل الشعيرة الثالثة فى الدين التى تأتى بعد الصلاة والصوم ، وقبل الحج . .

لقد تعددت الجهات التى تتلقى أموال الزكاة من المسلمين ، سواء على أيدى أئمة المساجد (الكبيرة والصغيرة ، والتى تحت البيوت) ، أو المراكز الدينية ، والصحية . ومن الواضح أن هناك قدراً كبيراً من عدم التنظـيم ، والتشـويش حول هذه المسألة . ولن يحسمها كما أرى إلا إنشاء مؤسسة مستقلة تتولى استقبال أموال الزكاة ، مصحوبة برغبات أصـحابها فـى إنفاقهـا علـى أوجـه الخير والفائدة للمجتمع . ومن الضـرورى أن تتمـيز هذه المؤسسة بالشفافية الكاملة ، وأن يتولاها شـخص (غـير مضـروب) يعاونه فى ذلك عدد من الموظفين العاملين بإخلاص ، وأن توضع لها لائحة تحدد بدقة الوارد والصادر والمكافآت. وعلـى مـن يعمـل فـى هـذه المؤسسة أن يدرك جيداً أن هذه أموال المسـلمين ، وأن الله تعـالى يباركها ، ويعلم كل من يعمل لإنفاقها فى الخير ، وكذلك من يسعى لتبديدها فى الباطل .

بهـذا الشـكل يمكن أن ينظم المسلمون جانباً من جوانب حياتهم الدينـية والمالـية، وأن يـبعدوا الشبهات عن هذا المصدر الذى أصبح الغـرب يـتهمهم علـى أساسه بأنه أحد مصادر تمويل الإرهاب . ومن المؤكد أنه ليس كذلك ، لكننا ينبغى أن نتقى الشبهات. أى نبعد عنها ، لأن مـن يتقيها فقد استبرأ لعرضه ودينه ، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولاحظ أن كلمة (العرض) تشمل فيما تشمل سمعة الإنسان فى المجتمع ، وبالتالى سمعة المجتمع فى العالم .

فى أوبريت (الليلة الكبيرة) ، الذى أبدعه صلاح جاهين ، ولحنه سـيد مكاوى وردت عبارة كانت تضحكنا ، ولكن بمرارة ، تقول (اللى حـيدفع راح يقعـد ، واللـى مـا يدفعش يبعد) وكان الموقف يصور شخصـين ليس معهما نقود ، راحا يتجولان فى المولد ويتفرجان على عجائـبه . وفـى إحـدى المقاهى التى استأجرت راقصة لجذب الزبائن حاولا مشاهدتها ، لكن الجرسون الصارم أبعدهما بتلك العبارة القاسية ، فجـذب أحدهمـا ذراع صاحبه قائلاً له : " ياللا بينا يا مسعد . . نروح شارع الترومای " أى الشارع الذى يمكن النظر فيه إلى أى شئ مجاناً ، وبدون نقود .

استعدت هذا الموقف المضحك المبكى عندما قرأت نبأ عدم إذاعة مـباراة الأهلـى وأنجـولا على الهواء يوم الأحد 12 أغسطس . وكان السـبب هو عدم قدرة التليفزيون المصرى على دفع مليون جنيه للقناة الاسـتثمارية الـتى اشترت حقوق إذاعة المباراة . وهكذا حرم الشعب المصـرى كلـه من رؤية أحد فرقه وهو يلعب ، بينما حظى بها أولئك الذيـن دفعـوا لـتلك القناة العربية ما طلبته منهم . وهكذا بدأ تطبيق العولمـة فـى العالم العربى ، وكانت مصر هى أولى البلاد التى تعانى مـنها. وقـد كنت أحسب أن تشفير القنوات التليفزيونية فى أوربا أمر يختص بتلك المنطقة الغنية من العالم ، وأن هذا التشفير لن يصل إلينا الآن ، وبهـذه السـرعة ، لكنه حدث على خلاف توقعاتى ، وأصبحت مشاهدة مباراة ، أو فيلم تليفزيونى ، أو أى برنامج جميل لا يتطلب فقط

اقتناء جهاز تليفزيون، ولا حتى منظومة دش ، وإنما لابد من الاشتراك أى الدفع فى مقابل المشاهدة . وهكذا تسقط نظرية السماوات المفتوحة فـــى الإعـــلام علـــى عمومهـــا ، وتصبح السموات مغلقة على (مسعد وصاحبه) اللذين لم يستطيعا أن يدفعا ثمن المشاريب فى مقهى المولد!

وهنا نصل إلى السؤال المهم : هل يعتبر الإعلام خدمة مثل التعليم والصحة ، وبالتالى يستحق الدعم أم أنه مجرد وسيلة ترفيهية ، يتحمل نفقاتهـــا بالكامل كل من يرغب فيها ؟ أجابنى أحد أساتذة الإعلام قائلاً : المســـألة تحـــتاج إلى تفصيل . فالإعلام خدمة ينبغى أن تقدمها الدولة للمواطـــن بهـــدف وضعه فى قلب الأحداث ، والاستجابة لمتطلباته فى معـــرفة الأخبار المحلية والعالمية ، وفى التثقيف المستمر والمعاصر ، وكذلـــك فى الترفيه . وإلى جانب ذلك ، هناك القنوات الاستثمارية ، أى الـــتى تقـــوم أساساً على الربح مقابل تقديم خدمة تليفزيونية أكثر جذباً وإبهـــاراً للمشاهد الذى عنده (دش) ومعه مبلغ الاشتراك المطلوب . ومـــن حق هذه القنوات الاستثمارية أن تأخذ مقابل خدمتها المتميزة ما تشـــاء مـــن المشـــتركين فيها . وكان من الممكن أن تكون هناك حدود معقولـــة بين القنوات الحكومية والاستثمارية ، لكن الواضح أن الثانية سوف تزحف لتقتطع مساحات من الأولى . حدث هذا فى كل بلاد العالم، وهـــا هو يحدث عندنا الآن . قلت لصاحبى : يعنى لا فائدة . وبالتالى لا يـــبقى أمام مسعد وزميله إذا أرادا أن يشاهدا برنامجاً بالمجان ، إلا أن يذهبا إلى شارع الترومای !

تصنيع كمبيوتر مصرى

بشـــرى جميلة منشورة فى خبر بإحدى الجرائد ، ولا شك أنها قد أســعدت عشرات بل مئات الآلاف الذين ينتظرون بفارغ الصبر الحصول علـــى جهاز كمبيوتر ، لكى يستطيعوا أن يتواصلوا من خلاله مع العالم عـــن طـــريق شبكة الإنترنت ، ويرسلوا أو يستقبلوا بريدهم الإلكترونى الـــ e-mail وطبعاً سوف يوفرون جزءاً كبيراً من الأسعار المرتفعة لأجهـــزة الكمبـــيوتر الأجنبـــية ، والتى تتراوح بين 4-6 آلاف جنيه . أتمنى أن يكون الكمبيوتر المصرى جيد الصنع ، متقن الأداء ، رخيص الثمـــن ، حتى يصبح وسيلة عصرية فى أيدى الجميع ، وخاصة أبناءنا من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات. إلى جانب أصحاب الحرف والمهن الـــتى لـــم تعد تستغنى عن استخدام الكمبيوتر فى عملها مثل الأطباء ، والمهندسين ، والمحاسبين ، وحتى أصحاب محلات الملابس والطعام.

إن جهـــاز الكمبيوتر كما يقال عنه بحق إنه جهاز سحّاب (بتشديد الحـــاء) أى أنـــه يسحب صاحبه إلى مجالات عديدة ويدور به فى أفلاك عالمية ، وفى خلال ذلك يمكنه أن يعطيه (سره) ، فيساعده على وضع بـــرامج جديدة ، وهنا نقطة الإبداع أو الابتكار التى يتيحها هذا الجهاز العجيـــب . فمن المعروف أن مستخدمه إما أن يكون مجرد مستقبل لما يحتويه من مادة معرفية تزيد من معلوماته ، وتضاف إلى ثقافته ، وإما

أن يشـــارك بنفسه فى صنع وترتيب وتبويب مادة معرفية جديدة . وهذا ما يطلق عليه مصطلح (البرمجيات) التى برعت فيها مؤخراً شعوب من العـــالم الثالـــث، مثل الهند بالذات ، التى فرضت تفوقها فى هذا الميدان على كثير من الدول الأوربية المتقدمة .

أنـــا واثق تماماً أن جهاز الكمبيوتر لو وضع تحت تصرف أبنائنا الصغار لاستطاعوا أن يقتحموا من خلاله مجالات جديدة ، ولتمكنوا من الإبداع فى اختراع برامج مبتكرة ينافسون بها أمثالهم من شباب العالم. وقـــد كانـــت العقـــبة وما زالت تتمثل فى ارتفاع سعر الجهاز بالنسبة للصـــغار والشباب معاً نتيجة استيراده بالكامل من الخارج ، على الرغم مـــن أن مكوناتـــه لا تخـــرج عن مواد أولية رخيصة الثمن ، ورقائق حساســـة بأسعار عالية جداً . . ولكن الآن ، أو منذ الآن ، عندما تنشأ صـــناعة مصرية للكمبيوتر ، فإن الحال سيتغير ، وينفتح أمامنا طريق واعـــد لدخـــول عصر التكنولوجيا بخطوات واثقة ، وتفاؤل فى مستقبل مشرق بإذن الله .

إن الطريق إلى التقدم أمام مصر ليس أمامه سوى خطوات قليلة، وجهـــود إضافية يبذلها المخلصون لهذا الوطن ، مع عدم الالتفات إلى أولـــئك الذين تنحصر نظرتهم فى تحقيق مصلحتهم الخاصة فى تكوين الثروة ، أو الاستيلاء على السلطة ، دون أى اعتبار لمصلحة المجتمع، أو بناء مستقبل أبنائه على المدى الطويل.

تطوير الحزب الوطنى

كـــان مـــن الضـــرورى أن يحدث هذا التطوير ، وخاصة بعد أن ظهـــرت فـــى هـــذا الحزب الكبير ، الذى يعتبر أكبر الأحزاب السياسية حجمـــاً، وأكـــثرها عدداً ، كما أنه الحزب الذى تستند إليه الحكومة فى شرعيتها . وقد كشفت الممارسة أن فى الحزب الوطنى بعض السلبيات الـــتى كـــان ينـــبغى تداركها ، ومن أهمها ضعف الاتصال بالجماهير ، وحجـــب العديد من القيادات الشابة عن أخذ فرصتها فى العمل الحزبى المناســـب لها ، كما أن تمثيل المرأة كان وما يزال ضعيفاً . . لذلك كله أســـرع الحزب بتدارك تلك السلبيات ، ونتمنى أن تكون صفحته المقبلة أكثر إشراقاً من صفحته السابقة ، وأن يساهم بفعالية فى حركة التنمية الـــتى يقودها بكفاءة الرئيس مبارك ، ويحظى بالقبول التام والتأييد من كافـــة فـــئات الشـــعب ، وأحزابه السياسية الأخرى . ولعل هذه الميزة الكبيرة لرئس الحزب هى نفسها التى جعلت العديد من قياداته يعتمدون عليها ، أو بالأحرى (يتكلون عليها) ولا يبذلون الجهد المناسب ، الذى تتطلـــبه طبـــيعة المرحلة الهامة من تطور مجتمعنا . وقد كان هذا خطأ كبـــيراً ، ســـرعان مـــا تنبه له الغيورون على تطوير الحزب الوطنى ، فقـــرروا ســـرعة تـــدارك السلبيات التى سبق أن أشرت إليها ، وفتحوا

الباب واسعاً أمام قيادات شابة جديدة ، كما أتاحوا الفرصة لتواجد المرأة ، حتى وإن لم تنتخب من القاعدة ، محدثين بذلك حركة كان لابد منها فى البركة الراكدة .

والواقع أن الحزب الوطنى كان ينبغى أن ينتهز فرصة وجود الرئيس مبارك على قمته ، ليزيد من فعالية أدائه ، ويطلق كل إمكانياته من أجل اكتساب المزيد من الأتباع ، واكتشاف القيادات ، والالتحام بصورة أكبر بالجماهير.

إن العمل الحزبى لا يقتصر على استخراج (كارنيه) ، ولا على عضوية لجنة أو حتى رئاستها ، ولا على تواجد شكلى ضمن الأمانة العامة ، ولكنه يتسع لعمل شخصى وجماهيرى يمتزج أحدهما بالآخر ، من أجل تحقيق مصلحة للمجتمع ، وهذه المصلحة لابد أن تكون ملموسة للجميع ، من خلال أعمال حقيقية يتم تنفيذها على أرض الواقع بدءاً من إنشاء المدارس ، وبناء المستشفيات ، وفتح المصانع ، وتوفير فرص العمل للشباب ، وتحقيق الخدمات الصحية والبيئية للمواطنين . . وبهذا – دون غيره – يمكن لأى حزب سياسى أن يثبت للمجتمع من ناحية ، ولغيره من الأحزاب الأخرى ، أنه يستحق الوجود والاستمرار.

تواصل الحضارات

أعتقد أنه قد آن الأوان لكى أوضح هذا المفهوم الذى غاب عن الكثيرين وهم يناقشون موضوعات : صراع الحضارات ، وتصادم الحضارات ، وحوار الحضارات . . الخ . والواقع أن العالم لا يسمح إلا بحضارة واحدة فيه ، أما الثقافات فإنها كثيرة ومتنوعة بنفس كثرة وتنوع الشعوب . الحضارة أسلوب حياة ومجموعة من النظم التى تعم العالم كله ، أو معظم دوله التى يتعامل بعضها مع بعض . أما الثقافة فهى مجموعة التصورات الخاصة والقيم والعادات والمعتقدات الخاصة بكل شعب على حدة، بل من الممكن أن يوجد لدى كل شعب عدة ثقافات يقترب أو يبتعد بعضها عن بعض ، كما هو الحال فى ثقافة أهل الريف وثقافة أهل المدن ، ثم فى ثقافة أهل كل حرفة ، وطائفة .

وإذا صحّ ذلك ، أمكننا أن نتبيّن أن العالم تسوده حالياً حضارة واحدة، هى الحضارة الحديثة ، التى ورثت كل ما سبق من حضارات : مصرية ، ورمانية ، وإسلامية . ومن المعروف فى تاريخ الحضارات أن كل حضارة تأخذ مما قبلها ، كما أنها تساهم فى نشأة ما بعدها ، وأن هناك تواصلاً مستمراً بين الحضارات، يتمثل فى انتقال العديد من الأفكار والتطلعات والكثير من القيم وأنماط السلوك.

أين المشكلة إذن ؟ إنها تتمثل فيما قامت به الحضارة الحديثة – التى نشأت وتطورات فى أوربا أولاً ثم انتقلت إلى أمريكا وكندا وسائر بلاد العالم بعد ذلك – من محاولة إخفاء متعمد لدور الحضارة الإسلامية الكبير الذى ساهمت به فى معظم جوانب الحضارة الحديثة ، أما الدافع لذلك فقد انحصر مع الأسف فى العداء الدينى الذى أعقب العصور الوسطى فى أوربا بين

رجـــال الكنيســـة والإسلام. وعلى الرغم من أن عدداً لا بأس به من علماء أوربـــا قـــد كرســـوا أنفســـهم لدراســـة الإسلام والمسلمين ، وعرفوا مدى مســـاهمتهم فى نشأة وتطور الحضارة الحديثة إلا أنهم اشتركوا هم الآخرون فـــى مؤامرة الصمت الماكرة ، التى ما زالت – مع شديد الأسف – مستمرة حـــتى الآن . وهـــذا هـــو السبب فيما سمعناه حالياً من الإقبال المتزايد فى أمـــريكا على معرفة ما هو الإسلام ؟ وماذا يريد المسلمون ؟ ولو كان هناك تواصـــل طبـــيعى بيـــن الحضارة الإسلامية والحضارة الحديثة لما وقع هذا الجهـــل الشـــنيع ، الـــذى يؤدى إلى قطيعة وكراهية، قد يصلان إلى صراع وحروب .

وهـــنا تبرز الآية القرآنية التى تذكرنا بالحكمة الإلهية من تعدد الأمم وتـــنوع المجـــتمعات حيـــن تقول (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وجَعَلْـــنَاكُمْ شُـــعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ولا شك فى أن (التعارف) لا يتم إلا بعد المعـــرفة ، والمعرفة تتطلب نزوعاً مستمراً إلى البحث عن الآخر ، وتقصّى أخـــباره ، والوقـــوف على عاداته وقيمه وأخلاقه وأفكاره ، ومن المؤكد أن شـــيئاً مـــن ذلك لا يتم إلا فى جو من السلام والوئام بين الشعوب ، وتجنب العداء ما أمكن بين الدول .

والخلاصـــة أنـــنا ينـــبغى أن نعترف بشخصية كل حضارة تسود فى العـــالم، فـــى وقـــت معين . وأن نعترف فى الوقت نفسه بأنها مجرد حلقة متصـــلة بمـــا قـــبلها، وأنها سوف تؤدى بالضرورة إلى حلقة أخرى سوف تلـــيها. وهذا هو مفهوم (تواصل الحضارات) الذى يحسم الجدل فى كثير مما دار فـــى الآونـــة الأخـــيرة ، وما زال يدور حالياً ، وخاصة بعد ذلك الحادث المـــروع الذى هز أمريكا والعالم كله ، ونتجت عنه ظروف وقعت فيها بعض أعمال الكراهية ضد العرب والمسلمين.

تطوير كليات التربية

أحـد زملائـى القدامـى ، اتجه به التخصص إلى مجال التربية ، فأصبح أستاذاً كبيراً فيها . كتب مقالاً فى إحدى الجرائد الأسبوعية بعنوان (ارفعـوا أيديكم عن كليات التربية) اعترض فيه سيادته على الاتجاه الذى يدعـو إلـى العـودة للنظام الذى كان معمولاً به فى الماضى ، وهو أن يتخصـص الطـلاب فى مجالات متنوعة ، ثم بعد تخرجهم يحصلون على سـنة دراسـية تـربوية قبل الانخراط فى مهنة التدريس . وطبعاً النظام الحـالى يقـوم علـى أن يجمع الطالب ، المكرس للتدريس ، بين دراسة تخصصه ودراسة العلوم التربوية . وقد سبق أن نددت أنا شخصياً بذلك ، وقلـت أن العلـوم الـتربوية تطغى على علوم التخصص حتى أنها تصل أحياناً إلى 70% منها. وهذا يؤدى إلى تخريج معلم تربوى جداً ، لكنه فى مادتـه ضعيف جداً ، لأنه لا يجد فى حقيبته العلمية والثقافية سوى مواد تـربوية (وهـى مـواد وسـائل تدريس) ولا توجد لديه مواد متخصصة يستطيع أن يعلمها للتلاميذ . .

ولا شـك أن المسـألة معقدة . فكيف نطالب بإلغاء كليات التربوية الـتى بلـغ عددهـا الآن أكثر من عشرين كلية ، مكتظة بالطلاب ، ولها أسـاتذة وبها موظفون من أجل إصلاح حال المدرس الذى يتخرج منها ؟ لكنـنا فـى الوقت نفسه مضطرون للبحث عن خريج مؤهل للتعليم ، وقد أصبح عملة نادرة . وأستطيع أن أؤكد أن أى مدرس متميز الآن لم تكونه أى كلية تربية ، وإنما هو الذى كون نفسه . والسبب فى غاية البساطة . وهو كما أشرت يتمثل فى غلبة مقررات التربية على مقررات التخصص.

وفــى إطار البحث عن حل لمشكلة أو معضلة كليات التربية ، ظهر مصــطلحان جديدان هما النظام التكاملى (أى الجمع فى سنوات الكلية بين مقررات التخصص ومقررات التربية) والنظام التتابعى (أى تأجيل مقررات التربية إلى سنة إضافية بعد الانتهاء من الدراسة المتخصصة) وطبعاً أى شــخص موجود فى كليات التربية يحق له أن يدافع عن النظام التكاملى ، من أجل بقاء هذه الكليات . التى سبق أن اقترحت أنا شخصياً إلغاءها من أجل تخريج مدرس حقيقى مؤهل لهذه المهنة الأساسية فى بناء المجتمع. لكنــنى أعــود ، ولاعتــبارات إنسانية خالصة ، فأقدم حلاً وسطاً ، وهو ضــرورة تنقــية مــناهج كليات التربية من الحشو الذى تمتلئ به ، ومن الــتزيد المــبالغ فــيه لصــالح المقررات التربوية . وبذلك أطمئن السادة الأســاتذة والموظفيــن فى كليات التربية بأن (الفكرة الثالثة) التى أطرحها هنا تحافظ على مكتسباتهم ولا تمس أى حق من حقوقهم. فقط عليهم أن يســرعوا بإحداث هذا التطوير المنشود . والواقع أن وزارة التعليم العالى جــادة فــى تطوير هذه الكليات كمقدمة أساسية لتطوير التعليم الجامعى ، وأعلم أنها حصلت من البنك الدولى على دعم مالى لتحقيق هذا الهدف .

كل ما أرجوه هو ألا يتمسك كل منا برأيه ويتصلب فى الدفاع عنه . فــالحق أحــق أن يتبع . وعندما يظهر الحق فى جانب حتى ولو كان من غيرنا فعلينا أن نسرع بالتمسك به . لكن السحابة التى ما زلت أخشى من وجودهــا فــوق كلــيات التربــية هى أن عدد التربيون فيها يفوق أعداد أصــحاب التخصصات، كما أن أصواتهم أعلى من غيرهم . والخشية من أنهم لن يتنازلوا عن مقرراتهم بالسهولة المطلوبة ، ولا برحابة الصدر ، التى تغلب مصلحة المجتمع على مصلحة الأفراد . والله ولى التوفيق.

تنقية المناهج الدراسية

هناك فرق واضح بين المنهج الدراسى والمقرر الدراسى . فالمنهج يعنى الأسلوب أو المخطط ، فى حين يقصد بالمقرر المحتوى أو المضمون . ولكى يتضح الفرق نستعين بمثال . منهج التاريخ للفرقة الأولى مثلاً يعنى دراسة عصر ما قبل الإسلام ، وهذا يتطلب دراسة جزء من تاريخ الدولة الرومانية والدولة الفارسية ثم حالة العرب فى شبه الجزيرة العربية . أما المقرر الدراسى لهذا المنهج فيعنى ملء هذه الخطة العامة بمادة تاريخية مناسبة بحيث تحقق أهدافها .

ومع ذلك يشاع خطأ مصطلح تنقية المناهج الدراسية فى حين أن المقصود بها تنقية المقررات . فالمناهج لا تنقى وإنما يتم تعديلها أو استبدالها بمناهج أخرى .

والسؤال الآن ، والذى بدأ يطرح بشدة على العرب جميعاً هو : هل يقومون بتنقية مناهجهم أى مقرراتهم الدراسية مما هو موجود بها من عداء للغرب ، ودعوة للتعصب ، وحث على العدوانية بدل الحوار تجاه الآخرين ؟ أم يظلون على حالهم حتى تفرض عليهم مناهج أو مقررات جديدة من الغرب ؟

والواقع أن هناك ظلماً كثيراً وتحيزاً أكثر فى طرح هذا السؤال . لأن من يدقق فى مقرراتنا الدراسية لن يجد فيها سوى ما هو متعارف عليه فى كل المجتمعات ، ولدى سائر الشعوب من اعتزاز بالنفس ، وتكريم للقيم والأعراف ، وإشادة بمبادئ الحق والخير . صحيح أن

هـــناك نقصاً فى تعليم كيفية الحوار ، وضعفاً فى القدرة على استيعاب الـــرأى المخالف ، لكن هناك مجتمعات أخرى كثيرة تمتلئ مناهجها أى مقـــرراتها الدراســـية بالأعاجيـــب ! فهناك الكثير من التعصب فى كتب الغرب الدراسية ، وأيضاً الكثير من الاستعلاء وبث الإحساس بالتميز ، ومعاملة الشعوب الأخرى على أنها أدنى حضارة ، وأقل مستوى ! ! بل أن هـــناك فـــى مقررات الغرب الكثير من الأخطاء حول الشرق وعاداته ومعتقداته وأسلوب الحياة فيه .

وفـــى هـــذا المجال ، لابد أن نلفت الأنظار إلى ما يتم تدريسه فى إسرائيل ، ومعظم الناس يجهلونه بالطبع ، لكنه يحتوى على الكثير جداً ممـــا يدعون إلى تجنبه لدى العرب ؟ فهل يستقيم الكيل بمكيالين ؟ وهل من العدالة أن نطبق على غيرنا ما لا نطبقه على أنفسنا .

وعلـــى الرغم من ذلك السؤال (البايخ) الذى يطرحه الغرب علينا والخـــاص بـــتعديل المـــناهج ، فمـــن واجبنا أن نظل متنبهين لمفردات مقرراتنا الدراسية بحيث نطورها ونحدثها باستمرار ، من أجل أن تكون ملائمـــة لظروفـــنا ، وغـــير متعارضـــة فى نفس الوقت مع التوجهات العالمـــية ، باعتـــبارنا جزءاً لا يتجزأ من العالم ، بل وفى قلب حركته وأحداثه .

وأخـــيراً يظـــل المـــنهج الدراسى والمقرر الدراسى متوقفاً على المـــدرس الذى يقدمه للتلاميذ ويشاركهم فيه . فإذا كان متفتحاً لم يغلق أمام عقولهم نافذة ، وإذا كان متعصباً أغلق عليهم كل نوافذ الفصل !

تلفزه مجلس الشعب

مـن الأمـور التى كنت أتمنى أن أراها تحدث فى بلادنا مشاهدة جلسات مجلس الشعب على الشاشة الصغيرة . وكان هدفى هو أن أرى رأى العيـن أداء النواب بعد أن ينجحوا فى الانتخابات : ماذا سيفعلون تحـت القبة ؟ وهل فعلاً ما قاموا به من حملات دعائية وجذب للناخبين سـوف يترجم إلى عرض مشكلاتهم ، و مناقشة قضايا المجتمع؟ وكان هدفى أيضاً أن أشاهد مدى تفوق بعض أعضاء المجلس فى مقابل تعثر آخريـن . . ومـع موافقة السيد وزير الإعلام على إذاعة الجلسات فى الـتلفزيون ، صـرت من أكثر المشاهدين متابعة لها ، وانفعالاً بها . . لكنها فى الآونة الأخيرة أصبحت تصيبنى بالكثير من الاكتئاب فضلاً عن الملـل والضجر ، والواقع أن ذلك يرجع إلى عدة أسباب ، من أهمها : رؤيـة معظـم مقـاعد المجلس خالية إلا من عدد قليل جداً من النواب يجلسـون متناثريـن ، وبعضـهم غير مبالٍ بما يحدث . ومنها : عدم إنصات الأعضاء الحاضرين لمن يتكلم ، بل وترك أماكنهم والتجول فى طـرقات المجلس ، وكثيراً ما يقوم واحد منهم ليتحدث مع زميل آخر ، ويستغرقان فى ضحك طويل . ومنها : حالة اللهفة الصعبة التى ترتسم علـى وجوه بعض النواب وهم يحملون فى أيديهم طلبات لتوقيعها من الـوزراء الذيـن يتصـادف وجودهـم بالمجلس ، وأتساءل : لماذا لا

يخصص المجلس قاعة يلتقى فيها أمثال هؤلاء النواب ، أصحاب الطلبات ، بالوزراء للحصول على التوقيعات دون ظهورهم بهذا الشكل فى التليفزيون . إنهم بذلك يعطون إحساساً للمواطن العادى بأن مقابلة الوزير من رابع المستحيلات ، مع أننى أعلم أن عدداً كبيراً من الوزراء يفتحون مكاتبهم لاستقبال الجمهور والاستماع لشكواه . ومنها : تركيز الكاميرا - وهذا عيب فنى خالص - على نائب يتثاءب أو شبه نائم ، وهو الأمر الذى يجعلنا نحسّ بأن المسألة برمتها لا تستحق . ومنها : حرص بعض النواب على الظهور فى الكاميرا من خلال تعمد جلوسهم خلف الوزراء مباشرة ، أو خلف رئيس مجلس الوزراء نفسه . ومنها : رغبة بعض النواب فى الاستعراض الخطابى ، والذى يصل أحياناً إلى حد الإساءة الشخصية للمسئولين ، وتوجيه كلمات لا تليق بهم. ومنها أخيراً : الإعلان عن موافقة الأعضاء دون اكتمال العدد ، من حيث الشكل الظاهرى على الأقل ، وعدم التأكد حقيقة ممن رفعوا أيديهم بالموافقة من غيرهم .. لهذا كله أرجو وآمل أن يتوقف التليفزيون عن إذاعة جلسات مجلس الشعب ، ويقصرها فقط على الجلسات المهمة التى تناقش قضايا عامة وحقيقية ، وإذا لم يفعل فسوف أتوقف تماماً عن مشاهدتها ! !

المصـــريون باعتراف العالم كله هم أجمل من رتل القرآن الكريم وجوّده . وقد برزت لديهم على مدى التاريخ أصوات عذبة ، استطاعت أن تطـــير بآيـــات القـــرآن الكريم إلى القلوب ، وتسكبها فيها فتستقر وتخضـــر . وفـــى العصر الحديث حفظت لنا التسجيلات صوت المقرئ (الرخيم) محمد رفعت، وعاصرنا لحسن الحظ كلاً من المقرئ (الأستاذ) مصـــطفى إســـماعيل، والمقـــرئ (الجوهرة) عبدالباسط عبدالصمد . . واكـــبهم العديـــد مـــن الأصوات الأخرى التى ما زالت الإذاعة المصرية تحـــتفظ لهم بأجمل التسجيلات ، ولا ننسى جميعاً الشيخ الحصرى الذى يجعلـــك تفهـــم المعـــنى وأنت غارق فى ثبات تلاوته ، وصاحب البحة الجمـــيلة الشـــيخ الطبلاوى . . لكننا ينبغى ألا نغفل عن عدد كبير من المقرئين الذين لم يصلوا إلى ميكروفون الإذاعة ، واحتفظت بهم القرى يقـــرأون فـــيها فيهزون المشاعر ، ويحركون القلوب . . وكم من مأتم حضـــرته فـــى الـــريف ، فاستهوانى صوت المقرئ فيه ، وكلما نظرت حولى وجدت الأجساد تتحرك بتلاوته ، وتسكن بسكوته .

وقـــد عشنا على هذه الحال لسنوات قليلة ماضية ، حتى بدأ يأتى إليـــنا مـــن منطقة الخليج سيل من أصوات لمقرئين تختلف نبرتهم عن النـــبرة المصـــرية المألوفة ، وحمل العائدون من البلاد العربية أشرطة كاســـت لمقرئيـــن آخريـــن لا يمكـــن مقارنتهم على الإطلاق بأصوات المقرئيـــن المصـــريين ، ثـــم راحـــت هذه الأشرطة تعلو فى المحطات والمحلات وسيارات السيرفيس ، حتى كادت تغطى على الحناجر الذهبية

الموجـودة فـى مصر . ما الدافع وراء ذلك ؟ ولمصلحة من جرى هذا الـتحول ؟ لـم يحاول أحد أن يسأل ، ولأننا فى مصر طيبون ، ونرحب دائماً بالوافد الجديد ، فقد استقبلناه بترحاب، حتى كاد يحجب مع الأسف أصواتنا الأصيلة !

إنـنى أذكر أن الإذاعة المصرية كانت تخصص كل يوم قبل نشرة أخـبار الثامـنة والنصف لأحد كبار المقرئين ، وكذلك كان الحال طوال شـهر رمضـان. وكـان المعجبون ينتظرون قارئهم المفضل فى يومه المحـدد ، دون أن يهملـوا بالطبع الإصغاء إلى باقى زملائه . وكانت المقارنـة تكشف باستمرار عن جوانب من الخصائص الجمالية لدى كل مقـرئ . أمـا الآن فقد اختلط الحابل بالنابل ، وغزت أسواقنا أشرطة كاسـت لمقرئيـن غير مصريين لا تتمتع بأى سمة جمالية ، حتى كاد الذوق يضطرب ، و(السميعة) يختفون.

منذ فترة قصيرة ، ذهبت إلى باكستان ، وهناك وجدت لديهم ثلاث قـنوات تلفزيونـية ، واحـدة منها مخصصة للقرآن الكريم على مدى سـاعات الليل والنهار . والشاشة مقسمة إلى قسمين ، أحدهما باللغة الأورديـة ، والآخـر مـن المصحف العربى، أما الصوت فهو لجوهرة الـتلاوة القرآنـية الشيخ عبدالباسط عبدالصمد . . وعندها أدركت أن الباكستانيين لديهم تقدير صحيح للأمور ، فقد عبروا الخليج ، وتوقفوا عـند مصـر ، لكـى يختاروا منها مقرءهم المفضل . . الذى هو أيضاً مقرئى المفضل .

جـزى الله كـل مـن قرأ القرآن بصوت حسن ، فقربه من قلوب سامعيه ، وأشعرهم بجمال بيانه ومعانيه .

تعليم الابتكار

هل يمكن أن نعلم أبناءنا الابتكار ؟ ظل العلماء لفترات طويلة جداً يعـتقدون أن الابـتكار موهبة ، تقتصر فقط على عدد من الأفراد الذين يظهـرون فى أوقات وأماكن محددة ، ويعتمدون فى ذلك على أن الكثير مـن المبتكرين قد نشأوا فى بيئات تحارب الابتكار ، وتعمل بكل الطرق علـى خنقه وإخماده . وهذا يعنى أن الإنسان المبتكر ليس نتيجة البيئة الـتى أوجدتـه بمـا فـيها من تعليم وتربية وتدريب وإنما هو كالنبتة الصحراوية التى تكبر وتزدهر دون أن يقوم أحد على زراعتها والعناية بهـا . لكـن علمـاء المنهج إلى جانب علماء النفس والاجتماع ظلوا يبحـثون فـى جوهـر الابـتكار ، ويحللون شخصيات المبتكرين عبر العصـور، ويدرسـون تصريحاتهم حول نزعة الابتكار لديهم ، وكيف نشـأت وتطـورت حتى نضجت وأثمرت . علماء الاجتماع يؤكدون أن المبتكر ابن بيئته ، وأنه يعبر عن النتيجة النهائية لعدة مقدمات أوجدتها البيـئة الاجتماعـية الـتى عاش فيها . أما علماء النفس فيقولون إن الابـتكار موهـبة فـردية خالصة يمكن أن تظهر فى بيئة تشجع على الابتكار ، وتهيئ الظروف المناسبة له ، ويمكن أيضاً أن تنشأ فى بيئة خانقـة للابـتكار وطاردة له . وقد استفاد علماء المنهج من الفريقين

السابقين، واستطاعوا أن يبلوروا نظرية خاصة بالابتكار . وهذه النظرية متواضـــعة فـــى هدفها . فهى لا تدعى أنها تصنع مبتكرين ، وإنما فقط تساعد على تهيئة الظروف والعوامل الملائمة للابتكار . ومن ذلك مثلاً: تشـــجيع الإنسان منذ الطفولة على تنمية ملكة الخيال لديه ، إلى جانب ملكة العقل . وأن يترك للأطفال حرية التعبير عن إحساسهم دون خشية من لوم الكبار أو الاستهزاء بهم . ومن ذلك عدم التركيز فى تقويم أداء الطـــلاب علـــى الحفظ والاستذكار ، وإنما على إبداء وجهة نظرهم فيما تعلمـــوه ، مع فتح الباب واسعاً أمام النقد والاعتراض . ومن ذلك أيضاً احـــترام وتشـــجيع كـــل المـــبادرات الخاصة التى يقوم بها التلاميذ فى أنشطتهم المختلفة سواء كانت رياضية أو ثقافية أو فنية أو حرفية . . مع التركيز بصفة خاصة على هذه الأخيرة ، وضرورة أن يحرك التلميذ أصابعه ، بدلاً من الاقتصار فقط على تحريك عقله أو ذاكرته . ومن أهم العوامـــل الـــتى تشـــجع علـــى وجـــود الابتكار تزويد التلاميذ بقصص الاخـــتراعات والاكتشـــافات العلمـــية والانجازات التكنولوجية ، وإلقاء الضوء على تاريخ حياة أصحابها ، وكيف بدأوا ، وتعبوا حتى كتب لهم الفـــوز ، وأصبحت أسماؤهم محفورة فى تاريخ العالم كله . تلك بعض الأمـــثلة . وهـــناك غيرها لمن يريد أن يمهد الأرض للمبتكرين ، أولئك الذين يصنعون التفوق لأى بلد ويرتبط ظهورهم بتقدم الإنسانية كلها .

أجمع الأطباء الكبار الذين التقيت بهم - وكنت دائم الحديث معهم عن مبدأ الوقاية الصحية ، وأنه دائماً خير من العلاج - على أن مشكلة المشاكل عند المصريين ترجع إلى عدم الوعى الكافى بنوعية غذائهم . فهــم يكثرون من أطعمة لا يحتاج منها الجسم إلا إلى بعض الجرامات ، ويقللــون مــن أغذيــة أخرى يحتاجها الجسم بكثرة . وما ذلك إلا لعدم الوعــى بما يمكن أن نسميه التوازن الغذائى المتكامل . وعندما سألت قــيل لى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل غذاء الإنسان يتكون من ثلاثة عناصــر رئيسية . الأول خاص ببناء الجسم وهو (البروتينات) والثانى مهمــته إمــداد الجســم بالطاقــة وهــو مــا يطلــق علــيه مصطلح (الكاربوهيدرات) أما العنصر الثالث فهو للوقاية ويتمثل فى (الفيتامينات والأمــلاح المعدنية) وبناء على ذلك ، فإن كل عنصر من هذه العناصر ينبغى أن يقدم للجسم بصورة مركزة فى المرحلة التى يحتاجها ، وكذلك فى الوقت الذى يتطلبه . فمثلاً الطفل يحتاج إلى قدر من البروتينات التى تعمــل علــى بناء الجسم أكثر مما يحتاج إلى ذلك الرجل الكبير السن ، وأن عنصــر الغــذاء الذى يمد الجسم بالطاقة ينبغى أن يعطى لأصحاب المجهــودات الأكبر من غيرهم ، أو الذين يتحركون كثيراً . أما عنصر الوقاية فهو لازم للجميع ، وفى كل الأعمار والأحوال .

وبالطبع لا يمكن أن نقول أن وجبات الإنسان ينبغى أن تكون على النحو التالى، ثم نحدد أصنافاً من الأغذية قد لا تتوافر للإنسان العادى ، وهو الإنسان الذى نخاطبه ونهتم به . لكن يكفى أن يدرك هذا الإنسان أن عناصر الغذاء ثلاثة ، وأن كلاً منها يقوم بوظيفة محددة ، ثم نترك له حرية التعامل مع أنواع الأغذية . فمثلاً إذا أكل (فول مدمس) فى الصباح كان عليه أن يدرك أنه قد أخذ كفايته من البروتين (النباتى)، وأنه يحتاج طوال فترة العمل لبعض الكاربوهيدرات ، أى السكريات والنشويات التى تمد الجسم بالطاقة ، وخاصة إذا كان يبذل جهداً عضلياً وحركياً متزايداً . لكن يبقى عليه أن يتناول بعض الخضروات والفاكهة التى تمتلئ بالفيتامينات لدعم مقاومة الجسم ضد ما يمكن أن يتعرض له من أمراض . وقد ثبت مثلاً أن ثمرة الجوافة تحتوى على مقاومة عالية لنزلات البرد أكثر بكثير من البرتقالة أو الليمونة . وتلك حقيقة غذائية غائبة عن معظم الناس . ومن نعمة الله علينا فى مصر أن موسم الجوافة يأتى قبل حلول فصل الشتاء ، فإذا تناول منها الناس كمية معينة أصبحوا محصنين ضد أمراض الشتاء وأهمها الأنفلونزا .

هذه الثقافة الغذائية مطلوب تلقينها لأبنائنا فى المدارس ، ونشرها بين الناس من خلال وسائل الإعلام ، وهى ثقافة ضرورية ، لأنها تتعلق بصحة الجسم ، التى هى شرط أساسى لصحة العقل . كما أنها هى التى سوف تؤدى بالمصريين إلى مزيد من النشاط والحيوية ، كما يمكنها أن تقضى على ما شاع بينهم من ظاهرة البطون المنتفخة ، والكروش المتضخمة .

حال الترجمة الفورية

الترجمة الفورية هى فرع واحد من فروع الترجمة بصفة عامة . والـترجمة تعـنى ببسـاطة نقـل المعنى من لغة إلى لغة أخرى. ومن الواضـح أن هـذا النقل ينبغى أن تراعى فيه الدقة والوضوح ، وبذلك ينـبغى لمـن يتصـدى لهذه المهمة الصعبة أن يكون متمكناً من اللغة المـنقول مـنها ، وكذلك من اللغة المنقول إليها ، حتى تخرج ترجمته أقرب ما تكون إلى الدقة ، والصحة ، والسلامة .

ومن الطبيعى أن المترجمين يمثلون جماعة مهمة جداً فى كل بلد. فليس من المطلوب أن يتعلم شعب بكامله لغة أجنبية أو عدة لغات لكى يعرف محتواها ، لكن يكفى أن يتخصص عدد من أبنائه فى معرفة تلك اللغـات ، وإتقـان النقل منها وإليها حتى يحدث التواصل المنشود بين شـعوب العـالم ، ويتحقق ما دعانا إليه ديننا الحنيف من التعارف بين الأمم ، ولا شك أن اللغة من أهم مفاتيح هذا التعارف .

فـإذا ألقيـنا نظرة على حال الترجمة العربية (من وإلى) اللغات الحـية الموجودة حالياً ، لاحظنا أنها ضعيفة جداً ، والسبب فى ذلك أن المتخصصـين فى الترجمة لا يخرجون عن ثلاث أصناف : الأول يجيد اللغـة الأجنبـية ولا يجـيد العربية ، والثانى قد يجيد العربية ولا يجيد الأجنبية ، والثالث لا يجيد الاثنين معاً . . أما الصنف الرابع الذى يجيد اللغتيـن فإنـه نادر جداً ، أو غير موجود . أقول هذا من خلال تجربة

طويلـــة مـــع مترجميـــن مـــن كل لغات العالم ، وأحزن جداً من هبوط المستوى إلى درجة يصعب معها أحياناً إحداث التواصل بيننا وبين الوفد الأجنـــبى الذى نتحدث معه . ولا شك أن هذا يؤدى أحياناً إلى خسارتنا بعـــض الفوائـــد التى كان من الممكن أن نحصل عليها لو كان التواصل عن طريق الترجمة كاملاً وصحيحاً .

ولعـــل مشاهدى التليفزيون قد لاحظوا جميعاً ضعف الترجمة فى افتتاح مكتبة الإسكندرية ، هذا الافتتاح الرائع الذى حضره عدد لا بأس به من رؤساء الدول الأجنبية ، وتحدث فيه عدد من ممثلى هذه الدول ، والحائزيـــن علـــى جائـــزة نوبل ، وكانت الترجمة المصاحبة لهم وهم يتحدثون غاية فى الرداءة ، حيث حصل المترجمون مسبقاً على الأوراق الملقاة ، ولم يستطيعوا أن يصاحبوا المتحدث فى كل عبارة ينطق بها ، وقـــد تابعـــنا ما يؤسف له حين راح المترجم أو المترجمة يستكمل بعد انتهاء المتحدث عبارات كاملة من الورقة التى سبق أن حصل عليها .

والخلاصـــة أن عصـــر العولمة الذى نتغنى بالدخول فيه يستلزم مـــزيداً مـــن إعـــداد أجيال قوية فى مجال الترجمة عموماً ، والترجمة الفوريـــة علـــى نحو خاص ، حتى نستطيع أن نتعامل مع العالم لحظة بلحظة ، وليس بمجرد الابتسامات ، والإيماءات .. والإشارات ! !

جوائز بدون إعلان

أتمـــنى أن تنشأ فى مصر مثل تلك الجوائز الأدبية والثقافية التى يفاجـــأ من يستحقها بحصوله عليها دون أن يكون قد قدم لها إنتاجه ، وراح يسعى لكى يحصل عليها دون غيره من المتسابقين . طبعاً يتطلب الأمر تكوين جهاز متخصص فى جنس أدبى معين مثل الشعر أو الرواية أو المســـرح ، يتابع من خلال لجنة من النقاد والفاحصين ما ينشر من إنـــتاج أدبى ، ثم يقوم بتقييمه ، والاتفاق على المتميز منه ، ومفاجأة أصـــحابه بـــإعلان أسمائهم وأعمالهم الفائزة فى يوم محدد من العام أو الشـــهر.. أهم ما فى مثل هذه الجوائز أنها تمنع محترفى الحصول على الجوائز بالحق أو بالباطل من ملاحقة المحكمين ، أو استخدام الواسطة، أو الـــتزلف وإظهـــار الحاجة والمسكنة لكى يحصلوا على الجائزة حتى ولـــو لـــم يكـــن لهـــم حق فيها . أذكر أن شاعراً قدم إنتاجه فى إحدى الجوائـــز الكـــبرى ، وراح يـــدور على المحكمين قائلاً لهم إنه مريض بالقلب ، وأن أيامه فى الحياة معدودة ، ومن حقه أن يسعد بالجائزة قبل أن يموت . وقد تأثر الكثيرون بكلامه نظراً لكبر سنه ، وعند التصويت أعطـــوه أصـــواتهم وهم فى غاية التأثر . وبالفعل حصل صاحبنا على الجائـــزة ، ومـــا زال حياً يرزق ، بينما توفى العديد ممن خدعهم بتلك الحجة الذليلة !

وقـــد اقترحت ذات يوم على أخى الأكبر المرحوم إبراهيم الترزى أميـــن مجمـــع اللغـــة العربـــية أن ينشئ فى المجمع عدة جوائز بدون إعلانـــات مسبقة : إحداها لأفضل ديوان شعر ، والثانية لأفضل رواية ،

والثالـــثة لأفضل كتاب يتم تحقيقه من التراث العربى ، والرابعة لأفضل مســـرحية ، والخامسة لأفضل مجموعة قصص قصيرة . وقلت له : إن مجمـــع اللغـــة العربـــية هو الأجدر بمثل هذا العمل ، بناءً على سمعته الطيـــبة من ناحية ، وعلى تواجد العديد من العلماء المنصفين فيه من ناحية أخرى ، كما أنه جهاز علمى منظم ، ولا ينبغى أن يقتصر نشاطه فقـــط على جلسات تبحث فى جذور الألفاظ ، ومدى أحقيتها فى الحياة ! وإذا كـــان المـــوت قد احتضن إبراهيم الترزى الذى تحمس كثيراً لهذا الاقـــتراح ، فإنـــنى أعيد تقديمه مرة أخرى إلى رئيسه الحالى ، العالم الجليل الدكتور شوقى ضيف .

والواقـــع أن الدولـــة لـــم تقصر على الإطلاق فى إنشاء الجوائز الأدبـــية والعلمية ، وقد زادت قيمتها المادية أخيراً بصورة جيدة ، كما جـــاءت جائـــزة مبارك لتكون تتويجاً لجهود بعض الشخصيات المتميزة جـــداً فـــى مجالات الأدب والثقافة والعلوم . . وبالطبع يوجد نظام محدد للحصـــول علـــى تلـــك الجوائز ، ويتم الترشيح لها من خلال مؤسسات محترمة ، وهى تمنح غالباً لمن يستحقها بالفعل، لكن تبقى الشكوى من المرشـــحين الذيـــن لـــم يصـــادفهم الحظ السعيد . وهنا لابد من تكرار الترشيح أكثر من مرة لعل وعسى . . أما الاقتراح الذى قدمته هنا فهو يقضـــى تماماً على تلك الشكوى وما يرتبط بها من الحزن والإحباط . . لأن أحـــداً مـــن المرشـــحين لا يعرف مسبقاً أنه مرشح. لذلك فإن عدم ظهور اسمه لا يحزنه على الإطلاق . بل إنه يدفعه إلى مزيد من تجويد عملـــه وتحســـينه ، وعلـــيه أن يؤمن بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

جمعية أصدقاء الشعب الفلسطينى

فـــى غمـــرة الصـــمت العربى الرهيب أمام ما يجرى على أرض فلســطين ، والممارســات الوحشــية التى يقوم بها الجيش الإسرائيلى (البطل) ضد الشيوخ والنساء والأطفال ، مستخدماً الصواريخ من البحر، والقنابل من الجو ، والمدافع من الدبابات ضد شعب أعزل ، لا يملك ما يدافــع به عن نفسه سوى الأحجار فى أيدى الصبية ، أو أرواحه التى يجود بها تعبيراً عن رفض الظلم ، وإدانة الاحتلال .

وفـــى غمـــرة الصـــمت الدولى الذى خرست برلماناته وجمعيات حقــوق الإنسان فيه عن إدانة الظلم ، ومساندة الشعب المعتدى عليه ، ولـــم يحدث ذلك مع الأسف سوى مجاملة للولايات المتحدة الأمريكية ، الـــتى أعلنت نفسها الراعى الرسمى لعملية السلام فى الشرق الأوسط ، فمنعت أى طرف آخر أن يتدخل ، وتركت عمليات القمع والذبح والهدم والتشريد تجرى فى فلسطين .

فـــى غمرة هذا الصمت المضاعف ، أتساءل بكل جدية : لماذا لا تتكون فى كل بلد عربى ، أو أجنبى (جمعية أصدقاء الشعب الفلسطينى) تكـــون أقل مهماتها التعاطف مع مأساة هذا الشعب الذى يكاد يكون هو الشعب الوحيد المحتلة أرضه فى العالم كله، العالم المعاصر الذى وصل

إلــى الــتعاطف ليس فقط مع البشر ، وإنما مع الحيوانات ، والنبات ، والجمــاد . . هــذه الجمعية فى تصورى يمكن أن تنشأ بسهولة ، وأن تجمــع حولها كل الشرفاء الذين يرون الحق حقاً ويقفون إلى جواره ، ويرون الباطل باطلاً ويتبرأون منه.

هــذه الجمعية التى ينبغى أن تتواصل فروعها فى مختلف أنحاء العــالم ، وأن تقــيم من وقت لآخر مؤتمراً تستعرض فيه أحوال الشعب الفلسطينى ، وتقدم رؤيتها الخالية من أى تعصب أو انحياز أو مصالح سياســية أو اقتصادية لحل عادل وشامل يعيد الحق إلى نصابه ، ويرفع عــن أبــناء هــذا الشعب ذلك الكابوس الجاثم على صدره ، وهو يئن ويتلوى ويصرخ ولا من مجيب !

فــى غمرة الصمت الذى يسود جامعة الدول العربية ، والجمعية العامة للأمم المتحدة وسائر منظماتها ، وكذلك منظمات المجتمع المدنى الــتى أكلــت القطة لسانها – كما يقول التعبير الغربى – ولم نعد نسمع عــن أى مــنها أية إدانة ، أو أى استنكار ، والجميع يرى يومياً على شاشات التليفزيون أبشع مظاهر العسف والتنكيل .

دعوة جادة إلى قيام (جمعية أصدقاء الشعب الفلسطينى) استجابة لضمير العالم الحر ، وحفاظاً على ما حققه الإنسان المتحضر فوق هذه الأرض من إنجازات.

بيـــنما العـــرب مشـــغولون بـــأحداث القضية الفلسطينية ، التى اصـــطبغت مـــنذ عامين بلون الدم ، وبينما هم مشغولون بتوقع ضربة أمريكـــية للعراق تقضى على البقية الباقية منه ، وبينما هم مشغولون بجزيـــرة ليلى ، وما كانت تخفيه وراءها من الاحتلال الأسبانى لمدينتى سبتة ومليلة المغربيتين . . إذا هم يصحون فجأة على نبأ اتفاق ملغوم، وقعته فى 20 يولية الماضى الحكومة السودانية مع متمردى الجنوب ، وجـــرى تعمـــد إتمام إجراءاته بعيداً عن كل من مصر و ليبيا بالذات ، ومحفوفاً برعاية الولايات المتحدة الأمريكية ، وتقرر أهم بنوده إمكانية إعطاء (شعب جنوب السودان) (هكذا ! !) حق تقرير المصير من خلال استفتاء لتحديد وضعهم المستقبلى . وذلك بعد مرور فترة انتقالية تبلغ ســـت سنوات . . وقد حدد الاتفاق مجموعة دول أفريقية هى (جيبوتى وإريـــتريا وأثيوبيا وكينيا وأوغندا) وطبعاً استبعدت مصر ، ومجموعة غربـــية هـــى (إيطاليا والنرويج وبريطانيا وأمريكا) لتقوم بدور التقييم والمراقبة خلال تلك المدة المنصوص عليها . .

وطبعاً المسألة بهذا الشكل تبدو (عملية مطبوخة) على نار ليست باردة ، لأنها تهدف ببساطة إلى تقسيم السودان الحبيب بعد ست سنوات إلـــى دولتيـــن إحداهمـــا شمالية ، تظل ترفع شعارات الدين والحماسة الثورية وتبدأ عباراتها بـــ (لابد ، وينبغى) ودولة جنوبية سوف تحظى بدعـــم لا حـــدود له وتقـــوم فيها مشروعات عملاقة، وترتبط مصالحها مباشـــرة بمصالح الدول الغربية . وبهذا الشكل يضرب الاتفاق أكثر من

عصـــفور بحجــر واحد ، فهو يقسم السودان إلى دولتين ، ويعزله عن مصر ، ويفتح الأبواب للعبث بمنابع النيل .

إنـــنى كمواطـــن مصرى أرفض أولاً تقسيم السودان ، كما أرفض ثانـــياً أن يســـتبد شماله بجنوبه ، وأرفض ثالثاً أن يسعى الجنوب إلى تمـــزيق وحـــدة الوطـــن الواحد . ولا شك أن هناك الكثير من الأخطاء والـــتجاوزات وأوجـــه القصـــور والتقصير ، ولكن هذا كله لا يعنى أن ينفصـــل إقلـــيم مـــن الوطـــن حتى ولو بلغ النصف عن باقى الأقاليم ، والأفضل لجميع الأطراف أن يتم حل جميع المشكلات من خلال الإصغاء الجيد للشكاوى والتعرف على أسبابها ، والقيام فوراً بإزالتها لكى يشعر الجـــنوب بالأمـــان الذى يطلبه ، وبحرية العقيدة والشعائر التى هى من حقه .

وإذا كـــان لـــى مـــن كلمة أقولها بصفة شخصية لأبناء الجنوب الأشـــقاء فهى أن اقتسام الرغيف مع أخوتكم فى الشمال أجدى ألف مرة مـــن الانفـــراد مغموساً بالعسل فى ظل هيمنة أجنبية ، كما أقول لأبناء الشـــمال الأشـــقاء : إن أهـــل الجنوب لهم مطالب فى المساواة وحرية العقيدة ينبغى أن تقدموها لهم عن طيب خاطر ، بدلاً من أن يأتى أجنبى عنكم لكى يفرضها عليكم . إننى أسمح لنفسى أن أقول لكم هذا ، لأننى مصـــرى، تربيـــت قديمـــاً علـــى شـــعار كنت أنشد فيه مع زملائى فى المدرسة: السودان لمصر ، ومصر للسودان .

لا يـــنكر أحـــد أن الإعلام الغربى متقدم جداً ، وأنه يستخدم أحد وسائل التكنولوجيا فى المعلومات ، ولكنه مع الأسف يحتوى على الكثير من الثقوب التى يأتى فى مقدمتها أولاً السياسة الإعلامية التى قد تظهر أحـــياناً ، وتخـــتفى عن الأنظار فى كثير من الأحيان ، ولكنها موجودة وجـــوداً يشعر به أى ملاحظ لديه قدر متوسط من الذكاء . فأنت عندما تقـــول للغربييـــن أن إعلامكم يسئ إلى العرب والمسلمين يجيبون على الفـــور بـــأن الإعـــلام لديهم حر . وهو فى الواقع ليس كذلك . فهناك محاذيـــر، وهناك ثوابت ، وطبعاً هناك مساحات متاحة للحديث والحوار وعرض مختلف الآراء باستثناء أمر واحد هو إعطاء أى صورة حسنة، أو نقطة إيجابية للعرب والإسلام .

ثانياً العنصر البشرى الذى يعمل فى مجال الإعلام الغربى ، والذى تنحصر ثقافته فى حدوده الضيقة ، دون محاولة الانفتاح على الشعوب الآســـيوية والأفريقية ، كما أنه لا يريد أو لا يرغب فى محاولة التعرف علـــى ثقافات العالم المختلفة ، ويكتفى - مع الأسف - بالمرور العابر علـــيها دون التعمق فيها ، وبالتالى نجده يعرضها عرضاً خاطئاً ، وفى أفضـــل الأحوال ، عرضاً سطحياً من الخارج فقط . فمثلاً عندما يحاول أى تلـــيفزيون فى الغرب نقل صورة حى شعبى فى القاهرة سوف تجده يركز على وجوه الناس وملابسهم ، وما يعرضونه للبيع فى الدكاكين أو يشـــربونه وهم جالسون على المقاهى . لكنه لا يستطيع أن ينقل الجو الودى الذى يربط بين هؤلاء الناس . ومدى التعاطف الذى يكنه بعضهم

لــبعض ، والشـــهامة التى يسارعون بها إلى مساعدة من يطلب منهم المساعدة سواء كان مصرياً أو من السائحين .

ثالــثاً : الإعلام الغربى لا يُقدم إلا ما هو جميل ومبهر عن الحياة الغربــية ، وهو يطيل فى ذلك ويعيد ، لكنه يسكت تماماً أو يمر مروراً عابراً عن مظاهر القبح والدمامة التى توجد فى أشهر مدنه وعواصمه، والــتى لا يعرفها سوى من ذهب إلى هناك وعاش بينهم لفترة طويلة . إن مدن الغرب تحتوى على أحياء بكاملها تمتلئ بالقمامة ، وينتشر فيها العاطلون والمتشردون ، بل يوجد فيها من يبحث فى أكوام القمامة عن بقايــا طعام لكى يأكله ، وهناك من ينام بصورة دائمة على الأرصفة . وقــد بــدأت ظاهــرة التســول فى السنوات الأخيرة تغزو أشهر المدن الأوربية مثل لندن وباريس وروما . . فما هو موقف إعلامهم من ذلك؟ لا شــئ ســوى السكوت أو المرور السريع حتى لا يقال إنهم يفتقدون الموضــوعية ، وذلــك فى حين أنهم يبحثون عن كل سلبية فى الشرق لكــى يبرزوها لديهم . أذكر أننى شهدت فى باريس مسابقة تليفزيونية لمــن يقدم أفضل ريبورتاج ، وكان من بين الفائزين شاب فرنسى جاء إلــى مصر ، وصور حياة الزبالين فى حى البساتين ، منذ اللحظة التى يســتيقظون فيها مع أذان الفجر حتى يجمعوا القمامة فى عربات الكارو ويعــودوا بها عند الضحى ! ويومها كنت أتمنى أن أكون مصوراً لكى أنقــل للعالم العربى صورة من أحد أحياء باريس تكون رداً مفحماً على تلك الصورة السيئة عن مصر ، التى تمتلئ بألوان رائعة من الجمال !

حجز الجثمان

سبق أن كتبت فى هذا المكان عن مأساة حجز جثمان المتوفى الذى تقوم به المستشفيات الاستثمارية فى حالة عدم دفع أهله باقى فاتورة المستشفى . والمسألة محرجة بالفعل . لأن المستشفى تعلم علم اليقين أنه بمجرد خروج الجثمان من ثلاجة المستشفى لن تجد من أهل المتوفى من يتولى دفع مستحقاتها . وأهل المتوفى أنفسهم بمجرد استلام راحلهم الكريم لن يكلفوا أنفسهم عبء سداد الفواتير . وطبعاً المشكلة هنا لها بداية . وبدايتها تتمثل بصراحة فى توجه مريض غير قادر مالياً إلى مستشفى استثمارى (أى يهدف إلى الربح من خلال علاج مرضاه) ، يظل يعالج فيه حتى الموت. طبعاً الأعمار بيد الله ، وكل مريض يتوقع ويأمل الشفاء ، وأن يخرج من المستشفى ماشياً على قدميه ، لكنه فى أغلب الأحوال ، يخرج محمولاً على الأعناق ! ولو أن كل إنسان ذهب للمستشفى التى تناسب حالته المادية ، بما فيها المستشفى المجانى ، لما حدثت أى مشكلة . لكننا فى مصر لا نحترم القوانين ، ونسعى دائماً للتحايل على الأنظمة واللوائح .

لقد سبق أن اقترحت إنشاء صندوق خيرى لمثل هذه الحالات التى يتوفى فيها شخص فى مستشفى استثمارى ويثبت أن أهله غير قادرين على دفع تكاليف علاجه . كما يمكن أن أقترح على أى مستشفى استثمارى بأن يتخذ الضمانات الكافية لحماية حقوقه المالية ، بأن

يشترط على المريض قبل علاجه دفع مبلغ تحت حساب الوفاة ! ! وهذا اقتراح ساخر لكنه واقعى .

ويبقى أن نناشد أهل المريض ألا يذهبوا إلى مستشفى استثمارى (من أولها) ، لكى لا يقعوا فى هذا المحظور المحرج جداً ، والذى يتمثل فى حجز الجثة حتى يتم الدفع !

أما أنا شخصياً فأقول لأهلى إذا حدث مثل هذا الموقف أن يتركوا جثتى فى المستشفى ، عقاباً لها على فشلها فى العلاج الذى انتهى إلى الوفــاة ، وإراحة لهم من البهدلة فى أقسام الحسابات التى تكون دائماً غاية فى التجهم والرذالة بالمستشفيات الاستثمارية .

إن هــذا الاقتراح الشخصى الأخير – فى رأيى – هو الذى يقضى علــى المشــكلة، فماذا ستفعل المستشفى فى الجثة ؟ سوف تضطر إلى حفظهــا فى ثلاجة الموتى ، وهذا أفضل من وضعها فى مقابر ترابية ، تحرقها الشمس ، وربما يكون بعض الأحياء فى حاجة إليها .

مــا الذى يدفعنى إلى ذلك ؟ ما حدث للفنان الساخر أبولمعة الذى سبق أن أضحك مصر كلها من خلال البرنامج الإذاعى الكوميدى (ساعة لقلــبك) . . وقــد قابلته ذات مرة على شاطئ الإسكندرية ، وكان بيده آيــس كريم ، فسألته مع أصدقائى عن آخر نكتة ، ففكر لحظة ثم قال : والله مــا أنــا فاكر . . لأن النهارده حر قوى . حتى الآيس كريم التى اشــتريته طلــع ســاخن ! رحمه الله ، وفرج كربته فى القبر ، بعد أن أفرجت المستشفى – بعد فضيحة – عن جثمانه !

حضارتنا فى ثقافتنا

إلــى متى تظل معلوماتنا عن الحضارة المصرية القديمة ، لا تخرج عن كونهــا أهــرامات ومعــابد وتماثــيل (حجــرية) وفوقهــا بعــض نقوش اللغة الهيروغليفية، التى أصبحت هى الأخرى رمزاً على الغموض وعدم البيان ؟ وإلى مــتى تظــل ثقافتــنا عــن حياة المصريين القدماء ، وهم أجدادنا الحقيقيون ، محصورة فى المومياوات التى كان أصحابها يعيشون أنصاف عرايا ، ولهم آلهة مــتعددة بعــدد مـــا كانوا يأنسون إليه أو يخافون منه ؟ وأخيراً إلى متى يتفرج أبناؤنا على السياح الأجانب وهم يقفون منبهرين على الآثار المصرية ، ويأتون إلــيها مـــن جمــيع أنحاء العالم ومعهم الكاميرات، ليحصلوا على صور تذكارية بجوارهــا ؟ إلـــى هذا الحد هذه الحضارة مثيرة للأجانب وليست مدهشة بالنسبة إلينا !

طبعاً لا يعرف قيمة الحضارة المصرية القديمة لدينا سوى من درسوها ، وتعمقوا فى نشأتها وتطورها ، ووقفوا على مظاهرها ومعالمها، وعرفوا أن تلك الآثار المعمارية التى تركها لنا أصحابها ما هى إلا (الوجه الظاهر) لحضارة ذات عمــق ديــنى وأخلاقــى ، وذات بعــد تنظيمى على مستوى عالٍ جداً من الدقة والإتقـــان . أمـــا غالبــية الشعب المصرى فقد ظل يعيش بجانب آثار حضارته القديمة أو حتى فى وسط معالمها ، ولا يعرف عنها إلا أقل القليل ، وعلى الرغم من محاولة الفرنسيين كشف أسرار الحضارة المصرية القديمة خلال وبعد حملة بونابرت على مصر منذ مائتى عام ، وما أحدثوه فى العالم كله من ثورة معرفية حــول الحضـــارة المصـــرية نـــتج عـــنه إنشـــاء علم جديد هو علم المصريات Egyptologie إلا أن الشــعب المصـــرى ظــل بمنأى عن الاهتمام بهذا العلم اهــتماماً عامـــاً وشـــاملاً ، واقتصـــر فقــط على بعض الأفراد – العلماء الذين استطاعوا أن يواكبوا علماء الغرب المخضرمين فى هذا المجال .

لقــد كــان مــن أروع مــا توصل إليه أجدادنا المصريون القدماء (فكرة الحكومة) التى نبعت أساساً من (فكرة الأسرة) وعلى أساسها تم توحيد البلاد فى دولة متماسكة تمتد جنوباً من النوبة حتى البحر المتوسط . وعرضا من الحدود الليبية حتى مشارف فلسطين . ويجمع المؤرخون أن نشأة الحكومة المصرية فى ذلــك التاريخ البعيد تعد أول تجمع إنسانى معروف يضم ملايين الناس ، ويشكل مســرحاً اجتماعياً ، خرج فيه الإنسان منتصراً من كفاح طويل مع قوى الطبيعة ليبدأ كفاحه الشاق مع نفسه ، وهو الكفاح الذى ما زال مستمراً حتى اليوم .

أمــا الفكرة الرائعة الثانية التى توصل إليها أجدادنا القدماء فكانت (فكرة الديــن). ومــن الطبيعى أن الدين لا ينشأ ويتطور إلا فى ظل حكومة مستقرة ، وبعد أن يكون الإنسان صاحب المتطلبات الطبيعية قد نظمها وفرغ منها. وعندما تلفّـت المصــرى القديم حوله وفوقه وجد أن أكبر قوتين تمنحانه الخيرات هما الشــمس والنــيل ، لذلك فقد راح يصوغ حولهما الكثير من معتقداته الشخصية والاجتماعية ، وكان أجمل ما توصل إليه فى هذا المجال : (فكرة خلود النفس) ، و (فكــرة البعــث بعــد الموت) . ولا شك أن الفكرة الأخيرة هى التى دفعته إلى تحنيط الجسد ، وصنع التوابيت الحصينة ، وتشييد المقابر الضخمة والأهرامات لحفظ الجسد إلى حين عودة الروح إليه من جديد.

ومــن المؤكــد أن أى نظام أخلاقى لا يمكن أن يقوم ويستقر إلا إذا آمن المجــتمع الذى يتبناه بفكرة البعث بعد الموت ، وإلا أصبح هذا النظام الأخلاقى فارغاً من المضمون . لأن القانون الوضعى للحكومات هو الذى يختص بالمجازاة علــى الأعمال والأقوال ، أما حساب النوايا وما يجول فى الضمير فهو من شأن خــالق الأرض والسماوات ، المطلع على خبيئة كل إنسان . وهذا من أروع ما توصل إليه أجدادنا حتى قبل أن يصل إليهم أى دين منزل من السماء .

تحــية لبناة حضارتنا المصرية القديمة ، ودعوة عاجلة لدمجها فى ثقافة المجتمع المصرى المعاصر.

حقوق المشاة

كــثرت أعــداد الســـيارات فى المدن كثرة هائلة ، ساعدت عليها عوامـــل متعددة منها ارتفاع القدرة الشرائية لدى الطبقة المتوسطة فى المجتمع ، وإنشاء الطرق الجديدة ، وسفلتة الطرق القديمة ، كما أننا لا ينـــبغى أن نغفـــل عـــن دور الإغراءات التى تقدمها شركات السيارات للمشترى ، والغزو الآسيوى للسوق بسيارات جميلة المنظر، ورخيصة الثمـــن . وهكـــذا اكتظت المدن المصرية بالسيارات ، وخاصة العاصمة التى لا تكاد توجد فيها " حارة سد " إلا وهى مليئة بالسيارات المركونة. وقد اعترف لى أحد خبراء المرور بأن المشكلة لم تعد فقط صعبة الحل، بـــل مستحيلة ، لأن الشوارع نفسها تحولت إلى جراجات . والواقع أن هـــذا الأمر لا يختص بالقاهرة فحسب ، بل إننا نجده فى باريس وروما ولـــندن . . لكن يبقى أن المشاة ، الذين لا يستخدمون السيارات ، يظل من حقهم أن يسيروا فوق رصيف مخصص لهم ، أو يتجولوا فى أماكن لا تدخلهـــا الســـيارات . وقد شاهدت فى بعض مدن العالم نماذج لذلك ، فعـــندما يجدون أن منطقة ما تزدحم بالمشاة يقومون على الفور بإعادة تخطـــيطها مـــن أجل المشاة فقط ، بحيث يحظر على السيارات الدخول إلـــيها ، أو العبور فيها . وقد قامت إدارة مرور القاهرة مشكورة بشئ مـــن ذلك فى منطقة الألفى ، وشارع الشواربى ، لكنها لم تفعل ذلك بعد فـــى شـــارع السكة الجديدة أو الموسكى مثلاً . وبجوار مسجد الحسين

شـــوارع ضيقة تسير فيها السيارات على هواها فتزعج المارة ، ومنهم سائحون يحتاجون إلى قدر من الهدوء لكى يتأملوا الأماكن والمحلات ، ويشتروا من البضائع المعروضة .

وهـــناك بضـــع أصحاب العمارات قد تجردوا من مراعاة مشاعر الآخريـــن ، فجهـــزوا مداخـــل عمـــاراتهم بحيث تصبح ممرات سهلة لســـياراتهم ، وتســـببوا بذلـــك فى تقطيع رصيف الشارع تقطيعاً يؤذى المشـــاة ، الذيـــن يضـــطرون إلى النزول إلى نهر الشارع ، فيعرضون حياتهم للخطر !

أما الشكر كل الشكر فهو لكل من محافظتى القاهرة والجيزة التى أزالت من فوق كورنيش النيل ما كان يعوق حركة السير عليه ، فجعلت منه ممشى للناس ، وخاصة أولئك الذين يرغبون فى تحسين صحتهم ، والتخلص من مشاكل الدهون ، ومتاعب القلب .

وهكـــذا نظل فى حاجة مستمرة لتخصيص أماكن محددة للمشاة ، ســـواء فى الطرق ، أو على شواطئ النيل الخالد ، وكذلك على شواطئ الـــبحار الـــتى تحيط بمصرنا الغالية . أما أن نمد الطرق فقط للسيارات والباصـــات والشاحنات دون اعتبار للمشاة فهذا ما ينبغى على مهندسى الطرق ، ومنظرى التخطيط العمرانى – وهم كثير عندنا – أن يتجنبوه ، من أجل بيئة يتقاسم فيها الحقوق كل من راكب السيارة ، والماشى على قدميه .

حقيبة المدرسة

أذكر أننى من التلاميذ الذين كانوا يحملون كتبهم إلى المدرسة فى مخلاة ! وأشرحها لتلاميذ اليوم فأقول إنها عبارة عن كيس من القماش المتين ، يشبه قماش الستائر ، وتمتد منه حمالتان لكى يسهل على التلميذ تعليقها فى كتفه . . وكانت المخلاة لا تقتصر فقط على حمل الكتب والكراسات والأقلام والممحاة ، بل إنها كانت تتسع أيضاً لوضع طعامى الإفطار والغذاء جنباً إلى جنب مع أدوات العلم ووسائله . .

المهم فى الموضوع أن الجدول الدراسى بالمدرسة كان منضبطاً إلى حد كبير ، فمن الثابت أنه فى يوم السبت مثلاً توجد الحصص التى تتطلب كتباً معينة ، وفى يوم الأحد كتب أخرى . وهكذا لم نكن نحمل فى المخلاة إلا الكتب المقرر دراستها فى نفس اليوم . وبالطبع كان هناك عقاب مدرسى للتلميذ الذى لا يحضر معه كتب اليوم المحدد . .

ثم دار الزمن ، وتطورت المدرسة كثيراً ، وحلّ محل المخلاة : حقيبة بلاستيكية أو جلدية فخمة الصنع ، وطبعاً غالية الثمن ، وفيها أصبح مطلوباً من التلميذ أن يحمل –رائحاً وغادياً من المدرسة– " كل "

الكتب والكراسات والأدوات بدون استثناء. لماذا ؟ لأن الجدول المدرسى غـــير منضـــبط ، فمن الممكن أن تكون هناك حصة عربى يتم إلغاؤها وتحـــل محلها حصة رياضيات ، ولذلك أصبح يقال للتلميذ : ضع كل كتبك فى حقيبتك حتى تكون دائماً على أهبة الاستعداد لإخراج أى كتاب يطلب منك فى حصة مفاجئة ! !

بالطبع ثقلت حقيبة المدرسة على أكتاف التلاميذ ، وأصبحت تمثل عبـــئاً يمكـــنه أن يـــؤذى فقـــرات ظهورهـــم ، ويســـبب لهم آلاماً فى الغضاريف، وصار التلاميذ ، الذين كانوا يسرعون خفافاً إلى المدرسة ، يسيرون إليها متثاقلين متباطئين ، ويخرجون منها متهالكين ومنهكين..

كـــان الله فـــى عون تلاميذ اليوم ! فعليهم أن يحملوا " أسفاراً " ضـــخمة ، وأن يحفظـــوا معلومـــات ومعلومات . . ومطلوب منهم فى الامتحان أن يعيدوا – بدون تفكير – ترديد ما حفظوه ، حتى يحصلوا على أعلى المجاميع ، ويدخلوا ما يسمى بكليات القمة . ولاحظوا معى : كيف يصعد هذا التلميذ ، الذى أثقلته حقيبة المدرسة ، إلى القمة ؟ !

حوار حول مجانية التعليم

قـــال لـــى أحـــد خبراء التعليم الأجانب : أرى أنكم ما زلتم متمسكين بمجانـــية التعلـــيم، وهـــى قد ألغيت من كل بلاد العالم ، حتى البلاد المتقدمة أصـــبح التعلـــيم فيها بمصروفات . صحيح أن بعض الدول تساعد وتدعم ، ولكن الدعم لا يصل أبداً إلى حد المجانية الكاملة ، وذلك لسبب بسيط هو أن تكلفـــة التعلـــيم قـــد زادت زيادة رهيبة فى السنوات الأخيرة ، ولم تعد هناك ميزانـــية فى أى دولة تتحمل القيام بها ، لذلك لابد لمن يريد أن يحصل على خدمة تعليمية متميزة أن يدفع مقابلها أو ما يقرب من مقابلها ، مع استمرار المـــنح المجانية طبعاً للمتفوقين والمتميزين، قل له: لكنك تنسى أننا بلد نام، وأنـــنا قـــد تعرضنا طويلاً لفترات ركود واستعمار ، لم يكن يوجد فيها تعليم مدنـــى حديـــث ، لذلك عندما فتحت أبواب التعليم أمام أبناء الشعب المصرى أقـــبلوا عليه بحماس شديد ، ولعلك تلاحظ أن الجامعات لدينا تستقبل فى كل عام ما يزيد عن ثلث مليون شاب وفتاة ، كل واحد منهم يرغب فى استكمال تعليمه العالى . قاطعنى الرجل قائلاً : وتلك هى مشكلتكم لأن نظام التعليم فى أى بلـــد لا يصـــعد منه إلى الجامعة سوى عدد قليل يشبه رأس الهرم ، أما الغالبـــية فإنهـــا تكـــتفى بالتعليم المتوسط والفنى الذى يؤهل الشاب لمختلف الأعمال فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة . وقد سمعت أن هذا النظام كـــان موجـــوداً عـــندكم ، ولكنه بدأ يتهاوى نتيجة فتح أبواب الجامعات أمام المتخرجيـــن مـــنه ، مـــع أن هؤلاء هم الذين ينبغى أن يمثلوا عصب العمل الـــيدوى والحـــرفى ، والـــذى لا يقـــل قيمة وراتباً عن العمل المكتبى الذى يمارســـه خـــريجو الجامعـــات ، قلت له : لكن مجتمعنا ما زال ينظر لخريج الجامعة نظرة تقدير واحترام لا يحظى بمثلها خريج الدبلومات الفنية ، حتى

أنــك إذا ســألت فــتاة مخطوبة عمن تقدم إليها أجابتك بفخر : بكالوريوس هندسة ، أو ليسانس حقوق ، بدلاً من أن تقول لك ماذا يعمل ، أو أين ؟ قال الــرجل : هكــذا تدخلــون مع الأسف اعتبارات اجتماعية عارضة فى البناء التعلــيمى الخــالص الــذى ينــبغى أن يعلــو بثبات لتحقيق التنمية البشرية الصحيحة ، والتى سوف تعود فائدتها على الحياة الاجتماعية ذاتها .

انــتهى حديثنا عند هذا الحد ، لكن الذى لم أذكره للخبير التربوى أننا إذا لمسنا قضية مجانية التعليم فإن العديد من الأصوات سوف ترتفع قائلة : إن التعليم حق كالماء والهواء . هكذا أعلن طه حسين منذ أكثر من خمسين عامــاً . كذلك فإن مبدأ تكافؤ الفرص يقضى ألا نحرم طالباً من التعليم بسبب ظــروفه الاجتماعية . والواقع أن هذا صحيح ، وأن قوانيننا ينبغى أن تنبع مــن واقعنا . لكن الذى يمكن مناقشته هو أنه لكى ننهض بالعملية التعليمية علــى خير وجه لابد أن نوفر لها إمكانياتها البشرية والمادية ، وقبل كل ذلك ومعه توفير التمويل اللازم للارتقاء بمستوى الأبنية ، والمعامل ، والأجهزة العلمــية والمعملــية إلــى جانب إنشاء وصيانة الملاعب الرياضية ، والمدن الجامعية ، ومن المؤكد أن تكلفة الطالب فى الاستفادة من كل هذه الإمكانيات تــتزايد باستمرار ، ومهما أنفقت الدولة من مبالغ طائلة على التعليم – وهى بــالفعل تقــوم بذلــك – فإنها لن تستطيع المواصلة ، أو حتى الحفاظ على المســتوى المطلوب ، ويبقى أخيراً أننا موافقون على مبدأ تكافؤ الفرص فى المجانــية ، لكن السؤال الذى يطرحه البعض دائماً : وماذا عن الطالب الذى يرســب ، ويعيد السنة أكثر من مرة ؟ ثم السؤال الأهم : كيف نجعل الأسرة المصــرية تتمــتع بمجانــية التعليم التى تضمنها الدولة، دون أن تنفق مالا يعلمه إلا الله . . على الدروس الخصوصية ؟

حماية اللغات

تعتـــبر اللغـــات من أهم العناصر المكونة لشخصية المجتمع . كما يعد تمســـكه بها مؤشراً على مدى حرص المجتمع على تماسكه الوطنى واعتزازه بشخصـــيته بين سائر المجتمعات . وبالطبع لا يعنى حرص المجتمع على لغته انغلاقه عليها ، بحيث لا يتعلم لغات أخرى ، بل إن معرفة اللغات الأجنبية يؤكد اللغـــة القومـــية ويدعمهـــا . . بل إنه يثريها ويجعلها أكثر تدفقاً وحيوية . وهناك بعض المجتمعات تتعدد فيها اللغات مثل سويسرا دون أن يفقد المواطن السويســـرى شـــيئاً من هويته ، كما أن الألمان يجيدون إلى جانب لغتهم اللغة الإنجليزية ، ولم يقل أحد فى يوم من الأيام إن الألمان غير متماسكين لغوياً أو وطنـــياً . وفى تاريخنا القديم ، كان الكثير من علماء العرب وأدبائهم يجيدون إلى جانب اللغة العربية اللغة الفارسية .

ومن المشهور فى العالم أن الفرنسيين من أحرص الشعوب على لغتهم ورغبـــتهم فى ازدهارها داخل بلادهم ، وكذلك فى مختلف أنحاء العالم . و مع ذلـــك فقـــد اضطروا أخيراً إلى تعلم اللغة الإنجليزية باعتبارها حالياً هى اللغة العالمية . وفى اجتماع شيراك وبلير الأخير قرر الرئيسان أن يتم تعليم كل من اللغـــة الفرنسية واللغة الإنجليزية فى كلا البلدين كعلامة على حسن الجوار ، وإنهاء لتاريخ طويل جداً من العلاقات المتوترة بينهما .

وقـــد أدهشـــنا ذات يـــوم قرار فرنسا بعدم استخدام أى لغة أجنبية فى مؤتمـــراتها العلمية ، والاقتصار على اللغة الفرنسية وحدها ، وهو الأمر الذى ضايق كثيراً من العلماء الذين لا يجيدون سوى الحديث بلغات بلادهم الأصيلة. وأذكـــر أنـــنى عـــندما كنت أدرس فى فرنسا خلال السبعينات ، كنت ألاحظ أن المـــرأة أو الرجل الفرنسى لا يجيب عليك إذا طرحت عليه سؤالاً أو استفساراً باللغة الإنجليزية ، بينما يسمح لك أن تتلعثم بالفرنسية لكى يجيب عليك بها .

وفـــى روســـيا ، وريـــثة الترسانة النووية الهائلة فى الاتحاد السوفيتى الســـابق ، طالـــب نواب البرلمان فى اجتماع حديث جداً عدم استعمال الكلمات الدخـــيلة علـــى لغـــة الـــبلاد ، وذلك من خلال قانون لغة الحكومة الفيدرالية الروسية . وتبنى النواب مشروع هذا القانون اللغوى بعدما تمت قراءته لثلاث مـــرات ، ومـــن أهم بنوده منع استخدام الكلمات الدخيلة التى لها مرادف فى اللغة الروسية . وحدد القانون على كل من يستعمل هذه الكلمات غرامة مالية، وفـــترة ســـجن تـــتراوح بين 15 يوماً وشهرين . تصور ! ! كما منع القانون أيضـــاً اســـتعمال الكلمـــات المسيئة للأعراف والأجناس والطبقات الاجتماعية والمعتقدات الدينية والسياسية .

مـــاذا يعـــنى هذا ؟ أن المجتمعات تزداد تمسكاً بلغاتها ، وأن أسطورة العولمـــة الحديـــثة سوف تزيد من الشعور بالقوميات على عكس ما قيل إنها تلغـــيها . ثم يبقى أمر هام جداً ، وهو أن لغة الإنسان هى عنوانه ، تماماً كما يعتبر ملبسه ومظهره دليلاً على شخصيته . بل إن اللغة هى الأكثر تعبيراً عن شخصـــية أى إنسان ، وبها يمكنه أن يترقى فى السلم الاجتماعى ، وينجح فى حياته العملية . فالتاجر الشاطر هو الذى يقنعك من خلال لغته بشراء السلعة ، والسياســـى الـــناجح هـــو الـــذى يحدث الجماهير فتثق فى كلامه ، والمدرس المتمـــيز هو الذى يشد التلاميذ بحسن بيانه ، والمحامى البارع هو الذى يقنع المحكمـــة بـــروعة دفاعـــه ، بل أن صاحب الحاجة إذا أجاد عرضها أمكنه أن يحققهـــا لـــدى المسئولين . ولعلنا نذكر الفلاح الفصيح فى مصر القديمة الذى وصلت شكواه إلى فرعون نفسه ، بسبب ما احتوت عليه من فصاحة وبلاغة.

فهـــل يمكن بعد ذلك كله أن نعيد الاعتبار إلى لغتنا العربية ، بدءاً من اعتزازنا بها ، وانتهاء بحسن استخدامنا لها . أرجو ألا يتأخر ذلك كثيراً .

حلم ليلة خريف

رأيت فيما يرى النائم أننى صحوت ذات صباح ، فسحبت الجريدة مـن تحـت بـاب الشقة لأجد على صفحتها الأولى العديد من العناوين الملونـة ، أكـبرها يقول (الوحدة العربية تتحقق) ثم تحتها ببنط أقل : (قيام السوق العربية المشتركة، توحيد العملة بين جميع البلاد العربية – تفعـيل دور مجـالس الشعب والشورى فى البلاد العربية – السفر بين الـبلاد العربية بالبطاقة الشخصية وليس بالبسبور – موقف موحد أمام القضـايا التى تهم العرب جميعاً . .) لم أصدق عينى ففركتها أكثر من مـرة ، وغسـلت وجهـى بماء بارد ، ثم أعدت النظر فوجدت ما سبق صـحيحاً . ناديـت علـى الـبواب ليحضر لى بعض صحف المعارضة فوجدتـه يقول لى : لا توجد جريدة واحدة عند البائع يا أستاذ.. الجميع اشـتراها . ثـم صـائحاً : هل عرفت ما حدث ؟ أدركت على الفور أن المسـألة جد ، وليس بها هزار . . ورحت أرتدى ملابسى بدون إفطار وأنـا أقول : يعنى الآن سوف تنحل كل المشكلات ، ويبدأ عصر مجيد ، تعـود فيه للعرب المتفرجين الضعفاء مكانتهم بين دول العالم الكبرى ، وكذلـك بيـن مجموعاتـه الأخـرى . وفى الأتوبيس ، سمعت الناس يـتحدثون عـن قـيمة العملـة الموحدة الجديدة وشكلها ، وكيف يتم اسـتبدالها بـالعملات المحلية. قال بعضهم : منذ الآن سوف يصبح لنا صـوت مسموع فى الأمم المتحدة . وعقب شخص آخر : ونطالب بمقعد دائـم فـى مجلس الأمن. وسأل شخص : طيب ، وماذا يفعل العرب فى المشـكلات الثنائية بينهم ؟ أجاب أكثر من شخص : سوف يتم تسويتها

فـــى إطـــار جامعـــة الدول العربية ، التى ستتحول إلى ما يشبه الاتحاد الأوربـــى فى بروكسل ، لكن شخصاً متشائماً سأل : وهل سيكون للبلاد العربـــية كلها رئيس واحد ؟ أجاب عليه جاره : لا يا سيدى . . كل بلد ورئيسها كما هو ، لكنهم سيلتزمون جميعاً بموقف سياسى موحد .عاد فســأل : وموقـــف عســكرى أيضـــاً ؟ ســكت جاره ، ونظر فى عيون الجالســين والواقفيــن ينتظر شخصاً يساعده ، تكون لديه معلومات فى هذا الصدد ، وعندما لم يجد ، استمر فى سكوته ، لكنه عاد فقال : طبعاً عندما يتم الاعتداء على بلد ، سوف تهب جميع البلاد الأخرى لمعاونته. هـــذه مســألة شهامة ومروءة . لكن الرجل المتشائم عاد يسأل : طيب وإذا اعـــتدى بلد عربى على بلد عربى أخرى ، ماذا سيفعلون ؟ بالتأكيد سيقومون بتأديب المعتدى وإعادة الحق للمظلوم . سأل ولماذا لم يفعلوا ذلـــك من قبل ، بدلاً من أن يستدعوا الأجانب ليأخذوا الحق للمظلوم ؟ ! ســكت الجمـــيع ، وأحـــس الكثير منهم أن هذا الشخص يريد أن يفسد عليهم متعتهم بسعادة الوحدة العربية ، فصاح واحد من آخر الأوتوبيس شـــخص : لا تنســـوا يا جماعة أن أموال العرب فى البلاد الغنية سوف تفيض على البلاد الفقيرة ، وينتهى الركود ، ويبدأ الازدهار من جديد . صـــفق جمـــيع الـــركاب ، حـــتى أن السائق نفسه توقف ، وانضم إلى المصـــفقين . . وكنـــت جالســـاً خلفـــه ، فصـــحت فيه أن يعود لقيادة الأوتوبـــيس الذى كان يندفع بسرعة كبيرة ، لكنه لم يستمع لصياحى ، الأمـــر الـــذى جعلـــنى أقفـــز بســـرعة من باب الأوتوبيس وهو يجرى فاصـــطدمت بـــالأرض بشـــدة ، وأحسست بألم شديد فى كتفى وساقى ، وصحوت من نومى وأنا أتحسس مواضع الألم ، وبالفعل كان فيها بعض الروماتزم !

حوار مع خريج جديد

- كيف أنجح فى حياتى ؟
- حدد لى أولاً مفهومك للنجاح ، لعلنى أدلك على الطريق.
- أن تتوافر لى وظيفة محترمة بدخل جيد ، وأتزوج الفتاة التى أحبها. وأسكن فى شقة بحى راق .
- أنت تخلط بين البدايات والنهايات.
- كيف ؟
- لأنك تريد أن تصل إلى الأدوار العليا بدون الصعود على السلالم .
- يعنى ؟
- أنك تريد وظيفة محترمة بدخل جيد ، وهذا تناقض ، فلا توجد مثل هذه الوظيفة إلا فى نهاية حياتك العملية .
- لكنها هى الطريق الذى يضمن لى الزواج .
- وها أنت تريد أن تصل إلى نهاية أخرى بدون مقدمات .
- إذن الموضوع بهذا الشكل مغلق !
- على العكس . أنت الذى تغلقه على نفسك.
- كيف وأنا متفتح على الحياة ، ولدى الطاقة التى تجعلنى أتحدى المستحيل ؟
- حسناً ، ولكن لابد أن تبدأ الخطوة الأولى قبل الثانية .
- ماذا تقصد ؟
- أن تبحث أولاً عن وظيفة . فقط وظيفة ، ثم تحشد طاقاتك للنجاح فيها.
- هل تقصد أن أظل أعمل لسنوات ، من أجل الحصول كل سنة على علاوة

لا تتجاوز حفنة من الجنيهات ؟ !

– إذن لا تبحث عن وظيفة ، وإنما اتجه إلى عمل حرّ.

– العمل الحر يحتاج إلى رأس مال ، وأنا خريج جديد بلا نقود .

– لـيس مـن الضرورى أن تكون أنت صاحب العمل ، اعمل عند شخص آخر، حتى تكوّن نفسك ، وتستقل . .

– هذا يتطلب سنوات . .

– هل رأيت . . إنك تريد كل شئ قبل أن تبدأ .

– لكنك تنسى أن الفتاة التى أحبها لن تنتظر حتى أكون مستعداً لها .

– وهـنا أيضـاً خطـأ آخر . . فلا يكفى أن تحب فتاة لكى تحصل عليها ، المفروض أن تحبك هى أيضاً.

– وما الفرق ؟

– عندما تحبك لن تضيع منك ، بل إنها سوف تنتظرك ، وتساندك.

– ما أصعب الحياة ! !

– أبداً يا بنى . . الحياة سهلة ، ولا يصعبها سوى الإنسان .

– إنـنى لا أرغـب فـى الكثير ، ومع ذلك فإن الطريق مغلق أمام تحقيق القليل.

– أؤكـد لـك أنـه لا يوجد فى الحياة طريق مغلق . . أنت فقط الذى تغلق عينيك عن رؤية الطرق العديدة التى أمامك.

– كيف ، والعصر الذى نعيشه لا توجد فيه نافذة للأمل ؟

– الأمـل يولـد فـى قلبك وليس فى العصر . . حاول فقط أن تبدأ بتحقيق رغباتك البسيطة ، وسوف تحقق ما هو أكبر منها تباعاً . .

– ليتنى أستطيع أن أفعل ذلك !

حول القطار العربى

وصـــلتنى عدة رسائل من السادة القراء حول ما سبق أن اقترحته فى هـــذا المكان ، عن ضرورة إنشاء قطار ، يعبر العالم العربى من أقصاه إلى أقصـــاه ، لـــيكون بذلك أول همزة وصل (حقيقية) يمكنها أن تربط بين البلاد العربـــية ، وعواصمها المتعددة ، ويكون باستطاعته نقل الركاب والبضائع ، وتقريب المسافات الأرضية، وتبادل الثقافات، وامتزاج ما هو قابل للامتزاج بـــالفعل . وقـــد ســـبقتنا أوربا بالطبع إلى هذا العمل ، فأنشأت قطارها الذى يـــربط بيـــن إنجلترا وتركيا عابراً القارة الأوربية ببلادها المختلفة اللغات ، والـــتى كانت متنافرة من قبل ، ولكنها أصبحت كما نرى متقاربة ومتفاهمة وشبه موحدة .

قـــال أحد القراء : فعلاً أنا أتفق معك تماماً فى هذه الفكرة ، لكن قادة العرب لن ينفذوها بسبب الخلافات السياسية القائمة بينهم . وقال قارئ ثان: القطـــار العربى حلم عربى قديم ، وقد كاد يتحقق بين استنابول ومكة ولكن الاســـتعمار هو الذى أفشله . ويقول قارئ ثالث : ليس لدى أى أمل فى مثل هـــذا العمـــل ، لأننا بلاد كلام وبس ! ويقول قارئ رابع : ليتنا انتبهنا لهذا الفكرة منذ خمسين عاماً ، عندما كانت القومية العربية فى بداية قوتها ، أما الآن ، فأنـــت تـــرى أن العقـــيد القذافى نفسه فقد الأمل فى الوحدة العربية واتجـــه إلـــى أفريقيا ! وهناك ثلاث أو أربع وسائل أخرى تؤيد الفكرة بدون تحفظات .

إنـــنى أشكر كل السادة القراء ، الذين تجشموا عناء الكتابة لى ، كما أشـــكر لهم تلك الروح التى برزت عندما نشرت مثل هذه الفكرة ، التى أردت بهـــا فقـــط أن ألفت الأنظار إلى أن حلم الوحدة العربية الشاملة إذا كان من

الصعب تحقيقه فى ظروفنا الحالية، فليس أقل من أن نتمسك ببعض الخيوط الـــتى تربط العالم العربى على نحو صحيح ومتين . وإذا كان الإعلام بقنواته العابـــرة للحـــدود أصـــبح يمثل إحدى الروابط الهامة بين الشعوب العربية ، فلابد أن ندعم تلك الرابطة بما هو أمتن وأبقى . صحيح أن الخطوط الجوية (الطائـــرات) والـــبحرية (السفن) تربط البلاد العربية بشبكة متماسكة، ولكن (القطـــار) أكثر أهمية ، وأعمق أثراً فى التقارب المنشود بين تلك الشعوب . فالقطـــار كان وسيظل هو وسيلة الاتصال الأرخص ثمناً ، والأضخم استيعاباً مـــن الطائرة والسفينة . وميزته أنه يعبر الصحارى والمزارع ، ويمر على البحـــيرات والأنهـــار ، ويمكن أن يخترق الجبال من خلال أنفاق ، ويستطيع راكـــبه أن يستوعب المكان ، وأن يتواصل مع ساكنيه ، كما يمكنه أن ينزل فـــى محطاته المتعددة ليتزود بما يريد . إذن قبل أن نتحدث عن وحدة عربية كـــبرى ، أو اتحـــاد عـــربى علـــى غـــرار الاتحاد الأوربى ، أو حتى وحدة اقتصـــادية عامـــة أو جزئـــية ، يمكننا أن نمهد بهذا الشريط الحديدى كالذى تجـــرى علـــيه عجـــلات القطار ، وأستطيع أن أؤكد أنه لا حدود للفائدة بل الفوائد التى يمكن أن تجنيها البلاد العربية التى يمر بها مثل هذا القطار .

إن القطـــار العربى كما أتصور الآن ، وبعد أن استنفدت من ملاحظات الســـادة القـــراء ، يتطلب ثلاثة عوامل أساسية ، أولها إرادة سياسية تتبناه وتدعمـــه ، ثانياً تكنيك متطور يبدأ من حيث انتهى الآخرون ، وأخيراً تمويل مشـــترك أؤكد أنه لن يضيع هباء ، ولكنه سيعود على أصحابه بأفضل عائد ممكن فى أسرع وقت .

أتمنى أن أرى ذات يوم قريب هذا القطار العربى ، وهو يقطع المسافة بيـــن مختلف العواصم العربية فى ساعات محدودة ، وحينئذ لن نكون بحاجة إلى أغنية لمطرب يسأل قائلاً : يا وابور قل لى رايح على فين ؟

رش الشوارع

يقال فى الأمثال المصرية أن رش الماء عداوة . والمقصود رشّه علـــى شخص ، مع أننى لا أعرف تماماً لماذا يكون هذا الفعل عداوة ، مـــع أنـــه فى الصيف بصفة خاصة يمكن أن يخفف من حرارة الجسم ، ويرطب البدن ؟ المهم ليس هذا هو الموضوع ، وإنما الذى ألاحظه هو قـــيام أصحاب المقاهى ، والمحلات وأحياناً أصحاب البيوت برش الماء فـــى الشوارع التى أمامهم ، وبالطبع هم يهدفون بذلك إلى أمرين : أولاً ترطيـــب المكان وخاصة فى الصيف ، وثانياً إخماد التراب حتى لا تثيره الأرجـــل العابرة . . وبالطبع كلنا يشاهد (الخراطيم) التى تستخدم فى هذا العمل ، وكمية المياه – المقتطعة من مياه الشرب – اللازمة لذلك .

مـــن المؤكد أن الذين يقومون بهذا العمل (الأهوج) لا يدركون مـــدى حاجـــة المجتمع إلى كل قطرة ماء ، ولا يستشعرون حجم الخطر الـــذى تتوقعه المنطقة العربية كلها فى السنوات المقبلة من قلة موارد المياه ، وارتفاع ثمنها ، حتى يقال إنها سوف تعادل سعر البترول ، بل إنها قد تعلو عليه !

إن المـــاء هو الحياة . وبالتالى فإن الحفاظ على الماء يعد حفاظاً علـــى الحياة ، وصيانة لها . لذلك ينبغى – وعلى الفور – أن يمارس

السادة المحافظون سلطاتهم فى منع هذا التبذير فى مياه الشرب ، الذى يلقى فى الشوارع بدون حساب ، وكل الغرض منه أن يرطب الجو أمام الجالسين على المقاهى ، أو يمنع التراب المتناثر . وأقول لنفسى : بدلاً مــن أن يكــرر هؤلاء رش المناطق التى أمامهم فى الشارع يمكنهم أن يقوموا بإزالة التراب منه ، أو يعملوا على رصفه بالتعاون مع بعضهم الـبعض ، خاصة ، فى حالة عجز البلدية ، وبذلك فإنهم يساهمون فى نظافة البيئة المحيطة بهم ، وتنقية الهواء الذى يتنفسونه . .

وإنــه فعــلاً لأمــر عجيــب . أن يترك الناس التراب يتراكم فى شــوارعهم ، ويظلون – بدون نهاية – يقومون برشّه ، ويذكرنى ذلك بأسطورة تسمى أسطورة سيزيف . وفيها حكمت آلهة الإغريق القديمة علــى ســيزيف الإنسان عقاباً له على إفشاء الأسرار بأن يحمل صخرة علــى كتفيه ، ويصعد بها تلاً ، فإذا وصل إلى قمته ، نزل من الناحية الأخرى ، ويظل يكرر الصعود والهبوط بدون نهاية . .

وهكذا يبدو لى رشاشو الشوارع بالماء ، الذى عالجته الدولة لكى نشــربه، والفارق الوحيد بينهم وبين سيزيف أنهم هم الذين أنزلوا هذا العقــاب بأنفســهم . . بعــد أن تركوا الأتربة تملأ الشوارع التى أمام ممتلكاتهم ، ثم راحوا يرشونها بالماء كل يوم !

رأيت فيما يرى القارئ

أستأذن القارئ العزيز أن أستبدل بالتعبير المشهور ، والذى أحبه فعـلاً (رأيت فيما يرى النائم) ذلك التعبير الآخر الذى جعلته عنواناً لهذا المقـال ، معـتمداً على أن الذى يقرأ يرى أكثر بكثير مما يرى النائم، كذلك فإنه يرى شيئاً ملموساً يستطيع أن يتأكد منه المخاطبون ، بخلاف الـنائم الذى يظل ما رآه خاصاً به وحده. كذلك فإننى أفتح بهذا التعبير مجالاً واسعاً للكتابة عما يقرأه الإنسان ، ويعجبه أحياناً ، ثم يظل حبيس ذاتـه ، أو مقصـوراً على عدد قليل جداً من أصحابه ، فى حين أننا لو نشـرناه لأتـاح لنا الفرصة لتعميم فائدته على كثيرين . . وأخيراً فإن التعبـير الجديـد يتضمن رواية الحقائق والخيال معاً ، بينما يقتصر ما يـرويه الصاحى من النوم على الخيالات فقط. لهذه الأسباب كلها ، فقد نويـت (مجـرد نية) أبدأ سلسلة من المقالات التى أحاول فيها أن أقدم بعـض ما أقرأه ، وأجد فيه شيئاً من الفائدة أو المتعة أو التسلية التى أحسسـت بمـثلها عند القراءة أو بعدها . ولأننا فى هذا العصر ، الذى يطلـق عليه بحق عصر الصورة المتحركة ، لم نعد نقرأ كثيراً ، أقصد قـراءة الكتـب المطولـة أو المتعمقة أو المتخصصة ، وأصبحنا نأخذ المعلومـات والثقافة من التليفزيون وبعض الجرائد والمجلات ، فسوف يكـون مـن المفـيد أن تظل هناك قناة موصولة بين تلك الكتب وبين

الإنسان فى العصر الحديث ، وذلك من خلال تبسيط محتوى تلك الكتب ، وتقديمهـا بصـورة سـريعة وجذابـة ، لعـل وعسى أن تجذب بعض المهتمين فيرجعوا إليها .

وقـد صـارحنى أحد الأصدقاء إنه لم يقرأ كتاباً واحداً خلال العام الماضى. وعندما سألته: وكيف استطعت أن تتحمل ذلك ؟ أجابنى : إننى أصـبحت مـن مشاهدى التليفزيون ، وأحياناً أسمع الراديو ، وخاصة عـندما أكـون فى السيارة ، وفى آخر اليوم إذا كان لدى بعض الوقت ألقـى نظـرة خاطفة على جريدة أو اثنتين من جرائد اليوم . وأؤكد لك أنـنى لا أتصـفح المجـلات إلا عند الحلاق ، أو لدى طبيب الأسنان . والواقـع أن صـديقى هذا إنسان عصرى ، أى أنه يعيش زمانه لحظة بلحظـة ، وفـى تصـورى أن مثله مثل الكثيرين ، الذين لا ينبغى أن نلومهـم فـى شـئ ، ويبقى علينا أن نساعدهم بتقديم بعض التجارب والمختصـرات المعرفـية لهم من خلال مقالات سريعة وخاطفة . وهنا بالمناسبة لابد أن أوجه أنظار السادة الكتاب أصحاب المقالات الطويلة، والطويلة جداً ، إلى أن العصر الحاضر لم يعد يحتمل مثل هذا التطويل . وقد تابعت بعضهم فوجدت القراء يعجبون بهم فى البداية ، ثم لا يلبثون أن يهجـروهم بعـد ذلـك . لهـذا فإننى أدعو إلى الكتابة المختصرة ، والمقـالات القصيرة . . وليقل كل كاتب كلمته ويمضى . . حتى يفسح الطريق لغيره . ومن الثابت والمؤكد أن خير الكلام . . ما قل ودل .

دولتان لا محالة

إن عـــاجلاً أو آجلاً ، فسوف تقوم دولة فلسطين إلى جانب دولة إســـرائيل . وبالتالى فإن كل ما تفعله هذه الأخيرة من مماطلة ، وتهرب مـــن تنفـــيذ قرارات الشرعية الدولية ، ثم من ممارسات عدوانية بشعة على الشعب الفلسطينى ، ومحاولات يائسة لإخماد روح المقاومة فيه – سوف يذهب أدراج الرياح ، ولن يتبقى منه سوى الذكريات المؤسفة ، والـــتى لـــن تـــزول سريعاً وبسهولة من نفوس النساء اللاتى ترملن، والأبناء الذين أصبحوا أيتاماً .

لـــم يكـــن مـــن السهل أبداً أن تعترف الولايات المتحدة الأمريكية المـــنحازة دائمـــاً إلى إسرائيل بضرورة وجود دولتين فى تلك المنطقة المشـــتعلة ، والتى أضاء شرارتها الحقيقية أطفال الحجارة ، ثم تحولت إلى انتفاضة باسلة من كل أبناء الشعب الفلسطينى، بذلوا فيها أرواحهم، وضـــحوا بأمـــن واســـتقرار بـــيوتهم ، وفقدوا فيها منازلهم وتجارتهم وأعمالهم .

لقـــد أسقطت المقاومة الفلسطينية كل أقنعة الزيف والخداع التى عـــاش الإســـرائيليون ومـــن خلفهم الصهيونية العالمية ، تضعها على وجوههـــم ، زاعمين للعالم كله أنهم شعب يريد السلام ، وأن العرب من حولهـــم هـــم الذين يدقون طبول الحرب . وإذا كان الإسرائيليون فيهم بعض الأذكياء ، فقد خانهم ذكاؤهم هذه المرة ، لأنهم لم يضعوا اعتباراً

لتطور وسائل الإعلام ، التى استطاعت أن تنقل بالصوت والصورة وعلى الهواء مباشرة ما يرتكبونه من مجازر ، جعلت الكثيرين فى الغرب يصفونها بأنها " نازية جديدة " أى أنهم أصبحوا مجرمين فى حق الإنسانية ، وتعالت الأصوات مطالبة بمحاكمة قادتهم السياسيين والعسكريين معاً فى محاكم العدل الدولية .

لقد جعلتنا إسرائيل نعيش ليلاً كئيباً طويل الساعات ، بسبب تعنتها وغطرستها وخروجها عن كل ما تعارف عليه العالم من مبادئ ، وما وصلت إليه الإنسانية من تقدم . ولكن إسرائيل لن تخرج من إطار القوانين التاريخية ، والتى تقرر أن (وصول العدوان إلى ذروته يؤذن بنهايته) وأن (الاعتماد على القوة العسكرية وحدها لن يسكت أبداً أصحاب الحق من المطالبة به) وكل الدلائل تشير إلى ذلك ، فقد كان شعب فلسطين بالأمس القريب ملقى فى هامش اهتمام العالم فأصبح اليوم فى بؤرته ، وكان لا يحظى إلا بدعم بضع البلاد العربية ، فأصبح اليوم فى قلب كل عربى من الخليج إلى المحيط ، بل إنه بصموده المتواصل أجبر أصدقاء إسرائيل إلى نقدها وكانوا بالأمس لا يجرأون على أن يوجهوا إليها كلمة عتاب !

إننى على ثقة من أن النهار كما يخرج من الليل ، فسوف يخرج الشعب الفلسطينى من محنته الحالية ، وهو أقوى وأصلب وأقدر على مواصلة الحياة الحرة الكريمة.

حول تطوير التعليم

يحسب كثير من الناس أن تطوير التعليم يتكون من إجراء يبدأ من قرار ، ويمكن أن ينفذ فى مدة زمنية محددة . وهذا مع الأسف تصور خاطئ. لأن التطوير عبارة عن عملية مستمرة يمكن أن تتم يومياً ، بل فى كل حصة أو محاضرة ، كذلك فإن التطوير عمل ممتد طالما كان هناك تعليم على ظهر الأرض . ولكى يتضح ذلك نقول أن التعليم ليس إلا جزءاً من تكوين الأفراد ، وخاصة فى سن الطفولة والشباب ، لكى يتزودوا بكمية من المعلومات والمعارف ، ويتدربوا على استخدام مجموعة من الأساليب والمناهج التى يمكن أن يطبقوها بعد ذلك فى حياتهم العملية .

وإذا كانت العادة قد جرت فى كل بلاد العالم أن يخصص للتعليم أماكن أساسية معينة مثل المدارس والجامعات ، فإن التطورات الحديثة التى نتجت عن ثورتى الاتصالات والمعلومات ، قد بدأت فى سحب الأهمية من تلك الأماكن الأساسية التى لن يصبح لها فى المستقبل نفس الدور الحاكم فى عملية التعليم . ولعلنا بدأنا نلاحظ نشأة وانتشار أشكال أخرى من التعليم تختلف عن النظام التعليمى التقليدى فى المدرسة والجامعة مثل (التعليم عن بعد) الذى لا توجد فيه ضرورة لجلوس التلميذ أمام المدرس فى الفصل ، طالما أنه يستقبل عن طريق الوسائط الإلكترونية الحديثة كالفيديو والإنترنت كل ما كان المدرس يريد أن ينقله إليه وهو فى الفصل .

ولا يقتصر التطور الذى بدأ يلحق بالتعليم على الشكل وحده بل إنه تطرق أيضاً إلى المحتوى والمضمون . فبعد أن كان حجم المعلومات التى يحصلها الطالب وحسن استذكاره لها وقدرته على إعادة عرضها كما هى – مقياساً لنجاحه وتفوقه ، حل محل هذا المقياس التقليدى مقياس آخر جديد ،

يتمـــثل فى قدرة الطالب على حسن التصرف أمام مشكلة جديدة ، ومحاولته الخاصة فى التوصل لحلها . وهذا بالطبع دفع مصممى البرامج التعليمية أن يركزوا على طرق البحث عن الحلول المحتملة والمعلومات الجديدة ، بعد أن كان كل همهم هو تقديم أكبر حشد من الأجوبة الجاهزة، والمعلومات الثابتة.

فـــى كـــل يـــوم يحدث جديد ، وعلى التعليم أن يكون مستوعباً لذلك ، وســـريع الاســـتجابة له . وهـــذا ما يلقى على أهله مسئولية صعبة للغاية . فالمعلومات المكتوبة تصبح عديمة القيمة عند ظهور معلومات أخرى أحدث مـــنها . وتفسير الحقائق العلمية أو الأحداث التاريخية التى تقدم للطلاب لابد أن يـــتطور بـــتطور النظريات الجديدة ، والرؤى الأكثر حداثة ، ولابد للتعليم التقلـــيدى أن يـــراعى ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة من تحليلات قد تكون أكـــثر معقولـــية مما يوجد فى بطون الكتب ، أو حتى فى الوسائل التعليمية التى أصبحت هى الأخرى قديمة .

وقـــد أحســـنت كـــل من وزارتى التعليم العالى ، والتربية صنعاً حين أصـــبح لها قنواتها التلفزيونية الخاصة بها ، لكى تقدم عليها بعض برامجها التعليمـــية التى تساعد الطلاب والتلاميذ على ملاحقة التطور العلمى الذى لا يحســـن عرضـــه إلا من خلال الصورة المتحركة ، وليس عن طريق الكلمة المطبوعة وحدها .

ويـــبقى مـــن المهـــم ، أن تطوير التعليم لا ينبغى أن يحدث فى إطار محلـــى ، مغفـــلاً مـــا يحدث من تجارب فى الدول الأخرى . فلابد أن تكون القـــنوات بيـــن مراكـــز تطوير التعليم عندنا مفتوحة على مثيلاتها فى البلاد المتقدمة حتى نضمن التواصل المنشود بين الطالب المصرى وزملائه فى كل أنحاء العالم .

رقابة أكثر وعياً

نشرت إحدى مجلاتنا القومية تحقيقاً صحفياً عن تباطؤ البنوك فى علاج قضية المتعثرين ، وفيه تم الاعتراف بمدى القصور والتقصير فى أخـذ الضـمانات الكافية من العملاء لقاء ما طلبوه أو حصلوا عليه من قـروض فلكـية . والواقع أننى شخصياً متعجب بل مندهش من كيفية حصـول مـن حصل من البنوك على تلك الأرقام التى تجاوزت الملايين إلـى الملـيارات دون أن تكون تلك البنوك قد حصنت قروضها بصكوك ضـمان تستطيع بها أن تحصل على حقوقها عند تعثر العميل أو هربه خـارج الـبلاد . وذات يوم طرحت السؤال التالى على الأستاذ الدكتور عـاطف عبـيد رئيس الوزراء : إذا كانت هناك قلة منحرفة ومعدومة الانتماء قد استولت على الأموال من البنوك ، وهربت بها إلى الخارج ، فمـا هو موقفنا من العاملين فى البنوك ، الذين سهلوا لهؤلاء حصولهم علـى تلك الأموال ، بدون ضمانات كافية أو لازمة ؟ وطبعاً ما زال هذا السؤال يحتاج إلى إجابة ، ليس من الأستاذ الدكتور عاطف عبيد وحده، ولكـن من كل المسئولين عن البنوك ، ولذلك فإننى أدعو إلى ضرورة إنشـاء جهـة رقابية تتخصص فى متابعة أى قرض يصل أو يزيد عن المليـون جنـيه ، بحيث تتم مراجعة أوراقه ، والتثبت من طالبه ، مع الـتأكد مـن واقعية مشروعه وأقصد بذلك وجوده الحقيقى على أرض الواقـع . وقد حدث من فترة أننى كتبت عن الممثلة التى استولت على

14 مليون جنيه لشركة مقرها شقة مستأجرة ، وليست تمليكاً . . كيف حدث هذا؟ وهل ما زال يحدث ؟ لابد من وقفة .

الأمــر المحــير بحــق فى هذا الموضوع أن هؤلاء الأفراد الذين اســتولوا على أموال البنوك وهربوا بها لن يملأ أعينهم غير التراب . فالإنسان يمكنه أن يطمع فيما يسد رمقه ، ثم يزداد طمعاً ليحقق لنفسه بعــض الشــهوات الدنــيوية العابرة ، وكل هذا يمكن أن يتحقق بمبالغ معقولــة ، أمــا الذيــن أخــذوا مئات أو آلاف الملايين فلا أدرى ماذا سيفعلون بها ؟ وهل لديهم يقين بأن أعمارهم ستمتد لينفقوا خلالها كل هذه المبالغ؟

يبقى المقترضون المتعثرون ، وهؤلاء يستحقون الرحمة ، لكنهم لا يســتحقون العفو ، فلابد أن يسددوا ما أخذوه من أموال البنوك لأنها أمــوال المجتمع ، وينبغى أن يتحملوا عاقبة سوء إدارتهم للمشروعات الــتى أنشأوها أو قاموا بتشغيلها على أسس غير صحيحة . وهنا لابد مــن الفحص والدراسة والتقييم . أما المسئولية التى لا ينبغى للمجتمع أن يتســامح فــيها على الإطلاق ، فهى مسئولية العاملين فى البنوك : بــدءاً مــن رئيس مجلس إدارة البنك حتى أصغر عامل فيه . هؤلاء هم موضــع الــتهمة ، وأس الــبلاء الذى ساعد على نزع أموال البنوك ، وســوف أظل – وحدى – أتهمهم ، وأشك فيهم ، حتى يجرى التحقيق القضائى معهم (والله سريع الحساب).

- الذى لم يشاهد (مبنى) عمر أفندى فى شارع الجمهورية محروم من رؤيـــة تحفـــة معماريـــة رائعة الحسن، لا تتكرر كثيراً فى بلادنا . رجاء.. ضعوا هذا المبنى فى قائمة الآثار ، واحفظوه مما حوله من منغصات.
- مبـــنى المحكمـــة الدستورية العليا الذى أنشئ على النيل فى طريق المعـــادى هـــو الآخـــر تحفة معمارية رائعة يستحق عليها المصمم والمنفذ كل التقدير ، ولهما منا كل الإعجاب.
- مبـــنى دار القضاء الإدارى ، وخاصة بعد توسيع شارع فؤاد أصبح يـــرى من بعيد .. فقط يحتاج عنوانه إلى أن يكتب بلون ذهبى حتى يلمع ويتألق . القضاء دائماً يستحق الكثير !
- كوبرى 6 أكتوبر أصبح شرياناً رئيسياً للمواصلات فى القاهرة ، لقد امـــتد إلى مناطق كثيرة ، وأصبح معبراً مباشراً للطريق الصحراوى والـــزراعى أيضـــاً ، ولأماكن أخرى كثيرة . . شكراً لمن فكر فيه ، ولمن تابعه بهذا الجهد الواضح.
- أقـــترح علـــى محـــافظ القاهـــرة أن يقيم سوراً يحجب المقابر عن الســـائرين فى شارع صلاح سالم . . هذا السور ستكون له فائدتان: يوفر إعلانات للمحافظة، ويترك موتانا فى هدوء !

- سبيل أم عباس . . هل تعرفونه ؟ إنه فى أحد الشوارع المؤدية إلى القلعة ، أنشأته تلك السيدة الفاضلة لكى يشرب منه العطشى ماء بارداً ومعطراً ، وخاصة فى أيام الحر . أرجو أن يحظى هو وأمثاله بمزيد من الاهتمام ، وإعادة تذهيب واجهته ، فهو من معالم حضارتنا التى نفخر بها.
- تمثال عبدالمنعم رياض عمل وطنى مشرف ، أتمنى أن يرتفع فى ميدان التحرير تمثال آخر. وإذا كان هناك خلاف ، فإننى أقترح نقل مسلة مصرية إلى هذا المكان الذى لا ينزل سائح فى مصر . . إلا ويمر عليه.
- قبة جامعة القاهرة تحتاج إلى ما تم فى قبة القلعة . . أن يتم طلاؤها باللون الفضى الذى تنعكس عليه الشمس ، فتبعث بأشعتها فى كل مكان ، كما تفعل الجامعة من خلال معاملها ومدرجاتها . .
- لا ينبغى أن نتضايق من شوارعنا الضيقة . فى إيطاليا شوارع أضيق منها . لكن الفارق الوحيد أنها نظيفة . . والمرور بها فى اتجاه واحد .
- أتمنى أن يأتى اليوم الذى أشاهد فيه النيل من أوله إلى آخره مبطناً بالحجارة والأسمنت من الجانبين ، حتى لا نفقد منه قطرة ماء واحدة. . وأيضاً حتى يبدو فى صورة حضارية يستحقها بالفعل !

كـل أولـياء الأمـور يتمـنون أن يـنجح أبناؤهم فى المدارس والجامعـات ، بـل ويدعـون لهـم بالتفوق حتى يحصلوا على أعلى الدرجـات، وهم مستعدون أن يحرموا أنفسهم ويوفروا لهم ما يحتاجون إليه من أجل النجاح والتفوق . وبالطبع هناك تلاميذ كثيرون يستشعرون تلـك الرغبة الأبوية الحانية فيبذلون أقصى جهدهم لكى يسعدوا أولياء أمورهم ، وكثيراً ما نرى تلميذاً يحصل على أحد المراكز الأولى ، وهو يتيم الأب ولا ترعاه سوى أم متوسطة الحال ، لكنها غنية العواطف .

وهناك نوع آخر من التلاميذ الذين لا يحسون بمشاعر آبائهم ولا يسـتجيبون لقلقهم وخوفهم على مستقبلهم . وهؤلاء هم الذين يهملون ويتكاسـلون ولا يـأخذون الأمر مأخذ الجد ، فتتراكم عليهم الواجبات ، ويصـعب علـيهم الفهم والاستذكار ، فيلجأون إلى طلب المساعدة من الـدروس الخصوصية ، ولا يهمهم إرهاق ميزانية أولياء أمورهم ، ولا حتى استدانتهم أحياناً لتوفيرها لهم .

من هنا أقول للتلميذ الذى يريد أن يحقق النجاح لذاته ، والسعادة لأسـرته ، أن يـبدأ أولاً بتنظـيم وقته من خلال تحديد ساعات للنوم ، وأخـرى للعب ، وثالثة للاستذكار . . وفى هذا المجال الأخير لابد أن يضـع جـدولاً تتوزع الكتب المقررة عليه، بحيث يفضل أن يمر عليها مرتين فى الأسبوع . ولكى يفهم كل كتاب على حدة لابد أن يبدأ بقراءة مقدمـته ثـم يسـتعرض الفهرس ليتعرف على الموضوعات الرئيسية والفرعية ، فإذا أمسك بموضوع قرأه كله مرة واحدة ، ثم يقوم بعد ذلك

بتلخيصه فى ورقة أو اثنتين أو ثلاث ورقات على الأكثر . وهكذا لا يكاد ينتهى من الكتاب حتى يتوافر لديه عدد من الأوراق التى تلخص الكتاب كله ، وبذلك يصبح لديه كتابان فى كل مقرر ، كتاب المدرسة ، وكتابه الشخصى الذى كتبه بنفسه . وهذا هو الذى يتيح له بمرور الوقت فرصة أكبر للمراجعة ، وللمقارنة بين الاثنين ، وبذلك تتأكد المعلومات فى ذهنه ، بل ويصبح قادراً على استيعابها وهضمها ، ويسهل عليه فى النهاية عرضها بصورة جيدة .

إننى أؤكد أن هذه الوصفة البسيطة لا تصلح فقط للنجاح ، وإنما للتفوق الذى ينشده كل تلميذ ، وتتمناه كل أسرة. فما الذى يمنع من البدء بها ، والاستمرار عليها؟ لا شك أن هناك عقبات كثيرة ، أهمها أننا قد تعودنا على إهمال توزيع أعمالنا على ساعات اليوم ، كذلك فإننا لا نحترم كثيراً خصوصيات بعضنا البعض ، فمن الممكن جداً أن يكون الشخص نائماً ثم يفاجأ بصديق يطرق عليه الباب دون موعد مسبق ، ومن أهم إفساد وصفة النجاح تلك أن التلميذ قد ينضم إلى (شلة) يشيع بينها الاستهتار ، وبالتالى فإن الجاد فيها يعتبر شذوذاً عن القاعدة ، ويصبح موضوع سخرية واستهزاء ! كذلك فإننى لا أستبعد عدداً من أولياء الأمور الذين قد يشجعون أبناءهم على عدم الاعتماد على أنفسهم، واللجوء إلى الدروس الخصوصية ، من أجل الوجاهة الاجتماعية لأن ابن فلان وبنت فلان تأخذ دروساً خصوصية ، وأخيراً فإن الأسرة ينبغى أن توفر للتلميذ الجو المناسب للمذاكرة مع إتاحة فرصتى اللعب والنوم حتى يكتمل نموه الجسدى والذهنى ، وبذلك يضع قدميه على الطريق الصحيح للنجاح والتفوق .

قال أحدنا : المشكلة تتمثل فى ضرورة امتلاك قوة عسكرية هائلة، تردع من تسول له نفسه الاعتداء علينا ، أو المساس بحقوقنا ، وبالتالى حقوق أصدقائنا . وهنا رد الثانى قائلاً : طيب ، وكيف تنظر إلى حالة روسيا الآن ، فإن لديها مخزوناً من السلاح يكفى لتدمير العالم كله ، وليس فقط تدمير من يعاديها ؟ لكنها على الرغم من ذلك السلاح تكاد تفتقد أى تأثير ، ولا قدرة لها على تحريك السياسة الدولية . وبهدوء تدخل الثالث قائلاً : يا جماعة ليست القوة العسكرية هى كل شئ وإنما القوة الاقتصادية هى التى تفرض الاحترام على الجميع ، وليس من الخطأ أبداً المثل المصرى الذى يقول " اللى معاه جنيه يساوى جنيه " وعاد الأول يقول : لكن القوة الاقتصادية وحدها لا تكفى، فهى تجعل أى بلد يمتلكها وحدها مسلوب الإرادة السياسية ، ولدينا اليابان وألمانيا ، كل منهما قوة اقتصادية هائلة ، لكن لا يوجد لها أيضاً أى تأثير فى السياسة الدولية ، وأقصد بالتأثير هنا المبادرة لتحقيق فكرة ، أو تنفيذ رؤية معينة . وكان رابعنا يجلس غير مهتم بما نتحدث فيه ، فسألناه عن رأيه فقال : إنكم تنظرون إلى عوامل القوة من منظور ضيق ، فالقوة لها وجوه كثيرة ، منها القوة العسكرية ، ومنها القوة الاقتصادية ، لكن إلى جانب ذلك توجد قوة العلاقات التى تستطيع الدولة أن تقيمها مع أكبر عدد ممكن من دول العالم ، وبذلك تضمن تواجدها عند اتخاذ القرارات المصيرية ، أو حتى المشاركة فيها . وخذوا مثالاً على ذلك أسبانيا . . فهى دولة متواضعة فى داخل أوربا ،

ولكـــنها ناجحـــة جداً فى إرساء علاقات ثابتة ومتطورة مع سائر دول العالم ، ونادراً ما يحدث تجاهلها. وظهر لنا بالفعل صواب هذا الرأى ، لكنـــنا عدنـــا نتساءل بدهشة عما جرى ويجرى لروسيا التى كان العالم يـــتوقع أن تظـــل محافظة على التوازن العالمى ، الذى يعتمد على تعدد الأقطـــاب ، أى ضرورة تواجد قوتين ، أو أكثر لكى لا تنفرد قوة واحدة بالعالم ، وبالتالى يتحول الخطأ الواحد منها إلى كارثة.

الواقـــع أن روســـيا معـــذورة ، فقد ورثت تركة مثقلة بالأخطاء الفادحة والفاحشة عن الاتحاد السوفيتى . ويكفى أن نشير هنا إلى كبت الحريات ، وشيوع الرشوة ، وهما عيبان ظلا ينخران فى بنيان الاتحاد السوفيتى حتى تهاوت قوائمه ، ولم يعد فيما يبدو قادراً على النهوض ، فضلاً عن ملاحقة العالم الغربى الذى كان يرتعش منه.

أمـــا الصـــين فقد تعلمت الدرس جيداً . فهى تعمل على النهوض باقتصـــادها بيـــنما تحافظ فى نفس الوقت على قوتها العسكرية التى لا يســـتهان بهـــا . ولأننا لا نعرف جيداً ما يحدث فيها من الداخل ، نظراً لـــندرة المعلومـــات عن المجتمع الصينى ! فإننا نتوقع أن الرشوة على الأقل ليست واسعة الانتشار كما كانت عليه فى الاتحاد السوفيتى . .

قال أحدنا : أن الوعى بهذه الأمور ينبغى أن نغرسه لدى الأجيال الناشـــئة ، حـــتى يكونـــوا قادرين على تمييز الأمور ، وإصدار الحكم الصـــائب فـــيها . لكن الآخر رد عليه متسائلاً : وفى أى مادة دراسية يمكـــن أن تضـــع ذلـــك. أجابه الثالث على الفور: فى مادة جديدة نطلق عليها : " سر تقدم الأمم " ! !

لا مــانع أبــداً مــن أن يتمــتع صاحب السيارة الخاصة بسماع الموســيقى أو الأغانى التى يستريح إليها وهو يقود السيارة ، لكن من الــرذالة والغلاسة أن يرفع صوت الاستريو فيزعج به السائرين حوله ، لأنهــم من ناحية قد يكونون فى حاجة إلى التركيز وهدوء الأعصاب ، ومــن ناحية أخرى قد لا يرتاحون إلى سماع نفس الأصوات التى تعجب صاحبنا .

كنت أحسب أن هذا العمل الذى ينتهك حرية الآخرين قاصراً على الشــباب الأهوج ، والمعقد الذى يريد أن يلفت إليه الأنظار ، تماماً مثل الطفل الصغير عندما يستخدم البكاء لكى يسترعى الانتباه ، لكننى بدأت ألاحظه عند الكبار ، أو ممن نتوقع أنهم ناضجون !

والواقــع أن ممارسة الحرية الشخصية لها ضوابط ، كما أن لها آداباً . ومع الأسف فإننا لا نهتم بتوعية أبنائنا منذ الصغر على ممارسة حقهــم فــى الحرية الشخصية دون الاعتداء على حريات الآخرين ، أو علــى خصوصياتهم . ومن الغريب أنك مهما وضعت القوانين ، وطبقت اللوائــح فــإن هذا الجانب الذى يتعلق بالذوق العام سوف يظل مرتبطاً بثقافة الأفراد ، ومدى ما يظهر من تلك الثقافة فى سلوكهم .

وأتساءل : ماذا لو أن كل صاحب سيارة رفع من صوت الاستريو الخاص به بأغنية على مزاجه الخاص ؟ وهل يمكن تصور شكل الشارع

وهــو يمتلــئ بهذا الخليط الغنائى والضوضاء الموسيقية ؟ إن القانون المصرى يجرم الأفعال المنافية للآداب التى قد تحدث فى السيارة ، حتى ولــو كانت خاصة ، وفى رأيى أن يمتد مثل هذا القانون إلى الضوضاء المنبعــثة مــن الســيارة ، لا سيما وأن بعض المحافظات المحترمة قد وضــعت غرامة مرورية على من يستخدم الكلاكس ، مع أن الكلاكس لا يســتمر صــوته كمــا يستمر صوت الاستريو الزاعق من سيارة شاب متهور ، أو كهل غير ناضج .

إننا نقول إن مصر أم الحضارات . وهى فعلاً كذلك . فقد ترك لنا الأجداد على جدران الأهرامات والمعابد وعلى أوراق البردى والمسلات، تــاريخهم الذى يتضمن أدق التفصيلات . ومنها يتبين أنهم كانوا بالفعل علــى درجــة عالــية من الذوق فى التعامل الاجتماعى ، والتحضر فى السلوك . وكان من وصياهم أن يحترم الصغير الكبير ، وألا يرفع صوته أمامــه (فمــا بــالك بصــوت الاستريو؟) وأن يراعى شعور الجيران ، ويساعد الناس فى الطريق العام (فما بالك بتوجيه الأذى إلى أسماعهم؟) وأتصور لو أن استريو السيارة كان فى عهدهم لكتبوا فى وصياهم : يا بنى لا ترفع صوت هذا الجهاز لتزعج به الآخرين ، أو لكى تلفت أنظار البــنات ، وإذا اضــطررت لاســتخدامه فأغلق عليك نوافذ سيارتك لكى تســمع نفسك فقط ، لأنك إذا لم تفعل ذلك غضب عليك آمون ، ونهشتك تماسيح النيل !

ريان يا فجل

كـــان بـــائع الفجل ينادى على بضاعته بهذا النداء الجميل ، الذى يدل على أن بضاعته خضراء وطازجة وأنها آتية مباشرة من الحقل إلى المديـــنة . ثـــم تطـــور النداء فأصبح جزءاً من مثل شعبى يدل على أن الموعظة أو النصيحة التى لا يستجيب لها الناس تصبح نوعاً من النداء الذى لا صدى له ، تماماً مثل (النداء فى مالطة) وأنا شخصياً لم أعرف حتى الآن سبب كون النداء فى مالطة لا يؤدى إلى نتيجة !

أقول هذا بمناسبة رسالة وصلتنى من أحد القراء الأفاضل تضمنت ســـؤالاً اســـتنكارياً يقول فيه : هل تتصور أنك بكتابتك سوف تحقق أى نتيجة ؟ إن الناس فى بلادنا لا يقرأون . وإذا قرأوا لا يبالون !

طـــبعاً مـــثل هـــذا الكلام يؤدى إلى اليأس ، ومن الممكن جداً أن يدفعـــنى إلى إلقاء سلة الفجل على جنب الطريق ، ثم أمضى فى طريقى مريحاً ومستريحاً . . مريحاً الناس من هم القراءة ، ومستريحاً من هم إجهاد الفكر ، وضياع الوقت .

لكننى عدت مرة أخرى فتذكرت أننى كنت من أشد المعجبين ببائع الفجـــل وهـــو يـــنادى على بضاعته - وما زلت أعجب بالبائع صاحب الصـــوت الرخـــيم وهـــو يجـــوب شوارع القاهرة وحاراتها منادياً على الفاكهة والخضراوات ، بينما يضايقنى جداً بائع الروبابيكيا الحالى وهو يســـتخدم مـــيكروفوناً مزعجاً وخاصة فى صباح يوم الجمعة . . لكننى عـــدت أقول لنفسى : إن بائع الفجل كان ينادى بالصوت العالى والجميل

علـــى بضـــاعته التى لم تكن تساوى (الحزمة) منها سوى مليمين (هل تذكر المليم !) ومع ذلك كان يجوب الشوارع والحوارى غير يائس من عـــدم اســـتجابة جميع الناس له ، فلم يكن يقبل على الشراء منه سوى أحـــد العابريـــن ، وبين وقت وآخر قد يطول أحياناً ولا يقصر . . وكان الـــرجل يبدو سعيداً بما يفعل ، وأتصور الآن أنه كان بإمكانه أن يهجر بـــيع الفجل إلى مهنة أخرى ، خاصة وأنه كان صحيح البدن ، متماسك الأعضـــاء . فلمـــاذا لـــم يكن يفعل ؟ يبدو بالفعل أنه كان مهيئاً لذلك . ونحن نعلم أن كل واحد منا ميسر لما خلق له . وهذا معناه ببساطة أننا موزعون على الأعمال . لكل واحد منا وظيفة يقوم بها من أجل أن يفيد نفســـه ، ويفيد الآخرين فى نفس الوقت . ولو أن كلاً منا ترك وظيفته الـــتى يســـره الله لها لتكدست أعداد كبيرة منا فى وظيفة واحدة ، بينما تخلـــو وظائف أخرى من شاغليها . ومن ناحية أخرى فإن كل فرد فى المجـــتمع علـــيه أن يقـــوم بواجبه فى حدود إمكانياته وأن يعلن رأيه بالصوت الذى لديه . تماماً كما نرى فى الغابة أن الأسد يزأر ، والحمار يـــنهق ، والعصفور يغرد . وهناك بعض المخلوقات التى لا تكاد تصدر صوتاً مثل الثعبان أو العقرب أو النملة . .

وبالتالى فإننى أقول لهذا القارئ العزيز إننى أكتب ما أشعر به ، ومـــا أجـــد فيه فائدة للناس . ولا يعنى هذا أن أفرض رأياً ، أو أحقق إنجازاً ، وإنما هو مجرد نداء على بضاعة متواضعة ، ربما تجد فى يوم مـــا عابـــراً يـــتوقف عندها ويهتم بها . أما إذا مر الجميع عليها دون اهتمام ، فحسبى أننى أعلنت عنها كما يعلن بائع الفجل !

الرياضـــة ضـــرورة لكل الأعمار فى المجتمع ، والأصل فيها أن تجـــرى ممارســـتها يومـــياً بدءاً من المشى ، وانتهاء بالألعاب العنيفة والمعقـــدة . ولكـــى يحـــدث هـــذا لابد أن تتوافر المساحات والساحات الرياضـــية الـــتى تتـــيح لكـــل من الأفراد والفرق أن تمارس أنشطتها المتـــنوعة . وقـــد شهدت محافظتا القاهرة والجيزة أخيراً شيئاً من ذلك علـــى كورنـــيش النيل ، حيث أصبح يسمح لهواة المشى ممارسة تلك الرياضـــة الـــرائعة دون عوائـــق ، مع الاستمتاع بمنظر النيل الخالد . وهناك بعض النوادى راحت تقيم هى الأخرى حول المساحات الخضراء بهـــا ممشـــى (تراك) يرتاده الناس من جميع الأعمار ، ويضم الأصحاء إلـــى جانـــب المرضـــى الذين يوصيهم الأطباء برياضة المشى من أجل تحسين مستوى قلوبهم ، واعتدال الدورة الدموية فى داخل أجسامهم . والواقع أن جسم الإنسان يحتاج إلى قدر من الحركة فى كل يوم . بل إن عقله أيضاً بحاجة إلى هذا القدر لكى يستريح من ناحية ، ويجدد نشاطه من ناحية أخرى.

أما موظفو المكاتب فهم أحوج الناس إلى ذلك القدر من الرياضة اليومـــية ، وبدونه فإن أجسامهم تتضخم ، وظهورهم تنحنى وتعوج ، ونفسياتهم تسوء مع تكرار الروتين اليومى ، وبالطبع ينعكس ذلك كله على معاملاتهم مع الجمهور .

وممـــا يؤسف له أن رياضة الممارسة قليلة جداً عندنا ، وما زال الـــناس يـــنظرون إليها بإهمال ، ولا يحسون بقيمتها إلا عندما يتلقون

لكـن النوع الآخر من الرياضة ، وهو رياضة المشاهدة فإنه يكاد يعـم المجتمع كله . لأنه سهل ، ولا يكلف الإنسان شيئاً . لأنه يمارسه جالساً أو متمدداً ، ويتابعه وهو يشرب أو يأكل أو يقزقز اللب . .

وقد يكون لرياضة المشاهدة بعض المزايا مثل التسلية ، أو قضاء وقـت فـراغ بـدون ملـل ، أو المشـاركة فى جلسة ودية مع الأهل والأصـدقاء ، لكـنه يحتوى أيضاً على بعض العيوب ، ومن أهمها أن الإنسـان يسـتغنى عـن تحريك عضلاته بما يراه من تحريك اللاعبين لعضـلاتهم ، وفى هذا نوع من التعويض النفسى يشبه إحساس الجائع عـندما يشـاهد إنساناً يلتهم الطعام ، أو العاشق المحروم عندما يرى حبيبيْن يتناجيان .

أمـا العيـب الآخر والأهم فهو ارتباط الإنسان المشاهد للرياضة بفـريق معيـن ، وتشـجيعه الأعمى له ، وفرحته الغامرة بانتصاره ، وحـزنه المأسـاوى على خسارته . وهنا تتحول رياضة المشاهدة إلى مصدر للنكد والكآبة وتحميل الإنسان نفسه بما لا يطيق . ويؤسفنى جداً أن ألـتقى بالعديد من الأصدقاء ، الذين أعتبرهم عقلاء ، وهم فى غاية الحـزن والانكسار بسبب هزيمة الفريق الذى يشجعونه ، مع أن هؤلاء المساكين ليس لهم دخل على الإطلاق فى هزيمته .

لذلـك فإننى أهيب برياضيى المشاهدة أن يترفقوا بأنفسهم ، وأن يمارسـوا أى نوع من الرياضة ، بدلاً من البكاء على تعثر الرياضيين الحقيقيين فى الملاعب !

سوق الزواج

يقول المثل المصرى الجميل إن الزواج قسمة ونصيب . وهذا حق. فالإنسان يظل يخطط ويشترط ويلف ويدور حتى يجد نفسه أخيراً فى (موقف زواج) ينسى فيه كل ماضيه ، ويبدأ منه حياة جديدة مع فتاة جديدة ، يصبح جزءاً من أسرتها ، فيفرح لفرحها ويحزن لما يحل بها . وكذلك الفتاة تظل تقول لصاحباتها : أريده طويلاً أنيقاً ، ثرياً كريماً ، حتى يفاجئها الحظ بما يبعد عن ذلك ، أو بما يتناقض أحياناً معه ، وعندئذ تجد نفسها مرتبطة به ، وعلى الرغم من كل شئ ، تسير الحياة ، وتؤكد العشرة ما تم افتقاده فى الحب ، ومن الغريب أنك تجدها تقلق لغيابه عن المنزل ، وتطمئن لوجودها إلى جانبه .

يظل الزواج هو الرباط المقدس الذى تقوم على أساسه الأسرة ، ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع ويترابط ، ويتبادل فيما بين أفراده المصالح ، كما أنه يتماسك فى وجه المجتمعات الأخرى ، ويبعد عن نفسه الاعتداءات . وقد حثنا الدين على الزواج ، أولاً لأنه يتمشى مع الفطرة الإنسانية الصحيحة ، وثانياً لأنه يحمى الشباب من الوقوع فى الرذيلة ، وثالثاً لأنه هو الطريق إلى إقامة حياة اجتماعية مستقرة . فالإنسان عندما يصبح له زوجة وأبناء ، يحرص على صيانتهم والارتقاء بهم ، ومن أجل ذلك يعمل ويكد حتى يوفر لهم الحياة الكريمة ، ولكى يقوم بذلك فإنه لا يؤذى أحداً ، ولا يعتدى ولا يظلم حتى لا تتعرض أسرته وأبناؤه للظلم والاعتداء .

ما الذى يجعل الشباب فى عصرنا الحاضر معرضاً عن الزواج ؟ أهم الأسباب هو الناحية الاقتصادية . فالزواج – كما نعلم – يتطلب مقدرة مالية معينة لفتح بيت والإنفاق عليه . ولأن الشباب أصبح حريصاً على دخول الجامعة، فإنه يقضى فيها أربع أو خمس سنوات لا يمكنه بحال من الأحوال أن يقدم على الزواج خلالها . أما فى الماضى ، فكان الابن الذى يعيش مع والده

عندما يتزوج يكتفى بحجرة فى البيت الكبير وتنضم زوجته إلى العائلة الكبيرة ، ولا يقتضى الحال أكثر من تجهيز غرفة نوم لهما : أما السفرة والصالون وباقى مستلزمات الشقة فهى موجودة ومتوافرة للجميع . لكن الأسرة الجديدة اليوم لابد أن تستقل بمفردها ، ولذلك تحتاج إلى (كل) ما كان يوجد فى بيت الأسرة الكبيرة. ليس هذا خطأ أو عيباً . ولكنه أصبح يفرض على أهل الزوج والزوجة الكثير من التكاليف ، التى زادت أسعارها بصورة مذهلة .

معظم القادرين على الزواج من الشباب الآن لا تقل أعمارهم عن الثلاثين كما أن معظم الفتيات لا تقل أعمارهن عن الخامسة والعشرين . وهكذا ارتفع السن . وكان المأمول أن يتوافر قدر من التعقل والرزانة وعدم الجرى وراء المظاهر الشكلية الكاذبة من إقامة أفراح فى فنادق كبرى تتكلف الكثير جداً ، أو شراء شبكة من السولتير للافتخار بها أمام العائلات الأخرى ، أو قضاء شهر العسل فى الخارج ، حتى لا يقال إن بنت فلان قضت شهرها فى لندن أو باريس، وتلك لم تتجاوز الإسكندرية !

لا يوجد على الإطلاق معيار يحدد نجاح الزواج فى سن مبكرة ، أو فى سن متأخرة . لكن المعيار الذى لا يخطئ أبداً هو الذى يتمثل فى التواضع والقناعة . فكلما زاد التواضع والقناعة فى نفس الزوجين الجديدين كتب النجاح للزواج بينهما . وليس معنى هذا أن يظلا خاضعين للظروف الصعبة ، بل عليهما أن يجهدا ليتغلبا معاً عليها، وإنما المقصود أن يرضيا بما يتوافر لديهما فى البداية من إمكانيات ، وأن يتأقلما عليها ، وألا يضجرا منها ، فإن الدخل القليل لا يظل مع كثرة العمل قليلاً ، وهناك الكثير جداً من الأغنياء الذين بدأوا حياتهم من الصفر ، وأحياناً من تحت الصفر . . والله يبارك للعاملين المجتهدين . أما أولياء الأمور ، فليس عليهم إلا أن يتأكدوا من صدق القادم إليهم ، وأن يقبلوا به لابنتهم إذا كان صاحب خلق ودين . وبذلك يضمنوا إقامة أسرة صالحة ، تضاف إلى المجتمع ، ولا تكون عبئاً عليه .

سمعت مثل غيرى أن سوق العقارات مضروب . والمقصود أن حركة البيع والشراء ضعيفة ، بل إنها ضعيفة جدا . والواقع أننا منذ عدة سنوات نسمع عن وجود حوالى مليون شقة فى مصر (مغلقة على الفاضى) . قد يكون السبب هو أن أصحابها يطلبون فيها أسعاراً مغالى فيها لذلك فإنهم يغلقونها منتظرين قدوم المشترى الذى يدفع لهم ما يريدون . وبالطبع المسألة تتعلق بسوء التقدير من ناحية وبعدم معرفة حقيقة السوق من ناحية أخرى . وقد حدثنى أحد الخبراء عن سبب هام لكنى غير متأكد منه تماما ، وهو أن الاخوة العرب عندما أتيحت لهم فرصة التملك ، أسرعوا بشراء أعداد كبيرة من الشقق والعمارات ، وخاصة فى أحياء المهندسين والدقى ومدينة نصر ، وأن هذا الإقبال قد توقف فى السنوات الثلاث أو الاربع الأخيرة بسبب (الإشباع) . وكان من نتيجة هذه الحركة الشرائية أن كل من امتلك شقة قد راح يؤجرها فى صيف كل عام لأقاربه وأصحابه ، الأمر الذى ترتب عليه عدم إقبال مشترين جدد على الشراء . وهنا أتساءل : هل كان قرار حكيماً أن يتاح التمليك لغير المصريين ؟ مجرد سؤال أطرحه وأنا أتذكر حكاية الدجاجة التى كانت تبيض لصاحبها فى كل يوم بيضة من الذهب ، وعندما طمع فى الكثير مرة واحدة قام بذبحها ، فلم يجد فيها شيئا !! ما علينا . أما ضرب السوق فى الداخل فيرجع بالتأكيد إلى عدة عوامل من أهمها عدم توافر السيولة الكافية ، وعدم سماح الملاك باستخدام أسلوب التقسيط . وطبعاً المسألة هنا ترجع نفسيا إلى حالة من العناد والإصرار على

الخطـــأ ، إلى جانب انعدام الرؤية لحقيقة الواقع وأبعاد المستقبل . فمن الـــذى يقول إننا قد أصبحنا فى غير حاجة لشراء الشقق، مع تزايد عدد الســـكان ، وكثرة حالات الزواج إلى حد ما بين الشباب ؟ إذن علينا أن نسرع بتغيير نمط تفكيرنا تبعاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وأن نـــتجه إلى إقامة العمارات المتوسطة المستوى ، والتى يمكن أن تجذب الشريحة التى تحتاج بالفعل إلى مسكن متواضع ، أما حكاية (الشقة – الفـــيلا) ذات المســـتويين والتى تشتمل على ثلاثة حمامات وأكثر فلم تعـــد – حالـــيا ولا فى المستقبل المنظور – فى طاقة الغالبية من أبناء الشـــعب. ورحـــم الله امرءا عرف قدر نفسه ، وبالتالى عرف إمكانياته ومستوى معيشته ، ومعيشة الآخرين من حوله . . لذلك فإننى أرى أن سوق العقارات إذا أراد أصحابه أن ينتعش من جديد لابد له من انطلاقة تتمـــثل فى عدة إجراءات: أولاً أن يتخلى أصحاب المليون شقة المغلقة عن الأسعار الخيالية التى وضعوها لها ، وأن ينزلوا بالسعر حتى يصبح فى مستوى الإنسان المتوسط ، لكى لا ينتهى بهم الأمر إلا أن يتركوها خالـــية كمـــا هـــى لورثتهم ، ثانياً أن يتجه أصحاب العقارات إلى بناء الشـــقق المتوســـطة المســـتوى والتى يكفيها حمام واحد من أجل إقامة أســـرة متواضـــعة الدخـــل والحال . وأخيراً أقول لأصحاب العقارات إن الطمـــع يقـــل مـــا جمع . والقليل المتواصل خير من الكثير المنقطع . وملعـــون مـــن عاش لنفسه فقط . وخيركم كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم أنفعكم للناس .

لابــد من الاعتراف أن مصر تشهد فى الوقت الحاضر حركة تنمية شــاملة علــى مخــتلف المستويات . ولولا أن الإعلام التسجيلى ضعيف عندنا لاستطاع المصريون أن يقفوا على مدى التطور والتطوير الذى لحق بالعديد من مجالات الإنتاج والخدمات والتعمير . ولا شك أن حركة التنمية مــا كــان لهــا أن تــبدأ وتستمر لولا جهود كبيرة بذلت من أجل تحقيق الاســتقرار الداخلى ، واكبتها فى نفس الوقت سياسة خارجية نجحت فى إزالــة الــتوترات وإنشــاء علاقــات مــتوازنة مــع سائر الدول العربية والأجنبية..

جــرى هذا الحديث فى حوار هادئ وموضوعى مع أحد العقلاء فى مصر ، لكننا ما لبثنا أن تطرقنا إلى السلبيات . ومن المعلوم أن أى عمل إنسانى لا يخلو منها . لكن المهم هو أن يتنبه المجتمع إليها ، ويقوم على الفــور بتصــحيحها . وقد توقفنا عند نقطتين هامتين وجدنا فيهما السبب القريب والمباشر لمعظم ما فى حركة التنمية المصرية من سلبيات ، وهما الصــيانة والــنظافة . وعلى الرغم من أن لكل منهما مجاله الخاص ، إلا أنهمــا يــتوازيان بــل إنهــا يلتقيان وتكادان فى بعض الأحيان تمتزجان إحداهما بالأخرى.

قــال صــاحبى العاقل : لم يعد الأمر محتملاً أن يترك أمر الصيانة وكذلك النظافة للاحتراف الفردى ، بمعنى أن يظل الميكانيكى أو السباك أو الــنقاش شخصــاً يأخذ أصول المهنة ممن قبله بمجرد المحاكاة والتقليد ، وإنمــا لابد أن يجرى إعداده بالدراسة والتدريب . وبالطبع لا يتم ذلك إلا مــن خــلال مؤسســات أو شــركات تقوم باستقطاب الشباب المهيأ لتلك

الحـــرف، والراغـــب فيها ، ثم تعلمهم وتدريبهم ، وتواصل إعطاء دورات متخصصـــــة لهـــم ، في الداخل والخارج ، بهدف تكوين كوادر جيدة منهم علـــى القيام بتلك الأعمال . وأتصور أن يأتى اليوم الذى تتولى فيه شركة متخصصـــــة بـــناء عقار ما ، ثم تأتى شركة أخرى لإنجاز أعمال الصرف الصحى به ، وشركة ثالثة للكهرباء ، ورابعة للسلالم والمصاعد ، وهكذا تكـــون كـــل شركة مسئولة مسئولية كاملة، وبالطبع متواصلة عن الجانب الـــذى أنجـــزته . ثم تأتى شركة أخرى بعد ذلك للقيام بأعمال النظافة وما يتعلق بها من متابعة سلامة خزانات مياه الشرب ، وخلافه . .

قلت لصاحبى : لكن ألا ترى أن تعدد هذه الشركات قد تلقى بأعباء كبـــيرة علـــى من يرغب فى بناء عمارة أو منشأة ؟ أجاب بسرعة : على العكـــس ، إنـــه ســـيوفر له أكثر مما يتوقع ، فهو حالياً مبعثر بين عمال حرفيين يختفون من أمامه بمجرد انتهاء عملهم ، وحينما تظهر مشكلة ، وهـــى كثيراً ما تظهر ، فإنه يستعين بعمال آخرين. أما الشركة المسئولة فســـوف تظـــل مسئولة عن عملها . ويكون ذلك منصوصاً عليه فى العقد المبرم معها .

ثـــم قـــال لـــى : هـــل يرضيك أن ترى العمارة قد ارتفعت أدوارها للســـماء، ثـــم أخذت بقع المراحيض تنشع فى جوانبها ؟ وهل يرضيك أن تجـــد العمارة بها ثلاثة أو أربعة أسانسيرات وكلها معطلة ؟ وهل يرضيك أن تصنع السلالم من الرخام ثم تمتلئ بالقمامة التى لا يرفعها أحد ؟ وهل يرضـــيك أن تســـمع أن خزانات المياه فى أعلى العمارة تكتشف فيها من وقت لآخر قطة ميتة أو فأر ؟

أجبت بهدوء : طبعاً لا يرضينى .

قال لى وهو فى غاية الحزن : لقد فقدت الأمل تماماً فى الحصول علـــى وظيفة حكومية. قلت له : أمامك المشروعات الخاصة ؟ قال ومن أين لى بالخبرة ورأس المال ؟ قلت : تبدأ من البداية . التحق بأى عمل عـند شـخص لديه مشروع صغير . قال : أقوم بذلك وأنا معى شهادة جامعـية محـترمة ! قلـت : فلتكن الشهادة دافعاً لك لكى تتقن عملك الجديـد، أيـاً كـان نوعـه ومكافأته ! قال : ولماذا إذن أنفقت كل تلك السـنوات فى التعليم ؟ قلت : كانت الحكومة فى الماضى تتكفل بتعيين جميع الخريجين، والآن لم تعد هناك أماكن إلا للعشرين الأوائل فقط فى كـل عـام . قـال : يعنى أنا من ذوى الحظوظ السيئة الذين جاءوا فى الزمـن الـردئ . قلت له : أبداً والله ، فلعل عدم حصولك على وظيفة حكومية بمرتب شبه ثابت ، وعلاوة هزيلة للغاية – يكون أفضل بكثير ، عـندما تـتجه للأعمال الحرة والمشروعات الخاصة . قال : يعنى هل ترضـى لى أن أكون صبى نجار ، أو صبى ميكانيكى أو موصل طلبات للمـنازل ؟ ! قلت له : وما عيب هذه المهن ؟ المشكلة عندنا أن بعض العـادات السـيئة قد استقرت منذ زمن طويل، ولم تجد من يتصدى لها بجـرأة لكى يهاجمها وبالتالى يسقطها من عرشها . ومن ذلك فكرة أن العمـل الـيدوى أقل مكانة وقيمة من العمل المكتبى أو الذهنى ، وكذلك فكـرة أن بعـض الأعمال أشرف من غيرها ، وبعضها الآخر أهون من

بعضـــها ، مع أن المجتمعات المتقدمة فى العالم لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا عندما أسقطت هاتين الفكرتين تماماً ، وأصبح الذى يقوم بعمل ، أى عمـــل ، ســـواء كـــان ذهنياً أو يدوياً، يستحق الاحترام ، وذلك فى المقـــابل من العاطل عن العمل تماماً . وفى الغرب كله ، لا يوجد إنسان يعمـــل عمـــلاً محترماً ، وآخر يعمل عملاً حقيراً ، لأن تلك الأوصاف لا ينبغى أن تقال على أى عمل. فالذى يكنس الشوارع ، أو يجمع القمامة، أو ينظف زجاج العمارات يحظى بنفس الاحترام الذى يحظى به الأستاذ فـــى الجامعة ، والمدير فى المؤسسة ، والمحامى فى المحكمة . وهكذا فـــإن العمل مهما كانت طبيعته شرف للإنسان ، لأنه يجعله مساهماً فى المجتمع ، وقادراً على إعالة نفسه وأسرته ، حتى لا يمد يده للآخرين .

قـــال الشـــاب بانكسار : لكن هل تعتقد أن المشروعات الصغيرة بحالـــة جيدة ؟ أن الكثير منها متعثر ، وبعضها يموت دون أن يجد أى دعـــم ممـــن حوله ! قلت له : أنا معك فى ذلك . ومن حق المشروعات الصـــغيرة أن تكون موضع عناية الحكومة ، وأن تجد المكان والمكانة اللائقة بها فى الحياة الاقتصادية ، ويكفى أن أشير إلى أن الجزء الأكبر من المنتجات الصناعية فى الصين من عمل المشروعات الصغيرة ، ولا أقصـــد أن يقام لأصحابها (شادر) يضم ما ينتجونه إلى جوار ما تنتجه المشـــروعات الكـــبرى ، وإنمـــا أن تـــتاح لهم فرصة التوريد لمختلف المحـــلات ، مـــع فـــتح نافذة أمامهم للتصدير إلى الخارج ، إلى جانب معاملتهم معاملة ضريبية رحيمة !

تلعب الثقافة دوراً هاماً في تشكيل أسلوب حياة الأفراد والمجتمعات . وهى ترسخ فى الإنسان التصورات والأفكار والمعتقدات التى على أساسها يتصرف ، ومن خلالها يتعامل مع الآخرين . وقد ثبت أن الثقافة عملية تبادلية بين الفرد والمجتمع ، فكل منهما يأخذ من الآخر ويعطى له . وإذا كان كل مجتمع قد كون لنفسه ثقافة محلية خاصة به ، فإن هناك ثقافة عالمية تأتى إليه من الخارج ، وتصبح بالضرورة جزءاً من الثقافة المحلية . ومن الملاحظ أن هذه الثقافة العالمية قد تزايدت خلال السنوات القليلة الماضية بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل ، وذلك بفضل وسائل الإعلام ، وتكنولوجيا الاتصال التى أتاحت لأى إنسان فى العالم ، إذا ما عرف كيف يتعامل مع هذه الوسائل، أن يتواصل مع الثقافة العالمية ، وأن ينقلها بالتالى إلى المجتمع الذى يعيش فيه .

لم يعد أى إنسان بمعزل عما يقع فى العالم من أحداث ، أو من تطورات . كما لم تعد أى دولة قادرة على إقامة أسوار عازلة لمجتمعها عن هذه الأحداث والتطورات، وقد أتاحت هذه القدرة على التواصل مع العالم إمكانية كبيرة للمقارنة ، وفتحت المجال أمام إعادة النظر فيما رسخ من عادات ، وفيما تأصل من تقاليد . ولا شك أن أى شريحة تتعرض لذلك هى شريحة الشباب ، لسببين اثنين : الأول أنهم الأقدر

على استخدام تكنولوجيا الاتصالات ، والثانى أنهم الأكثر استعداداً لقبول الجديد والتأثر بالمبهرات . وهنا تظهر مشكلة على قدر كبير من الأهمية والخطورة معاً ، وهى أن جيل الشباب – فى كل المجتمعات وليس فى مجتمعنا وحده – هو الجيل الأكثر تعرضاً لتأثير الثقافة العالمية سواء كان هذا التأثير إيجابياً أم سلبياً ، وأقصد بالتأثير السلبى ما تحتوى عليه هذه الثقافة من أمور تتعارض تعارضاً صريحاً مع ثوابت الثقافة المحلية ، وفى مقدمتها المعتقدات الدينية والأخلاقية . والمثال على ذلك أن شبكة الإنترنت تحتوى على إمكانية ضخمة للتزود بالمعلومات الدقيقة فى كل مجالات الحياة المعاصرة ، ولكنها تشمل أيضاً قدراً كبيراً من المعلومات غير النافعة تماماً ، بل الضارة جداً ، وذلك بدءاً من كيف تصنع قنبلة ؟ إلى ما يتعلق بعالم الإباحة والجنس..

ولا شك أننا سنلتقى بمن يقول لنا إن حصانة شبابنا فوق مستوى الشبهات ، وأن أمثال هذه الظواهر العارضة لن تؤثر فيه ، لأن قيمنا وتقاليدنا أرسخ من أن تهزها مجرد ريح عابرة . لكن هذه النظرة التقليدية المتفائلة تظل فى حدود الأمانى الطيبة ، وهو الأمر الذى يجعلها غير قادرة على مواجهة الواقع القاسى الذى بدأ ينتشر ويتغلغل فى قطاعات كبيرة من الشباب . وهنا لا بد من الإجابة بصراحة عن سؤالين : ما هى العناصر الضارة فى الثقافة العالمية ؟ وكيف نحمى شبابنا من تأثيراتها ؟ وبالطبع ، ينبغى على المجتمع كله أن يشارك فى الإجابة عنهما.

سيارات السرفيس

لى صديق لا ينتهى غضبه من سيارات السرفيس ، فهو يرى أنها هـى الـتى أفسدت الشوارع ، وتسببت فى فوضى المرور ، وزادت من نسـبة الحـوادث ، ويقـول إن الذين يقودونها شباب متهور ، وأحياناً صـبية غـير مسـئولين ، وغالباً ما تكون أخلاقهم سيئة ، ومعاملتهم للجمهور فى غاية القسوة ، وانعدام الأدب والذوق . والحل لديه أن يتم على الفور إيقاف العمل بها ، ومنعها تماماً من نقل الركاب .

قلت له : ينبغى أن تكون منصفاً . فقد حملت هذه السيارات بعض العـبء عـن أوتوبيسـات النقل العام ، التى كنا نشاهدها فى الستينات والسـبعينات وهـى منبعجة بالركاب ، متباطئة فى توصيلهم ، متأخرة دائماً عن موعد قيامها ووصولها ، وكثيراً ما كان الواقف على محطاتها ينـتظر بالساعة والاثنتين ، ولا يتمكن من الركوب إما لأن الأتوبيس لا يصـل ، أو لأنـه يصـل كـامل العدد ، بل ومسدود الأبواب من كثرة المتعلقين بها ، والذين أخرجوا أنصاف أجسادهم من الشبابيك !

اختفت تماماً هذه المناظر الكئيبة ، وأصبح الأتوبيس معقولاً إلى حد كبير ، بل إن خدمته تحسنت ، وأصبحت هناك خطوط بها أتوبيسات مكـيفة بأجـر أعلى ، ولها جمهورها . فما الذى حدث على الرغم من

زيـــادة أعـــداد الـــركاب ؟ لا شك أن سيارات السرفيس هى التى أنقذت الموقـــف ، واســـتوعبت تلـــك الأعداد الغفيرة من الركاب : تنقلهم من مـــنازلهم إلـــى أماكن عملهم وبالعكس بمبلغ يزيد قليلاً عن ثمن تذكرة الأتوبيس ، لكن الراكب يضمن فيها على الأقل مكاناً يجلس فيه ، وبذلك يصون كرامة جسده من زحام الآخرين .

إذن يـــبقى الاســـتخدام غـــير المنضـــبط لهـــذه السيارات . كيف نحصـــرها؟ ونضـــع لكـــل منها رقماً واضحاً ، وعلى كل منها خط سير معلوم ، ونحدد لها محطات الوقوف ، ونتابع سائقيها حتى لا يتجاوزوا فـــى القـــيادة ، أو معاملـــة الجمهور ، وليس هذا مستحيلاً على رجال المـــرور ، الذيـــن يـــبذلون جهـــداً خارقاً من أجل تنظيمه وسيولته ، ويســـتحقون مـــنا كل الشكر والتقدير . ولكننا نحتاج فقط إلى مزيد من انضـــباط هـــذه الســـيارات التى تتصرف فى الغالب بصورة عشوائية ، فتنطلق بسرعة ، وتتوقف فجأة، وقلما تسير فى خط مستقيم .

قال صديقى : إنك متفائل ، فإن ما بدأ عشوائياً سيظل عشوائياً . ثـــم أضـــاف : يكفـــى أن تركب إحدى هذه السيارات ليفرض عليك فيها شـــريط تسجيل صارخ الصوت وملئ بالأغانى الهابطة ، حتى أن أذنك تكـــاد تفقد قدرتها على السمع . ساعتها حمدت الله على أنى لا أستخدم سيارات السرفيس ، ودعوته تعالى أن يهدى سائقيها إلى سواء السبيل!

سوق الورد فى هولندا

فى كل يوم يقطف المزارعون ملايين الورود ، التى يتم تجميعها فى صالة مزاد كبرى ، ومزودة بكل وسائل التكنولوجيا الحديثة . حيث تعـــرض كل مجموعة من الورود ، مصحوبة بثمنها فى أعلى مستوى ، ثم تبدأ عقارب ساعة كبيرة معلقة على الحائط فى الهبوط معلنة انتهاء دقـــيقة واحـــدة . وعلـــى كل مشترك فى المزاد أن يسرع بالضغط على الـــزرار الموجـــود أمامــــه لكى يحصل قبل غيره على ما يريد ، وعلى أســـاس أنــــه قبل أعلى سعر ، بعد السعر الذى طرحه المشرفون على المزاد . تتم هذه العملية بسرعة فائقة . وتصل إلى حوالى عشرة آلاف صفقة فى الساعة ، أى أن كل صفقة لا تتعدى ثوانى معدودة .

مـــاذا يحـــدث بعـــد ذلك ؟ يتم شحن الورد إلى كل أنحاء العالم . وعمر الوردة الافتراضى أسبوع واحد ، لذلك فإن قطف الورد وعرضه فـــى المزاد ثم نقله فى شاحنات إلى المطارات والموانى ينبغى ألا يزيد عن 24 إلى 36 ساعة على الأكثر .

صـــالة المزاد أشبه بمدرج جامعى . كل شخص يجلس فى مكان محـــدد ، وأمامه السماعات التى توصل له السعر ، والزر الذى يضغط علـــيه لتحديد ما يرغب فيه . إنه عبارة عن بورصة تسير مثل الساعة تماماً . ولا توجد أصوات عالية ولا ضوضاء . فقط نظام وتكنولوجيا ، وإدارة جيدة وحازمة للأمور . وهذا ما يجعل الورد الهولندى ينطلق إلى كـــل مكـــان فـــى العالم ليكون بين يدى الزبون وهو طازج ، ومتفتح ، وجميل.

شـــاهدت هذا المنظر فى قناة تليفزيونية ألمانية ، وتحسرت كثيراً علـــى ســـوق الخضار عندنا ، حتى بعد أن تم نقله إلى سوق العبور . ورأيتنى أقارن بين النظام والنظافة والسرعة والكفاءة ، وبين الفوضى والكســـل والقـــذارة والبلطجة . . وتساءلت هل نريد حقاً أن ننافس فى الســـوق العـــالمى ؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب ، فإن الطريق معروف ، والوسائل محددة ، ولا يبقى إلا الرغبة الصادقة ، والإرادة الأكيدة . أما كـــثرة الكـــلام عـــن الجـــات والعولمة والنظام العالمى الجديد وتحديث الصـــناعة ، والارتقاء بمستوى الزراعة ، فإنه لن يفيد فى عالم أصبح يعقد صفقاته بسرعة الثانية وليس بالدقيقة أو الساعة . . أما أن تشحن البضـــاعة بعـــد يوم أو أسبوع أو شهر أو يقال للمشترى (معلهش) أو (نحن آسفون) أو (المرة القادمة تكون مبسوط) فهذا ما يرفضه السوق العالمى الجديد.

إننى لا أشك أبداً فى كفاءة الإنسان المصرى ، ولا فى قدرته على العمل ، والإتقان ، والتميز . . لكنه يحتاج إلى بيئة تساعده على إطلاق ملكاتـــه ، واستخراج أقصى مجهوده . وبالطبع لن يتحقق ذلك فى ظل إدارة متعثرة ، وبيئة وظيفية مكدسة، ووسائل إنتاج عفى عليها الزمن. والذى أريد أن أقوله أخيراً أن الصناعة لن تتقدم إلا إذا تقدمت الزراعة، وأنهمـــا مرتبطان بتقدم التجارة . . وفى سوق الورد بهولندا توجد هذه الركائز الثلاثة على أعلى مستوى . . فهل يعتبر العقلاء ؟ !

وصف مصر يا وزارة الثقافة

فــى نهايــة القــرن التاسع عشر ، جاء بونابرت بحملته العسكرية إلى مصــر . ولأنــه كــان واثقاً من انتصاره ، ودوام احتلاله ، فقد اصطحب معه مجموعــة مــن أكــبر علماء فرنسا فى ذلك الوقت ، لكى يدرسوا كل صغيرة وكبــيرة فــى البلاد ، وبينما فشلت حملته العسكرية فى مدى ثلاث سنوات ، نجحــت حملته العلمية ، فقد استطاع هؤلاء العلماء ، وبصحبتهم مجموعة من أمهــر الرســامين ، برصــد الحياة المصرية كما رأوها ، وتسجيل أهم معالم حضارتها القديمة . وتمثلت نتيجة عملهم فى كتاب ضخم ، يبلغ 26 مجلداً من النصــوص ، وتســعة مجلــدات من اللوحات المرسومة باليد ، ولا تكاد العين تميزها عن التصوير الفوتوغرافى فى أدق التفاصيل .

هــذا العمــل العلمى الكبير لم يلتفت إليه أحد من المترجمين المصريين مــنذ تلامــيذ رفاعة الطهطاوى ، وكذلك كل ما اختلف على مصر من وزارات ثقافة ، أهملت مع الأسف ترجمة هذا الكتاب الهام ، والذى ما زال حتى اليوم مرجعاً لكل الباحثين فى العالم كله عن مصر الحديثة وحضارتها القديمة .

جاء على لسان (فورييه) أحد علماء الحملة الفرنسية " إن معرفة مصر أمــر يهــم كل الأمم المتحضرة ، فهذه البلاد هى مهد الفنون والنظم الدينية ، وبإمكانهــا حــتى الــيوم أن تصــبح مركــزاً للعلاقــات الدولــية ، ولتجارة الإمــبراطوريات ، كمــا أن الشعب الذى يسكنها قد ترك آثاراً تدعو للإعجاب بعظمتها وقوتها وشموخها "

لقــد ظــل المثقفون المصريون طويلاً ينتظرون أن يقرأوا كتاب وصف مصــر - بعــد ترجمــته مــن الفرنســية - باللغة العربية ، حتى تهيأ للقيام بالترجمة - وحده ، وعلى نفقته الخاصة - المرحوم زهير الشايب فأخرج منه

(11) جزءاً إلى جانب (3) أجزاء من اللوحات . وما أدراك ما اللوحات ؟ إنها مجموعة من أندر وأجمل وأدق ما يصور الحياة المصرية فى مختلف جوانبها، وسـائر نواحيها . وأعتقد أن مجرد تصفحها يعتبر نزهة سياحية فى الماضى القريب والبعيد ، وعلى أساسها يمكن أن نقدم جزءاً هاماً من تاريخنا للأجيال الجديـدة . وكنت أتمنى أن تدخل وزارة التربية والتعليم أجزاء من هذا الكتاب فى مناهج التعليم بها .

مـا علينـا . . فقـد رزق الله تعالى الراحل زهير الشايب بأسرة مثقفة ومخلصة لمشواره الثقافى ، فعكفت ابنته منى ، المدرس المساعد بكلية الآثار بجامعة القاهرة على ترجمة ثلاثة أجزاء أخرى بالإضافة إلى جزء هام يتحدث عن مقياس النيل ، وتسعى زوجته السيدة عفاف الشريف إلى نشرها فتصطدم بوجوه الناشرين الكلحاء ، لذلك فإننى أدعو وزارة الثقافة ، متمثلة فى العديد مـن جهاتهـا التى تهتم بالنشر والترجمة ، أن تسارع إلى تبنى هذا الكتاب ، سـواء مـا نشـر منه ، أو ما تم إعداده فى أسرة زهير الشايب لكى تتولى طباعـته ، وإخراجه بالصورة التى يليق بها . وأحسب أن إهمالنا لهذا الكتاب الهـام طوال تلك المدة الطويلة ينبغى أن ينتهى فوراً ، وإلا أصبح حديثنا عن حب مصر، وعشق نيلها الخالد مجرد كلام فى الهواء . .

إن الأمـم العظيمة هى التى تعتز بتراثها ، كما تهتم بكل ما يصدر عنها فـى كافة أنحاء العالم . ولو أن علماء مصر كتبوا عن فرنسا مثل هذا الكتاب لسـارعوا بترجمـته إلى لغتهم ، أما نحن فقد أهملنا الكتاب طويلاً ، ثم تركنا فرداً واحداً يتصدى لترجمته ويعانى فى ذلك ما عانى من صعوبات . وها نحن نـرى أسـرته الصغيرة تواصل عمله بجد ووفاء . وأعتقد أن الكرة الآن فى ملعـب وزارة الـثقافة المصرية لكى تتولى بالإشراف على إنجاز ترجمة هذا الكـتاب ، ونشره فى إطار ما لديها من مؤسسات وفى مقدمتها مكتبة الأسرة التى ترعاها السيدة الفاضلة سوزان مبارك.

شكراً . . وزارة الثقافة

سعدت كثيراً عندما نشر خبر يتضمن قيام وزارة الثقافة من خلال مشـــروع مكتــبة الأســـرة الذى ترعاه السيدة الفاضلة سوزان مبارك ، بطـــبع كـــتاب (وصـــف مصـــر) الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وتناولوا فيه مختلف الحياة فى مصر ، كما ركزوا على آثارها القديمة ، ومـــن بيـــنها حجـــر رشيد الذى كان هو المدخل الأساسى لمعرفة اللغة الهيروغليفية ، وبالتالى استنطاق حضارتنا المصرية القديمة ، وتعريف العالم كله بمعالمها وإنجازاتها . .

وكنـــت قـــد كتبـــت مقالاً فى هذا المكان بعنوان (وصف مصر يا وزارة الثقافة) وجهت فيه العتاب لوزارات الثقافة السابقة التى لم تتنبه لأهمـــية كـــتاب (وصف مصر) المكتوب أصلاً بالفرنسية ، والذى يعتبر مرجعاً هاماً لكل الباحثين والقراء فى الخارج عن حضارتنا وحياتنا فى مطلع العصر الحديث . أما الذى قام بترجمة الكتاب والسير فيه بمفرده، وتحمـــل نفقاتـــه فهو المرحوم زهير الشايب ، الذى ترجم حوالى ثلاثة عشـــر جزءاً ، ترك الباقى لأسرته الصغيرة المكافحة (زوجة مثابرة فى وزارة الـــثقافة ، وابـــنة تعمـــل مدرســـاً مساعداً فى كلية الآثار وتجيد الفرنســـية) وقد أكملت الابنة مجلدين، وكانت تسعى لنشرهما على نفقة الأســـرة المحـــدودة ، وعـــندما أخبرونى بذلك كتبت مشيراً على وزارة الـــثقافة بأهمـــية تبنىّ هذا المشروع الكبير ، وبالفعل تمت الاستجابة.

وأخبرتنى الأسرة أنها قد وقعت عقداً بالفعل ، وإن كانت لم تحصل على أى جـزاء مـادى حـتى الآن . المهم أن الوزارة تحركت واستجابت ، ونحـن نشكرها على ذلك ، فالمكابرة فى مثل هذه المشروعات الثقافية المحـترمة لا تفيد أحداً . والرجوع للحق دائماً فضيلة . وجزى الله كل من يعمل بصدق وإخلاص لخدمة وطنه ، ودعم أسس نهضته .

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر ، والحديث ذو شجون ، فإننى أود أن أطـرح علـى وزارة الثقافة – ما دامت تستجيب للنصح بهذه الطريقة السمحة – فكرة أخرى ، تعالج بها سلبية قائمة منذ سنوات ، وهى تعدد المراكـز والجهات التابعة لها ، والتى تقوم كلها بعمل واحد ، هو نشر الكتـب . أمـا هـذه الجهات فهى على سبيل المثال لا الحصر: الإدارة العامـة للشـئون الأدبـية ، والمجلـس الأعلـى للثقافة ، ودار الكتب المصـرية، وقصور الثقافة ، والهيئة العامة للكتاب . . ويكفى أن أشير إلـى أن هـذه الجهـات المـتعددة لـو اجتمعـت كلها فى جهة واحدة لاسـتطاعت أن تقـوم بـدور أكثر فعالية واتساعاً بحيث تحقق الهدف المنشـود مـن نشـر الكـتاب فى المجتمع على أوسع نطاق ممكن . وأسـارع فـأقول أننى لا أدعو إلى المركزية بقدر ما أدعو إلى توحيد الجهـود ، وعـدم بعثرة الإمكانيات . . ويبقى دائماً أن التاريخ لا يذكر لوزارة الثقافة فى أى بلد إلا ما قامت به فى مجال نشر الكتب والمجلات والتشجيع على قراءتها . .

صناعتنا وتسويقها

كنــت دائمــاً ومــا زلت من أكثر المناصرين للصناعة المصرية ، والراغبيــن فــى أن يتحسن أداؤها ، ويتم إتقان صنعتها بهدف تحسينها وتجويدهــا وإشاعتها فى المجتمع، بل وخروجها للأسواق العالمية . ولم أكــن طوال حياتى راغباً فى شراء السلع الأجنبية، وخاصة من الملابس، مفضــلاً المنــتج المصرى على غيره . وعندما كان أحد الأصدقاء يتباهى أمامى بأنه اشترى تلك البدلة من باريس والبالطو من لندن ، والحذاء من روما كنت أبلع ريقى وأصمت ، لكى لا أصرح برأيى الحقيقى وأغضبه !

وقــد أســعدنى ما سمعته ذات يوم أن بعض المصريين ذهبوا إلى الخــارج واشــتروا قماش قمصان ، وعندما عادوا به فوجئوا فى جمرك المطــار بمن يقول لهم : ليس على هذا القماش أية جمارك ، لأنه صناعة مصرية !

وفــى دمــياط ، وصــل الصانع المصرى إلى مستوى عالٍ جداً من الجــودة والإتقان. المدينة كلها تعمل فى الأثاث ، والأبناء يقضون نصف يومهــم فى المدرسة ، والنصف الآخر فى الورشة مع آبائهم ، فيتعلمون الصنعة أو يشربونها كما نقول . والنتيجة أن الأثاث الدمياطى أصبح يجد طريقه إلى كثير من الدول العربية ، بل ويسافر إلى بعض الدول الأجنبية.

لكــن الجمــيل دائماً لا يكمل . فعلى الرغم من حسن الصنعة نلتقى بضــعف التســويق . وطبعاً التسويق يتعلق بالتجارة . وإذا كنا نقول فى أمثالنا الشعبية أن التجارة شطارة ، فليس يعنى هذا أنها فلهوة ، ونصب، وخروج عن الأعراف والتقاليد والمبادئ الأخلاقية .

حدثـــنى من أثق فى كلامه : اشتريت حجرة نوم من أحد المعارض الدمياطية بالقاهرة . ودفعت ثمنها بالكامل . وعند التسليم كانت ناقصة 2 كومودينـــو وشـــوفونيره . . لمـــاذا ؟ قيل لى بكل ثقة : إن سيارة أخرى مـــتجهة إلى الإسكندرية قد حملت هذه الأشياء بطريق الخطأ وسوف تعود غـــداً قلت : حسناً وانتظرت يومين ثم اتصلت. قالوا : أن السيارة توجهت مباشـــرة من الإسكندرية إلى دمياط وسوف تعود غداً . انتظرت أكثر من أسبوع ، ثم بدأت أقلق ، وأكرر السؤال ، وأخيراً قيل لى : نحن نأسف . فقـــد انقلبت السيارة بما عليها ، وسوف نصنع لك هذه الأشياء من جديد. ولأنـــنى كنـــت مســـتعجلاً فقد أظهرت غضبى ، فعرضوا علىّ غرفة نوم أخرى، طبعاً بأقل من سعر الحجرة الأولى فقبلتها مرغماً ، وشاكراً الله تعـــالى علـــى عـــدم ضياع أموالى.. وبينما العمال يفكون الغرفة الناقصة ويركـــبون الغرفة البديلة سألتهم عن حادثة انقلاب السيارة ، فقالوا : أى حادثـــة ؟ ! قلت : ألم تنقلب السيارة بالعفش ؟ قالوا : أبداً لم يحدث شئ مـــن ذلك . سألت : فماذا حدث لأشيائى التى لم تصل مع الغرفة الأولى ؟ قـــال أحدهـــم : لقـــد مـــرت على المحل سيدة تهوى التحف ، وأعجبتها الأشياء، فاشترتها . . هكذا بدون قيم أو مبادئ ، باع صاحب المحل جزءاً مـــن البضاعة المباعة لى ولم يحقق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم مـــن دعوته لنا بألا يبيع الرجل على بيع أخيه ، كما لا يخطب على خطبة أخيه .

قلـــت لصـــديقى : لكـــن تظـــل الصناعة المصرية مشرفة ، وقابلة للازدهار ، وجزى الله من يشوه وجهها الجميل بهذا التسويق المخجل !

صورة العرب والتحسين

يتردد الحديث فى هذه الأيام العصيبة عن صورة العرب فى الغرب وكيفية تحسينها . وهنا أمور لابد من توضيحها الأول أن صورة العرب لدى الغربيين ليست وليدة اليوم ، ولا هى ناتجة فحسب من مجموع الأحداث الأخيرة ، وإنما هى محصلة قرون طويلة ، ساعدت على ترسيخها عوامل كثيرة كان أهمها الاستعمار الغربى لمعظم بلاد العالم الإسلامى ، والعربى طبعاً . ومنطق الاستعمار كما نعلم يقوم دائماً على وضع الطرف المراد استعماره فى مكانة أدنى لكى يبرر احتلال أراضيه ، والتصرف فى مقدراته. ومن هنا كانت حملات التشويه المستمرة ، ليس فقط للقيم والمبادئ ، وإنما أيضاً للبشر والأرض والواقع.

الأمر الثانى أن صورة العرب منذ مائة عام بالتحديد تتعرض من جانب الحركة الصهيونية العالمية لعملية تحريف متواصلة ، تقاطعت أحياناً مع مجموعة من الحروب التى خاضتها ضد العرب ، فى سنوات (48، 56، 67، 73 ، ثم بعد ذلك فى لبنان وحالياً ضد الشعب الفلسطينى) وتطورت فى معظم الأحيان بسبب السيطرة شبه الكاملة من جانب رجال المال اليهود على وسائل الإعلام الغربية، حتى بلغ الحال أن العرب لا يكادون يذكرون بالخير فى أى جريدة أو إذاعة أو تليفزيون ، وحتى فى السينما وألعاب الفيديو جرى تشويه صورتهم على نحو متعمد ، بل أن القواميس ودوائر المعارف العالمية تتضمن العديد من الأكاذيب والافتراءات ضد العرب ، مما يؤدى إلى ترسيخ معلومات لدى الأجيال الناشئة بحيث يصعب جداً تصحيحها عندما تكبر هذه الأجيال .

الأمر الثالث أن العرب لم يتنبهوا – إلا أخيراً – لأهمية الإعلام ودوره فـــى الحياة الحديثة والمعاصرة . صحيح أنهم نجحوا إلى حد كبير فى إنشاء إعـــلام (داخلى) يلبى حاجتهم ، ويستجيب لمتطلباتهم ، لكنهم أغفلوا بصورة كبـــيرة ما ينبغى أن يقدموه عن أنفسهم فى الخارج ، بل إنهم حتى لم يعطوا أهمية لما ينشره أو يبثه الآخرون عنهم ، مع أن حقوق الرد تكون مكفولة، وهـــنا لابـــد مـــن إعـــادة النظر فى الدور الذى يمكن أن تقوم به السفارات العربية ، ومكاتبنا الثقافية والإعلامية فى الخارج.

الأمـــر الـــرابع الـــذى ينـــبغى أن نعترف به دون حساسيات ، هو أن الصورة – مهما كانت مزيفة وملفقة – فإنها تعكس بعض الملامح الحقيقية، وإلا خرجـــت تمامـــاً عـــن كونها (صورة) . والذى أريد أن أقوله بصدق ، وبعيداً عن التفاخر بالذات أو المزايدة ، هو أن العرب خلال قرن من الزمان قـــد وقعوا فى بعض الأخطاء ، وفى مقدمتها أنهم لم ينجحوا فى التأقلم مع روح العصر الحديث ، وظلوا حتى اليوم يتناقشون ويتجادلون فى صحته أو فســـاده ، وفـــى القـــبول به أو رفضه تماماً . وأصبح موقفهم يشبه موقف الشـــخص الذى يقف أمام حمام السباحة ، متردداً بين قرار النزول إلى الماء مـــع النازليـــن أو الاكتفاء بالفرجة على من يسبحون وهو تحت الشمسية ! ويكفـــى أن نستحضـــر هنا دول جنوب وشرق آسيا التى تعرضت لنفس ما تعرضـــنا له ، لكنها أقدمت بكل شجاعة ، ووضعت يدها على مفاتيح العصر الحديـــث فاســـتخدمتها بكـــل كفـــاءة ، دون أن تضيع وقتها ، أو تتخبط فى مسيرتها .

والخلاصة أن صورة العرب فى العالم تحتوى على الكثير من التشويه الذى ألحقه بها خصومنا ، لكنها تحتوى أيضاً على بعض ملامحنا الحقيقية ، التى تستحق منا أن نبدأ بإصلاحها . والله ولى التوفيق .

عربـــات الكـــارو

لا شــك أن عــربة الكارو لها وظيفتها الهامة ، التى تحل مشكلة حقيقــية فى المجتمع . فهى تنقل البضائع فى شوارع ضيقة ، أو تحمل الخضروات من الحقول إلى القرى ، كما أنها تساعد فى نقل الركاب من مكان إلى آخر فى منقطة شعبية . .

وكان هذا أمراً مقبولا عندما كانت المدن المصرية شبه خالية من السـيارات ، أما الآن وقد امتلأت بها ، فلم يعد مقبولاً أن تسير عربات الكـــارو فى شوارع المدن جنباً إلى جنب مع السيارات . . ولا ينبغى أن يقــول أحــد إنـــنى منحاز لأصحاب السيارات، بل على العكس أنا أكثر انحياراً لأصحاب تلك العربات التى تجرها الحيوانات المسكينة ، المغطاة العيون ، والتى تساق بالكرباج ، وعليها أن تتأقلم مع أحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا السيارات فى العالم !

يســتحيل أن تجــد فــى لندن أو باريس أو روما . . حيواناً يجر عربة بضاعة فى المدن ، وحيث الإشارات تلزم السيارات بالوقوف عند

خطـــوط مـــرور محـــددة ، وحيث السير يتبع نظاماً صارماً ، يمكن أن تســـتجيب له الآلـــة ، ولا ينبغى أن نفرضه على الحيوان . . أرجو أن تتأمل معى منظر الحصان أو الحمار وهو يسير بين السيارات ، وعندما تـــتوقف الســـيارة الـــتى أمامه فجأة – لتشاهد ما يتعرض له الحيوان المســـكين مـــن صـــدمة فى وجهه ، ومن كرباج على ظهره فى نفس الوقت!

لقد آن الأوان لمنع سير العربات التى تجرها الحيوانات فى المدن المكـــتظة بالســـيارات ، وأنا فى غنى عن أذكر أن هذه علامة حضارية أخذت بها كل الدول المتقدمة ، ونحن أولى أن نأخذ بها . . فنحن أصل الحضـــارات كلهـــا ، ومعاملـــة المصرى القديم للحيوانات مسجلة على أحجار الآثار ، وهى تدل على مستوى عال من التحضر والإنسانية .

عاداتنا وتقاليدنا

فــى البداية لابد أن نميز جيداً بين العادات والتقاليد . العادات هى الــتى تشــمل أنــواع السلوك الشائعة والمستقرة فى المجتمع . وهذه الأنــواع بعضها جيد ومقبول ، وبعضها سيء وضار . أما التقاليد فهى مثل العادات فى الشيوع والاستقرار ، لكنها تتسم كلها بالجودة ، وتتميز بالأصــالة ، وتحظــى بالتقدير والاحترام . ولكى أوضح ذلك أقول : إن مشــاركة أهــل الــريف للأسرة التى يتوفى منها أحد ، من خلال إعداد الطعــام لهــا ولمــن يأتى لتعزيتها من أماكن نائية تعتبر عادة مصرية جمــيلة ، وهــى التى كان الرئيس السادات يشير إليها بأخلاق القرية . لكــن عــادة (الثأر) التى استقرت فى صعيد مصر ، منذ مئات السنين ، ونتــيجة هجــرات عربية للمنطقة منذ زمن بعيد ، فهى عادة قبيحة ما زالــت نقطــة سوداء فى ثقافة أبناء الصعيد ، الذين قامت على أكتافهم أعمــدة الحضارة المصرية القديمة وخاصة فى الأقصر وأسوان . ومن هذا القبيل : فإن عادة (الزار) التى ما زالت منتشرة فى الأحياء الشعبية والــتى تلجــأ إليه بعض المحترفات لإخراج العفاريت من أجساد بعض النســوة ، بــدلاً من الذهاب بهن إلى طبيب نفسى يمكنه بأسلوب علمى علاج مثل تلك الحالات . ومن هذا القبيل : عادة (كثرة الإنجاب) لتكوين العــزوة من ناحية ، ولربط الزوج بزوجته من ناحية أخرى . وفى هذا الإطــار تأتى عادة (تفضيل الذكور) على البنات بهدف مساعدة الأسرة مادياً ، وما يترتب على ذلك من ضياع فترة الطفولة على هؤلاء الأولاد المســاكين ! أما العادات الجيدة فهى كثيرة ، ويكفى أن أشير منها إلى

عـــادة (الـــنقوط) التى يلتزم بها أهل القرى والأحياء الشعبية ، وتمثل رمـــزاً جمـــيلاً للمشاركة فى الفرح عن طريق جمع مبلغ لا بأس به ، يمكن أن ينتفع به أهل العروس أو أهل العريس ، فى تكاليف الزواج .

أمـــا العـــادة السيئة التى لا أجد لها تفسيراً مقنعاً على الإطلاق ، فهـــى (عـــادة إطـــلاق الأعيرة النارية فى الأفراح) . ومنذ أيام قليلة ، نشـــرت الصحف عن مقتل طفل برصاصة طائشة أطلقها أحد المحتفلين بزفاف عروسين . أقول : لعنة الله على هذا التعبير الهمجى عن الفرح، والـــذى أدعـــو إلى إدانته تماماً من خلال تشريع يقرر أن هذا القتل يعد قـــتلاً عمداً ، بدليل أن مرتكبه يخرج من منزله وهو يحمل سلاحه لكى يطلقـــه فى وسط مزحوم بالناس ، واحتمال إصابتهم تصل إلى أكثر من 90% . لذلـــك فإن عقاباً يصل إلى المؤبد ليس كثيراً أبداً على مرتكب تلك الجريمة ، بل إننى أدعو إلى القبض عليه ومحاكمته لمجرد إطلاق رصاصـــة واحدة فى الفرح ، حتى وإن لم يصب أحداً من الحاضرين أو العابرين .

فـــإذا أضـــفنا لجريمة إزهاق روح إنسان برئ ما يسببه مثل هذا الشـــخص البغـــيض إلـــى كـــل من العروسين ، وأهلهما ، والمدعوين والجـــيران مـــن حزن وألم لأدركنا إلى أى مدى يمكن لشخص واحد أن يسئ إلى الجماعة .

أما (موكب الكلاكسات) الذى يصاحب العروسين ، فهو أقل ضرراً لكنه ليس أقل تخلفاً .

والخلاصة أننا ينبغى ألا نضع العادات مع التقاليد فى سلة واحدة.

صيانة الخواجات

لماذا الصيانة عندنا مهملة ، وعندهم تسير بدقة الساعة ؟ أبدأ بهذا السؤال ، لأننى قرأت فى هذه الصفحة مقالاً للأستاذ زياد السحار يتحدث فيه عن تدهور حال مترو الأنفاق ، بعد أن سلمته الشركة الأجنبية لنا ، حتى أنه جعل عنوان مقاله " مترو الأنفاق شيخوخة مبكرة جداً " وقد سبق أن كتبت فى هذا المكان عن مترو الأنفاق ، وقلت إنه أحد مداخلنا الرئيسية للقرن الحادى والعشرين ، وللحياة الصناعية السريعة فى المدن ، وأننا ينبغى أن نعطيه من الأهمية الكثير، بل لابد أن نمد خطوطه ونوسع شبكته بحيث يشمل القاهرة الكبرى ، ثم نثنى بباقى المدن الرئيسية فى مصر . وأنه بدون المترو سيظل إيقاع العمل فى مصر بطيئاً وغير منتظم ، وسوف تظل أعذار الموظفين والعمال بسبب المواصلات مستمرة ، بل وسوف تتفاقم ، مما ينتج عنه ضعف الأداء ، وتعطيل المصالح .

أيها السادة ، إن العمل لا ينتهى بمجرد أدائه ، والمنشأة والعمارة والشارع وعامود النور تظل كلها بحاجة إلى صيانة مستمرة ، وإلا تحولت بمرور الوقت إلى خرائب وصفيح بل وتتحول إلى عشوائيات . ومشكلتنا فى مصر أننا بمجرد الانتهاء من إقامة عمل عظيم فإننا نهمل صيانته ، التى هى جزء أساسى من استمراره ، وبقائه على حاله لأطول فترة ممكنة . إن عامل الصيانة – فى رأيى – لا يقل أهمية

وخطورة عن المهندس الاستشارى والتنفيذى ، وإدارات الصيانة فى كل المؤسسات الحكومية والخاصة يجب أن تأخذ وضعها المادى والتنفيذى وأن تجـاب طلباتها على الفور حتى لا يتدهور المكان أو الجهاز الذى تـتابعه . . لكنـنا مازلـنا حتى الآن نعتبر الصيانة جزءاً كمالياً ، أو هامشـياً، أو حـتى عديـم القيمة ، وهذا تفكير يبعدنا عن التقدم الذى نشاهده فى بلاد العالم الأول.

يقـال أن ماكيـنات التذاكر فى محطات المترو قد أصبحت كثيرة الأعطـال ، وقـد عشت سبع سنوات متواصلة فى باريس ، فلم أشاهد ماكيـنة واحـدة معطلـة .فقط كنت أشاهد من وقت لآخر بعض العمال ملتفيـن حـول إحدى الماكينات لعمل الصيانة اللازمة لها ، بينما يعمل الـباقى بكـل كفاءة . ويقال أن (الفكة) قد أحدثت مشكلة للمواطنين فى شباك التذاكر وأتساءل : لماذا لا يزود الموظفون بكمية كبيرة من الفكة لحـل المشكلة بدلاً من زيادة سعر التذكرة ؟ وأسمع أن الكهرباء تنقطع أحياناً عن المترو ، وأتساءل لماذا لا يكون البديل جاهزاً لإنقاذ الموقف؟ وفـى النهاية أقول للقائمين على أمر المترو : ألا تحسون بأى قدر من المسـئولية تجاه هذا العمل العظيم الذى تشرفون عليه ؟ وهل تنتظرون من يحل لكم المشكلات ؟ أو يقترح عليكم أساليب العمل الصحيح ؟ يا ناس . . قدراً من يقظة الضمير ! !

صورتنا الإعلامية فى الخارج

الحقــيقة التى لا يمكن إغفالها أننا لا يمكن أن نعيش منعزلين عن العــالم ، وحــتى إذا أردنا ذلك لن نستطيع لأن العالم فى نظامه الحالى لم يعــد يسمح لأى كيان من كياناته بالانعزال ، أو بالانفصال ، نتيجة شيوع شــبكة المواصــلات والاتصالات التى لم تعد تستثنى مكاناً واحداً فيه من المــرور المباشــر علــيه ، أو حــتى العبور بجواره . لذلك فإننا سنظل محتاجيــن إلــى العــالم كما أنه محتاج إلينا . من هنا كان من اللازم أن نــتواجد علــى الســاحة الدولية ، كما نتواجد تماماً فى قلب الرأى العام العــالمى . وإذا كانــت الدبلوماسية المصرية تختص بالجانب الأول ، فإن المهمة الثانية تقع على عاتق الإعلام المصرى ، الذى ينبغى أن يطور من تقنياته ، ويخطط لبرامجه حتى تستطيع أن تعرض ما هو محلى ، خالص المحلــية ، بالصــورة الــتى تجذب أنظار العالم إلينا ، وتصحح الصورة المشوهة عنا . والواقع أن الثقافة المصرية سواء فى تاريخها الطويل، أو فــى تــنوعها الحالى قادرة على أن تقدم خصوصيتها لكل شعوب العالم ، مستفيدة فى ذلك من جذورها الإنسانية ومقوماتها الحضارية التى تهم كل إنســان فيه . وسوف أكتفى هنا بعدة أفكار : الفكرة الأولى : العمل على عــرض حضــارتنا الفرعونــية فى مختلف جوانبها المعمارية والإدارية والأخلاقــية من خلال أعمال درامية للكبار ، وصور متحركة للصغار إلى جانب الأفلام التسجيلية التى ما زالت ضعيفة جداً عندنا . الفكرة الثانية : الاهــتمام بعــرض الفــترة المسيحية ، وما قامت به مصر من دعم هذه الديانــة علــى مستوى العالم كله ، إلى جانب التركيز على ما قدمته من شــهداء فــى هذا الصدد . الفكرة الثالثة : إعادة إحياء التراث الإسلامى

المصرى ، والذى ما زال قائماً حتى الآن فى المساجد والمدارس والأسبلة والمخطوطـــات . الفكرة الرابعة : تسجيل التراث الشعبى الموجود حالياً ، والـــذى بدأت بعض عناصره فى الاندثار ، نتيجة الزحف المتزايد للمدينة الحديثة ، والواقع أن هذا التراث الشعبى يحفل بألوان متنوعة من التجربة المصـــرية الـــتى يمكـــن أن تلـــتقى مـــع الكثير من تجارب شعوب البحر المتوسط. الفكرة الخامسة : العرض الأمين للواقع المعاصر بكل ما يشتمل علـــيه مـــن رغبة المجتمع المصرى فى التقدم ، وتحقيق الازدهار تحت مظلة السلام ، وليس الحرب أو الاعتداء على الآخرين . الفكرة السادسة: إلقـــاء الضوء على حياة مختلف الجاليات الأجنبية التى تعيش فى مصر ، دون أن تحـــس بأى تفرقة أو تمييز ، بل إنها قد أصبحت جزءاً من نسيج الشعب المصرى الذى يحسن استقبال الغرباء ، ويحولهم مع مرور الوقت إلى مواطنين . الفكرة السابعة : العرض الأمين لمختلف جوانب الحياة فى الريف المصرى ، الهادئ ، الجميل ، والذى تظلمه مع الأسف مسلسلاتنا حين تقتصر فى تصويره فقط على عرض حكاية العمدة المستبد مع الفلاح الذليل ! الفكرة الثامنة : عدم إغفال جوانب النهضة الصناعية والعمرانية وشـــبكات الطـــرق والكبارى والتطور الهائل فى وسائل الاتصالات ، وفى مجـــالات التعلـــيم والصـــحة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، والتى تثبت رغبة المصريين فى أن يقيموا على أرضهم حياة حقيقية مزدهرة ، تقتبس مـــن أحـــدث وســـائل العصـــر ، دون أن تـــتخلى عـــن موروثها الثقافى والحضارى الممتد عبر آلاف السنين .

تلك مجرد أفكار لأهل الإعلام المصرى ، أرجو أن تجد لديهم بعض القبول ، أو التطوير ، أو التعديل . . المهم ألا يقفوا فى مكانهم ساكنين ، بينما العالم كله يتحرك ، وبسرعة هائلة ، إلى الأمام .

على المعاش

خــرج صديقى الأستاذ سليمان على المعاش وهو فى أتم صحة ، وعندما سألته: ماذا ستفعل ؟ أجابنى بكل ثقة : سأبحث عن عمل حر ، لأنــنى لا أتصور أن أقضى نهارى فى البيت ، كما أننى أمقت الجلوس علــى المقــاهى ، ولســت مشتركاً فى ناد لكى أسلى وقتى فيه . وبعد شهور قابلته . كان أكثر انكساراً ، ولم يعد يهتم بحلاقة ذقنه، فقلت له : لعلــك قــد وفقت فى الحصول على عمل مناسب ، فقال : حاولت كثيراً لكننى لم أجد . كل شئ بأوان . ومع ذلك فإن زوجتى تلح علىّ فى فتح محــل خــردوات أو مكتــبة . لكن مكافأة المعاش لا تسمح بذلك . هل تــريدنى أن أســتدين ! وافقــته علــى عــدم الاستدانة ، فربما يخسر المشروع، وتنحدر به الحال . لكن مشكلته بدأت تؤرقنى ، وحاولت من جانــبى أن أبحــث له عن عمل ، أى عمل ، ومع ذلك فقد ظهر أن ذلك مســتحيل . توجهــت لــزيارته بعد أكثر من عام ، فلم أجده بالمنزل ، وقالــت لى زوجته إنه فى المسجد الموجود بآخر الشارع ، ذهبت إليه فإذا هى مجرد زاوية صغيرة تحت منزل ، وإذا شخص فى جلباب أبيض وعلى رأسه طاقية ، ولحيته ممتدة، وحوله ثلاثة أو أربعة أطفال يراجع لهــم دروســهم . وعندما رفع رأسه ليرد على سلامى ، وجدته مرهقاً للغاية ، وقال لى : لا تحسب أننى آخذ على هذا العمل أجراً . إننى أقوم بــه لوجــه الله . ولكى أملأ أوقات الفراغ الطويلة بشئ مفيد . زوجتى

تعاتبنى كثيراً على عدم أخذ مقابل التدريس لهؤلاء الأطفال ، لكن أولياء أمورهم ناس (على قد حالهم) ثم ابتسم قائلاً يعنى من محدودى الدخل !

شـــددت علـــى يديـــه ، وتركته يتابع مهمته الجليلة ، وأنا أقول لنفســـى إذا كـــان ســـن الســـتين هـــو سن تقاعد الموظف عن الخدمة الحكومية ، فهل يكون أيضاً هو سن انتهاء العمل بالنسبة للإنسان الذى مازال قادراً على العطاء ؟ الواقع أن العناية الصحية التى شهدتها بلادنا لـــم تعد تجعل من سن الستين بداية حقيقية للشيخوخة ، بدليل أن كثيراً ممـــن يبلغون هذه السن يكونون فى أحسن صحة وأطيب حال . وتبقى المشـــكلة فى تهيئة فرص الحياة والعمل المناسب أمام هؤلاء ؟ وهنا قد يقـــول قـــائل : وهل انتهينا من تشغيل الشباب حتى نعمل على تشغيل الشـــيوخ ؟ وأســـارع فأقول : أجل، ، لابد أن نعمل فى الاتجاهين ، أن نوفـــر للشـــباب العمـــل المناسب لقدراته وأن نهيئ للشيوخ المجالات المناســـبة لخـــبراتهم. وبرزت فى ذهنى فكرة ، نشأت من عمل الأستاذ ســـليمان نفســـه : لمـــاذا لا نكلفهم بمساعدة أبنائنا من خلال إعطائهم دروس تقويـــة لقـــاء أجـــر بسيط يتم جمعه من أولياء الأمور ، وبذلك نضرب عصفورين بحجر واحد : نريح العائلات من المبالغ الطائلة التى يدفعونهـــا للـــدروس الخصوصـــية ونفـــتح مجالاً لهؤلاء المحالين إلى المعـــاش لكى يقدموا خبرتهم للأجيال الجديدة. وأنا على ثقة من أبناءنا ســـيجدون لديهم من العطف والحنان والفائدة العلمية ما لا يجدونه عند محترفى الدروس الخصوصية ، الذين أصبحوا مثل الوحوش الكاسرة !

العمـــلات المعدنـــية لازمة فى التداول اليومى تماماً مثل العملات الورقية . وقد كان لدينا على الدوام عملات معدنية (معتبرة) أذكر منها الـــريال ، والعشـــرة قروش ، والشلن (خمسة قروش) والنصف فرنك (قرشـــين) والقـــرش صـــاغ (عشرة ملاليم) والتعريفة (خمسة ملاليم) وأخـــيراً الملـــيم . . وبالطـــبع كان لكل واحد من هذه العملات المعدنية قيمـــتها ، وكذلك أهميتها فى مساندة العملات الورقية التى كانت تقتصر على الورقة ذات المائة جنيه ، والعشرة جنيهات ، والخمسة جنيهات ، والجنيه ، ثم الخمسين قرشاً ، والعشرة قروش وأخيراً الشلن الورقى .

ومـــثل كل شئ فى الحياة ، فإن قانون التطور قد أصاب العملات المعدنـــية كما يصيب الأحياء والأشياء . فقد اختفى بعضها من أيدينا ، وبقـــى البعض الآخر لكنه أصبح ضعيفاً ، ومتهالكاً ، ومصنوعاً أحياناً مـــن الألمونـــيوم ، وأحياناً أخرى من النحاس الكالح ، وليس هذا هو المهـــم ، فمـــن الممكـــن أن يظـــل الناس يتعاملون (بالفكة) إلى جانب العمـــلات الورقـــية أيـــاً كان وزنها وحجمها وجمالياتها ، مع أن البلاد الأوربية كانت وما زالت تتفنن فى إخراج العملة المعدنية بحيث تجعلها

تحفـــة فنية إلى جانب قيمتها المالية ، ويكفى أن تنظر إلى شكل فرنك (مونـــاكو) أو (الـــيورو المعدنى) لتجد نفسك مدفوعاً إلى الاحتفاظ به ، بـــدلاً مـــن إنفاقه ، لأنه يبرق ويضوى ويزدان بصورة جميلة . . أما العشـــرة والخمسة قروش المعدنية فقد فقدت معناها كما فقدت قيمتها ، لأنهـــا بالإضافة إلى شكلها وهزالها لم تعد تشترى أى شئ ، بل إنها لم تعد تدخل عنصراً أساسياً فى شراء أى شئ . ويكفى دليلاً على ذلك أنك عندما يتبقى لك ما يعادلها فى إحدى الصيدليات يعطونك بدلاً منها قرص أسبرين !

لذلـــك ينحصر اقتراحى هنا فى الإقدام دون خشية على إلغاء هذه العملات المعدنية ، مع الاستفادة بمادتها فى صنع أى شئ يفيد الناس ، بدلاً من إنفاق الكثير على صكها وإنتاجها وتوزيعها ، فى الوقت الذى لا ينـــتفع بهـــا أحـــد . وقـــد حدثنى أحد الأصدقاء أن أبناءه يلعبون بهذه العمـــلات ، وهـــم متأكدون تماماً من أنها لا تصرف ولا تشترى شيئاً . وفى المقابل من ذلك يمكن توجيه الاهتمام إلى العملات الورقية ، بهدف الارتقـــاء بهـــا ، والحق يقال إنها قد تطورت بالفعل كثيراً عما سبق ، وهذا أمر يُشكر عليه القائمون على صك النقود ، التى ندعو الله تعالى أن يجعلهـــا تجـــرى فى أيدينا ، لكى نواجه بها ارتفاع أسعار السلع فى عصر العولمة !

إلى دعاة المجتمع المدنى

محكـــوم بالفشـــل على أى محاولة لجعل المجتمع المصرى مجتمعاً مدنـــياً بمعـــنى تجـــريده مـــن جذوره الدينية ، التى ترجع إلى حضارته المصـــرية القديمـــة ، ثم إلى ما غرسته فيه الأديان السماوية ، وخاصة المســـيحية والإســـلام . والذين يروجون لمصطلح " المجتمع المدنى " إما ســـطحيون أو أصحاب مصالح خاصة . ولبيان ذلك أقول : إن هذا الشعب الذى سكن وادى النيل ، وربط مصدر رزقه بمياه النهر الجارى، استطاع فـــى وقـــت قياسى أن يقيم حياة اجتماعية ، وتنظيماً إدارياً وسياسياً على مســـتوى عـــال من الرقى والتحضر. وفى اللحظة التى ضمن فيها رخاء العـــيش لأبنائه ، راح يفكر فى أصل الكون ، والغرض من وجوده ، وما هو المصير ؟ وفى محاولته التوصل إلى إجابات مقنعة لروحه وعقله معاً علـــى هذه الأسئلة الفلسفية ، توصل الشعب المصرى إلى عدد من الأفكار التى أكدتها الأديان السماوية فيما بعد ، وأهمها فكرة توحيد الإله ، وفكرة البعـــث بعـــد المـــوت . . وهمـــا الفكرتان اللتان قام عليهما نظام أخلاقى متكامل ، كان هو أساس سلوك المصريين القدماء بعضهم مع بعض ، ثم مـــع الشعوب المجاورة . . وهكذا انطبع فى أعماق المصريين منذ آلاف الســـنين أفكـــار ومبادئ دينية توصلوا إليها من تلقاء أنفسهم ، لذلك فإن الأديـــان السماوية عندما جاءت إليهم امتزجت بهم على الفور ، وهذا ما يفســـر ظهـــور عصـــر الشهداء المسيحيين الذين قدموا أرواحهم تمسكاً بعقـــيدة المســـيح ضد اضطهاد الحكام الوثنيين ، كما أنه يفسر أيضاً ذلك الإقبال الكاسح على دخول المصريين فى الإسلام ، دون أن يفرض عليهم من جانب الفاتحين العرب.

النقطة الأساسية هنا هى أن الإحساس الدينى العميق لدى المصريين لم يمنعهم أبداً من صنع روائع أعمالهم وتنظيم شئون حياتهم بالصورة التى تحقق مصلحة الفرد والمجتمع ، ودون أن تتعارض على الإطلاق مع تصوراتهم الدينية . والسبب فى ذلك أن المصريين يدركون جيداً أن الدين حاجة ضرورية لا يمكن للإنسان أن يستغنى عنها فى حياته، وإلا انقلب إلى حيوان، لا هم له سوى إرضاء رغباته وشهواته.

ومن المؤسف أن هذه النقطة الأساسية - رغم بساطتها - تغيب عن دعاة المجتمع المدنى ، الذين يظنون أن الدين يعادى التقدم ، وأن الاستثمار لا يحدث إلا فى بيئة تخلو من الدين تماماً ، حتى لا يكون هناك أى قيد عليها . .

أما النقطة الثانية فتتمثل فى عدم فهم الدين فهماً صحيحاً ، يوفر سعادة الأفراد، واستقرار المجتمع . ومن المؤكد أن غياب مثل هذا الفهم هو الذى أفرز العديد من حالات التطرف ، وجماعات الإرهاب التى تقنعت بالدين ، والدين منها برىء. وإذن من الخطأ أن نؤسس فكراً عاماً على مجموعة حالات عارضة ، تحدث فى ظروف خاصة .

إن الدين كان وسيظل ضرورة حيوية للإنسان ، كما أنه عامل هام فى تنظيم علاقاته مع الآخرين . وهو لا يمنع على الإطلاق أى رغبة فى التقدم لدى الأفراد ، أو توجهات للازدهار لدى المجتمعات ، وبالتالى فإن دعاة المجتمع المدنى عليهم أن يعيدوا النظر فى موقفهم ، وأن يصححوا أفكارهم التى استوردوها من الخارج ، وهى لا - ولن تحظى فى مجتمعنا بأى قدر من القبول .

قلت له : وماذا بعد ؟ قال : إن تغيير الأشخاص لن يكون له أى أثر طالما ظلت السياسات الاقتصادية القديمة كما هى . يكفى أن تعلم مثلاً أن مواردنا من النقد الأجنبى لا تكاد تبلغ خمسة مليارات دولار ، فى حين أن احتياجاتنا تصل إلى عشرين مليار . أى أن الفارق الذى ينبغى تقليله إن لم يكن القضاء عليه تماماً هو خمسة عشر مليار دولار.. وبالتالى ماذا يفعل الوزير الفلانى إذا جاء ؟ وما ذنب الوزير الفلانى إذا ذهب ؟ المسألة إذن تتطلب وضع سياسة حكيمة ورشيدة يتم تطبيقها بحسم وبدون مجاملة أو تهاون يكون هدفها تقليل المسافة الشاسعة بين الموارد والاحتياجات ، بحيث نصل من خلالها إلى تقليل مبلغ الـ 15 مليار التى تسبب كل أمراض الاقتصاد المصرى الحالية من انعدام سيولة ، وركود منتجات محلية ، وشيوع بضائع أجنبية مهربة ، وانفلات دولارى لا يوجد مثيل له فى أى بلد آخر .

سألته : وما هى أسس تلك السياسة الاقتصادية الرشيدة التى تشير إليها؟ قال: ليس عندى وحدى كل الإجابة ، بل إنها متناثرة لدى كل أفراد الشعب المصرى. ومن واجب الحكومة أن تضع بين يدى كل فرد من أفراد المجتمع حقيقة الموقف ، لكى يفكر هو بنفسه عن حل له . . ومن مجموع هذه الحلول التى قد تكون جزئية، وأحياناً ساذجة، يمكن تركيب حل جماعى للمشكلة برمتها.

قلت له: وما هى الآليات لذلك؟ قال: المنهج العلمى يقتضى تقسيم المشكلة الضخمة إلى عناصر صغيرة ، وفحص كل عنصر على حدة . فمثلاً : يمكن للحكومة نفسها أن تضع خطة لكيفية ترشيد نفقاتها ، تقوم بها كل وزارة ، وما يتبعها من إدارات وأقسام ، ونفس الشئ يمكن أن يقوم به رجال الأعمال الذين يستوردون السلع الأجنبية من الخارج ، ثم الجمعيات الأهلية التى أصبحت تتسابق فى تنظيم رحلات العمرة ، وأخيراً العادات المصرية الاستهلاكية الحديثة

الـتى راحت تتفاخر بإقامة الولائم فى أفخر الفنادق ، ولا تقضى الصيف إلا فى الخــارج ، أو تركـب سيارات إلا إذا كانت آخر موديل . . ووصل بها الحال إلى اســتيراد الآيــس كريم والزبادى ، وحين تحاول أن تتناول أكلة شعبية تستورد الفول المدمس من أمريكا . .

قلــت له : لكــن يبدو أنك تميل إلى إدخالنا فى مرحلة شد الأحزمة على الـبطون ! قــال : ليس الأمر كذلك . فالاعتدال لن يضر الغالبية من المجتمع ، ولكــنه فقـط قد يضايق قلة قليلة جداً من المرفهين ، وهؤلاء يوجدون فى كل مجتمع ، وعيبهم الأساسى أنهم لا يعيشون قضايا مجتمعهم ، ويكونون – دائماً عالــة علــيه . ســأعطى لك مثالاً بسيطاً : الذى يريد استيراد سيارة من النوع الفاخر جداً لماذا لا نرفع رسوم الجمارك عليه مرتين ، ومادام قادراً وراغباً فإنه سوف يدفع ، وهكذا يدخل خزينة الدولة مبلغ ينفع فى تمويل مشروع محلى . .

مثال آخر : عندما أتاحت الدولة الفرصة للقطاع الخاص لكى يدخل مجال التعليم الجامعى ، تم إنشاء أربع جامعات ، كل طالب فيها يدفع له أهله من 20-25 ألــف جنــيه مقــابل تكاليف دراسته ، فى الوقت الذى تستوعب الجامعات الحكومــية (12+ جامعة الأزهر) غالبية أبناء المجتمع برسوم سنوية لا تتجاوز خمسين جنيهاً فى العام لكل طالب . والسؤال الآن : ماذا لو كانت الدولة قد تولت بنفســها إنشــاء مثل هذه الجامعات بمصروفات ، ألم يكن من الأجدى أن تصب عوائدها فى مجال التعليم المجانى ؟

قلــت له : هذا يعنى أن المشروعات المضمونة النجاح تظل فى يد الدولة حــتى يســتفيد المجــتمع كله من عوائدها بدلاً من أن تصب فى جيوب قلة من الأفراد . قال : أجل ، ولدينا مثال آخر : وهو شركات المحمول التى امتصت عدة ملــيارات من جيوب المصريين ، ولو كانت فى يد الدولة ، لعادت هذه المليارات إليها لكى تحسن الخدمة التليفونية العادية بدلاً من أن تترك على كاهل الحكومة وحدهــا ، بيــنما فــاز قلــة مــن الأفراد بالأرباح الجنونية التى لا نعرف أين سيصرفونها : هنا . . أم بالخارج ؟

فكرة لوزارة الثقافة

يدعـــو الفنان المبدع جمال قطب فى كتابه (روائع الفن العالمى) إلـــى ضـــرورة أن نقوم باستنساخ مجموعة اللوحات التى رسمها فنانو العـــالم الكـــبار لحضارتنا المصرية القديمة . ومن أشهر من قام بذلك الفـــنان الـــبريطانى الكبير تاديما (السير لورانس ألما تاديما) ومتحفه موجـــود فـــى قلـــب العاصمة لندن حتى الآن . وعندما سئل الفنان عن سبب إعجابه بالجمال الفرعونى ، وتسجيل الحضارة الفرعونية أجاب : إن أول مـــا يلقـــن للطفـــل عـــندنا ، وفـــى العالم كله فى دراسته عن الحضـــارات الأولى هى الحضارة المصرية القديمة ، بل إننا كلما درسنا منابع العلم أو الفن ، وجدنا أن هذه المنابع ما هى إلا روافد لنهر النيل العظـــيم ، حيـــث ظهـــرت الحضارة الفرعونية كمنارة لحضارات العالم الأخرى .

والواقـــع أن هـــذه الدعـــوة التى وردت فى ثنايا الكتاب تستحق الاهـــتمام ، الذى ينبغى أن يحولها إلى مشروع ثقافى كبير ، يمكنه أن يســـاهم فى مزيد من تعرف أبنائنا على روائع حضارتهم ، وخاصة فى عـــيون الآخرين . إن الانبهار الذى يرتسم على وجوه السياح الأجانب عـــندما يقفون أمام معالم الحضارة المصرية القديمة يشهد بأننا نمتلك كـــنوزاً أثـــرية لا تقـــدر بثمن . وهى تحتاج منا أن نشاهدها بمثل تلك

الـــنظرة ، ونعمل بالتالى على صيانتها ، وإبرازها فى الإطار الذى يليق بها ، ويضفى عليها ما تستحقه من تقدير واحترام.

أتذكـــر وأنـــا أدرس فـــى باريس ، أننى كنت أقضى الساعات فى المكتـــبات الـــتى تنتشـــر فـــى شارع سان ميشيل بباريس ، متصفحاً المجلـــدات الضـــخمة الـــتى تمتلـــئ بالصور الفوتوغرافية الناطقة بكل التفاصـــيل للآثار المصرية القديمة ، وأكاد أصرح بأننى تعرفت (هناك) علـــى روعـــة المعمـــار المصـــرى القديـــم ، بل إننى عندما بدأت أقرأ بالفرنســـية عـــن الحضارة المصرية القديمة فوجئت بأننا نحرم أبناءنا (هـــنا) من تلك الكنوز التى تجعلهم يشعرون بالاعتزاز لأنهم ينحدرون من أجداد عظماء استطاعوا أن ينشئوا على ضفاف النيل الخالد مثل تلك الحضارة الإنسانية الرفيعة المستوى .

أمـــا دعـــوة الفـــنان جمال قطب إلى الاستعانة بلوحات الرسامين العالمييـــن الذين سجلوا بريشاتهم روائع حضارتنا ، فإنها دعوة صادقة وتحمـــل فـــى ذاتها فكرة منتجة سوف تكون لها آثارها الإيجابية على ثقافـــة الأجيال الصاعدة ، وخاصة فى عصر هبط فيه فهم بعض الناس عن الفنون الجميلة إلى أدنى مستوى يمكن تصوره ، حيث راح يحرمه البعض ، ويهدم معالمه آخرون . .

عودة للتعقل

والـــتعقل هذه المرة جاء من الشباب ، وليس من أولياء الأمور ، الذيــن راحوا فى الفترة الماضية يتسابقون ويتنافسون ويتفاخرون فيما بيــنهم بإقامـــة حفــلات الخطوبـــة والزواج فى فنادق النجوم الخمسة ويدفعــون فـــى الليلة الواحدة عشرات الآلاف من الجنيهات ، ثم ينفض المولــد ، بعــد أن يتبادل المعازيم همسات التأفف من أهل العريس أو العروســـة ، وعبارات الغضب من هزال البوفيه واقتحام المدعويين له بدون ذوق ، وأحياناً يحلف بعضهم أنه بعد الفرح اصطحب أسرته لأحد المطـــاعم فـــى منتصـــف اللـــيل ليكملوا عشاءهم ، لأن الأولاد خرجوا جائعين!

قال لى أحد الشباب المتزوجين حديثاً جداً عندما سألته عن مكان الفـــرح : لقد عقدنا فى أحد المساجد الكبرى ، وسلمنا على الحضور ، وأخـــذت عروســـى وتنزهـــنا قليلاً ، ثم ذهبنا إلى شقتنا الجديدة . هكذا بـــدون حفـــل فـــى أحد الفنادق ؟ أجاب : ولماذا هذا السرف ، والإنفاق بـــدون داع . لقـــد أقنعت عروسى بذلك ، وقبلت وهى راضية ، وبذلك وفرنا المبلغ لندفعه مقدم سيارة ، أو نشترى به غسالة أطباق .

سررت جداً بعقل الشاب ، وحسن تصرفه ، لكننى قلت : لعل هذه حالـــة واحدة وسط هستريا الأفراح المصرية فى الوقت الحاضر . لكن المفاجأة كانت مذهلة بالنسبة لى عندما سمعتها تكرر من أكثر من شاب وفـــتاة أقدموا حديثاً على الزواج . والعجيب أننى وجدتهم جميعاً سعداء بمـــا فعلـــوا ، مقتنعين به تماماً . الأمر الوحيد الذى عرفته منهم ، أن

أولــياء أمورهــم هم الذين كانوا مستائين ، لأنهم أرادوا ألا تقل أفراح أبــنائهم وبــناتهم عــن أفــراح أبناء معارفهم وأقاربهم التى سبق أن شهدوها .

والواقع أننى كنت أتعجب من تلك الزفة التى تتضمن مجموعة من المراسم ، تحتوى بعضها على مشاعل تندفع منها النيران ، بحيث يمر العروسان بينهما وسط أصوات زاعقة من الأغانى الشبابية .

من أين جاء هذا التقليد ؟ هل من المجوس ؟ أم من بعض القبائل المتوحشة فى غابات إفريقية ومجاهل آسيا ؟

وما العيب فى الفرح المصرى الذى كان يقام فى الشقة ، أو فوق السطوح ، ويدعى له الأهل والجيران ، ويشاهده أهل الحى ، ويفرح به أطفــال الشارع والحارة ، ويسترزق من وراء ذلك كله أصحاب محلات الفراشة ، وبائعو المرطبات ؟ وعندما يدعو أهل الفرح مطرباً أو مطربة يــتحول إلى حفل فنى يشاهده جميع أهل الحى ، وهكذا يتاح لهم سهرة فنــية تزيح من نفوسهم الهم ، وتجعلهم مهيأين لاستقبال يوم جديد . . بينما يسعد العروسان بهذا الجو الأسرى الذى يشمل المنطقة التى عاشا أو سيعيشان فيها . تحية لتعقل الشباب . . وبالرفاء والبنين والبنات .

دعيت لتسجيل برنامج رمضانى لتشجيع القراءة للأطفال . وعلى الـــرغم من أن معد البرنامج حدثنى عن شكل البرنامج ، الذى لم يرقنى تماماً ، إلا أننى قبلت ، لأننى أحب أن أشترك فى تشجيع أى عمل يخص القراءة (مفتاح الثقافة الأول) حتى ولو كانت للأطفال.

أيـــن يتم التسجيل ؟ فى مدينة الإنتاج الإعلامى . وأين هى ؟ فى طريق الفيوم والإعلانات واضحة . حسناً ، وبدأت المشوار الطويل جداً، وأخطـــأت أكـــثر مـــن مـــرة فى معرفة مكان الأستديو، لأن الإعلانات التوضيحية فى ممرات المدينة الشاسعة غير واضحة .

وهـــناك وجـــدت بعـــض أولـــياء الأمـــور ، وقد صحبوا أطفالهم المرهقين من يوم دراسى طويل ، لكنهم متفائلون ، ويبدو أن كلاً منهم ينـــتظر أن يصبح طفله أو طفلته نجماً من نجوم التلفزيون . طبعاً هذا حق مشروع، وأتمنى أن يتحقق مع مزيد من التربية والتعليم والتدريب.

وداخـــل الاســـتديو الفسيح ، وجدت (عدداً كبيراً جداً) من الفنيين والعمـــال يتحركون بعشوائية ، ويرفعون أصواتهم إلى أبعد مدى ، دون أى اعتـــبار لوجـــود ضيوف أو حتى أطفال فى الأستديو . . وبعد فترة طويلـــة جداً استغرقت حوالى ساعة ضبطوا فيها الإضاءة والصوت وما إليهما (كأنهم يفعلون ذلك لأول مرة) بدأنا نسجل .

البرنامج يضم ضيفاً (من الشخصيات كما يقولون) ثم حوالى أربعة أولاد وبنات، بالإضافة إلى (عروسة) مثل الأراجوز يحركها شاب، عندما سألته عن مؤهله قال : ليسانس آداب قسم لاتينى ويونانى ! !

وكان على أن أقرأ للأولاد قصة ، منشورة فى مكتبة الأسرة ، ضمن سلسلة قصص الأطفال . وفوجئت بأن القصة (بايخة) جداً ، وأنها تمتلئ بالألفاظ العربية الصعبة جداً ، وسألتهم : هل يمكن أن أتصرف ؟ قالوا : نعم يا دكتور ، افعل ما تراه مناسباً . وكان هذا باباً من أبواب الفرج ، فرحت أقص على الأولاد من ذهنى قصة بسيطة ثم أسألهم عن أحوالهم ، وصيامهم ، وكيف يقضون يومهم بين المذاكرة واللعب .

ويعلم الله أن أطفالنا أذكياء ، ولا ينقصهم شئ لكى يتعلموا وأن يقرأوا . . لكن أن يقرأوا هذا الغثاء الذى نسميه قصصاً للأطفال فإننى أقول : أنه مستحيل . وزاد اقتناعى بأن مجال الكتابة للأطفال قد تسرب إليه العديد من المرتزقة الذين وجدوا فى تلك المهنة (سبوبة) يتكسبون منها ، وهم أبعد ما يكونون عن فن الكتابة القصصية للأطفال.

كان هذا كله يموج فى نفسى ، وأنا أتعامل مع الأطفال المتفتحين على الحياة ، وهم لا يعرفون ما يخبئه القدر لهم من قصص وحكايات وكتب لا تحقق لهم أى فائدة ولا أى متعة .

فنادق الدرجة الثانية

أصـــبح لدينا بالفعل العديد من فنادق الدرجة الأولى . وهى على أعلى مستوى فى العمارة والتجهيز والخدمة ولا تقل بحال عن مثيلاتها فـــى ســـائر الدول المتقدمة . كذلك لدينا منذ وقت طويل فنادق الدرجة الثالـــثة أو ما نطلق عليه (لوكاندات) ، وهى التى جرى الحديث عنه مقالـــبها فى الأفلام المصرية الأولى ، وكتب عنها المبدع الكبير نجيب محفوظ فى رواياته ، لكن الذى ينقصنا بحق هو فنادق الدرجة الثانية ، التى تستجيب لمطالب الشريحة المتوسطة فى المجتمع ، التى هى ليست بالغة الثراء، كما أنها قادرة على دفع مقابل معقول لقاء خدمة معقولة..

إن مـــثل هذه الفنادق هى التى تنشط فى الواقع الحركة السياحية فى أى مدينة . وقد رأيت بنفسى فى فرنسا وإيطاليا مثل هذه الفنادق المتوسطة تمتلـــئ بروادها ، وأهم مميزاتهم أنهم يقيمون فيها لمدة تتجاوز الليلة والليلتيـــن إلـــى الأسبوع والأسبوعين . وحين نضمن إقامة سائح لمدة معيـــنة فإنـــنا نضمن فى نفس الوقت أنه سيعيش بيننا : يأكل ويشرب ويستخدم المواصلات ويمشى فى الشوارع ويشترى ما يحتاجه ، أو ما يرغب فى الحصول عليه من هدايا لأصدقائه فى بلده . .

إن فنادق الدرجة المتوسطة هى التى سوف تشجع المصريين أولاً على السياحة فى المدن المصرية الجميلة ، التى قد يقضون حياتهم دون أن يذهبوا إليها . وأنا أسألك إذا كنت من سكان القاهرة : هل فكرت فى زيارة مدينة رشيد، أو مدينة دمنهور فى الوجه البحرى ، وكذلك مدينتى المنيا وأسيوط فى الوجه القبلى . من المعلوم أن زيارة مثل هذه المدن الجميلة جداً ، والتى لها عبق خاص ، لن تتيسر بدون وجود فنادق متوسطة الحال ، ومعقولة الثمن .

ويخطئ من يعتقد أن السياحة هى اللوكس ، وهى فقط القرى السياحية وفنادق الدرجة الأولى ، بل إننى أؤكد أن رواد الدرجات السياحية المتوسطة أكثر سخاءً من رواد السياحة الفاخرة، الذين يأتون إلينا فى مجموعات سياحية ، تمنعهم من أن ينزلوا إلى الشوارع ليشتروا ما يرغبون فيه ، وتحدد إقامتهم فى أماكن مغلقة ، قد لا يشترون منها شيئاً على الإطلاق .

شجعوا إذن المواطنين على إقامة فنادق الدرجة الثانية ، وثقوا بأنها ستكون مربحة لهم . . وللمجتمع كله ، مع أطيب تحياتى لوزارة السياحة .

فى تحديث مصر

دعـوة السـيد الرئيس محمد حسنى مبارك إلى تحديث مصر فى إطار مشـروع وطـنى لتحديث الدولة المصرية لكى تصبح قادرة على التعامل مع المتغـيرات المحلـية والإقليمـية والعالمية بشكل يعكس قدرتها على مواجهة التحديات التى تجابهها فى مطلع القرن الحادى والعشرين ، هذه الدعوة من رئـيس الدولة ينبغى أن تتم الاستجابة لها من مختلف فئات المجتمع بل ومن كل قادر على المساهمة برأى أو فكرة . ولا شك أن أهم الفئات المطالبة بذلك هـى الأحـزاب السياسية ، والجهات التنفيذية ، ومراكز البحوث والدراسات ، وكذلك الجامعات التى يجب أن تكون هى الأخرى فى طليعة المشاركين فى هذا المشروع الوطنى الكبير . أما الإعلام فيظل دوره فى كل الأحيان محورياً .

وبدايـة لابـد مـن بلورة مفهوم " التحديث " ، والاتفاق على معناه أو معانـيه لكى لا تتفرق بنا الطرق ، وتتعدد الدروب ، وتكثر المؤتمرات ، وتعلو أصـوات المـيكرفونات، وتطـبع ألـوف الصـفحات ! وبدلاً من اللجوء إلى التعريفات النظرية والـرؤى الأيديولوجية ، أستعير هنا معنى التحديث لدى الإنسـان العادى الذى يرغب فى تحديث شقته . ما الذى يفهمه من ذلك ؟ إنه يفهم أن تحديث الشقة القديمة لا يعنى هدمها تماماً ثم إعادة بنائها من جديد ، وإنما إزالة الأسطح والأماكن التالفة ووضع مواد جديدة أو حديثة فى مكانها . هذه مرحلة . تليها مرحلة أخرى يمكن أن تسمى مرحلة التجميل ، وهى التى تتطلب لوناً محبباً، أو إضاءة مفضلة ، أو تكييفاً مهدئاً .. وهكذا تتحول الشقة القديمة المتهالكة إلى شقة حديثة ، تريح صاحبها ، وتشرّفه أمام ضيوفه .

ولكى يبدأ هذا الشخص فى عملية التحديث ، لابد أن يقوم بعملية مسح كامل للشقة القديمة ، لكى يقف على ما فيها من عيوب ، وما بها من مزايا . وهـنا نقطة جديرة بالاعتبار ، وهى أن صاحب الشقة من طول تعوده عليها ،

وإقامته فيها (قد) تخفى عليه بعض العيوب ، أو لا يتنبه إلى بعض السلبيات ، وبالـــتالى فـــإن عيناً أخرى أجنبية عن الشقة (قد) تساعده منذ الوهلة الأولى علـــى هـــذه العـــيوب الســـلبية ، بل إنها قد تؤكد له ما فى الشقة من مزايا وإمكانيات.

نقطـــة أخـــرى جديرة بالاعتبار ، وهى التى تتعلق بضرورة اتساع أفق صـــاحب الشـــقة المـــراد تحديثها لكى يشمل رؤية عدد من التجارب المماثلة لتجربته فى تحديث الشقق . فلاشك أن هناك العديد ممن سبقوه فى هذا العمل، ومـــن بينهم الذين نجحوا بالفعل فى عملية التحديث . فهل يعقل أن ينفرد هذا الشـــخص برؤيـــته الخاصـــة فى التحديث ، أم يضع فى حسبانه تلك التجارب المماثلـــة، بحيـــث يقارن بينها ، ويفاضل، ثم يختار . ومن المؤكد أنه سوف يلـــتقى فى هذا الصدد بعناصر تكلفة الإصلاح ، وأسلوبه، ومتطلباته ، والزمن الذى يستغرقه ، إلى جانب الجهات والأشخاص الذين يقومون به.

وهـــنا نكتة فرنسية تقول إن أحد الأزواج اختلف مع زوجته على عدد لفات الورق لتغطية جدران شقتهما . وأخيراً طلبت منه الزوجة أن يصعد إلى جارهمـــا فـــى الشقة الأعلى ، المماثلة لشقتهما تماماً ، ليسأله: كم لفة ورق اشـــتريتها لشـــقتك ؟ وعـــاد الزوج فقال لزوجته : قال لى (32) لفة . سكت النزاع ، وتم شراء العدد ، ثم فوجئت الزوجة بأن الشقة أخذت (30) لفة فقط. فراحت تعاتب زوجها بأنه لم يسمع جيداً من جارهما ، وأنه أخطأ فى لفتين . فأكد لها أنه سمع جيداً ولم يخطئ، وراحا يتناوشان حتى قرر الزوج أن يصعد لجـــاره مـــرة أخرى ويتأكد منه . وعندما سأله : كما اشتريت لشقتك : أجاب الجـــار : (32) لفـــة – فقال له : إن الشقة تأخذ (30) فقط . فلماذا أخبرتنى بأنهـــا (32) ؟ ! فقـــال الجـــار ببرود : أنا أيضاً قد فاض عندى لفتان. وأنت سألتنى كم اشتريت ؟ فقلت لك الحقيقة ! !

كدت أموت مثلهم

فـــى نفس أوتوبيس السوبرجيت ، الدقيق جداً فى مواعيد إقلاعه ووصـــوله ، والمتهور جداً فى سيره ، قطعت التذكرة مثل باقى الركاب من القاهرة إلى الغردقة ذهاباً وإياباً بعد أسبوع ، هو عبارة عن الفترة الـــتى أقضـــيها فى إحدى القرى السياحية على شاطئ البحر الأحمر ، الدافـــئ الوديع . تستغرق الرحلة بهذا الأتوبيس خمس ساعات بالتمام والكمال . وفى البداية ، منذ عدة سنوات كان السائق رجلاً يبدو مثقفاً، ويـــرتدى نضـــارة نظـــر ، وهـــو شديد الاحترام ، لا يسمح لأى راكب بالـــتحدث معـــه أثناء القيادة ، وكذلك مع مضيفة الأتوبيس ، التى كان دورهـــا ينحصـــر فـــى تزويده بكوب شاى من وقت لآخر . كان الرجل يســـوق بـــتعقل ، ويـــتفادى المطبات ، ويهدئ عند المنحنيات ، ولا يسبق باصاً آخر إلا بعد أن يسمح له صاحبه . أما منذ سنتين تقريباً ، وهو التاريخ الذى أقلعت فيه عن ركوب هذا الأوتوبيس الجاد ، فقد راح يسوقه أشخاص يبدو عليهم الإهمال ، وازدراء الركاب ، ولا مانع لديهم من مسامرة المضيفة ، بل إننى شاهدت أحدهم ذات يوم يسمح لشخص زائـــد بالركوب على الأرضية بجواره ، دون أن يرتدع بقانون الشركة الذى يمنع ذلك منعاً باتاً .

أمـــا الحادثـــة الـــتى كـــدت أموت فيها تماماً ، مثل راكبى نفس الأوتوبـــيس الـــذى كـــان متجهاً إلى الصعيد وسقط فى الترعة بجوار

الفشـــن، فقـــد تأخـــر عن موعده دون داع ، وحين بدأ فى الخروج من مديـــنة الغـــردقة راح سائقه يزيد من السرعة حتى تحول إلى مجنون، وعـــندما ذهـــب أحـــد الآباء ليحدثه بكل ذوق عن خوف أبنائه وبناته وزوجـــته مـــن تلك القيادة المتهورة ، نهره السائق بشدة ، الأمر الذى جعلـــنى وغـــيرى نـــتدخل للتهدئة، ونقول له بكل صراحة: أنت بالفعل تسوق بسرعة أكثر من اللازم، فانفجر فينا جميعاً : أنا عارف أنا بأعمل إيـــه ؟ يعنى لا أريد منكم نصيحة ، وعلى كل منكم أن يغلق فمه ؟ ماذا نقول وماذا نفعل ؟ نظر بعضاً إلى بعض ، ولم نشأ أن ندعو عليه حتى لا تصـــيبه دعواتنا ، ونروح كلنا معه فى داهية ! لكن جارى أقسم أنه عندما يصل إلى القاهرة سيكتب لمدير الشركة تقريراً عن هذا التدنى فى المعاملـــة ، والرعونة فى قيادة الأوتوبيس . وطبعاً لم أرى جارى بعد ذلـــك ، واكتفيـــت بعدم ركوب هذه الحافلة التى تعرض ركابها للموت ، وقلـــت : أستخدم الطائرة بدلاً من ذلك ، على الرغم من تكلفتها العالية جداً . . لكن تغور الفلوس أمام حلاوة الروح !

تذكـــرت ذلك كله بمناسبة انقلاب أوتوبيس السوبرجيت فى ترعة بجوار الفشن، انتشل منها 26 جثة ، يرحم الله أصحابها ، وتجرى حالياً محاكمـــة السائق ، الذى لن أدعو له بالرحمة ، ولا بالراحة فى الباقى من عمره .

إغلاق ملف بايخ

حســـناً فعل القضاء المصرى حين أغلق ملف الدكتور سعد الدين إبراهـــيم ، المصــــرى الأمريكى ، أو الأمريكى المصرى ، الذى كان قد اتهم بارتكاب مخالفات مالية من خلال مركزه المسمى ابن خلدون والذى كانـــت من مهامه إجراء دراسات عن حقوق الإنسان فى مصر . وطبعاً الدكـــتور زماته فرحان ، وكذلك كل الذين ساعدوه أثناء محنته ، وأيضاً كل من ضغطوا لإعادة محاكمته حتى يحصل على البراءة .

لا يهـــم كـــل هذا ، وإنما المهم الآن ، أو منذ الآن ، هو ألا يترك الحـــبل على الغارب لكل من هب ودب لكى يقيم مركز دراسات من هذا القبـــيل فـــى مصر . وأن تكون تجربة ذلك المركز الذى كان يمول من الخارج كافية لمتابعة كل المراكز المماثلة ، ومحاولة التأكد من مصادر تمويلها ، لأنه من المعروف والثابت أن (من يمول) هو الذى يتحكم فى البحث وكذلك فى نتائجه .

كذلـــك مـــن المعـــروف والثابـــت أن إجـــراء مثل هذه الأبحاث والدراســـات والاســـتبيانات فى مصر ليست إلا جزءاً من مخطط أجنبى لفـــتح ثغـــرات فـــى نسيجها الوطنى ، وهو نسيج أكثر تماسكاً مما هو موجـــود فـــى دول العالم المتقدمة . ويكفى أن نذكر هذه البلاد بأن ما يوجـــد بها من العرب والمسلمين لا يحظى بحقوقه السياسية فى العمل التشـــريعى والتنفـــيذى ، كما أن حقوقهم المدنية والاجتماعية والثقافية

غـــير معترف بها تماماً . والدليل على ذلك ما اتخذه الغرب ضدهم من إجراءات ، بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر .

ولا أريـــد هنا أن أذكر ما لدينا من محاسن وما لدى الآخرين من مســـاوئ ، فـــى هـــذا المجال بالذات ، ولو عقدنا مقارنة بسيطة لظهر بوضوح مدى المفارقة ولتكشفت حقائق مفزعة لنا ولهم على السواء . لكـــن العاملين فى مراكز حقوق الإنسان المصرية وخاصة من مزدوجى الـــولاء يبتعدون تماماً عن تلك المقارنات ، ويركزون على البحث عن بعـــض السلبيات لدينا ، لكى يبعثوا بها للخارج فى إطار تشويه الصور بين الثقافات ، وإشعال نار العداء بين الحضارات .

ما الذى ينبغى أن نستفيده من تجربة د. سعد الدين ؟

أولاً : ألا يتصـــدى للعمـــل العـــام من هو مزدوج الولاء ، أى صاحب جنســـيتين وعليه يكتفى فقط بالنشاط الاقتصادى الذى تتيحه مصر لكل مستثمر أجنبى .

ثانـــياً : المتابعة الدقيقة لكل مراكز البحوث التى تسرب معلومات غير موثقة أو غير صحيحة عن مصر إلى الخارج .

ثالـــثاً : الـــيقظة الدائمـــة لكـــل من تسول له نفسه أو تدفعه مصالحه الشخصية إلى الإساءة إلى نسيج مصر الوطنى .

ومبروك البراءة يا دكتور سعد ! !

قافلة اليوم الواحد

تضـــم هـــذه القافلـــة مجموعة من أساتذة الجامعات ، والأطباء ، ومحبى العمل العام ، ثم تتجه ومعها بعض الإرشادات والأدوية البسيطة إلـــى إحدى القرى ، حيث تقيم فيها يوماً كاملاً بين أهلها ، تدعوهم فيه إلـــى ضـــرورة الحفاظ على البيئة بإزالة المخلفات ووضع القمامة فى مكـــان محدد ، كما تحثهم على زراعة شجرة أمام المنزل، مع الاهتمام بنظافة شوارع القرية ، والطرقات الضيقة بين المنازل .

أمـــا طبيـــبات القافلة فتقمن بتوعية المرأة الريفية بأهمية تنظيم الأســـرة ، وصحة ربة البيت وأطفالها . كما تقوم المشرفة الاجتماعية بتوعـــية نساء القرية بالسن المناسب لزواج الفتيات ، حتى لا يتعرضن لمصـــاعب الحمـــل والولادة فى وقت غير ناضج . ومن خلال الأحاديث الوديـــة بيـــن المشرفات والطبيبات ونساء القرية يمكن أن تبرز بعض المشكلات العائلية التى يمكن تقديم حلول علمية لها .

ومن أهم ما تقوم به القافلة محاولة التوعية بمحو الأمية ، سواء كانـــت أمـــية قـــراءة وكتابة ، أم أمية حرفية مثل عدم معرفة الحياكة والتفصيل والتريكو ، وأنا شخصياً أعتبر أن تعليم إعطاء حقنة لمريض يعتبر من صميم محو الأمية .

تحـــاول القافلـــة أيضـــاً أن تبصر أهل القرية بأهمية الإقبال على بعـــض الصـــناعات الصـــغيرة ، غير التقليدية ، مثل أشغال الخشب ،

والجلد، والمعادن ، كما تشجعهم على صناعة النسيج ، وعمل الأقفاص مـــن جريد النخيل . وهناك طريقة اقتصادية تستطيع بها المرأة الريفية أن تعـــيد اســـتخدام الزيوت المستعملة فى صنع صابون سائل لتنظيف المواعين ، وهذا ما يدخل فى باب إعادة تدوير النفايات .

حدثـــنى بعـــض مـــن يشـــاركون بحماس فى هذه القوافل أن ما ينقصهم يتمثل فقط فى المزيد من المتطوعين ، وبعض الدعم من رجال الأعمـــال ، إلـــى جانـــب بعض التبرعات من شركات الأدوية والملابس والمواد الغذائية . . والواقع أن أمثال هذه القوافل تستحق الدعم الكامل مـــن الجهات الحكومية والمنظمات الأهلية ، نظراً لما تؤديه من رسالة نبـــيلة فـــى نشـــر الوعى الصحى والبيئى فى القرية المصرية . . تلك القـــرية الـــتى خرجنا جمعياً منها ، وتمرغنا ونحن صغار فى ترابها ، والتقطنا التوت من شجراتها ، وأطفأنا لهيب الحر بالغطس فى ترعها . وهكذا فإن للقرية المصرية ديوناً كثيرة فى أعناقنا ، ومن واجبنا نحوها أن نمد إليها يد العلم وأجنحة الثقافة الحديثة لكى نرتقى بمستوى الحياة فيها .

تحـــية لكل المشاركين فى قوافل اليوم الواحد بالقرى المصرية ، وتمنـــياتى بـــأن يجدوا ما يطالبون به من دعم بسيط للغاية ، من أجل نجاح عملهم الإنسانى الكبير .

فى ميدان الحسين

نشأت فى حى الحسين ، واستمتعت بكل مافى هذا الحى من عبق التاريخ ، وحسن استقبال السياح – ومازلت من وقت لآخر أذهب إلى هناك بدافع الحنين إلى الماضى ، واستعادة الإحساس بالجميل برؤية الناس والأشياء – بعد تناول وجبة شهية فى محلات الحسين العامرة بالخير ، جست على مقهى فى الميدان الذى أصبح أكثر اتساعاً ونظافة، وأسعدنى رؤية الباصات التى تنقل السياح فاطمأننت إلى حالة الاستقرار التى تنعم بها مصر ، بفضل السياسة الحكيمة التى أرسى قواعدها الرئيس مبارك ، والتى أثبتت للعالم كله أننا بلد مسالم ، وآمن ، ويستحق أن يزار . . من المقهى ، بدأت أشاهد واجهة مسجد الأزهر العريق ، بمآذنه الرائعة ، التى ارتفعت على مدى أكثر من ألف عام ليدعو المؤمنين إلى الصلاة ، ومن تحتها الأروقة التى حافظت على العلوم العربية والإسلامية وحولها التف العديد من العلماء والطلاب من مختلف أقطار العالم العربى والإسلامى . لكننى كنت أرجو أن يتواصل ميدان الأزهر مع ميدان الحسين ، ولن يتم ذلك إلا بإزالة مشيخة الأزهر القديمة ، خاصة وأنه قد أقيمت بدلاً منها مشيخة أخرى أكثر حداثة وروعة فى منطقة الدراسة . . أما المقاهى فإنها تعج بالرواد الذين يأكلون ويشربون ، ويستريحون . . ولا يفسد المكان سوى سيارات ، ملاكى وأجرة ، تنفلت من نظام المرور الصارم ، وتجدها تزحم المشاة

حــول الطــرقات الضــيقة بجــوار مسجد الحسين ، وفى شارع السكة الجديــدة . . وبقــدر مــا تــزعج السياح فإنها تزعج المواطنين الذين يحــتاجون إلى مشاهدة المعروضات لشرائها . . وهناك ملاحظة أخرى على البضائع التى تمتلئ بها محلات خان الخليلى . . فأصدقاؤنا التجار أصبحوا يعرضون كما كبيراً من التحف الفرعونية ، مع أن الحى يتميز بطابعــه الشعبى ، والدينى ، والسياح الذين يزورنه يدركون ذلك جيداً ، ولذلــك فإنهم لا يقبلون إلا على شراء الأشياء الصغيرة والبسيطة وهنا أفــتح قوساً لأقل لتجار الذهب : إن السائح الأجنبى وخاصة السيدات لا يشترين الذهب المقادير الكبيرة التى تقبل عليها المرأة المصرية ، وإنما يكفــيها فقط سلسلة بسيطة ، ولعبة ذهبية أو فضية صغيرة جداً . ومع ذلــك فإن محلات الذهب مليئة بكل ما هو ثقيل ! بقى أمر أخير ، وهو مــدى الإزعــاج الذى يسببه الصبية الذين يمرون ببضائع مزيفة على الســياح ، وهــم جالسون فى المقاهى ، ويظل هؤلاء يلحون، والسياح يرفضــون حتى يبدو الضيق عليهم بوضوح . يا جماعة : السياحة فن وذوق، وحسن عرض لما لدينا ، ولن تنجح إلا إذا جعلت السائح يغادر مصر وهو مصمم على العودة إليها مرة أخرى.

كلام البنوك والرياضة

هـــناك مجالان يكثر الكلام حولهما ويقل العمل ، وتعلو الأصوات فـــى أروقـــتهما وتكاد تنعدم النتائج ، أو تخرج هزيلة ، وهما الرياضة والبـــنوك . أمـــا الرياضة فإنها تأخذ عدداً هائلاً من صفحات الجرائد ، ووسائل الإعلام ، ويروح المشتغلون بها يتحدثون ويتحدثون ، وأحياناً يتشاجرون ، وفى النهاية نشاهد المباريات فلا نجدها تستحق كل ما قيل عـــنها ، أو حتى ما تم إنفاقه وإعداده لإخراجها. وكنت أتمنى أن يكون الحديث عن الرياضة مجرد تعليقات وتعقيب على ما يحدث فى الملاعب، مـــن أجـــل تجنب الأخطاء ، وتعظيم الإيجابيات . أما أن نظل مشغولين بانـــتخابات رؤساء النوادى ، ومجالس إدارتها ، وفلان يصارع الآخر ، وشـــلة فـــلان تنتصر على شلة منافسه ، فهذه مضيعة للوقت ، وشغل للرأى العام بقضايا زائفة.

نفـــس الشـــئ ينطبق على البنوك ، التى هى عبارة عن مصارف لتجمـــيع الأموال، وحفظ الودائع ، وتسليفها لمن يحتاج إليها فى إقامة مشروع بشرط تقديم الضمانات الكافية . وهذه عملية بسيطة تجرى فى كـــل دول العـــالم دون ضجيج ، ودون (لخبطة) فى العلاقات بين البنك المركـــزى ، وسائر البنوك الأخرى ، التى بلغ عددها عندنا سبعين بنكاً راح الحديـــث فيها وحولها يكثر ويكثر حتى وجدنا بعضها يسقط متعثراً من سوء الإدارة ، أو فساد الذمم أو السببين معاً.

الواقع أن هناك مجالات ينتظر منها أن تقدم نتائج أعمالها للناس دون ضجيج. فنحن نرغب فى مشاهدة كرة القدم فى الملاعب أو فى التلفزيون ، ولا يهمنا أن إدارة نادى كذا مختلفة مع بعضها البعض ، ولا حجم مرتب المدرب الأجنبى ، ولا صراع الديكة فى داخل مجلس إدارة النادى . كل ما يهمنا هو التمتع بكرة القدم ، اللعبة الشعبية الجميلة والمثيرة .

كذلك يهمنا جداً أن نتعامل مع البنوك بسهولة وسلاسة ودون تعقيدات ، أو طوابير ، أو نقود بالية ، أكل عليها الدهر وشرب ، حتى وصل الحال بالسياح اليابانيين أن يمتنعوا عن المجئ إلى بلادنا بسبب العملات الورقية المتهرئة وغير الصحية . . والحقيقة أننى كلما شاهدت كبار رجال البنوك يتحدثون عن نظرياتهم العبقرية فى التليفزيون ، تذكرت هذه الأوراق التى أحملها فى جيبى ، ودعوت عليهم . . فبدلاً من هذه النظريات ، كان من واجبهم أن يصلحوا هذا الخطأ ، وأن يكثفوا جهودهم من أجل إصلاح البنوك ، لكى تصبح أكثر كفاءة ، وأكثر إنسانية فى معاملة زبائنها.

أيها السادة ، كفانا كلاماً ، فقد شبعنا منه ، وأعتقد أن الوقت هو وقت العمل ، والعمل الجاد فى عصر لم يعد يتحمل إلا الجد ، والمثابرة، والحرص على الفوز فى المنافسات العالمية .

التليفزيون جهاز العصر

سوف يظل ظهور التلفزيون فى الستينات من القرن العشرين من أهم الأحـــداث فى تاريخ الحضارة الحديثة . فقد أصبح هو أهم وسيلة يلجأ إليها المواطـــنون فـــى ســـائر دول العالم لمعرفة الأخبار ، واستقاء المعلومات ، وقضـــاء أوقـــات الـــراحة والتســـلية . وفى البلاد النامية بصفة خاصة حل التلـــيفزيون محل الرحلات ، لأنه نقل العالم إلى المنزل ، فلم يعد هناك حاجة للانـــتقال إلى بلاد بعيدة لمشاهدتها ، ولا إلى تكاليف باهظة لإنفاقها، كما أنه أصـــبح مصدراً أساسياً للعديد من الإرشادات الصحية والتعليمية ، والنصائح الاجتماعـــية ، والتوعـــية الدينـــية . والخلاصـــة أنه أصبح (جامعة ثقافية) مـــتكاملة يمكنها أن تضع الإنسان فى قلب العصر ، وأن تخرجه بالتالى من العـــزلة والـــتقوقع ، وتفتح حوله العديد من النوافذ لمعرفة كل ما يجرى فى العالم سواء كانت أفراحاً وإنجازات ، أو حروباً ومصائب.

وقـــد تطـــور التلفزيون نفسه ، فأصبح ملوناً ، ووسع دائرة انتشاره فأصـــبح يبث عشرات القنوات ، واستخدم الأقمار الصناعية فأزال الحواجز المصـــطنعة بيـــن الدول ، ووجد فيه التجار ورجال الصناعة وسيلة لترويج بضـــائعهم ومنتجاتهم فاستخدموه فى إعلاناتهم التى ثبت تأثيرها الفعال فى جمهـــور المشاهدين ، إلى حد أن من أراد أن يسوق سلعة خصص ما يقرب مـــن نصف تكلفتها للإعلان عنها فى التلفزيون . وبالتدريج راح التلفزيون يخـــرج من سيطرة الدول إلى ملكية الأفراد والشركات . ومن المؤكد أن هذه الخطـــوة أدت إلـــى انحراف وأحياناً تجاوز فى وظيفة التلفزيون الإعلامية، وحولـــته هـــو نفسه إلى سلعة تجارية يتحكم فيها من يملكها . والدليل على ذلـــك ما بدأ يحدث من تشفير بعض القنوات ، الأمر الذى حرم الجمهور من

الاستمتاع بما كان يتوقعه من مشاهدة برامج محببة إلى نفسه مثل مباريات كرة القدم ، أو حفلات بعض نجوم الغناء .

ومــن المفارقــات أن التليفزيون بدلاً من أن يسير فى اتجاه التوسع والانتشار عاد فأصبح مقتصراً فقط على من يملك ليدفع ثمن مشاهدته . أى أن الفقــراء لــن يشــاهدوا سوى البرامج العادية أو الهزيلة ، بينما يتمتع بالبرامج الجذابه والقوية طائفة قليلة من القادرين على دفع ثمن مشاهدتها، تمامــاً مثل السينما والمسرح . لكن هذا لا يعنى أن يغلق التليفزيون شاشته تمامــاً فــى وجــوه الفقراء ، فإن حاجة التلفزيون إلى مشاهديه لا تقل هى الأخــرى عــن حاجة المشاهدين إليه . ويكفى أن نلاحظ العديد من البرامج الــتى تحاول جذب الجمهور إليها بكل الوسائل ، حتى أنها أصبحت تدفع لهم مــبالغ طائلة لكى يتابعوها . وها هى الجوائز ترصد، ومسابقات المعلومات تــتوالى، وأحــياناً يطرح التلفزيون سؤالاً ساذجاً ليجيب عليه الجمهور حتى يكافــئه علــيه . . وفى هذا المجال ، أصبح على التليفزيون أن يحسّن من بــرامج ، وأن يجــذب المشاهدين له بكل وسائل الجذب والإبهار ، حتى أن بعــض البرامج بلغ عدد مشاهديها مئات الملايين ، بل أن هناك من البرامج والمسلســلات مــا أصــبح الناس فى مختلف دول العالم ينتظرون بثها لكى يجلسوا أمام التلفزيون لمشاهدتها.. وقد تطورت تكنولوجيا البث حتى أصبح الحــدث يــتم نقله فى نفس لحظة وقوعه . ولعلنا جميعاً قد رأينا كيف تبدأ الحــرب ، وتــتطور ، وتخــتم أعمالها . كما أصبحنا نرى الحياة فى أعماق البحر ، والإنسان وهو يقيم فى حالة انعدام الوزن بالفضاء . .

وهكــذا فــإن العــالم أصــبح بالــتلفزيون يملك أقوى وسيلة إرسال واســتقبال ، وأهــم جهــاز يمكنه أن يوجه الرأى العام ، ويرتقى أو يهبط بــأذواق المشاهدين . ومن عجائبه أن أى إنسان يعارضه لن يستطيع مهما قاوم أن ينجو من تأثيره عليه !

كيف يضعف القانون

قرأت للإمام محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، والمتوفى سنة (1905) مقالة منشورة سنة 1886 يقول فيها " والشعب المصرى جبل (أى طُبع) على عدم حب النظام ، وإذا فرض عليه ، ظل يعمل بكل الوسائل حتى يتخلص منه " وقد حاولت مراراً أن أثبت لنفسى خطأ هذا القول ، فلم أستطع ، لأننى من خلال تجاربى ومشاهداتى ، ألاحظ أن القوانين فى مصر لا تقل عن مثيلاتها فى معظم الدول المتحضرة . وأنها مبسوطة ومفصلة وشاملة لكل أحداث الحياة الجارية . ولكن مشكلتها الأساسية ، أو مأساتها أن شعبنا لا يريد تطبيقها على الجميع، وفى كل الأحوال ، وإنما يظل يعمل بكل الوسائل ويتحايل من أجل الخروج من مظلتها العامة ، وذلك من خلال الاستثناءات ، والوساطات، والتعلل بكل ما يمكن التعلل به حتى يضعف قوة القانون ، ويطيح بهيبته. وقد مرت بى أوقات كنت أفرح جداً لصدور قانون ما ، يحل الكثير من المشكلات ، ويمهد الطريق لأسلوب منتظم ومستقر ، ولكننى كنت أفاجأ بعدد من الناس يسرعون إلى استثنائهم أو استثناء أقاربهم ومعارفهم منه ، ويتعللون لذلك بالنواحى الاجتماعية الصارخة ، أو المآسى الإنسانية، أو الأمراض المزمنة. ومن المؤكد أنه فى الوقت الذى يحدث فيه الاستثناء من القانون فإنه يبدأ فى الضمور ، وينتهى

بـــه الحـــال إلى أن يصبح كالشجرة المجوفة ، التى لا تلبث أن تسقطها الريح عند أول هبة لها.

عـــندما كنـــت أدرس فـــى باريس ، حدثت أمامى الحالة الآتية : إعـــلان عـــن رحلة مخفضة للطلبة ينتهى موعد التقدم لها فى الساعة الثانـــية ظهراً . وكنت أقف بجوار الكشك الذى يتلقى الطلبات ، وحانت الســـاعة الثانية ، فراح الموظف المسئول يجمع أوراقه ويستعد لإغلاق الكشـــك . وفجـــأة ظهـــر شاب وفتاة وصلا بعد الموعد بخمس أو ست دقـــائق . ورأيتهما يضربان كفاً بكف لأن الموعد قد فاتهما . كدت أقول لهمـــا : تقدمـــا إلى الموظف وحاولا معه لكى يسجل اسميكما ، لكننى فوجئت بالشابين يعودان أدراجهما دون أن يحاولا الترجى والتحايل من أجل استثنائهما . ساعتها أدركت روعة احترام القانون ، وتربية الأجيال الجديدة على الالتزام به .

واســـمحوا لـــى أن أقول إن هذه النقطة التى قد يراها الكثير منا بســـيطة وغـــير مهمـــة هى التى تفصل فصلاً كاملاً بين العالم المتقدم ومجموعـــة الـــبلاد النامـــية . ومن العجيب أن الرسول صلى الله عليه وســـلم نبهـــنا إلـــيها حين قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيه الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"!

كيف يخرج العرب من حزنهم

جـــاء فى الحكم المروية عن الإمام على بن أبى طالب ، فى كتاب نهج البلاغة أنه قال : الدهر يومان ، يوم لك ويوم عليك . فإذا كان لك فــلا تــبطر ، وإذا كــان عليك فاصبر . وأعتقد أن ما يقع حالياً بالأمة العربــية يستحق الصبر ، بل المزيد من الصبر. ومعنى الصبر ببساطة هو تحمل الصعاب ، وابتلاع الألم ، ومغالبة البكاء . ثم تأتى بعد الصبر مــرحلة إما أن تخرج الإنسان من حزنه ، أو توقعه فريسة له . ولكى يخــرج الإنسان من الحزن عليه أن يشغل نفسه بأى عمل ، وكلما كان عمــلاً إيجابياً كان أفضل، لأن نتائجه تعيد الفرحة إلى قلبه ، والتفاؤل إلــى نفسه . وهذا ما ينبغى على الأمة العربية أن تقوم به فى المرحلة المقبلة لكى لا تطول فترة الحزن على ما فات .

والســـؤال الآن : مـــاذا على العرب أن يفعلوه فى تلك المرحلة ؟ الكثـــير . وأهـــم خطوة تتمثل فى أن يميزوا بوضوح بين الواقع الذى يعيشون فيه ، وبين الآمال والأحلام التى تعيش فيهم ، إن مشكلة العرب الرئيســـية هـــى فى عدم تمييزهم الواضح بين هذين المستويين . وهذا يتضـــح حـــتى فى أحاديثهم اليومية ، فضلاً عن حوارهم مع الآخرين . فـــإذا واجهتم مشكلة وجدتهم يسترجعون سيرة أسلافهم القدماء ليؤكدوا لـــك أنهم قد تجاوزا ما هو أصعب منها ، ثم تتلبسهم حالة من النشوة بأنهم قادرون على حلها . . لكن الذى يحدث أنهم لا يقدرون على ذلك ،

وكثيراً ما يلجأون إلى غيرهم لكى يحلها لهم .

أمـــا الخطـــوة الثانية مباشرة فهى ضرورة التركيز على ما لدى العـــرب مـــن جوانب سلبية فى مختلف جوانب حياتهم ، والشجاعة فى مناقشـــتها علناً وبدون حرج أو حساسيات . وهنا أيضاً عيب واضح . فـــإنك لا تكاد تجد مسئولاً عن مؤسسة إلا وتراه يغضب من الحديث عن ســـلبياتها ، وإذا تحـــدث قليلاً عن ذلك فإنه يسرع للإشادة بما فيها من إيجابيات ، ناسياً أن السلبيات تأكل الإيجابيات كما تأكل النار الحطب ! !

وبالنســـبة للخطوة الثالثة ، فإن العرب ينبغى عليهم أن يخرجوا من حالة التقوقع التى يحبسون أنفسهم فيها ، وينفتحوا على العالم بكل سياســـاته وثقافاته ، وأن يوقفوا نغمة أن هويتنا ستضيع ، لأن التاريخ والواقع معاً يثبتان أنه لا توجد أمة ضاعت هويتها بسبب اتصالها بالأمم الأخـــرى . ما زالت أصغر قبيلة فى أفريقيا محتفظة بهويتها ، وستظل الأســـرة التى انتقلت من الريف إلى المدينة متمسكة بتقاليدها . والذى يـــريد أن يتأكد من صدق كلامى أدعوه أن يذهب إلى حى خان الخليلى الـــذى يزوره فى كل يوم مئات السياح من كل أنحاء العالم ، ومع ذلك فإن أهل الحى ما زالوا يعيشون حياتهم كما هى دون أن تضيع هويتهم فـــى هويـــات آلاف الســـائحين الأجانـــب الذين يتعاملون معهم بالبيع والشراء! !

كيف نسأل لنعرف ؟

أفضل طريقة لمعرفة أى شئ هى أن نراه ونلمسه ، وأفضل أسلوب للـتعرف على أى بلد أن نسافر إليها ونقيم فيها لفترة ، فإذا لم يتيسر لنا هـذا وذاك لم يبق إلا أن نلجأ لمعرفة الأشياء والأماكن من خلال أحاديث الآخريـن ، أو القـراءة ، أو الإجابـات التى نتلقاها على أسئلتنا . وكلما كانـت أسـئلتنا محددة ، والذين يجيبون عنها على قدر كاف من المعرفة أمكننا أن نحصل على معلومات صحيحة ومؤكدة .

فـى علم المنطق ، الذى وضعه أرسطو ، منذ أكثر من ألفىْ عام ، يوجـد فصـل هام ، يعلمنا كيف نسأل لكى نحصل على إجابة دقيقة عن الشئ المسئول عنه ؛ وقد حدد لذلك عشرة أسئلة هى التى يمكنها أن تبين لـنا حقيقة أى شئ نسأل عنه . السؤال الأول : ما هو هذا الشئ ؟ أى ما طبيعـته ومـا هيـته ؟ الثانى : كم هو ؟ أى حجمه أو وزنه أو كميته ، الثالـث: كـيف هو ؟ أى الكيفية التى هو عليها ، الرابع : متى هو ؟ أى زمانـه وتاريخـه ، الخـامس : أين هو ؟ أى مكانه ، السادس : فى أى وضـع هو ؟ السابع ؟ فى ماذا يؤثر ؟ الثامن : بماذا يتأثر ؟ التاسع : هل يضـاف لشئ آخر ؟ أى يرتبط به كما نقول عمود النور مثلاً ، العاشر : لمن هذا الشئ ؟ أى من الذى يمتلكه؟

وقد اعتقد أرسطو أنه من خلال هذه الأسئلة العشرة كلها أو بعضها يمكـن أن نـتعرف علـى أى شـئ ، بشرط أن تقدم لنا إجابات صحيحة ومحـددة . أما أن نسأل عن ماهية الشئ فيتحدث المسئول عن كيفيته أو

عن وضعه فإن هذا يعد نوعاً من التهويم، والبعد عن المطلوب الحقيقى ، وفى هذا إضاعة للوقت ، وتشتيت للذهن .

والواقـــع أن الأسئلة ضرورية جداً لاستخراج المعرفة من أصحابها أو من مصادرها . يقول الرسول (ص) : العلم خزائن ومفتاحها السؤال . لذلك فإن التلاميذ الأذكياء هم الذين يكثرون طرح الأسئلة على المدرسين، ولا ينـــبغى لهؤلاء أن يسكتوهم أو يحرموهم من الإجابة على أسئلتهم ، مهما كانت بسيطة وساذجة ، لأن العقلية المتسائلة هى العقلية المقدر لها أن تحصـــل على إجابات ، بل هى التى يمكنها أنت تكشف ألغاز الطبيعة ، وتكتشف قوانينها .

لقد تعودنا أن نعلم أبناءنا أدب الصمت ، الذى يعنى الاستماع الدائم إلى الكبار، وعدم إقلاقهم بالأسئلة . وهذا خطأ بالغ . فالطفل المتسائل هو نمـــوذج جيد ينبغى تشجيعه وتقديم الإجابة المقنعة له ، وإذا لم يكن لدينا مـــثل تلـــك الإجابة ، فعلينا أن نصحبه معنا للحصول عليها من مصادرها الأصلية ، حتى يتعلم بنفسه كيفية الوصول إلى الحقيقة .

وتحضـــرنى فـــى هـــذا الصدد نكتة فرنسية تقول إن رجلاً وامرأته اصــــطحبا ابـــنهما فى رحلة بالقطار . وعندما مر على بحيرة سأل الطفل أبـــاه: مـــا اسم هذه البحيرة ؟ فقال لا أعرف يا بنى . ثم مروا على جبل فســـأل الطفل : ما اسم هذا الجبل يا أبى ؟ فقال الوالد : لا أعرف بالضبط يـــا بـــنى ، ثم مر القطار على غابة فسأل الطفل : وما اسم هذه الغابة يا أبى؟ عندئذ تدخلت الأم – لإحساسها بالحرج من جهل الوالد المتكرر – قائلة : دع والدك يا عزيزى ولا ترهقه بالأسئلة . فأسرع الرجل قائلاً لها: كلا ، دعه يسأل، لكى يتثقف !

كيف نحرك الركود

عـــندما تكـــون هناك بركة ماء راكدة ، لابد لكى تحركها أن تلقى فـــيها بحجر. وبالطبع على قدر مساحة البركة وعمق مائها ، ينبغى أن تكـــون ضـــخامة الحجر ، وشدة القذف به . ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن الـــركود الاقتصـــادى الذى شهده مجتمعنا فى الفترة الأخيرة يحتاج إلى هـــزة قوية تتمثل فى مجموعة حلول جديدة وغير تقليدية ، وبالطبع لا يمكن أن يخرج حل جديد ومبتكر من عقول تقليدية ، نشأت وتربت فى جو روتينى ، لا ترى فى الإمكان أبدع مما كان . وعلينا أن نعترف أن الاقتصـــاد العالمى يتطور بصورة سريعة جداً ، ربما أكثر من أى قطاع آخـــر ، وأن فلســـفته فـــى عشر السنوات الأخيرة من القرن العشرين تخـــتلف بالضـــرورة عـــن فلسفته فى عشر السنوات الأولى من القرن الحـــادى والعشـــرين . فإذا تأملنا الخريطة الاقتصادية وجدنا أن هناك عقـــولاً اقتصادية متميزة استطاعت أن تحقق طفرات هائلة خلال القرن العشـــرين ، أى فى الوقت الذى ظل فيه اقتصادنا دائراً فى فلك تقليدى خـــالص ، ودعونـــا نســـترجع معاً مثالاً من مصر . فبينما كان النظام الاشتراكى هو السائد لدينا فى الستينيات، سمح – على نحو استثنائى – لشركة المقاولون العرب بالحركة داخل مصر وخارجها ، وكان نجاحها نموذجـــاً يمكـــن أن يقـــاس علـــيه ، لكننا أبقينا النهج الاشتراكى فى الاقتصـــاد، حـــتى ثبت فشله تماماً ، بينما ظلت تلك التجربة الرأسمالية ناجحـــة إلى جواره . مثال آخر : فى هونج كونج استطاعت الرأسمالية الغربية أن تقيم تجربة اقتصادية شديدة النجاح والتألق إلى جوار النظام

الشــيوعى فى الصين ، وكأنهم كانوا يريدون أن يقولوا لهم : هذا هو نظامــنا فكيف النظام عندكم ؟ ؟ ناطحات السحاب وأضواء النيون تتألق فى سماء هونج كونج بينما الصين الشاسعة لا تضئ سوى الشموع فى أكواخهــا ! لكــن كل ذلك تغير ، وهو لم يتغير بالصدفة أو بالتواكل ، وإنمــا مــن خلال الوعى الجيد بطرق الاستثمار ومناهجه . فقد اتجهت الصــين إلــى (ابــتكار) أســلوب رأسمالى ديناميكى فى إطار نظامها الشــيوعى ، ولعلها كانت أكثر ذكاء من روسيا ، التى أسقط فى يدها ، فلــم تتمكــن مــن تغيير نمط تفكيرها القديم حتى اليوم ، فظلت حبيسة عقولهــا التقليدية التى نشأت فى الروتين الجامد . ومن نعمة الله علينا فــى مصر أننا لسنا أسرى نظام شيوعى أو اشتراكى كما هو الحال فى تلك البلاد ، وهذا يعنى أننا أحرار فيما يمكن أن نتخذه من قرارات ، أو نــتفق علــيه مــن توجهات . لكن ذلك كله متوقف على ظهور عقليات جديــدة ، ذات طــابع ابــتكارى ، يمكــنها أن تقف على حقيقة الواقع المصــرى ، وفى نفس الوقت تكون منفتحة على ما يجرى فى العالم . ومــن المعلوم أن من أهم سمات العقلية الابتكارية أنها لا تحصر نفسها فى حدود المكان ، كما أنها لا تقصر نظرتها على اليوم ، وإنما تتجاوز هذا وذاك إلى المكان الفسيح والمستقبل البعيد . بقيت نقطة أخيرة هامة وهــى أن العقلية الابتكارية إذا كانت توجد بين الشيوخ بنسبة معينة ، فإنهــا تتوافر بين جيل الشباب بنسب أكبر . والخلاصة أنه من مجموع تلك العقليات سوف يوجد الحجر الذى يحرك البركة الراكدة .

طريقتان أمامك للتخلص من الحزن على ما ضاع . الأولى أن تفكر بجدية حول مدى الجدوى مما حدث ، مهما كان حجمه ، وأياً كان تأثيره . ثــم تتســاءل : هل يمكن للضائع أن يعود ؟ وإذا كان قد ضاع بسببى أو بفعل ظروف خارجية فهل هذه هى نهاية الحياة ، أم أنها فقط مجرد نهاية لمــرحلة واحدة منها ؟ ثم تسأل أيضاً : هل يمكن أن أبدأ مرة أخرى من جديد ؟ وإذا كان هذا ممكناً : فأين وكيف ؟

أمــا الطــريقة الثانية فهى اللجوء إلى منهج الصوفية فى الزهد ، واعتبار الدنيا جناح بعوضة ! وأن الضائع منها مثل الآتى سواء بسواء . وكلما أمسك الإنسان نفسه عن مكتسباتها ازداد قرباً من الله ، وكلما أفرغ نفســه من التعلق بها امتلأ قلبه بالنور. وليس النور كالظلمة ، ولا المادة كالروح ، ولا الحيوان كالملاك . .

وقــد عرفــت الكثيريــن ممن ضاعت منهم مكاسب كبيرة ، فكان بعضهم يسقط جزعاً ، أو يتهاوى يأساً ، أو يصاب بجلطة فى القلب ، أو سكتة فى الدماغ . وكنت أحاول التخفيف عنه قائلاً : حسبك أنك على قيد الحــياة ، وأنــك كما وصلت إلى ما وصلت إليه من قبل ، فإنك قادر على المواصلة من جديد . وخذ مثلاً من يقع له حادث سيارة ، فتنقلب به عدة مرات ثم يجد نفسه معافى إلا من بعض الكسور والارتجاجات بينما تنتهى السيارة تماماً . . ألا تعتبر هذه نعمة كبرى وليست مصيبة فالسيارة يمكن تعويضها ، أما الحياة فلا . .

وفى ثقافتنا العربية القديمة كتاب قيم للسبكى عنوانه " معيد النعم " وهـو يتحدث عن الذين وجدوا أنفسهم فجأة يفقدون ما كانوا يتمتعون به من نعم ومكاسب ووظائف ، ثم راحوا يسألون : لماذا حدث ذلك ؟ والرجل يجيبهم بكل صراحة إن السبب الرئيس فى ذلك أنهم لم يشكروا الله شكراً حقيقياً على ما كانوا فيه من نعمة . وليس هذا الشكر مجرد لفظ باللسان، وإنمـا هـو اعـتراف صادق من القلب ، بالإضافة إلى وضع النعمة فى موضعها . وبيان ذلك أن الله أعطانا نعمة البصر ومن شكر هذه النعمة ألا نسـتخدمه فى النظر إلى المحرمات ، ونعمة المشى فلا نسعى فى باطل ، ونعمة السمع فلا نصغى للنميمة ، ونفتح آذاننا لمروجى الشائعات . . ثم إذا كانـت لدينا مهنة أو وظيفة فعلينا أن نقوم بحقها ، فالكناس ينبغى أن يراعى ضميره فى أداء عمله على النحو المطلوب ، وليس لمجرد إرضاء رئيسه فى العمل ، والحاكم عليه أن يحكم بالعدل ، وأن يساوى بين الناس حقـيقة لا تظاهـراً ، والـذى يتولى مصلحة للمواطنين عليه أن يعاملهم بالحسنى ، ولا يميز بين شخص وآخر لمحسوبية أو وساطة . . وقد راح السـبكى يعـدد الوظائف حتى بلغ مائة وإحدى عشرة وظيفة إلى حد أنه تعـرض لعـامل المحـارة ، الذى إذا وجد فى الجدار قبل أن يضع عليه (المونة) عشاً لعصفور كان عليه أن يخرجه منه ، ولا يضعها عليه فيقتله داخـل عشـه. . وكذلك سائس الدواب الذى يطعمها أقل من الكمية التى تعاقد عليها مع صاحبها . فالحيوان لا يشتكى . ولا أحد يعرف أنه شبع أم لا سوى الله سبحانه وتعالى .

وهكذا إذا وجد أحدنا أن نعمة ذهبت منه ، عليه بدلاً من أن يحزن أن يبحث جيداً فى كيفية شكره لها ، فلعله قصر فيه ، أو لم يقم به أصلاً.

لا . . للثانوية الثلاثية

بعد أن تبين لخبراء التعليم والأسرة المصرية فشل تجربة تقسيم الثانوية العامة إلى سنتين ، أحذر من أن تصبح ثلاث سنوات ! أما دليل فشلها على المستوى التعليمى فيتمثل فى هبوط المستوى العلمى للطلاب علـــى الرغم من حصولهم على درجات تتجاوز الـــ 90% ، وتفوق الـــ 100% . وهـــذا يتضـــح مـــن رسوب العديد من هؤلاء الحاصلين على أعلى مجاميع الثانوية العامة فى السنة الإعدادية أو الأولى بالجامعات ! ولـــو كـــان نجاحهم حقيقياً ، لوجدناهم فى قوائم المتفوقين ، أى الذين ينجحون بتقدير (جيد جداً) أو (امتياز).

وأمـــا دلـــيل فشل (ثانوية السنتين) على المستوى الاجتماعى ، فيتمـــثل فيما تعانى منه الأسرة المصرية ، التى لم يقدم لها هذا النظام أى فـــائدة ، أو يوفـــر لها أى راحة ، بل على العكس حولها إلى (خلية قلـــق) ، تحطـــم أعصـــابها على مدى سنتين كاملتين ، بالإضافة طبعاً لمأســـاتها الماديـــة من خلال توفير المبالغ الطائلة التى تدفعها لأبنائها طلاب الثانوية العامة فى الدروس الخصوصية !

وهكـــذا ، بـــدلاً مـــن أن تكـــون لدينا الشجاعة للاعتراف بالخطأ والإقدام على تصحيحه ، إذا بنا نسرع إلى فكرة خاطئة أخرى تدعو إلى تقسيم الثانوية العامة إلى ثلاث سنوات ، والسؤال البسيط الذى أتقدم به إلى (مجموعة الخبراء) الذين يشيرون بذلك هو التالى :

ما عيب النظام القديم الذى كان يعتبر الثانوية العامة سنة واحدة، بعـد أن يكـون الطالـب قد نجح فى امتحان السنة الأولى ، ثم السنة الثانية؟ لقد كان ما يحدث هو أن الطالب الذى يرسب فى مادة أو اثنتين يجـرى عقد امتحان دور ثان له ، فإذا رسب فى أكثر من مادتين أعاد السـنة الدراسـية ، وبذلك نكون قد تأكدنا من أنه لن يصل إلى السنة الثالثة إلا بعد نجاح أكيد.

لكـن هـناك بعض الأصوات تقول : أن الطالب فى أثناء امتحان السنة الثالثة قد يتعثر نتيجة ظروف نفسية أو اجتماعية ضاغطة ، أو يكـون قد أمضى ليلة مؤرقة ، فلا ينبغى أن نقيس قدراته على أساس امـتحان واحـد فقط ! لكننى أجيب هؤلاء بأن نسبة أمثال ذلك الطالب قلـيلة جـداً ، وأحياناً تكون معدومة . بل إننى لا أستبعد أن تحدث هذه الظروف الطارئة للطالب الذى تم امتحانه فى السنتين السابقتين وحصل على درجات عالية !

المشـكلة أن (مجموعـة خبراء التعليم) قد نقلوا بعض التجارب التعليمـية من الولايات المتحدة الأمريكية دون مراعاة لظروف تطبيقها فـى مصر ، وأن تلك التجارب إذا كانت قد نجحت فى وسط أعداد قليلة جـداً مـن الطلاب فإنها لا تنجح بالضرورة فى وسط يضم أعداداً هائلة منهم . والأهم من هذا كله أن تعليم الطالب فى أمريكا مسئولية الدولة ، وليس مسئولية الأسرة .. هل هذا واضح ؟ أرجو أن يكون واضحاً.

لا . . لإلغاء الامتحانات

فوجئــت مثل غيرى بتصريحات تصدر من وزارة التربية والتعليم بشــأن نيــتها لإلغاء الامتحانات فى سنوات النقل ، مع الاكتفاء بتقويم الطــلاب مــن خــلال مــتابعة شهرية أو نصف سنوية . وخطورة هذا التفكــير - لــو تم تنفيذه - أنه سوف يوقعنا فيما سبق أن أوقعتنا فيه مشــكلة السنة السادسة حين تم إلغاؤها ، فترتب على ذلك عدم اعتراف الدول العربية كلها بالشهادة الابتدائية المصرية فى مدارسها ، وخاصة بالنســبة لأبــناء العامليــن هــناك . أى أن مصر التى قدمت خدماتها التعليمية إلى جميع الدول العربية أصبحت فى وضع أقل منها .وبالطبع لــم يتنــبه أصــحاب القرارات العشوائية لذلك فى حينه ، إلى أن أحس المجــتمع كله بضرورة عودة السنة السادسة مرة أخرى ، فأعيدت رغم أنــف أعدائهــا ، وتم اعتذار خجول صحبته بعض التبريرات بأن حذف ســنة سادســة إنمــا كان لتلافى أزمة اقتصادية طاحنة . وهو أمر لا يصــدقه نصف عاقل ! أخشى ما أخشاه مرة أخرى أن إلغاء الامتحانات فــى ســنوات النقل سوف يحرم أبناء المصريين العاملين بجميع الدول العربــية المحيطة بنا من الاعتراف بالسنوات الدراسية التى قضوها فى التعلــيم المصــرى لأن منطقتــنا العربــية كلهــا لا تعرف نقلاً بدون امتحانات، ولا نجاحاً بدون اختبارات .

وكلما فتشت عن سبب هذه (التقليعة) سمعت تبريرات غير مقنعة على الإطلاق. يقال أحياناً أن هذا هو نظام التعليم فى الغرب . وأتعجب مــن أنــنى واحــد ممــن تعلموا فى فرنسا ، ولم أجد شيئاً من ذلك .

فـيقولون أن هـذا موجود فى أمريكا . وأقول لهم : ومالنا وأمريكا فى العملـية التعليمية ؟ وهل عندنا نفس الظروف التى يعيش فيها التلميذ الأمريكى ، أو على الأقل نفس الوسائل المعرفية المتاحة له ، ابتداءً من البيت، والمكتبة ، وأجهزة الكمبيوتر ، والرحلات والمعسكرات السنوية التى يصحب فيها المدرسون تلاميذهم ، ويعيشون معهم فى جو مدرسى وأسـرى مـتكامل ، ومـن خلاله يتعرفون بصورة واضحة للغاية على قـدرات كـل تلمـيذ ، ومـدى نشـاطه ، وإلى أى حد تكون استجابته للواجـبات الـتى يكلف بها . . هل تعرف وزارة التربية والتعليم عندنا مثلاً أن التلميذ حتى وهو فى المرحلة الابتدائية يكلفونه هناك ببحث . . أى والله، بحث عن الماء أو الهواء أو الشمس أو البحر ، وبالطبع يقوم التلمـيذ بشغل الأسرة كلها بهذا الموضوع ، فيبحثون له فى القواميس والمراجع الموجودة بالمنزل ، أو بمكتبة الحى ، لكى يساعدوه فى إنجاز هذا (البحث) المطلوب منه فى المدرسة. الظروف إذن مختلفة ، والمناخ الأمـريكى يخـتلف عـن المناخ المصرى . لذلك فإذا أردنا أن نستورد تجارب تعليمية علينا أن ننظر إلى البلاد التى تتشابه معنا فى الظروف والبيئة والمستوى الاجتماعى والاقتصادى ، لأن المستوى الثقافى يكون فـى العـادة نتيجة طبيعية لهذين المستويين . وقد أعجبنى كثيراً قول الرئـيس مـبارك فى خطابه إلى مجلس الشعب والشورى أننا يجب أن ننظر إلى تجارب الدول النامية التى كسرت حاجز التخلف ، واستطاعت أن تعـبر الفجـوة الـتى بينها وبين الدول الغربية التقليدية ، ويقصد سـيادته بذلك مجموعة الدول الآسيوية . ومن المؤكد أن هذه الدول لم تلغ امتحانات النقل .

متطلبات سياحية

بعـد التعبــير عن إعجابهم الشديد بمصر ومعالمها التاريخية ، حدثنى أكثر زائر أجنبى عن عدم توافر بعض المتطلبات الأساسية التى تهــم الماشــى فى شوارع المدن ، وفى مقدمتها دورات المياه . خاصة وأن المقــاهى المنتشرة فى الأحياء الشعبية تكاد تخلو فى معظمها من هذه الدورات. وقال لى أحدهم : لقد قررت ذات يوم أن أمشى من ميدان الــتحرير حــتى القلعة ، وكنت معجباً جداً بهذه الجولة التى استعرضت فــيها أحــياء مــتطورة ، وأحياء شعبية ، موغلة فى عراقتها ، مثل عابديــن والدرب الأحمر والخليفة ، لكننى عندما احتجت أن أذهب إلى دورة المياه ، لم أجد واحدة على امتداد هذه المسافة الطويلة . .

تخيلت نفسى فى موقفه ، وبالطبع كنت سأسأل أى جرسون مقهى عن مكان دورة المياه ، ولكن السائح لا يعرف اللغة العربية ، وهو يريد أن يــرى علامــات تشير إلى هذا المكان بدون أن يسأل أحداً ، كما هو الحال فى أى مدينة كبرى .

وأصــارحكم أن ملاحظة هذه السائح أثارت فضولى ، فرحت كلما مشيت فى شوارع القاهرة أبحث عن دورة مياه ، ومن العجيب أننى لم أجــد . لمــاذا ؟ لا أعرف . ورحت أقول لنفسى : هناك بعض المرضى الذيــن تضــطرهم ظروف مرضهم إلى اللجوء إلى دورة المياه فى أى

وقت ، حتى وهم فى الشارع ، فإلى أين يذهبون ؟ وهكذا تبدو المسألة هامة فقط لكل من المواطنين والسائحين ، بل إنها ضرورية .

ونأتى للمسئولية ؟ من الذى يقع عليه واجب إنشاء دورات المياه فـــى الميادين أو فى الشوارع التى يرتادها المشاة ، ويكثر فيها عبور السائحين ؟ وزارة المواصلات أم المحافظة أم وزارة السياحة ؟ أم الأفضل أن يجلس الأطراف الثلاثة معاً ويتفاهموا، ثم يسرعوا بإنجاز هـذا العمل الهام ، الذى سوف يقدم خدمة جليلة للمواطنين ،.وتستكمل به السياحة واحداً من أهم مقوماتها .

لا مانع أبداً من أن يكون استخدام هذه الدورات لقاء أجر بسيط ، وإن كنت أفضل أن يكون بعضها بأجر وبعضها مجاناً ، حتى نضمن فقط نظافـتها ، وصيانتها ، لأننى أذكر أن حال دورة المياه التى كانت توجد فى ميدان العتبة سابقاً ، لم يكن يسر عدواً ولا صديقاً !

وإذا كـان لى أن أطرح هنا فكرة إيجابية ، فإننى أدعو على وجه التحديد شركات السيراميك أن تساهم فى هذا العمل ، فتنشئ – فى مقابل وضع إعلاناتها – عدداً من دورات المياه فى ميادين القاهرة والجيزة ، فـى شكل حضارى جميل يليق بصورة مصر الحديثة ، ويساهم فـى حل مشكلة حقيقية قد يعانى منها المواطن والسائح على السواء .

أنا مع المترو

لــن أتوقــف ما دمت أستطيع عن الدعوة إلى ضرورة مد شبكات مترو الأنفاق فى العاصمة والمدن الرئيسية . نظراً لما يحتوى عليه هذا المشـــروع الحضارى الكبير من منافع لا حصر لها ، تفوق بمراحل كل الــنفقات الــتى يتطلبها مهما كانت باهظة . والمشكلة أننا كلما تأخرنا عامــاً أو حــتى شهراً فى تنفيذه فإن النفقات ستزيد وربما تتضاعف ، لذلــك فمــن الخــير أن نسرع بإنجاز هذا المشروع متحملين مصاعب تكلفته ، لأن العائد منه سوف يفتح لمصر أبواب العصر الحديث.

وبــيان ذلــك أن ركــاب المــترو هم الأقدر على تنظيم مواعيد وصولهم إلى العمل ، والعودة منه إلى بيوتهم . وبذلك يتجنب المجتمع مــا يهــدره العاملون فى المواصلات ، وما يتعرض له نظام العمل من الفوضى والعشوائية فى بدء العمل وختامه.

وقــد ثبــت أن المــترو يقلــل كثيراً من الاعتماد على استخدام الســيارات الخاصــة، ومــا تتطلــبه من نفقات البنزين ، والإصلاح . والركــنة، والحــوادث المحتملة . وبذلك تتخلص المدن المزدحمة مثل القاهــرة من عوادم مئات الآلاف من السيارات المتحركة أو المحشورة فى شوارعها .

ومن أهم مزايا المترو أنه يخفف ضغط الحركة من سطح الأرض، حيـث ينقلها بانسياب وسرعة إلى باطنها . وحسبك أن تقطع المسافة مـن مـيدان الـتحرير إلى ميدان الدقى فى سيارة أو باص فوق سطح الأرض ، وبيـن أن تسـتقل مـترو الأنفاق لنفس المسافة . فى الحالة الأولـى لـن تقـل المدة عن عشرين دقيقة ، بينما لن تزيد فى الحالة الثانية عن ثلاث أو أربع دقائق !

بقى أن المترو يفرض على الناس سلوكاً اجتماعياً منضبطاً يتمثل فـى احترام مواعيدهم مع بعضهم البعض ، وكذلك فى عدم تبديد الوقت لفـترة مـتأخرة من الليل. فالمترو يتوقف عند منتصف الليل تقريباً ، ولذلـك فـإن مستخدمه لابد أن ينهى زياراته ونزهاته قبل هذا الموعد بفـترة كافية ، حتى يلحق بالمترو ، ويعود إلى بيته ، لكى يصحو فى الصـباح وهو أكثر استعداداً لبدء يوم عمل جديد ومنتج . . أما الآن ، فـإن السيارات الخاصة لا تكاد تتوقف حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وتخيلوا معى حالة أصحابها عندما يطالبون بالذهاب إلى أعمالهم فى الثامنة صباحاً ؟ !

المـترو فـى كـل البلاد التى يوجد فيها يجعل الناس أكثر سرعة ونشـاطاً وحـيوية. وقلمـا تجـد فيه متثائباً أو كسلان . ولا شك أن تلك الخصـائص تنعكس بالإيجاب على جودة الأداء وزيادة الإنتاج ، وهما ما نسعى لتعظيمها فى مجتمعنا .

ليس بالاقتصاد وحده . .

أجـل لـيس بالاقتصاد وحده . . تحيا المجتمعات . لكن الاقتصاد يمـثل عنصـراً شـديد الأهمية إلى جانب عناصر أخرى أهمها الجانب السياسـى والأمـنى والـثقافى والاجـتماعى . ومن المؤكد أن ارتفاع مسـتوى هـذه الجوانب ينبغى أن يكون متساوياً أو على الأقل متقارباً بحيـث لا يسـبق أحدهـا بيـنما تتخلف الأخرى . وقديماً قال المفكر المصـرى أحمـد لطفـى السيد أن السياسة ينبغى أن تكون فى خدمة الاقتصـاد ، وهـى حكمـة غابت كثيراً عن البلاد العربية ، التى كانت السياسـة فـيها هـى التى تقود كل شئ فى المجتمع . ولأن السياسة تخضـع غالباً للآراء الشخصية، وأحياناً الفردية ، فقد كانت كل العوامل الأخـرى تتقـيد بحركـتها ، أو بالأصح بعدم حركتها . ولعلنا نذكر أن السياسـة فـى مصر كانت تغضب أحياناً من بلد ما فتقاطعه اقتصادياً ، وبالطـبع كانت هذه المقاطعة تؤدى إلى خسائر فادحة ، ليس فقط على المسـتوى الاقتصادى بل أيضاً على المستويات العلمية والثقافية . أما مصر الآن فإنها تتبع سياسة اقتصادية خارجية منفتحة على جميع دول العـالم ، وهـذا هـو السبب فى أنها حققت الكثير من الإنجازات ، لكن بعـض الأصـوات عادت ترتفع من جديد إلى (المقاطعة) ، وقريب منها تلـك الأصوات الأخرى التى تتجه إلى (الترشيد) ، وتقصد به الاقتصار علـى ما هو محلى .. وليتنا نمتلك ما نحتاج إليه مما هو محلى ، إذن لأصبحنا فى المقدمة ، ولكننا عندما نفتقد ذلك ، لابد من أن يتجه الفكر

الاقتصادى إلى الانفتاح على العالم ، مهما كانت التكلفة، مع الدعوة فى نفــس الوقــت إلى الترشيد من خلال الصيانة ، وتشجيع إنتاج العناصر المكونة للمنتجات الأجنبية محلياً .

لكــن الاقتصـــاد وحده لا يطور المجتمع ، بل إنه قد يصبح عقبة علــى طــريق الــتطور ، ويحول المجتمع إلى مجرد بائع ، أو عارض للمنــتجات . وقد مرت بنا تجربة بورسعيد ، التى تحول كل أبنائها إلى البــيع والشــراء ، وهجــروا الصناعة ، وأهملوا السياحة ، وأصبحت المدينة كلها عبارة عن سوق للملابس، والمنظفات ، ومعجون الأسنان!

ولكــى يكــون الاقتصـــاد قوياً ، لابد أن يقوم على أسس فكرية وثقافية يؤمن بها المجتمع ، وتكون جزءاً لا يتجزأ من عقليته ، سوف أكــتفى هنا بمثالين الأول : من السياحة التى لا تزدهر فى بلد ما إلا إذا كــان المواطنون فيه على ثقة من أهميتها ، ومن عائدها المباشر على كــل أفــراده . وبالتالى فإن السياحة ستظل فى خطر إذا كانت شريحة كبــيره مــن المجــتمع لا تؤمن بجدواها ، أو تعتبرها عملاً شيطانياً . والمــثال التالى من البحث العلمى الذى لم يزدهر فى الدول المتقدمة إلا عــندما اقتــنع كبار رجال الأعمال فيها بأهميته ، وبفعاليته فى تطوير أعمالهم الصناعية والتجارية ، وبالتالى فتحوا له مصانعهم ومؤسساتهم فازدهرت به ، كما تطور هو من خلالها .

ومــن هنا فإننى أكرر أنه ليس بالاقتصاد وحده يتقدم المجتمع . وهكــذا فإن أهمية العوامل الأخرى ينبغى أن توضع فى الاعتبار ، وأن تسير جنباً إلى جنب مع الاهتمام الاقتصادى الذى أصبح يحتل فى حياتنا الراهنة المرتبة الأولى والوحيدة .

لجنة التماثيل

أستأذن الشخص أو اللجنة المسئولة عن وضع التماثيل فى الميادين العامة ، لأقدم لهم اقتراحاً شخصياً ربما يفيد ، ومن المؤكد أنه لن يضر . أما بالنسبة للملك المصرى العظيم رمسيس فإن تمثاله فى ميدان رمسيس كان خطأ من كل الوجوه .فهو فى ميدان حاشد بالناس والأوتوبيسات والميكروباصات وكل ما يمكن تصوره مما يؤدى إلى الزحام ، وعدم توافر دقيقة واحدة لإلقاء نظرة على التمثال ، فما بالك فى تأمله ومحاولة التعرف على جوانب الجمال فيه ، واستحضار تاريخه ضمن سلسلة ملوك مصر القديمة ؟ وقد تأكدنا بعد مرور وقت طويل والتمثال فى هذا المكان الخاطئ أن لونه بدأ يسمر ، نتيجة تأثير الملوثات ودخان القطارات وعوادم السيارات . . وكان الأولى أن يوضع هذا التمثال الفخم فى ميدان التحرير ، حيث المكان أكثر اتساعاً، والجو أقل تلوثاً ، والسائحون الأجانب أكثر تواجداً . .

فإذا جئنا إلى تمثالين آخرين ، تقوم محافظة الجيزة حالياً بإقامتهما ، أحدهما لطه حسين ، والثانى لنجيب محفوظ ، وجدنا أن " اللجنة" إياها قد اختارت ميدان سفنكس لنجيب محفوظ ، فى حين قررت وضع طه حسين أمام شيراتون القاهرة ، وعلى بعد خطوات من منزل نجيب محفوظ ، أى أن العكس كان هو الصحيح. فالمفروض أن يُوضع تمثال نجيب محفوظ فى ميدان الجلاء ، أما تمثال طه حسين فالأولى أن يُوضع أمام جامعة القاهرة ، حيث لا توجد له أى علاقة بميدان

ســفنكس. ويمكن ببساطة أن يحل محل تمثال نهضة مصر الذى يمكن أيضاً أن ينتقل إلى ميدان سفنكس .

ثــم يأتى السؤال : أين باقى ميادين العاصمة ؟ وأين أعلام مصر الذين يستحقون إقامة تماثيل لهم ، ولا يقلون بحال من الأحوال عن طه حســين ونجيــب محفــوظ ؟ إن التقصير فى هذا المجال هو الذى جعل شباب الجيل الحالى يخرجون إلى الحياة وليس لديهم الرصيد الكافى من الــنماذج الوطنــية والفكرية والأدبية والفنية التى يمكن أن يحاكوها ، وكــان الــبديل هو ملء عقولهم ووجدانهم بشخصيات أخرى ، وتعلقهم بأفكار بعيدة عن تطور مصر الحديثة وكفاحها المرموق .

لقد كان عملاً جيداً أن يقام تمثال لعبد المنعم رياض وهو شخصية عسكرية مرموقة . وسيكون جيداً أيضاً أن تقام تماثيل لأعلام مصريين فى مختلف المجالات، وأتوقع فى هذا الصدد أن يعكف أصحاب كل مهنة أو فــن فــى اختيار شخصية أو أكثر ممن كان لها فضل الريادة . وهنا أتساءل : ألا يستحق على مبارك منشئ التعليم الحديث فى مصر تمثالاً؟ ألا يســتحق سيد درويش ملحن نشيد بلادى بلادى تمثالاً ؟ ألا يستحق العقاد تمثالاً فى ميدان روكسى حيث كان يعيش ؟ ألا تستحق كاتبة مثل بنــت الشاطئ تمثالاً ؟ ثم ألا يستحق تمثالاً كل من محمد عبده ، وأحمد لطفــى السيد ؟ هذه فقط بعض الأمثل التى يمكن البدء بها . والله ولى التوفيق .

محاربة أم مكافحة الإرهاب ؟

يدهشنى كثيراً أن ينتشر فى وسائل الإعلام مصطلح (محاربة الإرهاب) ويدهشنى أكثر أن يجرى المصطلح على ألسنة بعض كبار المسئولين فى العالم ، والواقع أن الإرهاب ليس جيشاً نظامياً حتى يتم إعلان الحرب عليه ، ثم مهاجمته فى مواقع محددة، وبعد القضاء عليه يقوم المنتصرون حفلاً يتبادلون فيه الأنخاب ، ويعلقون الأوسمة على الصدور . على العكس تماماً ، الإرهاب ظاهرة لا تعيش إلا فى السر ، ولا تخطط إلا فى الظلام ، ولا تضرب إلا بالمفاجأة . . وليس من الضرورى أن يكون أنصار الإرهاب أعداداً غفيرة ، بل من الممكن جداً أن يكونوا أفراداً معدودين، لكنهم يتميزون بقدرة كبيرة على التخطيط والتنفيذ والحركة الخاطفة . وبينما يحسب محاربوه أنهم قضوا عليه فى مكان ، فقد يظهر فى مكان آخر ، بل حينما يتوقعون أنهم أخمدوه فى وقت ما ، فإنه ما يلبث أن يظهر فى أوقات تالية . لهذا كله فإن الإرهاب لا يتطلب حرباً ، وإنما يحتاج إلى (مكافحة) . ولا شك أن المكافحة تتضمن ثلاث مراحل : الأولى علاجية ، والثانية وقائية ، والثالثة عقابية .

أما المرحلة العلاجية فلابد أن تبدأ ببحث ظاهرة الإرهاب ، والوقوف على دوافعه ، وظروف نشأته ، وكيفية تطوره . وهنا فقط يمكن للعلاج أن يتدخل بوضع الوسائل الكفيلة بنزع فتيل الإرهاب ، من خلال الحوار مع أصحابه ، والرد المعقول على مقولاته ، أو سحب البساط من تحت أقدامه بإصلاح الأخطاء ، وتهيئة الجو المناسب الذى

يشيع فى المجتمع أهمية العمل والبناء والإنتاج ، وتحجيم عناصر الشر والإفساد ، وإدانة التخريب بكل صوره وكافة أشكاله .

وتشمل المرحلة الوقائية تكوين الأجيال الجديدة على التعايش السلمى بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين المجتمع وسائر المجتمعات الأخرى ، وتنمية روح التفاهم وتبادل الآراء والانفتاح على مختلف التجارب ، والإصغاء لوجهات النظر الأخرى ، والإيمان بأن التعدد الثقافى لا يمنع أبداً من التكامل ، وكما قيل بحق إننا ينبغى أن نثرى تجربتنا بمختلف التجارب الأخرى ، سواء المتفقة معها أم المختلفة . كذلك من المهم جداً إتاحة فرص التعبير عن الرأى بصورة معتدلة ، والبعد عن التشنج والتعصب مع تغليب المصلحة العامة على المصالح الشخصية ، واحترام سلطة القانون دون أى محاولة لاختراقه أو الالتفاف من حوله .

أما المرحلة الثالثة فهى التى تتمثل فى ضرورة معاقبة مرتكبى أى عمل إرهابى ، يؤدى بأرواح الآمنين ، أو يتسبب فى تخريب المنشآت . ولا شك أن هذه هى أبسط وأسهل المراحل . بخلاف المرحلتين الأولى والثانية التى يتطلب كل منهما عملاً جاداً ، وجهداً كبيراً ، وتخطيطاً مدروساً ، واهتماماً حقيقياً لأن الإرهاب لا ولن يتوقف على مكان معين ، ولا وقت محدد ، بل إنه سوف يصاحب حركة المجتمعات الحديثة ، محاولاً عرقلة مسيرتها نحو ما تسعى إليه من تنمية ، ورفاهية ، وازدهار .

محلات الخبز . . ثانية

سبق أن كتبت هنا عن أهمية تخصيص محلات لبيع الخبز ، بدلاً من عرضه على الأرصفة ، معرضاً لكل أنواع الملوثات ، وأخطرها على صحة الإنسان المصرى وحياته وهو عادم السيارات . . وقد جمعتنى مؤخراً جلسة مع وكيل معهد الليزر القومى ، وهو عالم فاضل، راح يحدثنى عن المشروعات الهامة التى يقوم بها المعهد ، وكان من بينها مشروع قياس نسبة التلوث فى الخبز المعروض على أرصفة الشوارع ، حيث وجد الباحثون أن به نسبة هائلة من المخاطر التى يكفى واحد منها فقط لإتلاف أجهزة الإنسان التى تساعده على استمرار الحياة ، والقدرة على العمل والإنتاج . عندئذ رجعت بى الذاكرة إلى ما سبق أن نبهت إليه ، وحذرت منه ، بل واقترحت له حلاً فى غاية البساطة ، وهو أن يقوم كل محافظ فى حدود مسئولياته بتخصيص محلات فى المنازل التى يتم استخراج تصاريح البناء لها ، لكى تكون منافذ لبيع الخبز للجمهور ، وبذلك لا نضمن فقط أسلوباً صحياً ولازماً لحياتنا ، وإنما أيضاً شكلاً حضارياً يتماشى مع المتبع فى كل مدن العالم. ومن الغريب أننا كنا فى الزمن الماضى نشاهد محلات الخبز فى مختلف أحياء القاهرة ، وكان يجلس فيها غالباً رجل طيب ، نستبدل منه الرغيف الناشف أو الملتوى الذى لا يعجبنا ، بل وأحياناً نعيد له ما لا نرضاه فيأخذه بكل رضا ، ويعطينا بدلاً منه رغيفاً أكثر حمرة واستدارة . . وكان هذا الرجل يضع الخبز فى أرفف ، مغطاة بملاءات بيضاء ناصعة ، والويل كل الويل للذبابة التى تحاول الاقتراب من

المحـــل، لأن الرجل يحمل فى يده (منشة) لا تكف عن الحركة . وهكذا كـنا نضمن أننا نشترى منه خبزاً نظيفاً لم يتعرض للتلوث ، ولم تسقط عليه أى من الحشرات الضارة .

الحـــل إذن فـــى أيدى السادة المحافظين . ولا يحتاج إلى قرارات صـــعبة أو لجـــان منبـــثقة . . وأعتقد أن أصحاب المنازل الجديدة لن يضـــرهم أبداً أن يخصص لدى أحدهم محل لبيع الخبز ، الذى جعله الله تعالى هو العنصر الرئيسى فى أى وجبة . وبالطبع لن يصادر مكان من أى صاحب ملك ، وإنما سيقال له : عليك ألا تؤجر هذا المحل أو تملكه إلا لمـــن يبـــيع فيه خبزاً ورحم الله من سمع الحق فاستجاب له . ولعل وعسى أن يقوم بعض أصحاب البيوت من تلقاء أنفسهم بتخصيص مثل هـــذا المحـــل ، الذى أستطيع أن أؤكد – بعد ما سمعته من وكيل معهد اللـــيزر – أن حسناته لن تقل عن حسنات موائد الرحمن ، التى تقتصر فقط على شهر رمضان !

إن الإنســـان ليعجـــب مـــن عـــدم إدراك المصريين لما ينفعهم ، وبالتالى عدم الإقبال عليه لكى يحققوه ، وفى المقابل من ذلك ، إقبالهم باندفـــاع شـــديد علـــى ما يضرهم مع السكوت عليه ، وقلة الرغبة فى إيقافـــه . . وماذا أهم من رغيف الخبز الذى يتناولونه ثلاث مرات فى الـــيوم ، ومـــع ذلك يستمر إهمالهم له ، ملقى على الرصيف ، يتشرب عوادم السيارات . . أو بالأحرى سموم القتل البطئ !

مذيعات الربط

مـــن أهم مظاهر الشيخوخة فى التليفزيون الإصرار على استمرار مذيعات الربط بين برامجه ، التى تطور بعضها كثيراً ، ومازال البعض الآخـــر بحاجـــة إلـــى تطوير . أما مذيعة الربط فإنها تظل علامة على التخلف والبطء والنزول بالمستوى إلى أدنى حد . والدليل على ذلك أن مذيعـــة الربط قد اختفت من معظم إن لم يكن جميع تلفزيونات العالم ، ومـــا زالـــت تطـــل علينا بما تضعه على وجهها من مساحيق ، وفوق رأســـها من باروكات ، وعلى ملابسها من اكسسوارات . . وليتها بعد ذلك كله ، تكون خفيفة الظل، لكنها فى الغالب الأعم تبدو بلهاء ، تمسك بـــيدها ورقـــة ، وكثيراً ما تلجأ إليها لأنها تنسى ما كانت ستقوله ، ثم تخطـــئ فـــى نطـــق الأسماء ، ومواعيد إذاعة البرامج التى هى أساس عملها ، والسبب الرئيسى فى ظهورها .

قال لى صاحبى : أنك تقسو على هؤلاء البنات أو السيدات اللاتى يجهـــدن أنفســـهن لكى يظهرن لنا على الشاشة فى أبهى صورة . وإذا كانت أعمارهن لا تساعدهن على ذلك، فمن العدل أن نقول لهن : شكراً. قلـــت له : بـــل إننى أقول لهن : ألف شكر ، ومع السلامة . ويكفى أن يكتـــب الـــتلفزيون ما ستقوله إحداهن على الشاشة كتابة إلكترونية كما يحـــدث فى التلفزيونات العربية المجاورة لنا ، والتى ظهرت بعد ظهور

التلفزيون المصرى نفسه . قال لى : لكنك ينبغى أن تضع اعتباراً لنسبة الأمية فى بلادنا ، وأن مذيعة الربط تساعد الأميين والأميات على معرفة ما سوف يبثه التلفزيون من برامج . قلت له : عندى حل أفضل ، وهو أن تظهــر الكتابة الإلكترونية مصحوبة بصوت مذيع أو مذيعة دون أن تظهر هى نفسها على الشاشة . وهذا أمر متعارف عليه أيضاً فى بعض التلفزيونات المتطورة . قال لى : يعنى أنت متضايق فيما يبدو من رؤية أولـــئك المذيعـــات فقـــط ؟ قلت له : المشكلة أن الواحدة منهن لا تجيد المهمة التى تخصصت فيها ، وقد أصبح اهتمامها بمظهرها يطغى على المضـــمون ، والاعتـــناء بمكـــياجها أكـــثر بكثير من تقديمها نفسه . والمصـــيبة أن هناك مباريات حامية بينهن فى هذا المجال . وأؤكد لك أنـــه لا تكـــاد توجـــد واحدة (عليها الطلا) يمكن أن تكون نموذجاً جيداً للأخـــريات. ولهـــذا فـــإن إغـــلاق هـــذا الباب أفضل من فتحه ، وعلى التلفزيون من الآن أن يبحث لهن عن عمل آخر ، حتى يريحنا منهن ، ويريحهـــن مـــن الجهد الذى يبذلنه للظهور بهذا الشكل المتخلف على الشاشة الصغيرة ، التى نحبها ، ونقضى جزءاً من أهم أوقاتنا أمامها .. قال لى صاحبى أرجو أن يكون كلامك هذا خفيفاً عليهن . قلت له : كما أرجو أنا أيضاً، وإلى أن يتحقق فيهن ما أقوله ، أن يكن خفيفات علينا.

مدينة رمسيس

حدثنى أكثر من صديق عن مدى التلوث الذى يصيب التمثال التاريخى الفريد للملك المصرى القديم رمسيس الثانى ، نتيجة وضعه غير المبرر على الإطلاق فى ميدان رمسيس ، أو بالأحرى ميدان السكة الحديد ، الذى لا يكاد يرفع إنسان فيها رأسه لكى يتأمل عظمة المصريين القدماء ، نتيجة ما يشغله من الوصول إلى وسيلة مواصلات تحمله إلى وجهته ، سواء كانت قطاراً ، أم تاكسياً ، أم عربة نفر ، أم ميكروباص . . وقد جعلنى ذلك أفكر فى إنقاذ التمثال المسكين من هذا المكان ، الذى لو كان صاحبه حياً ما قبل - على الإطلاق - أن يوضع فى هذا المكان ! وأنا أقول ذلك ، لأن فرنسا عندما طلبت إرسال مومياء رمسيس الثانى إلى باريس لكى تجرى عليها بعض الفحوص الطبية المتقدمة ، أصر الرئيس الفرنسى الأسبق جيسكار ديستان أن يتم استقبال المومياء فى المطار استقبال الملوك والرؤساء . . لأن صاحبها ملك مصرى قديم ! وبالفعل أجريت له مراسم الاستقبال الرسمية من عزف للسلام الوطنى واستعراض لحرس الشرف . .

وبينما أنا مهتم بمشكلة موقع التمثال - فى الوقت الذى ألاحظ فيه أن أصحاب هذا الشأن من علماء الآثار وموظفيها وحراسها والمنتفعين بخيراتها غير مهتمين - إذا بأحد أصدقائى من المصريين المخلصين ينبهنى إلى فكرة عبقرية ، لم أتردد لحظة واحدة ، فى أن

أسـجلها ، وأن أكتـبها فى هذا المكان . وخلاصة هذه الفكرة أن نقوم بـنقل تمـثال رمسيس إلى منطقة صحراوية ، نقية الهواء بعد أن نمد إلـيها طريقاً مزدوجاً ، وأن ننشئ على مقربة من التمثال استراحة أو أكثر ، ومجموعة بوتيكات لعرض بيع كل ما يتعلق بالفرعون الكبير من تماثـيل صـغيرة ، وذكريات مصرية قديمة، وأشغال فضية . . ونطلق علـى هذا المكان " مدينة رمسيس " . وبالطبع سوف يحقق هذا العمل نتيجتيـن رائعتيـن ، أحدهما إنقاذ التمثال الفاخر من التلوث ، والثانية إنشـاء مـنطقة سياحية جديدة بالكامل ، يمكن أن تفتح مجالات متعددة لعمـل الشـباب ، وخاصـة أولئك الذين يتخرجون من كليات الآثار ، والسياحة ، ولم تعد توجد أمامهم فرص عمل كافية .

- أتوقع أن تكون هذه المدينة الجديدة مزاراً سياحياً أولاً للمصريين أنفسهم ، سواء كانوا عائلات أو تلاميذ مدارس وطلاب جامعات وعمال مصـانع ، أو كـانوا سـائحين أجانب . ولا شك أن هذه المدينة سوف توسع مساحة الحركة السياحية بدلاً من اقتصارها على منطقة أهرامات الجيزة ، ومنطقة الأقصر ورحت مع صديقى أحلم بأن يساهم فى إنشاء هـذا الموقع السياحى الجديد شباب المهندسين ، وخريجو كلية التخطيط العمـرانى ، ولا مـانع أبداً من إنشاء مجموعة مساكن وفنادق بسيطة يمكـنها أن تكـبر وتتسـع حـتى تصبح – فى يوم من الأيام – مدينة سـياحية جديدة ، يتوسطها التمثال الذى سوف تحمل اسمه ، وهو اسم كبير له سمعته وبريقه فى كل أنحاء العالم.

مداخل القاهرة

فــى كــل مــدن العالم ، يبذل المحافظون أقصى جهدهم لتجميل مداخلها ، تماماً كما نفعل نحن فى منازلنا ، فنجعل من حجرة الاستقبال مكانــاً نظيفاً وجميلاً باستمرار لأنها هى المكان الذى يدخله الضيوف ، وبالتالى يعد (واجهة) البيت كله .

وعلــى الــرغم مــن أننى أدرك ما يواجه عاصمتنا من مشكلات مزمــنة تتعلق بالطرق ، والمواصلات ، والعشوائيات ، إلا أننى ما زلت أســمع العديد من الشكاوى التى تشير إلى افتقاد مداخل القاهرة للطابع الجمالى والحضارى الذى يليق بالمحروسة ، مدينة الألف عام . .

وقــد رأيت أنه – من المناسب قبل أن يكون لنا الحق فى اقتراح تجمــيل مداخــل القاهرة – أن نشيد بما تم فيها من مشروعات ضخمة قضــت علــى العديــد من المشكلات ، ويكفى أن نشير إلى مشروعات الصــرف الصــحى ، والكهرباء ، والغاز الطبيعى ، إلى جانب الكبارى الطويلة ، والأنفاق التى كان آخرها نفق الأزهر ، وبفضله سوف يتشكل فى حى الحسين واقع حضارى جديد . . أما أروع ما تم فى القاهرة من مشروعات على الإطلاق فهو مترو الأنفاق الذى سبقت به مصر كل بلاد المــنطقة ، وعندما تكتمل شبكاته وتنتشر محطاته سوف تصبح القاهرة مدينة تضارع لندن وباريس.

كــل هــذه المشــروعات وراءها بدون شك جهود بذلتها قيادات جريــئة ، وموظفون مثابرون ، وعمال مهرة . . وهى تستحق منا كل التحية والتقدير . ولولا ثقة الناس فى كفاءتهم لم طلبوا منهم المزيد ..

وقد يتصور البعض أن تجميل مدخل من مداخل القاهرة المتعددة يقتصر علـــى بناء قوس فوقه ، أو تزيينه ببعض الأضواء الملونة ، أو وضع شـــعار المديـــنة فى وسط المدخل . . كلا. فإن تجميل المدخل يمكن أن يســـتمر لمســـافة عشـــرة كـــيلو مترات وربما أكثر ، يتم فيها توسيع الطـــريق، وإضاءته ، وتشجيره ، وانتقاء كل ما فى المشاتل من ورود مـــتعددة الألوان ، وفى حالة القاهرة يمكن أن نضيف بعض المجسمات الـــتى ترمـــز إلـــى تـــاريخ تلك العاصمة العريقة : مثل الأزهر والقلعة والأهرامات وأبو الهول والمسلات . . إلى آخر ما يمكن أن يتفق عليه المتخصصـــون والفـــنانون المـــبدعون. و تبقى المسألة مرتبطة بنظرة حضـــارية تـــتجاوز مكاتـــب الموظفيـــن التقليدين والإدارات والمصالح والأقســـام واللجـــان العليا والمنبثقة والفرعية . . فإذا أضفنا إلى ذلك مجموعـــة متناســـقة مـــن الإعلانات الإرشادية التى تستقبل القادم إلى القاهرة مرحبة به ، ومعلمة له أنه سوف يدخل عاصمة البلاد الكبرى ، ومنها يمكن أن يجد كذا وكذا من المعالم السياحية ، والمزارات الدينية، وكذلك الفنادق واللوكاندات .

أمـــا أن يصـــل القـــادم من الطريق الزراعى فـ تقابله إلا بعض المصـــانع الكئيبة الجدران ، والمداخن الملوثة للهواء ، وعربات الكارو الســـائرة فى كل الاتجاهات . . فهذه مناظر لم تعد تليق بمدخل رئيسى من مداخل عاصمة أم الدنيا : مصر .

مختصر تاريخ مصر

سـألنى أحد الشباب : هل تتصور أننى درست تاريخ مصر ، ولا أستطيع أن ألمـه فـى ذهنى حتى الآن ؟ قلت : أتصور ، لأنك درسته مثلى مع الأسف مجـزءاً ومبعثراً ، وكان المنهج الصحيح يقضى أن تدرسه (كله) باختصار ، ثم تـتدرج فى دراسته أو دراسة بعض معالمه الرئيسية بالتفصيل . سألنى : وهل يوجـد كـتاب مبسط يتحدث باختصار عن تاريخ مصر ؟ قلت له : مع الأسف لا يوجـد . لكـنى سـوف أساعدك هنا بما ساعدت به نفسى ذات يوم . فقد قمت وحدى بمحاولة استخلاص أهم معالم التاريخ المصرى ، فوجدتها كالتالى :

عصر ما قبل التاريخ (من 6000 سنة قبل الميلاد ، وفيها جرى الاستقرار الزراعى ، وتكون الوجه القبلى والوجه البحرى) .

العصر التاريخى (يبدأ بتوحيد الوجهين على يد الملك مينا سنة 3100 قبل المـيلاد ، وتمثله ثلاث دول : القديمة والمتوسطة والحديثة ، وتحتوى كل منها علـى عشـر أسـر . وأهم إنجازات هذا العصر : الكتابة . الفنون . الأهرامات والمعابد . تنظيم الدولة . حضارة مزدهرة).

غزو الهكسوس (وقع فى عهد الأسرتين 15، 16 ، واستمر حوالى 150 عاماً، حتى طردهم أحمس).

الاحتلال الفارسى (على يد قمبيز سنة 525 قبل الميلاد ، وانتهى بمقاومة باسلة من المصريين ، وهزيمة الفرس على يد الإسكندر سنة 331 قبل الميلاد).

دولـة البطالسـة الإغريقـية (وأول ملوكها بطليموس خليفة الإسكندر ، وآخرها كليوباترة سنة 30 قبل الميلاد).

الاحتلال الرومانى (بدأ سنة 30 ق.م واستمر حتى سنة 640 ميلادية أى 670 سـنة ، كانـت مصـر تابعة فى المرحلة الأولى منها لروما ، ثم بعد ذلك لبيزنطة) .

العصر الإسلامى (يبدأ بفتح عمرو بن العاص سنة 640 ميلادية = سنة 20 هجرية وتتوالى فيه العهود على النحو التالى :

عهد الخلفاء الراشدين	حتى سنة 40 ه
عهد الدولة الأموية	حتى سنة 132 ه
عهد الدولة العباسية (أ) وعاصمتها بغداد	132-656 ه

وفى أثنائه قامت فى مصر دول مستقلة هى :

الطولونية	(38 سنة)
الإخشيدية	(34 سنة)
الفاطمية	(209 سنة)
الأيوبية	(79 سنة)

عهـد الدولة العباسية (ب) وعاصمتها القاهرة وفيه حكم المماليك حوالى (264 سنة)

عهـد الدولة العثمانية (922-1213) وفى آخره جاءت الحملة الفرنسية (1798- 1801م)

عهـد أسـرة محمد على (1805- 1952) وفيه وقع الاحتلال الإنجليزى لمصر(1882- 1954)

عهد الجمهورية (جمال عبدالناصر 1952- 1970 ، السادات حتى 1981، مبارك . . .)

مع رجاء أن يكون ذلك واضحاً.

لـــو كان مهندسو الأحياء يسمعون رأيى لما سمحوا لأى صاحب عمارة أن يرفع أدوارها فى القاهرة والمدن الرئيسية عن خمسة أدوار، فإذا رغب شخصاً ما فى تعلية عمارة حتى الدور العاشر أو الثانى عشر أو الـــرابع عشر ذهب خارج تلك المدن المكتظة بالسكان وفعل ما يحلو لـــه . لأن الضـــواحى هـــى التى يمكن أن تتحمل ذلك العدد الكبير من الســـكان الذين يشغلون العمارات المرتفعة والمشتملة على أعداد كبيرة مـــن الشقق ، أما المدن التى أشرت إليها (فيكفيها ما فيها) وبذلك (تبدأ ولـــو بعـــد فوات الآوان) فى تخليص المدن من ظاهرة التكدس التى لا تقتصر فقط على عدد السكان ، وإنما أيضاً على أعداد سياراتهم الراكنة تحت البيوت ، والتى حولت الشوارع إلى جراجات .

لمـــاذا أقـــول ذلك ؟ لأن باريس ، وهى ما هى فى حسن التخطيط ورقى الذوق ! فيها قرار هندسى أو معمارى لا أعرف يقضى بعدم تعلية أى عمـــارة فى أحيائها العشرين ، عن الأدوار المتعارف عليها . حتى الـــذى يـــريد أن يرمم منزله القديم يلتزم بأن تظل واجهته متمشية مع المعمـــار الســـائد والتقلـــيدى الموجود بها ، ولذلك لو كنت ذهبت إلى

باريس من عشرين سنة ثم زرتها الآن لوجدتها كما هى : المبانى والمحلات والمقاهى والحدائق والمتنزهات .. ومن الواضح أن الحفاظ على التقاليد ليس عملاً سهلاً ، بل إنه يكلف الكثير ، وأهم ما فيه أنه لا توجد به مجاملة ، أو محسوبية ، أو تمشية الأمور كيفما اتفق . . وأعتقد أن لدينا فى مصر قانوناً يقضى بعدم ارتفاع المبنى عن مرة ونصف من مساحة عرض الشارع المقام عليه . فإذا كان الشارع عرضه ستة أمتار ينبغى ألا يزيد المبنى عن تسعة أمتار ، أى ما يعادل ثلاثة أدوار على الأكثر ، لكن من يطبق هذا القانون ؟ إنك ترى شارعاً يبلغ عرضه أقل من ستة أمتار ترتفع على جانبه عمارة تصل إلى اثنى عشر دوراً ؟ من الذى سمح بارتفاعها على هذا النحو ؟ وكيف أقدم صاحبها على خرق القانون بهذا الشكل ؟ وما هى الآثار المادية الضارة التى تخلفها عمارة بهذا الحجم على شارع صغير ، من حيث استهلاكها للكهرباء والماء ، وصرفها الصحى ، إلى جانب (ركنة) السيارات ، التى لا تجد حتى فى مثل تلك العمارة جراجاً خاصاً بسكانها.

لقد وضعت القوانين لكى تحترم . والذى لا يحترمها واحد من اثنين . أحدهما لا يحترم الآخرين ، والثانى لا يحترم نفسه ! !

الصحافة مرآة المجتمع

الصحافة مرآة المجتمع ، أو هكذا ينبغى أن تكون . فهى التى تتابع بيقظة كل ما يجرى فيه من أحداث ، وتقوم بتحليل ما تتخذه الدولة أو الحكومة من مواقف ، ولا مانع بعد ذلك من محاولة التأثير فى توجيه الرأى العام نحو ما فيه صالح المجتمع ، وفائدة أبنائه . الصحافة أيضاً هى التى تنقل إلينا لحظة بلحظة ما يحدث فى سائر دول العالم وتطلعنا على مواقفها نحونا ، وفى كل ذلك ، لابد أن تتوخى الصحافة دقة الخبر، وصدق التحليل ، وأمانة التوجيه .

الصحافة الحقيقية هى التى تزود المواطن – كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر حسب نوعيتها كجريدة أو مجلة – بصورة واقعية لأهم الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية . وتحت هذا المجال الأخير تدخل بالضرورة أخبار الحوادث التى تقع للناس : رغماً عنهم مثل حوادث المواصلات أو الزلازل أو البراكين ، أو تقع بتدبير منهم مثل حوادث القتل والسرقة والاغتصاب . لكن هذا الجانب يظل محصوراً فى نطاقه المحدود من الخريطة الصحفية الشاملة ، بل إنه ينبغى أن تجرى متابعته بالتحليل والدراسة وتبصير المواطنين من مخاطره . فمثلاً إذا تكررت مجموعة حوادث متشابهة حتى أصبحت تمثل ظاهرة ، كان من واجب الصحافة أن تتوقف عندها ، وتلقى الضوء على أسبابها وتطورها والعواقب الناجمة عنها كما هو الحال فى ظاهرة الإدمان ، أو الاغتصاب ، أو الاختلاس . ولا شك أن الصحافة عندما تقوم بهذا العمل فإنها تقدم خدمة جليلة للمجتمع ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من منظومة التربية والتعليم والثقافة ، وليست على العكس حرباً عليها .

الصـــحافة مرآة : بمعنى أن يرى المجتمع فيها نفسه بكل ما يتمتع به من مزايا، وما يشوبه من عيوب . لكن ذلك لا يظهر على نحو واضح إلا إذا اتســع أفــق الصـــحافة للمقارنة مع الشعوب والمجتمعات والدول الأخـــرى . والنتـــيجة من ذلك أن الشعب الذى تقدم إليه صحافة حقيقية يعمل دائماً على تطوير ذاته ، وتحسين وسائله، والإسراع فى معدل تقدمه حتى يلحق بمن سبقه ، ولا يظل مبطئاً مع المتخلفين .

وكما أن المرآة اللامعة المستوية تعكس الصورة الحقيقية للإنسان، فـــإن المرآة الصدئة أو المتعرجة لا يمكن أن ترى فيها صورة صحيحة ، بل العكس سوف ترى الصورة غائمة أو منبعجة ، أو أطول من أقصر مما هـــى علـــيه فى الواقع . وكذلك الصحافة : تلحقها نفس العيوب وتصيبها نفـــس الأمـــراض . ومـــن ذلـــك صحافة التهويل ، والإثارة ، والجنس ، والـــتحريض وهـــى جمـــيعها صحافة تفتقد المصداقية ، ولا تعلق بأذهان الـــناس إلا بقدر ما يقرأونها ويندهشون مما ورد فيها . أما ضررها فإنه يتمثل فى تحويل اهتمام المجتمع من الجدية إلى العبث ، ومن الحقائق إلى الإشاعات ، ومن إعلاء القيم إلى احتقارها لدى الأجيال الجديدة . . لذلك فلم يكن غريباً على المجتمع المصرى أن يرفض بشدة ما نشرته جريدة " النـــبأ " وربيبتها " آخر خبر " من صور وأخبار تفرق ولا تجمع ، وتفسد ولا تصلح ، ولم يكن همها إلا أن يزيد توزيعها ، وتملأ خزينتها بالمال !

فى هذه المناسبة لابد أن نوجه التحية لكل الصحفيين الشرفاء الذين ما زالوا يحرصون – فى كل كلمة يكتبونها ، أو خبر ينشرونه ، أو حتى صـــورة يقدمونها للناس – على أن تكون للصالح العام ، ومن أجل خدمة الوطن ، وتقدم المجتمع .

مزيداً من حماية الطائرات

حسناً فعل الفريق أحمد شفيق وزير الطيران حين قرر تدريب مجموعة أولى من أفراد الأمن على الطائرات على كيفية التصرف السريع في مواجهة حالات خطفها، أو تعرضها لسيطرة إرهابيين . وجاء في تصريحات الوزير أن عهد تعيين أفراد أمن بدون مؤهلات كاملة ولا تدريب مستمر على هذه النوعية من العمل الهام جداً قد انتهى. والواقع أن هذا الإجراء الذى قامت به وزارة الطيران المصرية يعد من أعمال التوقعات المستقبلية لمرحلة صعبة سوف يشهدها العالم كله ، وليس مصر فقط ، فى المرحلة المقبلة . ولأنه على الرغم من دقة التفتيش التى تجرى لركاب الطائرات فإن المخططين يكونون دائماً أكثر ذكاء ، ويمكنهم أن يتسللوا من عنق الزجاجة الذى يتم تفتيشهم فيه ، كذلك من الممكن جداً فى المرحلة المقبلة أن يقوم عدد من المخططين بخطف أى طائرة دون أى سلاح ، وذلك عن طريق القوة العضلية وحدها . وكل هذه المصائب إنما جاءت – كما نعلم – من انعدام الحكمة فى مكافحة الإرهاب ، وهو الأمر الذى سوف يزيد من ظواهره ، ويكثر من أنواعه فى الفترة المقبلة .

ولا شك أن اختطاف عدة طائرات أمريكية وتوجيهها نحو ضرب منشآت اقتصادية وعسكرية – وهو ما يشكل أحداث الحادى عشر من

ســبتمبر – يعتبر تطوراً نوعياً فى تاريخ إرهاب الطائرات ، فلأول مرة يــتحول المخــتطف إلــى استشهادى أى إنسان لا يقبل المفاوضة ولا المســاومة ، ولأول مــرة أيضاً يحول الإرهابى وسيلة نقل بهذا الحجم والكفــاءة إلى سلاح مدمر . وفى تصورى أن العالم ، حتى المتقدم ، لم يســتوعب جــيداً هذا العمل ، ولم يقدر عواقبه المستقبلية ، لأن كل ما تقــدم هو تشديد عمليات التفتيش والمراقبة فى المطارات ، والتأكد من المســافرين ، وهــذه كلها إجراءات شكلية ، وغير فعالة، ويمكن لأى مخطــط جــيد أن يخــترقها ، وينفذ ما يشاء رغم وجودها . والمسألة ببســاطة أن أى نظــام للأمــن لا يكون كاملاً بدرجة مائة فى المائة ، وبالــتالى فــإن المخططيــن يظلون ينتظرون لحظة التراخى ، أو نقاط الضعف لكى ينفذوا منها إلى ما يريدون . .

طبعاً أهم من ذلك كله مكافحة الإرهاب عن طريق تجفيف منابعه، وإزالــة مســبباته ، والعمــل على إشاعة العدل والمساواة ، واستبعاد المجاملة والتحيز والكيل بمكيالين . .

ودعونــى أذكركم هنا بما قاله عمر بن عبدالعزيز حين طلب منه أحد حكام الأقاليم مالاً كثيراً ليبنى سوراً حول عاصمة الإقليم ، فكتب له عمــر قــائلاً : وماذا تنفع الأسوار ؟ حصنها بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم .

مشكلة تقييم الأداء

فـــى كل بلاد العالم ، توجد مقاييس لتقييم الأداء . وهى إما بالدرجات (ممـــتاز – جـــيد – مقـــبول – ضعيف ...) أو بالأرقام والنسب المئوية أو العشـــرية. وهـــناك أشـــخاص محايدون ، أو الأصل فيهم أن يكونوا كذلك ، يمـــرون علـــى الهيئات والمصالح الحكومية والشركات لكى يتابعوا أداءها ، ويسجلوا كفاءتها فى العمل ، كما يرصدوا أيضاً مدى التهاون أو الإهمال أو التســـيب الموجود بها . ثم يرفعوا هذه التقارير إلى جهات عليا ، يكون من حقهـــا مســـاءلة هـــذه الجهـــات ، وأحياناً ما يتم نشر نتائج هذا التقييم فى مجالات متخصصة أو حتى فى جرائد يومية أو أسبوعية لكى يقف المواطن العادى على سرعة وكفاءة دولاب العمل فى بلاده .

أمـــا نحـــن فـــى مصر ، فما زال هذا التقييم غائباً أو للإنصاف شبه غائـــب. والمشكلة الرئيسية التى تعترض وجوده ترجع فى المقام الأول إلى عـــامل نفسى . تصور ! ! يقوم على أساس أن الإنسان المصرى تربى على أن يغضب أو يستنكف من أن يقيّمه شخص آخر . فهو يعمل فى تخصصه ، الـــذى يأخذه عادة عمن قبله ، ولا يسأل نفسه أبداً إذا كان أسلوب هذا العمل صـــحيحاً أم معيـــباً ، وإذا كان صحيحاً فهل هو منتج أم لا ؟ وإذا كان منتجاً فهـــل يوجد منهج آخر يجعله أكثر إنتاجاً ؟ وهكذا تمضى الأعمال وهى كما هى على حالها منذ عشرات بل مئات السنين .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن محمد على باشا عندما أرسل بعثات من المصـــريين ليـــتعلموا فى أوربا ، قابل أحدهم ، وكان ممن درس الزراعة . وقـــد غضـــب جـــداً وقـــال له : كيف يا أستاذ تذهب إلى الغرب لتتعلم مهنة يجـــيدها آبـــاؤك وأجدادك منذ آلاف السنين . وخرج الشاب محبطاً ، وظلت

الــزراعة على حالها بالشادوف والمحراث والبقرة التى تجرها حتى سنوات قلــيلة جــداً . ولم تحدث الاستفادة الهائلة فى مجال الزراعة إلا عندما فتح المصريون عيونهم على أساليبها الحديثة فى الخارج ، ونقلوها إلى بلادنا .

وفــى المــدارس ، مــا زال (المفــتش) ، وقــد أصبحنا نطلق عليه (الموجــه) حــتى لا نجــرح أيضاً إحساس المدرس ، يقوم بهذا الدور . أى ملاحظــة مستوى أداء المدرسين، ومدى إنتاجيتهم فى الفصول . لكننا نعلم جمــيعاً مدى كراهة المدرسين للمفتش أو الموجه ، وتحملهم زيارته تحت ضــغط نفســى هائل . وفى رأيى أن بعض المفتشين يتجاوز حدود مهمته فــيقوم بالتدخل فى الحصة ويحرج المدرس أمام تلاميذه، مع أن المفروض أن يجلــس فقط ويستمع ويشاهد ، ويسجل ملاحظاته بينه وبين نفسه ، ثم يعطى نسخة منها للمدرس ، فى حين يحتفظ بنسخة أخرى للإدارة .

وهــذا يقودنــا إلــى وظائف لجان المتابعة ، التى كان من الممكن أن تقــوم بمسئولية لجان تقييم الأداء ، لولا أنها لا تسجل إلا العيوب فقط ، ولا تهــتم أبــداً بالجوانــب الصحيحة أو الجيدة فى الجهة التى تزورها . وهكذا أصــبح الحــال يشبه العسكرى الذى نخوف به الأولاد ، بدلاً من أن نعودهم على اللجوء إليه عند الأزمات.

وتــبقى المشكلة الرئيسية فى أن العالم كله أصبح يتطلب شهادة تقييم الأداء ، وشــهادة جودة . وهذا يعنى أننا ينبغى أن نسرع بتوفيرهما فى كل مــا نقوم به . وأحب أن أطمئن الكثيرين إلى أن الأداء عندنا ليس سيئا فى كــل المجالات ، بل إننى متفائل من أنه سوف يبيض وجوهنا فى العديد من الأنشطة التى يمارسها أبناء مصر المخلصون .

مسابقات المعلومات

هذه البرامج التى أصبحت تجذب مشاهدى التليفزيون بسبب ما تحتوى عليه من إبهار وتوقع ومكافأة تصل إلى المليون – ليست عديمة الفائدة تماماً . فهى أولاً تنشط ذاكرة الناس ، ثم إنها تقدم لهم المعلومة بعد ترقب وتخمينات فترسخ فى أذهانهم ، وأخيراً فإنها تطلعهم على مستوى ثقافتهم ، وتجعلهم يتحسرون على الأوقات التى قضوها فى عدم التعلم والقراءة والإطلاع . وهذه البرامج موجودة فى كل تليفزيونات العالم . وكانت موجودة عندنا سابقاً على استحياء فى برنامج (أوائل الطلبة) الذى كان يذاع من الراديو ، ثم انتقل إلى التليفزيون ، وكان المأمول أن يتطور ويزدهر لكنه تقلص وانزوى وأصبح باهتاً ، لسبب بسيط هو أنه يحصر أسئلته فى أحد المقررات الدراسية على الطلاب بينما مسابقات المعلومات تغطى مساحات واسعة من الثقافة العامة .

ماذا كشفت هذه المسابقات ؟ أظهرت فقراً شديداً فى ثقافة الأفراد وخاصة فى مجال التاريخ ، وفى مجال المعرفة المعاصرة . والناس معذورون فى ذلك . فمن أين لهم قراءة تاريخ بلادهم فى كتاب جامع مبسط، يبدأ من عصر الفراعنة وينتهى بالعصر الحديث ، مروراً بالفترة القبطية ثم بالعصر الإسلامى وما يحتوى عليه من مراحل تشمل الدولة الإخشيدية ، ثم الطولونية ، ثم الفاطمية ، ثم دولة المماليك ، ومرحلة الحكم العثمانى ، وعهد محمد على ، إلى حين قيام الثورة المصرية سنة 1952. إن كل بلد فى العالم لديها كتاب فى التاريخ يعرف منه أبناؤها ماضيهم فى تسلسل واضح وهو يتدرج مع كافة المستويات البسيطة ، والمتوسطة ، والعالية الثقافة . لكن مثل هذا الكتاب ما زال غائباً عن الإنسان المصرى ،

على الرغم من ظهور العديد من علماء التاريخ الذين تخصصوا فى فترة أو أخـــرى منه ، وكتبوا بالتفصيل عنها ، إلى حد أن المرحوم سليم حسن ترك لـــنا موســـوعة تـــاريخ مصر القديمة فى ثمانية عشر مجلداً ضخماً ، نشر مؤخراً تحت رعاية السيدة الفاضلة سوزان مبارك .

أمـــا بالنســـبة للمعلومـــات المـــتعلقة بالمعـــرفة المعاصرة فمصدرها الأساســـى هـــو القوامـــيس أو دوائر المعارف العامة . وكلاهما عندنا غير مـــتوافر . والموجـــود منها يرجع للقرن الماضى ، أو حتى للقرون الماضية ولا يفـــيد أحداً فى العصر الحاضر. فالولد أو البنت فى إنجلترا أو فى فرنسا يكفـــيه أن يفتح القاموس أو دائرة المعارف ليجد فيها كل المعلومات اللازمة عـــن أى شئ أو أى مكان أو أى شخصية فى العالم . وبالطبع يوجد فى كل مـــنزل قـــاموس أو دائرة معارف تعتبر جزءاً لا يتجزأ من أثاث المنزل ، ثم جاءت الثورة التكنولوجية الحديثة فوضعت فى تلك المنازل جهاز الكمبيوتر، وفيه انفتح الناس على شبكة الإنترنت التى يكفى أن تطلب منها أى معلومة حتى تظهر لك على الشاشة موثقة بمصادرها ومزينة بصورها . لذلك عندما قـــدم التليفزيون فى الخارج مسابقات المعلومات كان يريد للناس أن تتواصل مـــع تلك الوسائل المعرفية الموجودة لديهم . وهناك فى التليفزيون الفرنسى بـــرنامج مســـابقات حول معانى الألفاظ الواردة فى القاموس ويدهشك مثلاً مدى معرفة ربة بيت بدقائق تلك المعانى !

أتمـــنى أن تكـــون مســـابقات المعلومات المذاعة فى التليفزيون أحد البواعـــث على التزود بالمعرفة من مصادرها الأساسية ، والتى يعتبر الكتاب أهمها . ولا تكتفى فقط بمحاولات التخمين التى إن نجحت مرة ، فإنها تفشل عشرات المرات .

مصارعة الثيران

تـــرددت كثيراً قبل أن أكتب فى هذا الموضوع الذى يهمله معظم الكـــتاب ، ولكـــنه يثـــير فـــى نفسى العديد من مشاعر الحزن والألم ، وتجعلـــنى أتأسف على أن تحضر الإنسان الذى تطور وترقى على مدى آلاف الســـنين لـــم يستطع أن يضع نهاية لذلك المشهد الوحشى، الذى يمـــارس فيه الإنسان أشنع صنوف القهر والخداع والجبروت على أحد الحـــيوانات. ومـــن المقـــزز أنه يعرض ذلك المشهد أمام الآلاف الذين يحضرون للاستمتاع برؤية ثور تغرس فى جسده الرماح ، ويتدفق الدم الأحمر من جلده ، ومع ذلك تستمر استثارته وإضعافه حتى ينغرس بين كتفـــيه ، وفـــى مواجهة القلب تماماً ، ذلك السيف الرفيع ، الذى يجعله يقـــذف بالدم من فمه . ثم يتهاوى على الأرض جثة هامدة . فيأتى من يجـــره خارج الحلبة ، التى يعاد تسويتها لاستقبال ثور جديد . وفارس جديد . .

لـــم أحضـــر هذا المشهد اللاإنسانى ولن أحضره ما حييت ، لكننى شـــاهدته مـــراراً فـــى التلفزيون . ولاحظت أن بعض الثيران يكون من القوة بحيث لا يموت بالسرعة المطلوبة . فيظل يتهاوى ويترنح مؤكداً للفـــارس ضعف طعنته ، وحينئذ يتقدم المساعدون للإجهاز على الثور المسكين وفى أحيان أخرى ينجح الثور فى نطح الفارس بأحد قرنيه . فـــيرفعه فى الهواء عدة أمتار . لكى يسقط مجروحاً أو مكسوراً لكن

معظم الحالات تؤكد سقوط الثور مضرجاً بدمائه ، ومشية الفارس المعجب بنفسه أمام آلاف المتفرجين ، الذين يقفون مصفقين ومهللين . علـى أى شئ ؟ أقسم أننى لا أستطيع أن أجد سبباً يحقق لى المتعة فى رؤية هذا المشهد البغيض ، بل على العكس، لم أشاهد مصارعة الثيران (فـى التلفزيون طبعاً) إلا وتعاطفت مع الثور ضد الفارس ، بل وتمنيت كثيراً أن ينتصر الثور على الإنسان ، فلعل وعسى يدرك القائمون على تسويق هذه اللعبة الوحشية أنها قاتلة ، ويستبدلون بها لعبة أخرى أقل خطراً ، وأكثر إسعاداً للناس .

العجيب أن جمعيات الرفق بالحيوان لا يسمع لها صوت فى هذه الجريمة اللاإنسانية ضد الثيران ، وأن منظمة محترمة مثل اليونسكو لا تناقش هذا الأسلوب الوحشى فى معاملة الحيوان ، ولا تتدخل لإيقافه . والأسوأ أن مشهد مصارعة الثيران قد تسرب إلى بعض الأعمال الفنية، فلـم يحـرك ضده مشاعر الفنانين ، الذين من المفترض أنهم أصحاب مشـاعر رقيقة ، بل على العكس أصبح جزءاً أساسياً منها ، ثم الأكثر سـوءاً أنـه يسـتخدم عنصراً من عناصر الجذب السياحى .ومنه يعود الـزوار ببعض التذكارات ، التى تمثل رجلاً فى يده سيف ، وثوراً أسود يسيل منه الدم . . يا إلهى ، رحماك بالأرض ومَنْ عليها !

مصر وقمحها

ســـألنى شاب جامعى ، على ثقافة بتاريخ مصر القديمة ، قائلاً : ألم يذكر لنا التاريخ أن مصر كانت تمد الإمبراطورية الرومانية بحاجتها مـــن القمـــح ؟ قلـــت : بلى . قال : فما الذى جعلها الآن تستورده من الخارج لتسد حاجتها منه ؟

وقفـــت طويـــلاً أمام السؤال ، وتمنيت ساعتها لو كانت بين يدى البـــيانات الإحصـــائية الموجـــودة فى وزارة الزراعة عن تطور زراعة القمح فى مصر ، ومساحتها ، وإنتاجية الفدان منها ، لكننى حاولت أن ألفت نظر الشباب إلى حقيقة هامة ، وهى أن تعداد السكان فى مصر قد زاد خـــلال القرن العشرين زيادة هائلة ، وذلك فى نفس الوقت الذى لم تـــزد فـــيه المســـاحات المزروعة عموماً ، والمنزرعة قمحاً على وجه الخصوص ، بنفس النسبة ونفس المعدلات . وهكذا كانت النتيجة زيادة الحاجـــة إلـــى القمح عن كميات إنتاجه ، وهذا ما جعل مصر تلجأ إلى الاتحـــاد الســـوفيتى الســـابق ، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لكى تشترى ما يكمل حاجتها من القمح ، لكننى سمعت فى الآونة الأخيرة ، وخاصـــة بعد (أحداث) التفاوت فى سعر صرف الجنيه ، والانفلات غير

المعقول للدولار ، أن مصر أخذت تعدد مصادر حصولها على القمح من بلاد تبيعه بسعر أكثر معقولية .

عـاد الشاب يسأل ، بكل براءة : ولماذا لا نخصص (كل) إنتاجنا الـزراعى للقمح ما دمنا نحتاج إليه بهذا الشكل ؟ قلت له : أجابتك مرة أخرى عند وزارة الزراعة ، التى ترى ضرورة تنويع ما تنتجه الأرض لكـى يلـبى مختلف الحاجات . قاطعنى الشاب: لكننى ألاحظ أننا نزرع أحـياناً مـا لا نحـتاج إلـيه . قلت له : مثل ماذا ؟ قال بغضب : مثل الفـراولة ! قلـت له : لكننا نزرع مثل هذه الفواكه للتصدير ، أى لكى تـأتى لنا بعملة صعبة نتمكن أن نشترى بها القمح . قال : ولماذا هذه اللفة ؟ ثم أردف قائلاً : لو كان الأمر بيدى لأمرت بزراعة حقول مصر كلهـا قمحـاً ، واسـتوردت بعد ذلك ما نحتاجه من المنتجات الزراعية الأخرى أو الفواكه !

نظـرت إلى الشاب وهو يتحدث فوجدته مليئا بالثقة ، متأكداً مما يقول ، مصمماً على تنفيذه إذا ما أتيحت له الفرصة . ساعتها قلت فى نفسى : ومن يدرى ، فلعل هذا الشاب الجامعى المتحمس ، يصبح ذات يـوم وزيـر الـزراعة فى مصر . ومن يدرى لعله يعمل على أن يسد حاجتها من القمح المصرى، ويستورد ما زاد عن ذلك !

ولا أقصد بذلك هؤلاء الكتاب الذين يجلسون تحت أقدام الفنانين والفنانات ليكتبوا لهم النصوص الخالية من الفكر والثقافة ، والتى أصبحت تمتلئ بالنكات الممجوجة ، والمواقف الهزيلة ، وتكاد تتمحور حول شخصية واحدة ، يتم التركيز عليها وتلميعها من خلال العرض المسرحى كله .

إنما الذى أقصده هو كتاب المسرح الذين يحترمون أصول مهنتهم، ويقدمون من خلالها عملاً مسرحياً متكاملاً ، بحيث يخرج منه المشاهد وقد حدث له تحول ثقافى ، وانفتحت أمامه آفاق جديدة . وراح يبح عن إجابات مختلفة لأسئلة مطروحة. صحيح أن المسرح عندنا من الفنون التى استوردناها من الغرب فى العصر الحديث ، فهو لا يوجد فى تراثنا العربى القديم ، ومع الأسف كان موجوداً قبلنا فى التراث الإغريقى . لكن أجدادنا العرب لم يقبلوا عليه لأسباب لا داعى هنا لمناقشتها ، ومع أننا أخذنا المسرح عن الغرب فى العصر الحديث . فقد أسرعنا بامتلاك أدواته ، واستطاع عدد من المشتغلين به ، تأليفاً وإخراجاً وتمثيلاً ، أن يقدموا مسرحيات مصرية وعربية على مستوى لا يقل بحال من الأحوال عن مستوى المسرح الغربى . وبالطبع قبل أن يبدأ المصريون والعرب فى (الإبداع) المسرحى الخاص بهم . لجأوا إلى (الاقتباس) الذى تمثل فى التمصير أو التعريب لبعض المسرحيات الغربية . وهذا دائماً هو الطريق الصحيح . فالإنسان لكى يبدع فى مجال ما ، ينبغى عليه أولا أن يحاكى من سبقوه فيه . وكلما أتقن

المحاكاة اقترب كثيراً من الإبداع الخاص به . . هكذا فعل جورج أبيض، وبديع خيرى ، ونجيب الريحانى ، ويوسف وهبى . . ثم جاء المبدعون مــن أمــثال أحمد شوقى ، وعزيز أباظة ، ونعمان عاشور ، ويوسف إدريــس ، وعبدالرحمــن الشــرقاوى ، وســعد الدين وهبة ، وصلاح عبدالصبور (هذه فقط مجرد أمثلة) .

وإذا كنا نتباهى حتى الآن بالنهضة المسرحية التى ظهرت عندنا فى الستينيات، فإن هذه النهضة ترجع فى المقام الأول إلى وجود كتاب مســرحيين علــى مستوى عال من الوعى بفنهم من ناحية ، وبرسالة المســرح الاجتماعــية والثقافــية من ناحية أخرى . وقد كان المسرح التجارى موجوداً وسيظل ، لكنه لم ينفرد أبداً بالساحة كما حدث ويحدث حالياً .

طــبعاً الأســباب كثــيرة لاختفاء كتاب المسرح من حياتنا الأدبية والثقافــية . وفى مقدمتها أن كاتب المسرح هو الوحيد الذى إذا لم يجد عمله المكتوب ينتقل إلى خشبة المسرح فإنه يتراجع ، وينزوى ، ويؤثر الصــمت . . وذلك بخلاف الشاعر أو الروائى أو كاتب القصة ، فهؤلاء يكتــبون لكــى تقرأ أعمالهم ، وليس لتتحول إلى تمثيليات أو أفلام إلا بالصــدفة . هــناك أيضاً أمر آخر ، وهو أن المسلسلات التلفزيونية قد سحبت البساط كثيراً من المسرح وحتى من السينما ، لكن هذه الظاهرة لــم تؤثر كثيراً على المسرح الغربى الذى ما زال يقف صامداً أمام كل هــذه الأشــكال الدرامــية الحديــثة . سبب ثالث يتمثل فى أن الابتذال المسرحى جعل كتاب المسرح الحقيقيين ينسحبون من الميدان ، الذى لم يعد ينعق فيه سوى البوم والغربان !

أفلام الفن والتجارة

كلمـــا عرض التليفزيون فيلماً قديماً بالأبيض والأسود ، تابعته حتى ولو كنت قد رأيته أكثر من مرة . لماذا ؟ لأنه مصنوع بإتقان فى مختلف جوانـــبه ، بـــدءاً مـــن القصـــة والســـيناريو والحوار ، مروراً بالديكور والملابـــس والماكـــياج ، وانتهاء باختيار الممثلين وصدق الأداء . يضاف إلـــى ذلك بعض الأفلام الحديثة المستمدة من روايات كتبها كبار أدبائنا من أمـــثال نجيـــب محفوظ ويوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس .ولا أنسى الفـــيلم الـــذى عـــرض لهذا الأخير قريباً بعنوان (فى بيتنا رجل) والذى يستحق بالفعل جائزة نوبل ، لولا أنه فيلم عربى ! والسؤال الآن: ما الذى يجعـــل مـــثل هـــذه الأفـــلام حية حتى اليوم ، على الرغم من أنها تعالج مشـــكلات وتصـــور مواقف لم تعد موجودة فى عصرنا ؟ الواقع أن هذه الأفـــلام قامت على أسس فنية خالصة ، وأن كل من شاركوا فيها كان كل مـــنهم يدرك جيداً وظيفته ، ويحسن القيام بها . ويكفى أن ألفت النظر إلى بعـــض الأمـــثلة : مســـتوى الإضاءة فى أفلام زمان يعدّ أفضل بكثير من أفـــلام الـــيوم الملونـــة . فالوجوه محددة ، وملامح الممثلين واضحة بكل تفاصـــيلها ، والخلفية ناطقة بالإيحاء الذى يراد تقديمه للمشاهد . وحاولوا أن تـــتوقفوا قلـــيلاً أمـــام الـــورود فى فساتين البطلات تجدونها رغم أنها بالأبـــيض والأسود تكاد تنطق بدون ألوان . وعلى العكس من ذلك تماماً الأفـــلام الجديـــدة : الألـــوان باهتة ، فالأصفر مشوب بحمرة ، والأزرق مخـــتلط بالأصفر . أما الصوت فمأساة : أذكر أننى ذهبت للسينما لمشاهدة فـــيلم ضـــخمته الدعاية كثيراً . وهناك لم أستطع أن أتبين تفاصيل الحوار

بين الممثلين ، لدرجة أننى غادرت العرض قبل انتهائه ، مصاباً بالصداع مـــن علو الصوت وعدم وضوحه فى نفس الوقت . لا أريد أن استمر فى جلـــد الذات ، فالأفلام التى تصور حالياً ستكون جزءاً من ثقافة عصرنا ، وســـوف تحســـب علينا ، شئنا أم أبينا . ومن هنا فإن من حقنا أن نواجه أصـــحابها بالحقـــيقة ، لكى يصلحوا من حال السينما المصرية ، سواء فى التقنـــيات ، أو اختيار الموضوعات التى تعبر عن نبض المجتمع والعصر . ومـــع الأسف، أن السينما وقعت فى أيدى مجموعة من المتاجرين بها ، الذيـــن لا هـــدف لهم إلا تكديس الملايين من ورائها ، لذلك فإنهم يدوسون علـــى كل القيم الأصيلة ، والإجراءات المتعارف عليها ، ولا يهتمون إلا بما يحقق نجاح مشروعهم السريع فى الكسب المتضخم . وقد جاراهم فى ذلـــك عـــدد من شباب الممثلين ، الذين وجدوا الفرصة سانحة أمامهم فى الظهـــور ، ولكن أى ظهور ؟ إنه مرتبط بفترة محدودة فى إطار مشروع محدد ، ثم يذهب كل فى طريق . . كما تقول أم كلثوم فى أطلال ناجى . لقـــد أصبح هؤلاء الممثلون مليونيرات فى عدة سنوات ، وأحياناً فى عدة شـــهور ، فحققـــوا لأنفسهم ما كانوا يحلمون به من المجد المالى ، وأتمنى أن يســـتثمروه فى مشاريع اقتصادية تعود بالخير عليهم وعلى المجتمع ، لكـــن الفـــن الســـينمائى ســـيظل بحاجة إلى مجموعة من المخلصين ممن يعطونـــه من أرواحهم لكى يصبحوا جزءاً من وعى الجمهور : يرتبطون بـــه فيحتفظ بهم ، ويصورونه بصدق فلا يتخلى عنهم إلى الأبد . وأخيراً ما أوسع الفارق بين الفيلم الفنى والفيلم التجارى ! !

معضلة أى حكومة

علـــى مســـتوى العـــالم كله ، يحتل الجانب الاقتصادى المعضلة الرئيســـية التى تثبت نجاح أو فشل أى حكومة فى العالم . ولأن الناس تـــتجه دائمـــاً إلى النصف الفارغ من الكوب ، فإنها تركز على مجالات الفشـــل الـــتى تظهـــر فى تفشى البطالة ، وقلة أو انعدام الصادرات ، والوقـــوع فـــى بـــئر الديون الخارجية ، وهبوط سعر العملة المحلية ، والـــركود الســـلعى ، وضـــعف الاستثمارات . ولا شك أن هذه الظواهر الستة تشتبك خيوطها بصورة تجعل من الصعب جداً فكّ الارتباط بينها ، بحيث أن أى حكومة فى العالم إذا صممت على حل مشكلة واحدة منها ، واجهتها باقى المشكلات الأخرى فأعجزتها عن التفكير والتدبير .

مـــا الحـــل إذن ؟ أولاً لابـــد من الاعتراف بأن الظروف المحيطة بـــالعمل فـــى أى مجال لها تأثير كبير على ازدهاره أو انهياره كما أن البيـــئة العالمـــية تماماً مثل البيئة المحلية ذات أثر مباشر على حالتى الـــنجاح والفشـــل . لكـــن تبقى المسئولية الذاتية التى تلقى عادة على أكتاف أى حكومة تقود العمل العام فى أى بلد فى العالم .

وأول ما ينبغى التنبه إليه هو أن كثرة القوانين الاقتصادية تعتبر عائقـــاً يعرقل حركة الاقتصاد فى المجتمع . كذلك فإن التدخل المستمر للحكومـــة فـــى حـــركة الاقتصاد ، والمشاركة أحياناً فيه ، لا يتيح له الفرصة لمزيد من التوسع والانتشار . وهكذا ينبغى أن تخرج الحكومة

يدهـا تمامـاً مـن العمل الاقتصادى ، بحيث تتركه للأفراد والشركات والمؤسسـات ، وينحصر دورها فى المراقبة الجيدة لها بهدف الحصول علـى حصـتها الواجـبة من الضرائب . وهذه الضرائب هى المصدر الرئيسـى لتقديم الخدمات للمجتمع فى مجالات الصحة والتعليم والثقافة والمواصـلات . . الخ ، فإذا أنعم الله تعالى على الدولة بموارد أخرى ، مـثل البترول والغاز الطبيعى ، وكما هو الحال عندنا فى مصر : دخل عبور السفن فى قناة السويس ، والسياحة إلى معالم الحضارة المصرية القديمـة، وعـائدات العاملين بالدول العربية الشقيقة ، فإن هذه الأمور تكون من قبيل (زيادة الخير خيرين) .

لكننا ينبغى ألا ننسى أن حكومات مصر المتتابعة فى عصر مبارك قـد أنجزت الكثير فى مجالات استكمال البنية الأساسية للبلاد من طرق وكـبارى ومياه شرب وصرف صحى وكهرباء وتليفونات ، كما حققت العديد من الأعمال الكبرى فى مجال المدن الجديدة ، والمدن الصناعية ، والقـرى السياحية وخاصة على شاطئ البحر الأحمر . ويبقى بعد ذلك النصـيحة الواجبة لأى حكومة والتى تتمثل فى أمرين : تثبيت القوانين الاقتصادية إلى أكبر حد ممكن ، والاكتفاء بدور المراقب لجمع الضرائب دون المشـاركة بـأى صورة من الصور فى النشاط الاقتصادى الحر . وعلى الله قصد السبيل.

معارض المحاربين القدماء

هـى معـارض تقـيمها النقابات والنوادى لأولئك الأبطال الذين جـرحوا فـى الحروب، وأصيبوا إصابات مختلفة ، أقعدتهم أحياناً عن المشى ، أو أطاحت بأحد أعضائهم الأساسية كالذراع أو الساق ، لكنهم صـمموا أن يواصـلوا حـياتهم فى الإنتاج والابتكار . أجل فقد أنشأوا مصانع صغيرة وتخصص كل منهم فى منتج بعينه ، ولا شك أن الدولة قـد ساعدتهم فى ذلك ، كما أن الموهوبين منهم ، سواء كانوا رسامين أو نحاتين ، قد أبدعوا بعض الأعمال الفنية المتميزة .

وعـندما رحـت أتجـول فى معرضهم المقام حالياً بأحد النوادى وجدتهم سعداء للغاية بنظرة الإعجاب فى عيون المتفرجين ، وأؤكد أن سـعادتهم بهذه النظرة كانت تفوق كثيراً تحقيق الربح الذى يستحقونه عن أعمالهم . وحين تحدثت مع بعضهم عن روعة أعماله الفنية وجدت لديـه كمـية مـن التواضع لو وزعت على الفنانين المكتملى الأعضاء لكفتهم ! !

مـا أجمل أن ينهض الإنسان من كبوته لكى يتابع مسيرة الحياة من جديد . وبالطبع هؤلاء الضباط والجنود كانوا مهيئين لمهنة الحرب والدفـاع عـن الوطن ، وقد كانوا بكل تأكيد فى مقدمة الصفوف ، التى تـتعرض غالـباً للموت ، أو للإصابة . ولعلهم يذكرون جيداً زملاءهم الذيـن رحلـوا عـن الحياة ، ومن هنا كانت منحة الحياة الثانية ، بعد الإصـابة ، نعمـة كـبرى اسـتقبلوها بالفرح والتفاؤل ، وصمموا أن يواصلوا عملهم بالفرح والتفاؤل ، وأن يواصلوا وجهودهم فى مجالات

أخرى كالإنتاج والإبداع الفنى .

راحـت زوجـة جارى تفاصل فى أسعار المعروضات وأصحابها يبتسـمون مؤكديـن لهـا أن هـذه الأسعار أقل بكثير من مثيلاتها فى الخـارج، وهـى بالفعل كذلك . عندئذ همس جارى لزوجته قائلاً : مع هـؤلاء الـناس ، لا ينبغى أن تفاصلى . فقط شجعيهم بشراء منتجاتهم تقديراً لجهودهم ، وامتناناً لما قدموه للوطن .

إن فتح أبواب الأمل أمام المحاربين القدماء واجب المجتمع كله ، ومـن حقهـم علينا أن نتيح لهم كل الفرص الممكنة لتحقيق آمالهم ، وتنفـيذ مشاريعهم الصغيرة ، والاحتفاء بمعارضهم الفنية . بل إن هذا الحق ينبغى أن يمتد للكثير من المعوقين وذوى الحالات الخاصة ، الذين قـد يوجد فيهم عباقرة . وبهذا الشكل يتحقق التضامن المنشود بين كل فـئات المجتمع ، ليس فقط بين الغنى والفقير ، وإنما أيضاً بين صحيح الـبدن والمعـوق . وعلينـا أن ندرك أن هؤلاء المعوقين ذوو نفوس شفافة، وأحاسيس مرهفة . وقد يتماسكون أمامنا لكنهم حين يصبحون وحدهم يتألمون . ويكفى لكى نشاركهم حياتهم أن نتخيل أنفسنا للحظات فـى مكانهم ، وفى نفس ظروفهم . أذكر أن أحد الموظفين كان متشدداً مع بعض الطلاب المكفوفين ، ولم أجد ما أغير به موقفه سوى أن أقول له : حاول أن تغمض عينيك وتسير إلى نهاية المكتب فى اتجاه الباب.. عندئذ أدرك ما أقصده ، وأحسب أنه لم يعد لذلك مرة أخرى .

مطار القاهرة

كـــل التحية للدولة التى جعلت من مطار القاهرة معلماً بارزاً من معالم نهضـــتنا الحديـــثة . فهـــو مطار كبير ، اتسع حتى أصبح من أكبر المطارات الرئيســـية فـــى العـــالم . من هنا ينبغى على كل منا أن يحرص على مكانته، وأدائـــه ، وأن يعتـــبره مدخـــل الزوار إلى مصر ، أى أنه أول شئ يشاهدونه منها، وآخر مكان يرونه عند الرحيل عنها .

لذلـــك أتمـــنى لهـــذا المكان الهام أن يخلو تماماً من السلبيات ، وأقول (تمامـــاً) لأن أى سلوك بسيط يفسره الأجانب على نحو كبير . إن هذا الشعور نفسه يحدث معنا حين نزور مكاناً غريباً عنا ، لذلك فمن حق الزائر لبلادنا أن يشعر به عندما يجد إجراء معقداً ، أو خطوة تفتقد النظام.

وأول المشـــاهد الســـلبية هـــو تكدس القادمين من الخارج على مكان الجوازات ، بدلاً من الوقوف فى طابور يمكن أن ينظمه قائمان متوازيان! يلى ذلـــك مباشرة المناداة على شخص بالصوت العالى ، وإخراجه من هذا الزحام لكى يتم إنهاء إجراءاته قبل الآخرين ! ومن الأمور اللافتة للنظر تلك الأحاديث الوديـــة التى يتبادلها ضباط الجوازات فيما بينهم ، تاركين المسافر واقفاً على أحـــر من الجمر ، وغالباً ما يكون الحديث حول مشكلة خاصة بهم ، أو حول مباراة كرة قدم .

فـــإذا انـــتقل القادمون إلى سير الحقائب ، ظلوا واقفين لفترة قد تطول كثـــيراً ، ممـــا يعنى أن إنزالها من الطائرة لم يتم إلا بعد نزول الركاب بفترة طويلـــة جـــداً ، فإذا هلّت الحقائب ، تكومت فوق بعضها مما يؤدى إلى تكدس المسافرين حولها للتعرف عليها .

وهنا يبرز بعض العمال الفهلوية الذين يعرضون المساعدة لقاء بقشيش لا يتوافر دائماً مع الراكب القادم لمصر ، نتيجة عدم توافر العملة المحلية !

فـــإذا حمـــل القادم حقائبه واتجه للخروج من المطار وجد من يقول له بصـــوت حاد " حمد الله على السلامة " فيعتقد أنه يرحب به ، بينما هو يطلب شيئاً يعطيه له !

والملاحـــظ أن هـــذه الأمـــور تحدث فى جور من الزحام الذى تعلو فيه الضوضـــاء جداً ، مما يوحى للقادم أنه داخل إلى بلد لا يوجد فيها هدوء على الإطـــلاق ، مـــع أنـــه عندما يزور بعد ذلك معالمها الأثرية ، فسوف يجد أن أجدادنـــا قد أقاموها على حافة الزمن ، ومشارف الأبدية الموغلة فى الوداعة والسكون !

ويخـــرج القـــادم مـــن المطـــار ، فيســـتقبله بشراسة أفراد وجماعات متخصصـــة فـــى مقاولات السيارات ، وكل همهم أن يوصلوا زبوناً معيناً إلى التاكســـى الذى ينقله إلى وسط القاهرة ، وبالطبع لهم على ذلك عمولة . لهذا فـــإنهم يتفننون فى الهجوم على القادمين ، ويكادون يخطفون حقائبهم ، حتى قبل أن يتفقوا معهم على شئ !

وفـــى تلك اللحظات ، يكون القادم متعباً من الرحلة المرهقة ، فيضاف إلـــيها مـــا لقيه ويلقاه إلى درجة أنه لا يستطيع أن يتكلم أو يعترض ، فيترك الأمـــور تسير ، لكن ملاحظاته الأولى عن البلد تكون قد استقرت فى أعماقه ، ويصـــبح من الصعب جداً أن تمحوها بعد ذلك معاملة الشعب المصرى الودود جداً ، والمرحب دائماً بالزوار والسائحين .

وعلـــى الـــرغم من كل هذه الملاحظات ، يبقى مطار القاهرة معلماً من معـــالم مصـــر الحديـــثة ، ويعتـــبر هـــو البوابة الرئيسية للقادمين إلى مصر والراحلين عنها ، وفيه يعمل آلاف الموظفين والعمال بجدية وانضباط .

مصرع طالب

كـــان الطالب الجامعى يعبر الشارع من أمام كلية الزراعة بجامعة القاهـــرة فصدمته سيارة . حملوه إلى مستشفى قصر العينى لإسعافه ، لكـــن الموت كان قد وافاه من أثر الصدمة . وصلنى الخبر قبل الإفطار بســـاعتين ، وكان علينا أن نتخذ عدة إجراءات محددة ، ومن بينها أن نبلغ أهله بالشرقية ، ورحت أتصور وقع الخبر عليهم ، ومدى الكارثة التى ستنزل بهم عند سماعه ، وكيف سيعتصرهم الحزن عندما يسمعون أن ابنهم ، الذى تربى فى أحضانهم وحصل على الثانوية العامة ، وكان مـــن المتفوقيـــن ، وأصبح طالباً بجامعة القاهرة ، يضيع بتلك الصورة المأساوية !

قـــيل لـــى أن الســـبب فى مصرع الطالب هو السرعة المتهورة للســـيارات أمـــام أبـــواب الجامعة . وأن الحل الوحيد هو عمل (مطبات صناعية) قبل تلك الأبواب لكى تهدئ السيارات من سرعتها نظراً لكثرة مـــرور الطلـــبة .اقتنعت بالفكرة ، فاتصلت وعلمت أن هناك قراراً من المحافظـــة يمـــنع عمل مطبات صناعية فى شوارع الجيزة الرئيسية وتعجبت من القرار الذى يترك أصحاب السيارات المتهورة يندفعون بها غير مبالين بأرواح شباب فى عمر الورود . وقلت : عسى أن تدفع هذه الحادثـــة الألـــيمة أصحاب القرار إلى معاودة النظر فيه . وأن يسرعوا بإقامـــة مطـــبات صـــناعية قـــبل أبواب الجامعة ، وكذلك أبواب المدن الجامعية القريبة منها ، حرصاً على سلامة وحياة الشباب الذين يعبرون مـــن وإلـــى الجامعـــة ، خاصـــة وأن بعضهم من المعوقين أو مكفوفى

البصـــر، الذين يحتاجون إلى تهدئة المرور عند عبورهم . ولا شك أننا مع سيولة المرور ، لكن هذه السيولة حين تتخطى حدودها ، وتصل إلى مصـــرع الطـــلاب أمام جامعتهم فإنها تتحول إلى باب مفتوح للحوادث المؤسفة ، والموت السريع . .

وقـــبل أن أكتـــب هذا الكلام ، انتظرت عدة أيام لكى يعيد أصحاب ذلك القرار الجيزاوى النظر فيه بعد مصرع الطالب الجامعى ، ويقومون بعمل مطبات صناعية ، لكنهم حتى الآن لم يفعلوا . وفى تصورى أنهم لـــن يفعلوا ، وسوف يمر كالعادة مصرع الطالب المسكين على متخذى القـــرار (الجامد ، البارد ، المؤدى إلى التهلكة) مرور حدث عادى ، قد يـــرجعونه إلى تهور الطالب نفسه ، ولماذا لم ينتظر وقوف السيارات؟ وينـــتهز فترة خلو الطريق منها لكى يعبر فى سلامة وأمان ؟ وأؤكد أن هذا لا يحدث أبداً ، ما دام الطريق بدون إشارات مرور توقف السيارات لعبور المشاة ، وكذلك بدون مطبات .

إن أى قـــرار يكون صحيحاً طالماً أدى إلى نتائج صحيحة . لكن عـــندما يترتـــب على القرار ، أى قرار ، نتيجة واحدة ضارة فلابد من إعـــادة الـــنظر فيه. والمطلوب الآن أحد حلين : إما أن توضع إشارات مـــرور تنظم الحركة أمام أبواب جامعة القاهرة ومدنها الطلابية ، وإما أن توضـــع مطـــبات صناعية لتهدئة حركة السيارات ، وإنذار أصحابها بوجود أرواح غالية تعبر الشارع.

كـــان الله فى عون تلك الأسرة التى نكبت فى أحد أبنائها ، وحمى باقى زملائه من أحداث مماثلة !

مقرر دراسى لفلسطين

أسفرت حملة القمع الإسرائيلية الأخيرة بقيادة الجنرال شارون للانتفاضة الفلسطينية ومحاولة حكومته المتعصبة إهدار كافة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى إلى استنفار حالة غضب شديدة فى سائر أنحاء الوطن العربى كله ، عبرت عن نفسها فى العديد من المظاهرات ، والمؤتمرات ، والتبرعات ، وكان الملاحظ هو تأييد الحكومات للحركة الشعبية التى خرجت منددة بممارسات إسرائيل، ومعلنة عن تأييد الشعب الفلسطينى تأييداً كاملاً على الرغم من تصريح الولايات المتحدة بالغضب، وصمت الاتحاد الأوربى المتخاذل .

وفى غمرة تلك الفورة الشعبية ، والمظاهرات الطلابية الحاشدة ، برزت بعض الأمور التى كان من أهمها عدم الوعى الكافى بنشأة القضية الفلسطينية (المأساة) وتطورها، وتداعياتها .وظهر بوضوح أن شبابنا بحاجة حقيقية إلى الوعى العميق بهذه القضية ، التى هى فى واقع الأمر قضية قومية تهم كل عربى من المحيط إلى الخليج ، بل إنها تهم كل مسلم فى العالم .

ولهذا فإننى أتقدم هنا باقتراح وضع مقرر دراسى يختص بالقضية الفلسطينية، ويتم تدريسه فى مختلف مراحل التعليم ، بحيث تتدرج مستوياته من المرحلة الإعدادية حتى الجامعية ، أما مفردات هذا المقرر فيمكن أن تكون كالآتى :

فصل أول عن الوضع السياسى للعالم العربى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين.

فصل ثان : حول المؤتمر الصهيونى الذى عقد سنة 1898 والذى دعا فيه هرتزل إلى إنشاء وطن قومى لليهود.

فصل ثالث : الطرق المشروعة وغير المشروعة التى قامت بها الصهيونية لتحقيق هدفها فى إقامة ذلك الوطن حتى صدور وعد بلفور لليهود سنة 1917 .

فصـــل رابـــع : دور بريطانيا أثناء انتدابها على فلسطين ، وتمهيدها لليهود بالاستيلاء على أراضى الفلسطينيين ، والتضييق على هؤلاء الأخيرين حتى صدور قرار التقسيم سنة 1948.

فصـــل خـــامس : حول أنواع الدعم الذى حصلت عليها إسرائيل من مختلف دول العالم التى كانت تدعى أنها صديقة للعرب ، وخاصة الاتحاد السوفيتى السابق، وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية .

فصل سادس : الحروب التى خاضتها إسرائيل ضد العرب فى سنوات 48 ، 56، 67، مع التركيز على حرب أكتوبر 73 ، وعوامل نجاحها.

فصـــل ســـابع : معـــاهدة الســـلام بيـــن إسرائيل وكل من مصر والأردن ، واستمرار احتلالها لكل من هضبة الجولان السورية ، ومزارع شبعا اللبنانية.

فصـــل ثامـــن : حـــركة المقاومـــة الفلسطينية ، وفصائلها المختلفة وإنشاء مـــنظمة التحرير الفلسطينية ، ثم قيام السلطة الفلسطينية ، والإمكانيات الفلسطينية فى داخل الأراضى المحتلة ، وخارجها .

فصـــل تاســـع: الانتفاضـــة والأســـباب والتى دعت إلى قيامها ، مع تصاعد الممارسات العدوانية المخجلة لإسرائيل ، وعدم انصياعها لقوانين وأحكام الشرعية الدولية.

أمـــا الفصـــل العاشـــر والأخير: فيتضمن تحديد موقف فلسطين الواضح من القضية، والذى يتمثل فى ضرورة قيام دولة فلسطين على أرضها المخصصة لها ، علـــى أن تكـــون عاصـــمتها القدس (الشرقية) . وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديـــارهم التى أبعدوا عنها ، وعقد اتفاقية سلام يحترم فيها كل طرف حقوق الطرف الآخر كاملة ، ودون انتقاص.

وهكـــذا يصبح هذا المقرر الدراسى جرساً يدق دائماً فى آذان الوطن العربى كلـــه، ويســـمع إســـرائيل وحليفاتها صوت الحق العربى ، الذى على أساسه سوف تـــتكون الأجـــيال القادمة ، حتى تكون على وعى مستمر بواحد من أهم حقوقها فى الوجود.

مقومـاتنـا السياحيـة

أقــول دائمــاً : أن مهمة وزارة السياحة المصرية من أسهل المهمات الوزاريــة فى العالم . لماذا ؟ لأنها لا تحتاج إلى دعاية وإعلانات عن معالم مصر وآثارها . فكل تلميذ فى العالم يبدأ دراسة التاريخ بالحضارة المصرية القديمــة . وصــور الأهــرامات وأبوالهول والمعابد منتشرة فى ثنايا الكتب الأجنبــية ولا يكاد يمر يوم دون أن تشهد المطابع الغربية صدور كتاب عن أسرار الحضارة المصرية القديمة .

أمــا الشــعب المصــرى فهو شعب ودود ، يحسن استقبال السائحين ويكــرم وفــادتهم، ويقــدم لهم كافة التسهيلات ، وكثيراً ما ترى شاباً يتكفل بإرشاد أحد السياح إلى مكان معين ، فيسير معه مشواراً طويلاً لكى يساعده فــى الوصول إليه . هذا السلوك غير موجود فى أى بلد فى العالم . المشكلة فقــط أن الشــعب المصرى لا يجيد معظم أفراده اللغة الإنجليزية ، التى هى الآن لغة العالم كله .

أمــا الفــنادق الكبرى والفخمة ، فقد أصبح لدينا منها الكثير . وهى بمواقعهــا ومســتواها لا تقــل عن مثيلاتها فى كل دول العالم . تبقى فقط مشــكلة إنشاء فنادق الدرجة الثانية ، التى تسمح لأهل البلد والسياح معاً أن يــرتادوها ويدفعوا فيها مبالغ معقولة ، وأؤكد أنها الأساس الرئيسى فى أى ازدهار سياحى فى مصر .

ومعــالم مصر السياحية تفوق الحصر فهناك آثار مصر القديمة فى الجــيزة والأقصر ، وإلى جانب الآثار القبطية . التى ترجع إلى عهد شهداء المســيحية الأوائــل ، وكذلك الآثار اليونانية والرومانية ثم الآثار الإسلامية التى تتنوع بين عصور العرب والمماليك والأتراك

وإلى جانب هذا كله ، هناك الأحياء الشعبية التى لا ينبغى إغفالها من الخريطة السياحية المصرية. فأحياء مثل الدرب الأحمر وباب الشعرية تمتلئ بـالعديد مـن المشاهد التى يحرص السائح الأجنبى على رؤيتها ، والتوقف فـيها طويلاً ، لأنها تمثل له (شيئاً مختلفاً) ، سواء فى معمارها المتلاصق ، أو فـى حـركة الـناس وسلوكهم الإنسانى فيها، لكن هذه الأحياء تخلو من الأماكن التى يمكنها أن تستقبل السواح وتبقيهم أطول فترة ممكنة بها . مثل المقـاهى ، والمحـلات الـتى تبيع التحف الصغيرة ، والمشغولات اليدوية البسيطة .

والنـيل فـى مصر ليس كأى نهر فى العالم . فهو امتداد مائى رائع، وقـد أصـبحت تعـبره المراكب الفخمة ، لكنه يحتاج إلى مزيد من تطوير الأتوبـيس النهرى الذى يقل المصريين والسياح المتوسطى الحال ، ويشرح لهم معالم القاهرة على ضفافه . .

وإلـى جانب ذلك ، هناك الريف المصرى ، الذى ينبغى أن يستعد هو الآخـر لاسـتقبال السـياح فـى قراه ، وأن يفتح فيها بعض المطاعم التى تتناسب وما تنتجه تلك القرى . . وتلك فكرة جديدة لم تذكر من قبل .

أما الإنجاز العظيم الذى تم على شاطئ البحر الأحمر ، من خلال إقامة قـرى سياحية متكاملة ، فهو أمر يستحق التقدير من أولئك الذين استثمروا أموالهـم ، واتجهـوا بجهدهم إلى تلك المنطقة البعيدة ، والتى أصبحت الآن قريبة من خلال السفر بالطائرة ، وليس بالأوتوبيس . وكم أتمنى أن يصلها القطار السريع قريباً . .

وأخـيراً فإن السياحة هى المجال الاستثمارى الذى لا يكلف المجتمع الكثير من الأموال، أو المواد الأولية، وإنما يحتاج فقط إلى بعض الأفكار ..

من أسرار التقدم

يقال إن أحد خبراء الصين جاء إلى بعض البلدان العربية ، فوجد العاصمة تعج بالسيارات طوال ساعات النهار والليل فاندهش من أنهم لا يعملـون ، وعـندما جاء يوم الجمعة وجد الشوارع خالية تماماً ، فظن أنهـم قد ذهبوا جميعاً للعمل ، فكتب فى تقريره قائلاً : لقد آمنت بالله ، شـعب يعمل يوماً واحداً ، و يتنزه طوال الأسبوع ! وبالطبع هذه نكته، لكـنها نكـتة مريرة ، لأنها تشير إلى ظاهرة كمية العمل وفاعليته فى بلادنـا العربـية ، وهـى بكـل تأكيد كمية ضئيلة للغاية إذا ما قورنت بمثيلـتها فـى الدول التى تقدمت أو التى قاربت من التقدم . ويكفى أن أذكـر هـنا ما شهدته أثناء إقامتى فى باريس ، التى يشاع عنها أنها مديـنة اللهو والنيون ، فالعمل يبدأ فى الثامنة صباحاً ولا ينتهى إلا فى الخامسة يتخلله ساعة واحدة من الراحة لتناول الغذاء . وهكذا يتاح فى تلـك السـاعات الثمانـية وقـت كاف جداً لإنجاز ما ينبغى إنجازه من الأعمال ، وإنهاء مصالح الناس فى مكاتب الحكومة والشركات .

أذكـر أنـنى كنت أخرج لقضاء عدة مشاوير فى مصالح حكومية مختلفة ، وأتوقع أن يستغرق كل منها ساعة على الأقل ، ومن العجيب أننى كنت أقضيها كلها فى ساعة واحدة ، فمثلاً عندما ذهبت لكى أسجل سـيارة مستعملة فى إدارة المرور خارج مدينة باريس ، وجدت فتاة لا تكـاد تبلغ العشرين عاماً . تستقبل جميع مشترى السيارات المستعملة من باريس وضواحيها - وهى تقريباً فى حجم القاهرة وضواحيها - وتأخذ من كل منهم المبايعة وتسجلها عندها ، وتستخرج من الكمبيوتر

شهادة بأن السيارة غير مرهونة . . وتنتهى العملية بهذا الإجراء الذى لم الذى لم يستغرق منى ولا منها أكثر من خمس دقائق . .

مــثال آخــر : فى إحدى المصالح الحكومية نظام رائع أتمنى أن نقتبســه فــى مصر، وهو أن كل من يدخل لإنهاء معاملته ، يجد على يميــن المدخــل ماكينة يستلم منها ورقة صغيرة تحمل رقماً مسلسلاً ، وعــندما يدخــل يجــد استراحة بها العديد من المقاعد ، فيجلس على أحدهــا، حــتى يرى الرقم الموجود معه قد ظهر على الشباك المطلوب الــتوجه إلــيه . حيــث يستقبله موظف مسئول يقوم بإنهاء معاملته ، وهكذا تسير العملية – رغم شدة الزحام – بسلاسة وسهولة وانتظام . وبالطبع لا يعكرها شخص كئيب يحاول تجاوز دوره والمرور على رقاب الآخريــن . هذا إذن قدر بسيط من سر التقدم ، الذى يقوم أساساً على الجدية فى العمل ، والنظافة فى المخ !

هــناك أمر آخر ، وهو أن التخطيط الجيد يؤدى دائماً إلى التنفيذ الجيد . ولذلك عند إنشاء مصلحة حكومية . أو حتى شركة خاصة فلابد مــن وضع نظام هيكلى لحركة المواطنين ابتداء من دخولهم من الباب حــتى إتمــام معــاملاتهم ، وبذلــك يتم ضمان سيولة العمل وسلاسة الإجــراءات . وبالطــبع لابــد من استبعاد الموظف الذى يعرقل مسيرة العمل فى وجوه المترددين ، أو الذى يفتح درج مكتبه لبعض القادرين !

إحساساً بمسئوليتها تجاه الشباب الذى يتخرج بالآلاف من مدرجاتها ومعاملها، وبعد تقديم عصارة الخبرة لهم من أساتذتها ، بدأت تنتشر فى جامعاتنا فكرة إقامة ملتقيات لتدريب وتوظيف طلابها ، وذلك من خلال دعوة المؤسسات الصناعية والشركات التجارية والبنوك إلى الكليات المختصة للتعريف بأنشطتها ، وإجراء لقاءات مباشرة مع هؤلاء الطلاب لاختيار عدد منهم للتدريب لديها تمهيداً – أقول تمهيداً – لتوظيفهم لديها إذا أثبتوا جدارة فى العمل ، وكفاءة فى الأداء ، وانتظاماً فى المواعيد. والواقع أن معظم طلابنا ما زالوا غير مستوعبين تماماً لما يجرى فى المجتمع من ناحية ، ولما يحدث فى العالم كله من ناحية أخرى . وتلك مسألة ثقافة لا ترتبط بالضرورة بنجاحهم فى امتحانات الجامعة . أو حتى بالتفوق فيها فمن المعروف أن الجهاز الإدارى بالدولة قد تضخم وتضخم حتى أصبح فى جوفه حوالى خمسة ملايين موظف ، الأمر الذى جعل الحكومة تفك الارتباط بين الشهادة والوظيفة . وهذا معناه أنها ما زالت ملتزمة بتعليم أبنائها من الابتدائى حتى الجامعة بالمجان . ولكنها لم تعد قادرة على أن توفر لهم فرص العمل لعدم وجودها بالفعل ما الحل ؟

واحد من اثنين . إما أن يعمل خريجو الجامعات فى القطاع الخاص . أو ينشئ كل منهم مشروعه الخاص به وبالطبع يبدو أن كلا

مـــن الأمرين صعب ، ولكنه هو المخرج الوحيد أمام الشباب الجامعى . ولأن هـــذا الشباب لم يتعلم السباحة فى البحر ، فقد فكرت الجامعات فى أن تدربه أولاً فى حوض صغير قبل أن يجد نفسه وحيداً على الشاطئ . لذلـــك فقد راحت تستضيف له الشركات والمؤسسات حتى تعرفه بها ، وتقـــربه مـــنها ، وتعلمـــه مثلاً كيف يكتب سيرته الذاتية ، أو يعرض بصورة جيدة قدرته وإمكانياته . والحق يقال إن المشروع جيد ، ولكنه مـــا زال فـــى بدايـــته . محدود ولكنه يحتاج إلى أن يعمم . فى جامعة القاهـــرة ثـــلاث كليات عريقة سارت فيه خطوات واسعة وهى الهندسة والتجارة والزراعة ، ولحقت بها أخيراً كلية نشطة هى الاقتصاد والعلوم السياســـية ، أتمـــنى أن يتبعها باقى الكليات ، وأن تقيم كل منها مكتب خريجيـــن يـــروج لتشغيل الشباب ، ويساعدهم فى الحصول على فرص العمـــل فـــى الأماكن المناسبة لتخصصاتهم ورغباتهم وكفاءاتهم . وقد سمعت بعض رجال الأعمال الذين استقبلوا لديهم بعض شباب الجامعات خلال الأجازات الصيفية يصفونهم بالجدية والالتزام ، بل والإبداع . أى أنهم أضافوا للمكان الذى ذهبوا إليه أفكاراً جديدة تم تطبيقها . وهذا هو مـــا نـــتوقعه من شباب الجامعات المصرية ، فلا يقتصر همهم فقط فى الحصـــول علـــى وظـــيفة بمرتب ، وإنما أيضاً ابتكار أفكار جديدة فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة التى ترتكز عليها حركة التنمية فى المجتمع .

مكبرات الصوت

عندما أنشأ المسلمون المساجد ، أقاموا لها المآذن العالية ، لكى يصــعد عليها المؤذن ، ويعلن عن وقت الصلاة بصوته المجرد . ومن المــئذنة العالية يمكن أن يصل صوته لأبعد مسافة ممكنة . وطبعاً كلما كــان المؤذن جهورى الصوت أسمع أكبر عدد من الناس ، ونبههم إلى وقــت الصلاة ، بل كلما كان صوته جميلاً كان ذلك أدعى لتحبيبهم فى الإصغاء إليه ، وترك ما فى أيديهم ، والإسراع إلى المسجد للصلاة .

ثم اخترع الغرب مكبرات الصوت ، وهى الآلة التى تكبر الصوت وتوصـــله إلى المئات بل الآلاف . ويكفى أن يهمس فيه الإنسان فيسمع فـــى كـــل مكان . وبالتالى نزل المؤذن من فوق المئذنة ، فلم يعد هناك داع لأن يصـــعد علـــيها ، ووضع فى مكانه الميكروفون الذى يمكنه أن ينقل الصوت لمسافات أوسع بكثير مما كان يصل إليه صوته المجرد.

وفـــى البداية ، استخدام المؤذنون مكبرات الصوت بتعقل ، فكانوا يؤذنـــون فيها فقط . . ثم جاء بعدهم جيل راح (ينشد) قبل آذان الفجر مجموعـــة من التواشيح تمتد إلى نصف ساعة تقريباً . . ثم جاء جيل بعـــد ذلـــك ، راح يذيع (الإقامة)، وهى الموجهة أساساً للمصلين داخل المســـجد، فى الميكرفون لكى يسمعها من هو خارجه ، بل إن جيلاً آخر جـــاء فراح يذيع من ميكرفون المسجد (أحاديث) ما بعد الظهر والعصر

والمغرب والعشاء . وقد سمعت فى بعض المساجد من يشغل الميكرفون وهـو يقـوم بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال ، والأولاد بعده يكررون ، ومـنهم من يخطئ وهو يصحح ، أى أن درس تحفيظ القرآن راح يذاع من ميكرفون المسجد ! !

وبالطـبع استغل هؤلاء جميعاً حياء المصريين ، وصمت العلماء العارفين بأن مثل هذه الأمور لا ينبغى أن تكون ، وأن مكبرات الصوت لا ينـبغى أن تستخدم إلا لرفع الآذان فقط ، وهكذا بدأ الزعيق ينتشر ، وأصـوات المكـبرات الصادرة من المساجد تتداخل ، ويصطدم بعضها ببعض ، وحدث ما لا يمكن تصوره وهو أن يرفع الآذان فى مسجد ، ثم عندما ينتهى يرفع من مسجد آخر ، وفى هذا عدم اتباع لدقة التوقيت . أما الأدهى فهى تلك الأصوات الخشنة والمبحوحة التى راحت تؤذن غير متبعة لسنة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الذى اختار من بين جميع الصحابة بلالاً ، رضى الله عنه ، لأنه كان أنداهم وأجملهم صوتاً !

أمـا أسـوأ اسـتخدام لمكبرات الصوت فهو الذى حدث وما زال يحـدث فى سرادقات العزاء ، دون اعتبار لراحة المرضى فى البيوت ، أو مذاكرة الأولاد استعداداً للامتحانات ، أو حتى لراحة العائدين من يوم عمل مرهق ، ويرغبون فى نوم هادئ استعداداً لليوم التالى . .

مكافحة الذباب

نحــن داخلون على صيف آخر ، فماذا نحن فاعلون مع الذباب ؟ هل تظل هــذه الحشــرة الطائرة ، والحاملة للأمراض ، والناقلة للعدوى والملوثة للطعام جــزءاً لا يــتجزأ من حياتنا ؟ إن الذبابة تنشأ وتتربى فى القمامة ، وتطير فى الشــوارع ، وتنتشــر فــى المنازل ، ولا تتورع من الدخول إلى أرقى الفنادق، والمكاتب المكيفة ، وحتى استوديوهات التلفزيون . وكم يثيرنى جداً كمشاهد أن أرى ذبابــة تحط فوق وجه أحد المتحدثين فيقوم بنشها ، وأحياناً تقع على وجه مذيعة مسكينة فلا تستطيع أن تحرك يدها لطردها !

الذباب يقع على عيون الأطفال فينقل إليها كل ما يقدر عليه من الجراثيم ، ويتساقط على اللحوم المعروضة للبيع فى محلات الجزارة ، ويدور حول عيدان القصب فى محلات العصير ، ويتطاير بكل وحشية فى محلات الفول والكشرى .. والناس يأكلون بدون عناية ، ثم يفاجأون بالمرض يفتك بهم من الداخل دون أن يدركوا أنه إنما انتقل إليهم من خلال تلك الحشرة وأمثالها .

كــيف نكافح الذباب ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال الهام ، لابد أن نطرح ســؤالاً أكثر أهمية هو : هل نريد فعلاً أن نكافح الذباب ؟ الواقع أن أى عمل لا يــتم إنجــازه إلا إذا توافــرت الرغبة الصادقة فى القيام به ، عندئذ تتحول هذه الرغبة إلى تصميم أكيد يؤرق الإنسان طيلة النهار والليل ، وهنا يتجه الإنسان – مــع الخــبراء طبعاً – إلى وضع الخطط الكفيلة بإنجاز هذا العمل ، وهؤلاء هم الذيــن يدلونــه علــى أفضل المناهج والأساليب ، وأنسب الأدوات والأجهزة ، ويحددون له الجهد المطلوب ، والمبالغ اللازمة .

إنــنى أعــتقد أن مكافحة الذباب لابد أن تكون عملاً قومياً يشارك فيه كل فرد فى المجتمع ، لأننا جميعاً مشاركون فى توفير البيئة المناسبة لنشأة الذباب وتطوره ، وطيرانه فى الجو ، وانتهاكه الصارخ لكل مكان فى حياتنا الاجتماعية.

ومع أننى لست خبيراً فى المجال ، فإننى أتصور المكافحة تتم على ثلاث مراحل ، الأولى تتعلق بالتوعية ، والثانية بالمكافحة السلبية، والثالثة بالمكافحة الإيجابية التى ينتهى بها الذباب من أرض مصر الطيبة ، وسمائها الصافية .

أمـــا التوعـــية فمـــا أسهل أن تقوم بها وزارة التربية والتعليم ، والتعليم العـــالى ، والبحـــث العلمـــى ، والأوقاف ، والإعلام، والشباب ، وبالطبع وزارة البيـــئة. وذلـــك من خلال خبراء متخصصين يشرحون للجماهير طبيعة الذباب ، ونشأته ، وتكاثره ، والآثار الصحية الضارة الناشئة عن وجوده فى حياة الإنسان والبيئة ، ثم يضعون الخطط الكفيلة بالقضاء عليه .

وأمـــا المكافحة السلبية ، فأعنى بها إزالة كل ما من شأنه أن يعمل على وجـــود الذبـــاب وتكاثـــر أعداده ، من خلال وضع القمامة فى أكياس ، وتنظيف الأماكـــن ، وتهويـــتها المســـتمرة ، وعدم رش الشوارع بمياه الشرب ، وتجنب حـــدوث الـــبرك والمستنقعات ، وردم الترع والمصارف المكشوفة وسط الأحياء الســـكنية . . الـــخ تلك القائمة المعروفة جيداً فى مجال النظافة ، والحفاظ على البيئة .

وأما المكافحة الإيجابية ، فإننى أذكر هنا ما قامت به الصين فى يوم من الأيـــام من حملة قومية متكاملة للقضاء المبرم على العصافير التى كادت تصفى النـــباتات مـــن الحبوب . كم تبلغ مساحة الصين ؟ وكم يمكن أن نتصور أعداد العصـــافير بها ؟ ومع ذلك فقد تم القضاء عليها فى غضون ثلاثة أيام فقط ، تم بعدهـــا الإعلان عن خلو الصين تماماً من تلك العصفورة التى كادت تحرمهم من الغلال ! فهل يمكن أن نفعل ذلك مع الذباب فى مصر ؟

جاء لى وهو فى غاية الانزعاج . سألته : ما بالك ؟ قال : مصيبة . قلت : ربنا يكفينا الشر . ما هى ؟ قال : بالأمس ، ذهبت لأفتح بريدى الإلكترونى ، الذى يأتى عبر شبكة الإنترنت ، فوجدت شيئاً فظيعاً : رسالة موجهة مليئة بالصور الجنسية الفاضحة ، وفى نهايتها طريقة الاشتراك ، والمبلغ المحدد حسب المدة المطلوبة . قلت له بهدوء : أغلق الرسالة وينتهى الأمر . قال : يا ريت المسألة تنتهى عند هذا الحد . فإن أولادى الصبيان والبنات لكل منهم بريده الخاص به . فماذا لو جاءت لهم مثل هذه الرسالة الفاضحة ؟ !

توقفت تماماً عن التفكير . ولم أعد قادراً على البحث عن حل لصديقى المحترم جداً ، والذى كان حريصاً مثلى على أن يتابع إيقاع العصر الحديث ، فلا يحرم بيته وأولاده من منتجاته ، وأهمها الكمبيوتر . وعندما اشتريناه فرحنا جداً بما فيه من إمكانيات : ثروة هائلة من المعلومات ، وقدرة سريعة على الاتصال بكل أنحاء العالم ، كما سعدنا جداً بخدمة البريد الإلكترونى ، التى يمكن أن يتواصل بها الشخص مع أى إنسان فى الكرة الأرضية بسرعة وكفاءة فائقتين . لكن لا يوجد أبداً عمل خير إلا ويلحقه الشر. تماماً كما خلق آدم عليه السلام وبجانبه إبليس اللعين . وكما توجد شجرة القطن وبجوارها دودته التى تقضى عليه . ونفس الشئ بالنسبة للمجتمع : هناك الطيبون والمواطنون الصالحون وإلى جوارهم الأشرار ، والفاسدون .

لكننى عدت أتساءل : هل يمكن أن يمنعنا مثل هذا الشر المحتمل فى الإنترنت من استخدامه ؟ وقفز إلى ذهنى ما يحدث فى مجال المواصلات

الحديثة . فالسيارة وسيلة نقل مريحة وخاصة ، ولكنها تنقلب براكبها وتذهب بحياته ، والطائرة أسرع منها بكثير ، ولكنها تتعرض أحياناً للسقوط بكل من فيها . فهل تمنع مثل هذه الأحداث العارضة من استخدام تلك الوسائل التى لم يعد الإنسان قادراً على الاستغناء عنها ؟

وعدت أبحث مع صديقى المحترم عن كيفية صيانة أبنائنا من مثل تلك الهجمات الخطيرة على بريدهم الإلكترونى . قلت له : ألا يمكن أن يتم ذلك تحت سمع وبصر الأسرة ، وخاصة الأم والأب ، بحيث تكون شاشة الكمبيوتر فى وضع يمكنهما من رؤيته فى أى وقت . ومعنى ذلك أن نرفع الكمبيوتر من حجرة الأولاد ، ونضعه فى الصالة مثلاً ؟ هذا حل . وهناك حل آخر . وهو أن تظل عيون الأب والأم مفتوحة على ما يفتحه الابن أو البنت فى الشاشة السحرية الصغيرة . وهنا تبرز مشكلة مقاهى الإنترنت التى قد يذهب إليها الأولاد (الأشقياء) ليكونوا بعيداً عن عيون البيت . وطبعاً يمكن التحكم فى هؤلاء من خلال المصروف ، لأنه على قدر المصروف الذى تعطيه لأولادك يكون طول الطريق الذى يمشون فيه ! ! المهم أن نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه . ولعنة الله على أولئك الأشرار الذين يتسللون عبر الكمبيوتر لتوريد القذارات التى تفسد الأجيال الجديدة ، وتحول اهتماماتهم من بناء أنفسهم فى مرحلة التكوين إلى تشويش أفكارهم ، واستثارة غرائزهم . وهم فى هذا الصدد لا يختلفون كثيراً عن الشياطين التى تنحصر مهمتها فى إفساد البشر .

وقريباً قال لى أحد الشباب المتخصصين فى الكمبيوتر أن هناك برامج يمكنها أن تحمى بريدك الإلكترونى من مثل تلك الرسائل الفاضحة التى قد تصل إليك . أين هى ؟ وكيف نحصل عليها ونشغلها ؟ علينا أن نبحث . لأننى أعتقد دائماً أن كل مشكلة ولها حل .

مكافحة التراب

تحتاج تكاليف سفلتة أى شارع إلى مبالغ طائلة قد تكون متوافرة لدى الحى ، وبالتالى لدى المحافظة والوزارة . وبالطبع سفلتة أى شارع هى الحل النهائى للقضاء على التراب فيه ، أما إذا لم يتوافر التمويل اللازم لمثل هذا العمل ، أو لم يوضع كأولوية فى الخطة والموازنة فكيف يكون العمل ؟ إما أن يترك الشارع مليئاً بالتراب الذى تنقله الرياح إلى داخل المنازل ، ويقوم السكان يومياً بإزالته من فوق أثاثهم بالمكانس العادية ، أو بالمكانس الكهربائية التى تضاف إلى فواتيرهم ، وإما أن ينهض أهل الشارع بمبادرة خاصة من جانبهم ، بإزالة التراب من الشارع الذى يسكنون فيه ، بدلاً من انتظار البلدية التى قد يتأخر مجيؤها .

قال لى صاحبى : كيف تدعو إلى أن يقوم السكان المحترمون بمثل هذا العمل ؟ وأنا أسأل : وهل يرضى هؤلاء المحترمون أن يظلوا يتنفسون التراب ومشتقاته التى تملأ صدور أبنائهم حتى يأتى الفرج من الحى والمحافظة والوزارة ، أم الأفضل أن يقوموا بمبادرة خاصة يساهمون فيها بتنظيف شارعهم من التراب ، وتنقية الجو الذى يحيط بهم من الغبار المتصاعد منه ؟ ولماذا يستنكف أو يستكبر هؤلاء المحترمون من القيام بمثل هذا العمل ، والشارع شارعهم ، وهم

ينتمون إليه ، كما أنه ينتمى إليهم ؟

لقد تعودنا طويلاً أن تقوم الحكومة بكل شئ . وهذا أمر جيد عندما تتوافر الوسائل اللازمة لذلك ، والتمويل الكافى له . لكن عندما يقل هذا التمويل وتصعب الظروف ، فلابد أن يشارك الشعب فى عمل يعود عليه بالنفع . وأنا هنا لا أتحدث عن خطط مستقبلية أو استراتيجيات ، وإنما عن فعل جماعى يستطيع أى أهل الحارة أو زقاق أو حتى شارع كبير أن يساهموا فيه ، دون حرج أو استكبار .

أذكر أن الصين كانت تعانى من طائر بحجم السمان ، زاد خطره بسبب التهامه حبوب القمح والذرة وهى ما زالت فى الحقول ، وعندئذ تحدد يوم محدد لجميع أهل الصين أن يوقفوا هذا الخطر ويقضوا على هذا الطائر . وقد قال لى أحد الأساتذة المصريين الذين كانوا هناك فى ذلك الوقت ، أن أساتذة الجامعة ومديرها نزلوا إلى الحقول ، وظلوا يطاردون الطائر حتى تم الإعلان فى نهاية اليوم عن القضاء عليه . وقد بلغنى أيضاً أنهم فعلوا ذلك مع الذباب . والسؤال الآن : هل الذى قام بهذا العمل قد انحط قدره ، أو تأثرت مكانته الاجتماعية ؟ على العكس إنه يفخر الآن أمام أبنائه وأحفاده بأنه ساهم فى هذا العمل العظيم . فهل يحدث عندنا شئ من ذلك فى مكافحة التراب بالشوارع إلى حين مجئ الفرج ، ويتم فرش الأسفلت عليها ؟ !

لا شك أن الإعلام المرئى هو أخطر وسائل الإعلام على الإطلاق فى تكوين الرأى العام، وتوجيه مساره ، وترشيد خطواته . وبالتالى فإنه يتطلب جهداً خاصاً فى اختيار العاملين فيه ، سواء كانوا يخاطبون المجتمع مباشرة ، أو ممن يساعدون فى هذا العمل . فالمخرج والمصور والمونتير ومهندسو الصوت والإضاءة ، حتى عامل الاستديو ، ينبغى أن يكون هؤلاء جميعاً على مستوى عال من إتقان العمل ، والإحساس بالمسئولية ، وألا يتطرق إليهم الشك أو حتى مجرد الشبهة فى مجال عمليهم ، الذى لا يقل أهمية عن التعليم أو القضاء . .

ولابد من الاعتراف بأن الكثيرين ممن يعملون فى مجال الإعلام على درجة عالية من الكفاءة والخبرة ، كما أن الكثيرين منهم على مستوى خلقى طيب ، بل إن بعضهم ملتزم بدينه ، حريص على أن يلقى الله تعالى وهو راض عنه . ومن هنا فإن أخطاء هؤلاء قليلة جداً ، بل نادرة.

لكن كل مجال – كما نعلم – يضم الخير والشرير ، كما يوجد فيه الصالح والطالح. هناك من يجعل هذا العمل وسيلة لتحقيق مصالح شخصية وخاصة لأقاربه ومعارفه ، وهناك من يستضيف مسئولاً لكى يطلب منه خدمة بعد ذلك ، أو حتى قبل أن تنتهى الاستضافة. وهناك المذيعة التى تتحايل على المصور لكى يبرز بعض مفاتنها على الشاشة ، وهناك من تطعن زميلتها عند رئيسها فى الخلف ، وهناك من يحجب رأيه الصحيح لأنه لا يجد حوله إلا انتشار التفاهات ، وهناك مقدم البرنامج

الـــذى يطلـــب مـــن المخرج أن يظهره بصورة أكثر إشراقاً من الضيف ، وهـــناك رئيس أو رئيسة القناة التى لا هم لها سوى تصفية الحسابات مع من كانوا زملاءها أو من كانوا متفوقين عليها ، وهناك المذيع أو المذيعة الـــتى هبطت على الشاشة بالواسطة ، ولم تطور نفسها ولا أداءها فظلت ضعيفة ومتعثرة . وهناك من استمر برنامجه أكثر من عشرين سنة بسبب نفوذ من هنا أو هناك ، وليس بفضل نجاحه الجماهيرى. وهناك من شبوا وشابوا على الشاشة ، ومع ذلك مازالوا متواجدين ، والويل لمن يفكر فى إزاحـــتهم مـــن أمـــام الكامـــيرا ، وهناك مقدم البرامج الأخنف ، والمذيع المـــبحوح أو الألدغ، والمذيعة التى لا تكاد تقيم جملة عربية صحيحة . . أمـــا الأدهـــى مـــن ذلـــك كله، فيتمثل فى المذيع أو المذيعة التى لا تثقف نفســـها، ولا تعـــرف كـــيف تطرح سؤالاً محدداً عن قضايا المجتمع ، أو مشـــكلات العـــالم الذى تعيش فيه . . وكل ما نلاحظه هو السؤال التالى: (عاوزين تكلمنا عن الموضوع الفلانى ؟ أو ممكن تكلمنا شويّة عن كذا؟)، وإن حـــاول أحدهـــم أن يتفاصـــح أورد الإجابة مع السؤال بحيث لا يبقى للضيف إلا أن يقول : هذا صحيح !

تـــبقى ملاحظـــة تـــتعلق بالتصـــوير الخـــارجى ، وذلك حين تضم المجموعـــة التى تقوم بهذا العمل المخرج ، والمصور ، والمذيعة المتأنقة جـــداً ثـــم عـــدداً من العمال الذين يكشف مظهرهم عن حالتهم الاجتماعية الصـــعبة ، ولا تتمشـــى ملابسهم القديمة مع مستوى تلفزيون جمهورية مصر العربية . .

وأخـــيراً فـــإن كـــل هـــذه الملاحظات الغرض منها تحسين الأداء ، والوصـــول بالـــتلفزيون المصرى إلى مستوى جيد وممتاز ، يستطيع أن يضارع نظراءه فى كل دول العالم.

من البحيرات المرة إلى قارون

دعـــانى أحـــد الأفاضل إلى زيارة الفيلا التى يمتلكها على شاطئ البحـــيرات المرة فى أبو سلطان . ومن عجائب قدرة الخالق أن الأرض المـــزروعة حـــول البحيرة تنتج كل أنواع الخضر والفواكه ذات الطعم الممتاز . لكن الذى لفت نظرى هو إنشاء محطة كهرباء ضخمة بجانب البحـــيرة ، قـــيل لى أنها من الضرورى أن تكون فى هذا المكان لأنها تعمـــل بتبريد الماء . وأنها تغذى بالكهرباء محافظات بأكملها . وطبعاً كلـــنا يعلـــم أن الكهرباء عصب الاقتصاد كما أن الماء عصب الحياة . وســـمعت حكايات عن شراء الشركة قطعاً من أراضى المواطنين لإقامة هـــذه المنشأة الضخمة عليها ، وأنها قد أجزلت لهم الثمن ، فلم تأخذها منهم عنوة ولا بالإجبار ، بل إنها أتاحت بعد ذلك الكثير من فرص العمل لأهل المنطقة ، فاستفاد شباب ، وقامت عائلات جديدة .

ولســـت أدرى مـــا الذى جعلنى أقفز بذهنى مباشرة من البحيرات المـــرّة علـــى شاطئ قناة السويس إلى بحيرة قارون فى الفيوم .وقلت لنفســـى : لمـــاذا لا تنشأ محطة مماثلة حول تلك البحيرة ، الغارقة فى المشـــكلات المزمـــنة والتى لم يتم الاستفادة (الكاملة) منها حتى الآن . وإذا حـــدث وأقيمت مثل تلك المحطة الكهربائية فإنها ستغذى محافظتى الفيوم وبنى سويف ، وربما امتدت إلى مناطق أخرى من الجيزة . وأياً كانت تكلفة الإنشاء فإنها سوف تعود بالفوائد الكبرى على تلك المناطق،

ومــن الممكــن جــداً عقــد اتفاقية مع إحدى البلاد الصديقة ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، لإنشاء مثل تلك المحطة بمعونة أو بقرض ميسر .

لقد دعوت مراراً إلى أن أهل محافظة الفيوم يستحقون المزيد من الــرعاية ، لأنهــم من أفضل الفلاحين الذين لم يتركوا شبراً واحداً فى محافظــتهم العتــيقة إلا وزرعــوه ، كما أنهم ما زالوا يصدرون لأهل القاهــرة الــبط والفراخ والديوك الرومى ، وهذا يعنى أنهم من الأسرة المنــتجة ، وأعتقد أن لمسة تحديث لهذه المحافظة ، التى يتولاها عالم كبــير ، يمكنها أن تعود بالخير على أهالى الفيوم ، وبالتالى على أهل مصر كلهم .

إن مصــر واعدة بالكثير من الخيرات التى تنبتها الأرض ، والتى يمكن أن يقوم أبناؤها بتصنيعها ، والتجارة فيها . كما أنها تحتوى على ثلــث الآثــار المتبقــية مــن العالم القديم ، وهذا يجعلها مقصد الزوار والســائحين من كل أنحاء العالم . وإذا كانت الأفكار الإبداعية فى مصر قليلة ، فإن هذا القليل يكفى لإحداث نهضة كبرى فى مختلف المجالات . المشــكلة فقــط فى موظفى الروتين الذى يفرمل أى انطلاقة ، ويعرقل أى مبادرة.

نماذج من علماء الخير

أمـــا أولهم فهو الدكتور إبراهيم بدران، الذى كرمته الدولة أخيراً بجائــزة مــبارك التى تسلمها من الرئيس شخصياً . هذا الرجل العالم المؤمـــن الذى لا يقترب منه مسكين إلا أخذ بيده ، ولا مريض موجوع إلا خفف عنه آلامه ، ولا عاجز عن تكاليف العمليات والعلاج إلا وفاجأه بما لا يتوقع على الإطلاق . هذا الرجل يقدم لطلاب جامعته فى كل عام مــنحة بخمســين ألف جنيه ، يتم توزيعها على أكثرهم حاجة لمواصلة دراستهم ، والتخرج من الجامعة دون أن يلتقى بهم ، أو يلتقوا به . .

أمـــا الــثانى فهو الدكتور محمد شعيب الذى رصد من ماله مبلغاً ليســاعد بــه 27 طالــب وطالبة منذ التحاقهم بالجامعة حتى التخرج . وذات يــوم ، قــدم إلــى مكتبى فعرضت عليه أن يلتقى بعدد من الذين تخــرجوا ، فقبل بامتنان وتواضع . وفى حفل شاى بسيط ، لكنه عميق الدلالـــة ، راح الطلبة الخريجون يشكرون له أياديه البيضاء حتى دمعت عيناه ، ولم يستطع الحديث حين جاء دوره . .

وأمـــا الثالـــث فهو الدكتور محمد شوقى الفنجرى أستاذ القانون المخضـــرم ، والذى عقد وقفية على (125) طالباً فى الجامعة ، يجرى الإنفاق عليهم من ريع تلك الوقفية التى لا تقتصر على حياته ، أمد الله فى عمره ، وإنما تستمر ما دامت الوقفية سارية . .

وأما الرابع فهو الدكتور سيد سيف طبيب العيون الشهير ، والذى يشــغل نفســه هذه الأيام ، بإنشاء مركز علمى وصحى وترفيهى لكبار الســن ، الذيــن عملوا طوال حياتهم ، وكونوا الأسر ، وأنجبوا الأولاد والأحفاد ، ثم أصبحوا فى حاجة لمن يناولهم علبة الدواء ، أو يسندهم حــتى دورة المــياه . . هؤلاء الناس هم نحن عندما يتقدم بنا العمر . ويرحل عنا أمثالنا ، ويزهق منا أبناؤنا . لذلك فإن د. سيف يتبنى بكل شجاعة هذا المشروع ، ويعمل مع أهل الخير من أجل قيامه .

ما الذى يدفع هؤلاء الأربعة من نماذج الخير إلى الإنفاق من حرّ مــالهم علــى الطــلاب غــير القادرين وغيرهم ، وفى نفس الوقت ، يحرصــون أشد الحرص على عدم الإعلان عن أنفسهم ، أو التباهى بما يفعلون ؟

وكــيف يوجد أمثال هؤلاء بيننا ، ونحن نشكو من (بعض) رجال الأعمــال الهاربيــن أو الموظفين الفاسدين الذين لا يشبعون من المال مهمــا جمعــوه ، ومهما بلغ عندهم أرقاماً فلكية ، لا تكفى أيامهم كلها لكى ينفقوه فيها .

لقد فكرت كثيراً فى هذا الأمر فوصلت إلى أن الله تعالى كما خلق الليل خلق النهار ، وكما خلق النسيم العليل خلق العاصفة ، وكما خلق المــلاك الطاهــر خلق الشيطان الرجيم ، وأنه لولا وجود هذه النماذج المشــرفة لفقــد الإنسان الأمل فى روعة الحياة ، ولما استساغ شربة الماء ، ولا لقمة الخبز.

موعد النشرة

كنا نجلس حول التلفزيون منتظرين مشاهدة نشرة أخبار التاسعة، لكـــى نـــتابع مـــا يحـــدث يومياً فى فلسطين المحتلة ، وبعض الأحداث العربـــية، ومـــا يحـــدث فى العالم ، واقتربت الساعة من التاسعة ، ثم وصـــلت التاسعة ، وتجاوزتها بدقيقة ، واثنتين وخمس دقائق ولم تأت النشـــرة ! ! كـــيف يحـــدث هذا مع أن نشرة الأخبار كانت طوال عمرنا ســـواء فـــى الإذاعـــة ، ثـــم فى التلفزيون منضبطة تماماً مثل الساعة بدقائقها وثوانيها ، بل إننا كنا نضبط عليها الساعة .

وراح بعضـــنا يقول : السبب هو إهمال العاملين ، والبعض الآخر يقـــول : لعلهم ينتظرون أخباراً لم تأت بعد ! وبعض ثالث يقول : إنـهم يعـــاملون النشرة معاملة المسلسل والأغنية ! وطبعاً لم يعرف أحد منا الســـبب الحقيقى الذى يقف وراء عدم إذاعة النشرة فى دقيقتها المحددة تمامـــاً ، وتبقى معرفة هذا السبب سراً خاصاً بالتلفزيون ، الذى لم نكن نـــتوقع له أن يكون أقل من قنوات أخرى فى المنطقة العربية، تلتزم ، فى دقة بالغة، بموعد النشرة تماماً .

إنـــنى أؤكـــد علـــى هذا الموضوع لأننى شخصياً ، ومعظم أبناء جـــيلى، قد تعلمنا احترام دقة المواعيد من التربية فى أسرتنا أولاً ، ثم من الجرس فى مدارسنا ثانياً ، ثم من وسيلة الإعلام التى كانت متوافرة علـــى أيامـــنا ، وهـــى الـــراديو ، حيث كانت تنقل الإذاعة صوت دقات ساعات جامعة القاهرة ، يليها مباشرة (مارش) نشرة الأخبار فى الثانية والنصف ظهراً ، والثامنة والنصف مساء . . وأذكر أنه لم يحدث قط أن

تخلفت نشرة عن موعدها ، أو حدث اضطراب فى دقات الساعة !

قلبى إذن مع الجيل الجديد ، أو بالأحرى : قلبى عليه ! فمن أين يحترم دقة المواعيد ، والانضباط فى البدء والانتهاء من العمل ، والالتزام بمراحله المتتالية ؟ يحدث معى شخصياً أن أعطى موعداً لطالب ، له مصلحة يريد قضاءها ، فأقول له : هل تناسبك الساعة العاشرة غداً ؟ ثم أفرغ للموعد تماماً منتظراً وصوله ، فتمر الدقائق، وأحياناً لا يأتى إلا بعد نصف ساعة أو ساعة ، ولا يحمل على وجهه أى علامة تدل على الاعتذار ، وعندما أسأله : ما الذى أخرك ؟ يجيبنى بكل بساطة : المواصلات ! ويعلم الله أن المواصلات بريئة من تهاونه ولا مبالاته . فلو أنه نزل من منزله قبل الموعد بوقت كاف لجاء فيه تماماً ، أو فعل كما أفعل أنا ، وجاء قبله !

إن احترام الوقت ليس فقط جزءاً من احترام الذات ، وإنما هو عامل أساسى فى إنجاز الأعمال ، ونجاح الأفراد ، وتقدم المجتمعات .

وصديقى الآخر ، صاحب شركة لها فروع ، قال لى يوماً : حدثنى فلان أن أعين ابنه خريج الجامعة ، فى أحد فروع الشركة ، بعد أن راح يشكو لى من كثرة الأبناء ، وثقل تكاليفهم ، وثمن العلاج والدواء حتى حددت له موعداً يقابلنى فيه ابنه وبالفعل جلست أنتظره بعد أن قلت للسكرتيرة أن تدخله على الفور بمجرد وصوله . . ومرت أكثر من ساعة ، لم أعط فيها لأحد موعداً آخر ، كما ألغيت لقاء بعض الأشخاص المهمين . . وأخيراً جاء " المحروس " بدون مبالاة . . فاعتذرت له عن عدم وجود عمل لدى ، مع أن قلبى كان يتقطع على والده المسكين !

مواعيد المقاهى

فكـــرت طويـــلاً فى ضرورة تحديد أوقات لفتح وإغلاق المقاهى ، علـــى غـــرار مـــا يحدث فى البلاد المتقدمة حيث نجد للمقاهى مواعيد محـــددة ، فلا تفتح أبوابها وتستقبل الزبائن إلا عندما يخرج الموظفون مـــن المصالح الحكومية ، والشركات والعمال من المصانع لكى يتناولوا غداءهـــم ، عند الظهيرة ، ثم تغلق بعد ذلك ، لكى تفتح مرة أخرى بعد حوالـــى أربـــع ساعات حتى الساعة الثامنة أو التاسعة مساءً على أكثر تقديـــر . . وهكـــذا فإن المقاهى فى الدول المتقدمة تخلو فى العادة من الكســـالى والفارغين ، فى نفس الوقت الذى تقدم فيه خدمة حقيقية لمن يـــريد تناول مشروب ، أو يتناول طعاماً خفيفاً ، أو يواعد صديقاً ليذهبا معاً إلى مكان ما ، أو يتحدث فى التليفون . . الخ . أما لعب الكوتشينه والطاولـــة وتدخين الجوزة والشيشة والجلوس على المقهى طوال اليوم للثرثرة واستعراض الرائح والغادى كما يحدث عندنا وذلك شئ آخر . .

من هنا فإننى أرى أن المقاهى بهذا الوضع تعتبر بؤراً للتكاسل ، وعـــدم الإقـــبال علـــى العمـــل ، وأضـــعاف روح النشاط والحيوية فى المجـــتمع.. فمـــا معـــنى أن تفتح المقهى لاستقبال روادها من الساعة

الثامـــنة أو التاسعة صباحاً ؟ وما معنى أن تظل مفتوحة حتى منتصف الليل أو بعده أحياناً ؟ وليس معنى هذا ان المقاهى غير ضرورية . فكل بـــلاد العالم تحتوى على مقاهى ، لكن من الواجب أن تتم العناية بها ، وأن توضـــع مواصفات عامة تطبق عليها جميعاً ، تاركين لكل صاحب مقهـــى أن يضـــع – بعـــد تحقـــيق المواصفات الأساسية ما يشاء من الجماليات والكماليات . .

أذكـــر أن الإمام محمد عبده قال أنك إذا أردت أن تعرف روح أى مجتمع ، فاجلس على أحد مقاهيه الشعبية ، وهى كلمة فيها الكثير من الحقيقة . لأنك إن جلست فى مقهى فإنك تشاهد بسهولة سلوك الناس ، وتســـتمع إلـــى لغتهم ، وتستنتج مدى التواصل أو التباعد بين بعضهم البعض .

لذلـــك فـــإن وضع نظام لعمل المقاهى قد أصبح ضرورياً فى ظل حـــركة التنمـــية التى يمر بها مجتمعنا فى الوقت الحاضر ، حتى تكون أماكن لراحة المرهقين من العمل ، وليس لإقامة الفارغين ، ولكى تقدم خدمـــة حقيقـــية للـــناس ، بدلاً من أن تتحول إلى مصادر لملء الهواء بالتدخين ، وتلويث البيئة .

موائد الرحمن

أذكـــر وأنــــا صــــغير أن من أجمل أوقات رمضان كان هو وقت تحلق الأســـرة كلهـــا حـــول مائدة الإفطار : الأب والأم والإخوة والأخوات ، ونظل ننـــتظر مدفـــع الإفطار حتى ينطلق ، ثم ينساب آذان المغرب بصوت محمد رفعـــت أو عبدالباســـط وغيرهما من كبار مقرئى القرآن الكريم . . ولم يكن التليفزيون قد ظهر ، فكنا لا نسمع سوى الراديو بابتهالاته الدينية المؤثرة ، وبرامجه الخفيفة الظل . .

لكن أسوأ ما كان يؤرقنى وأنا أتناول طعامى فى هذا الجو الحانى هو ســـماع شـــحاذ عجوز يجوب الشوارع ، وينطلق نداؤه المبحوح (مسكين يا محســـنين لله) وكذلـــك (حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة) والمشكلة أننى كنت أصدق فعلاً أن الرجل محتاج للطعام بينما توجد ألوانه المختلفة على مائدتنا، ولو أن الأمر كان يومها بيدى لحملت إليه طبقاً مملوءاً بالطعام الفائض عن حاجتنا . .

ومـــرت الأيـــام ،حتى أصبحنا الآن لا نسمع مثل هذا الشخص ، وهو ينادى على حاجته للطعام بينما الصائمون يتناولون إفطارهم المتعدد الألوان. ومـــا ذلك إلا لأن العديد من أهل الخير ، الذين راحوا يتنافسون فى إقامة ما يســـمى بموائـــد الرحمـــن ، ويضـــعون عليها كل ما يحتاج إليه الصائم فى إفطـــاره، ويتيحونها لكل من يرغب فى الجلوس عليها ، أو حتى الأخذ منها لبيته وأولاده . .

ومـــن الغريـــب أن تظهر بعض الأصوات التى تحرم هذه الموائد ، أو التى تقول إن بعض أصحابها لا يصلحون أن يقوموا بفعل الخير . وهذا كلام لا أساس له من الصحة ، ولا يعتمد على أى أصل من الدين، فلكل مسلم أن

يقوم بفعل الخير ما وسعه ذلك ، وعندما أقول (كل مسلم) فلا ينبغى التفريق بيـــن مســـلم صــــالح ، ومسلم غير صالح، فالكل مطالب بفعل الخير ، وبذل المعــــروف ، والتصدق بما يستطيع كجزء من تقربه إلى الله تعالى ، وأحياناً مـــن توبـــته إلـــيه ، لذلك لا ينبغى علينا – كبشر – أن نمنع أحداً من فعل الخـــير . ومن المؤكد أن موائد الرحمن من صميم عمل الخير ، لأنها تساعد الكثيريـــن ممـــن يحـــتاجون إلى هذه المساعدة ، وخاصة فى شهر رمضان المبارك، الذى ينبغى أن تتواصل فيه العبادة ، وأن تكثر فيه الصدقات ، وأن يدلـــى فـــيه كـــل مسلم بما يقدر عليه من أجل مساعدة المحتاجين ، وبذلك يـــترابط المجـــتمع ، وتتحقق فيه التعاليم الإسلامية التى تدعو إلى التعاطف والتراحم والتعاون على البر والتقوى، بدلا من التعاون على الإثم والعدوان.

ونسمع أحياناً أن بعض أصحاب موائد الرحمن (يستعرضون) ، بمعنى أنهم يتفاخرون فيما بينهم . وأقول : لا علاقة لنا بنواياهم فى ذلك ، وكل ما يهمـــنا مـــنهم هو تقديم تلك الخدمة الرمضانية للمحتاجين إليها ، وعلى أقل تقديـــر ، إذا لـــم تعجبنا أعمالهم فلا داعى لأن نهاجمهم، أو ندعو إلى إلغاء تلـــك الموائـــد الـــتى أصـــبحت بـــالفعل مظهـــراً رائعاً من مظاهر التضامن الاجتماعى فى مصر خلال شهر رمضان .

أمـــا أصـــحاب موائد الرحمن فأنا أقول لهم : بارك الله فى أعمالكم ، وطهـــركم بهـــا من الذنوب ، وفتح لكم بها باب رحمته الواسعة ، والتى لا ينبغى لأى إنسان – كائناً من كان – أن يقف حائلاً بينها وبين الناس . فالله تعـــالى قد ذكر لنا أن رحمته وسعت غضبه ، وأنه هو التواب الرحيم ، وهو تعـــالى قـــابل التوب وغافر الذنب ، كما دعانا إلى العمل الصالح ، ومن هذا العمـــل الصـــدقات علـــى الفقـــراء والمساكين ، ووعدنا بان الحسنة بعشر أمثالها، وأن الله يضاعف لمن يشاء . .

يظن (وأحياناً يعتقد) كثير من الشباب الذين يقرأون جريدة الجمهورية ويقفون أحياناً على ما أنشره فيها ، أننى أحد القادرين على (توظيفهم) أو (التدخل من أجل توظيفهم). وبالتأكيد هذا ظن حسن ، لكنه فى غير موضعه . فأنا بحكم موقعى فى الجامعة مجرد مسئول عن قطاع أو عدة قطاعات ذات طبيعة تعليمية بالدرجة الأولى ، وبالتالى لا أملك القرار فى توظيف أو حتى إنهاء توظيف أى شاب . وأعترف مخلصاً بالفعل أن قلبى يتقطع من مجئ شاب فى مقتبل العمر لمقابلتى ، وهو فى غاية الترجى والانكسار ، وعندما أسأله عن الغرض من زيارته ، يقول بصوت متهدج ومتقطع وشبه يائس أنه يريد مساعدتى فى الحصول على وظيفة . ليتنى أستطيع ، وكنت أتمنى أن أخدمه بكل ما أستطيع . لكن اليد قصيرة ، والظروف لا تسمح ، ولابد أن أضيف أن الجهاز الحكومى به من الأعداد ما ينوء بحمله وزيادة . ولو أننا طبقنا (الميكنة) كما يطالب البعض لأصبح من السهل جداً تسريح آلاف بل ملايين الموظفين، وذلك لأن الكمبيوتر يمكن أن يختصر أعمال من عشرة إلى خمسة عشرة موظفاً ، واستخدام ماكينة للشاى والقهوة والبسكويت يمكنها أن توفر عشرات العمال الذين يملأون ممرات المصالح الحكومية.

لقد سبق أن دعوت الشباب إلى اقتحام مجال المشروعات الصغيرة. لكن هذا يتطلب تغييراً كبيراً فى نظرة المجتمع كله إلى قيمة العمل ، بصرف النظر عن شكله، وضرورة التخلى عن النظرة التقليدية التى ما زالت سائدة مع الأسف ، وهى أن أعمال المكاتب (أفضل) من العمل اليدوى ، وأن (الموظف) بالتالى أرقى من (العامل).

لكـن المشــروعات الصــغيرة هى الأخرى بحاجة إلى تشجيع من الدولــة . ولا ينبغى أن يقتصر التشجيع على الإعلانات فى وسائل الإعلام أو التصــريحات علــى ألسنة المسئولين ، وإنما لابد من إجراءات عملية تتــيح لأى شــاب يفكــر فــى إنشاء مشروع صغير كل الفرص الممكنة لإنهاضــه ، وتوزيع منتجاته فى منافذ محددة ، مع اعطائه سلفة بسيطة يستعين بها على البدء والاستمرار حتى يقوى عوده ، وتستقر أحواله.

فى جامعة القاهرة يوجد مركز تدريب للطلاب والطالبات اسمه مركز إحــياء الفنون التراثية . والذين يترددون عليه هم الطلبة ذوو الرغبة فى عمل منمنمات خان الخليلى مثل الصناديق الصدفية ، والبراويز المطعمة ، والمكرميات ، والزجاج الملون، والأعمال الخشبية والمعدنية . وأؤكد أننى أتابع عن قرب نشاط هؤلاء الطلبة، بل وأحثهم على إجادة تلك الهوايات ، حتى إذا تخرجوا ، ولم يحصلوا على وظيفة ، تكون هذه الهوايات مصدر دخــل لهم . وأصارحكم بأننى أعرف من نجح فى الاستمرار فى هوايته ، وأصبحت بالنسبة له مصدر رزقه الوفير !

أريد أن ألفت النظر إلى المنتجات الصينية التى راحت تغزو أسواقنا المحلــية وتملأ بيوتنا ، وأقول للشباب إن هذه المنتجات ليست سوى ثمار لمشــروعات صــغيرة يتم صنعها فى الصين داخل بيوت صغيرة بسواعد شباب صغار فى السن أو حتى كبار على المعاش .

وفى الختام دعاء من الأعماق أن يحقق الله تعالى لكل طالب وظيفة أمله فى الحصول عليها ، ولكل صاحب مشروع صغير التوفيق فى إنشائه ونجاحه .

هدوء يوم الجمعة

يوم الجمعة . . أنتظره مثل كل العاملين فى الدولة بكل الشوق ، لأنـــه هو يوم الراحة الأسبوعية الذى لا يرن فيه جرس المنبه، فينتزع الإنسان نزعاً من الفراش ، ويخطفه خطفاً من هدأة نوم لذيذ ، وأحياناً من أحداث حلم جميل . يوم الجمعة هو يوم انفراجة الأعصاب ، وهدوء الـــبال ، والتمـــتع بجو الأسرة ، لكن هذا اليوم الهادئ ما إن يبدأ حتى يندفع من الشارع ، وبمحاولة متعمدة للإزعاج، صوت ميكروفون ينادى علـــى الروبابيكيا ، ثم صوت ميكروفون آخر ينادى على أفضل فرصة لشراء الدجاج الحىّ ، ثم صوت ميكروفون ثالث ينادى على البطيخ، ثم ينضـــم إليها بعد ذلك صوت زمارة موجهة للأطفال لشراء غزل البنات، إلـــى جانـــب صـــوت صـــارخ تعلن به عربات البوتوجاز عن مرورها الخاطف، حتى يسرع من يحتاجها إلى تبديل أنبوبته . . وهكذا تتشارك أصـــوات تلـــك المعزوفة الرهيبة لتجعل من صباح يوم الجمعة هجوماً مخططـــاً لا يقـــارن على الإطلاق بهجوم العولمة على البلدان النامية ، وإنما هو أقسى وأشرس وأشد تخريباً للعقل والنفس والأعصاب .

مـــن المســـئول عـــن إيقـــاف هـــذا كلـــه ؟ لا أحد سوى السادة المحافظين، الذين يمكنهم بقرار حاسم ومتابعة جيدة أن يمنعوا الأصوات المـــزعجة ، بـــدءاً مـــن كلاكســـات السيارات (التى قرر السيد محافظ

الإسـكندرية إسـكاتها ونجـح بذلك فى جعل المدينة خالية من التلوث السـمعى) إذن المشكلة يمكن حلها ، ومهما كانت صعبة ، فإنها ليست مسـتحيلة . إنهـا فقط تنتظر اهتمام كل من السيدين ، محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة ، للقيام بهذه الخطوة ، التى ستكون تاريخية ، وستكتب لهمـا فـى ميزان حسناتهما لأن سكان هاتين المحافظتين ، على وجه الخصـوص ، يعـانون أشد معاناة من التلوث السمعى بكافة أشكاله ، ويتمنون يوماً واحداً فى الأسبوع يكون خالياً منه ، وخاصة يوم الجمعة المـبارك ، الذيـن يذهبون فى منتصفه إلى المسجد ، وهم يدعون الله تعالى أن يمنحهم ساعة هدوء ، ولحظة راحة . ومن يدرى قد يتجهون بالدعـاء علـى مـن يسـبب لهم كل هذه الضوضاء ، ويحرمهم متعة الاسترخاء فى يوم أجازتهم الأسبوعية !

الـذى لا يعرفه الكثيرون أن راحة العامل هى التى تعطيه القدرة علـى الأداء والإنجاز خلال أيام عمله ، ولذلك كان من المهم أن يحظى العاملون بوقت للراحة تهدأ فيه أعصابهم ، وتستروح قلوبهم ، وتتمدد أجسامهم من عناء عمل متواصل خلال أسبوع كامل ، لكى يعودوا بعده إلـى أعمالهم وهم أكثر نشاطاً ، وأشد حيوية . وهكذا فإن يوم الجمعة ينـبغى أن يتم التخطيط الجيد له ، والاهتمام به باعتباره وقتاً ضرورياً لحسن أداء العمل فى باقى أيام الأسبوع .

هدية لأهل السينما

فـــى روايته البديعة (حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن) لمحمـــد المويلحـــى ، وهـــى من أوليات الروايات المصرية فى العصر الحديــث ، يتخــيل الكاتـــب قيام أحد الأشخاص من القبور ، هو ناظر الجهاديـــة الـــتابع والصـــديق لأفنديـــنا إبراهيم باشا ابن محمد على ، ومصاحبته لراوى الحكاية عيسى بن هشام ، لكى يتجولا معاً فى أحياء القاهـــرة . وبالطـــبع تحـــدث العديد من المفارقات المضحكة جداً ، لأن الـــرجل الـــذى بعث من الموت سوف يعيش فى عصر آخر ، لا يعرف الكثـــير مـــن إجراءاته ومصطلحاته وأسلوب الحياة الجديدة فيه . ومما يزيد المواقف سخرية أن الرجل كان يتبوأ منصباً مهماً جداً فى عصره ، لكـــنه يفاجـــأ بأن الناس لا تعرفه إلا بشخصه فقط ، ولذلك سوف نجده يلقـــى فى الحجز بقسم الشرطة ، وينال الكثير من الاستهزاء والسخرية بســـبب عنطزته التى يعامل بها المسئولين ، وكأنهم مرؤوسون له كما كان أمثالهم فى الماضى .

لقـــد قـــرأت هذه الرواية أكثر من مرة ، وبالتحديد ثلاث مرات . مرة فى الصبا ، ثم فى فترة الشباب . . وأخيراً فى الوقت الحاضر .

وكلمـــا قرأتها أو أعدت قراءتها أجدها تزداد روعة ، وتتألق كل عناصـــر الجمال فيها كعمل أدبى ، لا يقتصر فقط على المحلية ، وإنما يرقى بكل جدارة إلى مستوى العالمية .

تعجبـــت كثيراً من اهمال هذه الرواية المتميزة من جانب السينما والتلفزيون عندنا ، أو حتى فى البلاد العربية ! وكيف أن كاتب سيناريو

مصـــرياً أو عربـــياً لم يتنبه إلى قيمة هذا العمل الرائد ؟ ولماذا لم تقع علـــيه عيـــن مخرج مصرى متميز لكى يقدمه للناس فى صورة دراما تســـتجيب لأذواق الناس فى هذا العصر ، بعد أن تضاءلت نسبة القراءة بيـــن الناس ، وخطفت (الصورة المتحركة) اهتمام الجماهير والمثقفين معاً ؟

إن أروع مـــا فى (حديث عيسى بن هشام) أنه يضع الإنسان أمام حقـــيقة الموت التى يتساوى عندها الجميع ، والتى لا تعرف منصباً ولا جاهاً ، وإنما تواجه الإنسان، كائناً ما كان ، بحقيقته الخالصة من دون أى تـــزويق أو تجمـــيل أو أقنعة . كذلك فإن الرواية تؤكد على نسبية الحقـــيقة التى قد تختلف من عصر إلى عصر آخر ، وبالتالى فإن على الإنسان أن يعيش عصره ، وأن يتعامل معه بأسلوبه ، بدلاً من أن يظل هائمـــاً فـــى الماضى ، غارقاً فى خيالاته . وليس معنى هذا أن حقائق الماضـــى تكـــون كلها خاطئة ، بل إنها فقط قد لا تكون كلها صحيحة ، تمامـــاً كما أن العصر الحاضر يحتوى على الصواب والخطأ . ثم تبقى دائمـــاً روعـــة الكاتب الذى ملأ روايته بالمواقف الساخرة التى تحتوى علـــى متناقضات الحياة اليومية الجارية . وهذه سوف تظل على الدوام نبعاً لا ينضب لكل الأعمال الفنية والأدبية العظيمة ، التى تتحدى الإهمال أو النسيان .

رحـــم الله المويلحـــى ، وهدى أهل السينما عندنا لكى يفكروا فى تجسيد رائعته المصرية (حديث عيسى بن هشام ، أو فترة من الزمن).

يتفضل برفع يده

هـــذه العـــبارة تـــتردد كثـــيراً من السيدين رئيس مجلس الشعب ورئـــيس مجلـــس الشورى وخاصة عندما يعرض أحدهما على السادة الحضـــور اقـــتراحاً للتصويت عليه . وبالطبع يرفع الأغلبية أو البعض أحـــياناً أيديهـــم فينظر رئيس الجلسة – ودون أن يعد أو يحسب الأيدى المـــرفوعة – مقدراً العدد تقديراً خاصاً به ثم يقول " موافقة " . والذى أتمـــناه لكـــل من المجلسين الموقرين أن يستعينا بالوسائل الإلكترونية الحديـــثة التى نشاهدها فى معظم برلمانات العالم وهى عبارة عن توافر ثلاثة أزرار أمام كل عضو يضغط على أولها للموافقة وعلى الثانى لعدم الموافقة وعلى الثالث لتسجيل امتناعه عن التصويت. حينئذ وفى نفس اللحظـــة تظهـــر علـــى لوحة كبيرة موجودة بالمجلس أعداد الموافقين والمعارضـــين والممتنعيـــن عـــن التصويت وبهذا الأسلوب يتحدد مدى المشـــاركة الحقيقـــية فى المشروعات المقدمة من وإلى المجلس كذلك فإنـــنا بهـــذا الأســـلوب نساير البرلمانات الموجودة فى البلاد المتقدمة ونكون قد استعنا بالتكنولوجيا الحديثة فى نظامنا الديمقراطى الذى شهد طفرة كبرى فى عهد السيد الرئيس محمد حسنى مبارك.

لقــد قال لى صديق عاقل : إننى ألاحظ أن رئيس مجلس فى حجم مجلســى الشــعب والشــورى لا يمكنه أن يعد أو يحسب بالضبط عدد الأيــدى المرفوعة سواء بالتأييد أو الرفض وأحياناً يكون العدد محتملاً للقلة فنراه يعلنه أغلبية وهذا قد يهز مصداقية القرار وخاصة لمشاهدى الجلســات علــى الشاشة ثم أضاف قائلاً أن استخدام الأعضاء للأزرار ســوف يحــد كثــيراً من حركتهم فى طرقات المجلس وخاصة مجلس الشعب لأن كلاً منهم لكى يسجل صوته لابد أن يستقر فى مكانه وأخيراً قــال ضــاحكاً : كما أن هذا الأسلوب الحضارى سوف يوفر علينا أيضاً رؤية ذراع أحدهم حين يرفع يده ويكون مرتدياً جلباباً واسع الأكمام !

قلت له : لقد سبق أن بعثت بتحية لمجلس الشعب من هذا المكان مشــيراً إلى أهمية اكتمال عدد السادة النواب والتزامهم بالإصغاء عندما يتحدث أحدهم وعرض مطالبهم باختصار وموضوعية وتجنب التكرار ما أمكــن مع مراعاة أن التليفزيون المصرى ينقل – مشكوراً – جلساتهم إلى ملايين المشاهدين فى مصر والعالم الأمر الذى يضع على كل منهم مســئولية الحفــاظ على المظهر العام والالتزام بآداب العضوية فى هذا المجلــس الذى نتمنى له كل التوفيق وتطوير آليات العمل به حتى يليق بمكانة مصر وهى فى مطلع القرن الحادى والعشرين .

ياميش رمضان

يقال إن أسعار ياميش رمضان هذا العام سوف ترتفع إلى 300% ومعنى هذا أن كيلو البلح الذى اشتريناه فى العام الماضى بخمسة جنيهات سوف يصبح خمسة عشر جنيهاً ، وكذلك التين والزبيب والقراصيا والجوز واللوز والبندق . . الخ

قال لى صاحبى : وماذا لو أننا امتنعنا عن تناول هذا الياميش كله؟ هل يفسد الصوم ؟ أجبته : كلا ، فقط كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يفطر على بعض التمرات ، لكن مائدته لم تكن بهذا الحجم، ولا بذلك التنوع الذى توجد عليه موائدنا فى رمضان . فهى تحتوى على اللحوم والدواجن والكفتة والأرز والمكرونة والشوربه والسلطات والمخللات وبعدها تأتى الكنافة والقطايف وبلح الشام ولقمة القاضى . .

قال لى صاحبى : وما الذى جعل مائدة رمضان عامرة بهذا الشكل؟ قلت له : لعله إحساسنا بأننا لم نأكل شيئاً طوال اليوم ، ولعله امتلاء جيوبنا بالمال ، وأخيراً لعلها عادة مصرية تأصلت مع الأيام ، ولم ينبهنا إلى خطورتها أحد .

قال لى صاحبى : يعنى لو استغنينا عن ياميش رمضان لن تنهد الدنيا ، وسيظل صومنا صحيحاً ؟ قلت له : بكل تأكيد ، بل إن ذلك لو حدث لتجنبنا الكثير من التخمة ، الناتجة عن تراكم الدهون والسكريات فى الجسد ، الأمر الذى يفقده القدرة على الحركة ، والنشاط للعبادة ، والخفة لأداء الصلوات.

قـــال لـــى صـــاحبى : لكن هل توجد علاقة بين ياميش رمضان ومسلسلاته ؟ قلت: لقد بدأ تاريخ هذه العلاقة مع ظهور التلفزيون عندنا فـــى الســـتينات . فقد رحنا نشاهد المسلسل ونتناول الياميش بمختلف أنواعـــه ، وكلما كان المسلسل على درجة من (البواخة) زاد استهلاكنا للمكســـرات ، فقمـــنا بالضـــغط الشديد عليها بأسناننا ، ربما نوعاً من التنفيس أو الانتقام الذاتى .

قال لى صاحبى : يعنى لو أنتجنا مسلسلات رمضانية جيدة يمكننا أن نســـاعد فـــى تقليل استهلاك الياميش ؟ قلت له : هذا احتمال كبير . وأفضـــل مـــنه أن تتم توعية الناس بضرر الدهون التى يحتوى عليها الياميش ، وأن بعضها يزيد من نسبة الكولسترول فى الدم ، وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة .

قـــال لى صاحبى : مادام الياميش ضاراً بالصحة إلى هذا الحد . فمـــن الذى أدخله إلى مصر ؟ قلت له : لابد أنهم بعض التجار ، حملوه مـــن الشـــام ، علـــى أيـــام السلاطين العظام ، فوجده المصريون لذيذاً ومســـلياً، وبالـــتالى فقـــد أقبلوا عليه ، وأصبح من عاداتهم السيئة فى الشهر الكريم .

قال لى صاحبى : وإذن فإن ارتفاع سعر ياميش هذا العام لا معنى لـــه . لأنـــنى قررت عدم شرائه ، وإذا أصرت الزوجة والأولاد فسوف أشـــترى لهـــم فى أضيق الحدود: كيلو بلح أو اتنين . قلت له : وبهذا تساهم فى تقليص هذه العادة التى لا علاقة لها بالصوم ، وتساعد البلد فى الاحتفاظ (بالباقى) لديها من العملة الصعبة !

يا أهل دار الكتب

سبق أن كتبت عن دار الكتب القومية ، منتقداً ما تهتم به من ندوات ومحاضرات ، مهملة دورها الأساسى فى جمع وتصنيف وتقديم وإعارة الكتب للقراء من مصر وسائر البلاد العربية والأجنبية . وأذكر يومها أن رئيسها السابق اتصل بى معاتباً لكننى تحملت عتابه فى سبيل قول كلمة الحق . والواقع أن لدار الكتب مكانة كبيرة فى نفسى ، وأنا أعتبرها مملكة لى . فقد تربيت فيها وهى فى مكانها القديم بباب الخلق ، وكنت أقضى فى قاعاتها فترات تتصل من الصباح حتى غروب الشمس، ولكى لا أغادرها كنت أحمل معى السندويتشات للغداء . أما الشاى فكان يقدمه بوفيه صغير موجود بداخلها. وفى قاعة المطالعة قرأت حوالى سبعة أجزاء من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، كما تجولت فى معظم دواوين الشعراء العرب ابتداء من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث . وما زلت أذكر ديوان الشاعر الكفيف أحمد الزين ، وهو من أرق الشعراء المحدثين ، وأجملهم أسلوباً (لا يكاد يعرفه الآن أحد) . أما قاعة المخطوطات ، وهى أصغر بكثير من قاعة المطالعة ، فقد قضيت فيها هى الأخرى عمراً آخر . حيث رزقنى الله بأستاذية محقق كبير هو المرحوم السيد صقر ، الذى كان يكلفنى بنسخ بعض المخطوطات التى لا تخرج طبعاً من الدار ، وهناك تعرفت على فؤاد سيد ، ومحمود الطناحى ، وعبدالفتاح الحلو ، كما نسخت للشيخ الصوفى الكبير عبدالحليم محمود ، وكان يومها عميداً لكلية أصول الدين ، جزءاً من موسوعة ضخمة لم تنشر حتى الآن لابن فضل الله العمرى ، عنوانها مسالك الأبصار. لهذا كله اعتبر أن دار الكتب بيتى وموطن صباى ومملكتى . وعندما أنتقد

بعض أوضاعها لا أرى أننى أخفر ذمتها ، أو أقصد الإساءة لمن يديرها .

وقـد آلمنى جداً ، كما آلم جميع القراء ، نبأ سرقة أكثر من أربعة آلاف مخطوط من دار الكتب . يا إلهى . . كيف خرجت كل هذه الكمية ؟ ومـن الـذى ارتكب تلك الجريمة ؟ وما هو الثمن الذى وضعه الجانى فى جيبه ؟ وعلى أى أسلوب يسير نظام الأمن فى الدار ؟ ثم أين المسئولون عن هذه المخطوطات بدءاً من الساعى . . حتى مدير الدار نفسه ؟ !

إننـى أطـرح هذه الأسئلة ، وأنا أدرك جيداً السبب الرئيسى الذى يقـف وراءها . وهو ببساطة يتلخص فى أن من يتولى أمر الدار العريقة لا يقتصـر علـى أداء وظيفته المخصصة له فيها ، وهى المحافظة على مقتنـياتها ، والعمـل المستمر على زيادتها ، وتسهيل إجراءات الإطلاع علـيها أو إعارتها للقراء سواء كانت إعارة داخلية أو خارجية . لكننا فى الآونـة الأخـيرة بدأنـا نسمع ونقرأ أن دار الكتب تقيم ندوات ، وتناقش مشـكلات ، وتعقـد مؤتمرات . . ولا شك أن هذه أمور مطلوبة ، لكنها ليسـت من وظيفة دار الكتب . إنها من وظيفة مراكز أخرى ثقافية تكون مهمتها (الكلام) . . أما (الكتب) فتحتاج من يسهر عليها ، ويحرسها من عبـث العابثيـن ، وأطمـاع المجرمين . إن دار الكتب القومية هى التى تحـتوى علـى مجموع ثمار العقل المصرى، وتضم أغلى كنوزه الفكرية والأدبـية والعلمية . . وهى فى مقامها تشبه البنك المركزى، أو المحكمة الدستورية . والسؤال: هل يتصور أن يحدث فى مثل هذه الأماكن الجليلة أى إهمال أو تسيب ؟ !

يـا أهـل دار الكتـب . . عودوا لوظيفتكم الحقيقية ، ودعوا الـ Show أى إقامة الحفلات والمهرجانات لأصحابها !

جاء لى وهو فى غاية الانزعاج . سألته : ما بالك ؟ قال : مصيبة . قلت : ربنا يكفينا الشر . ما هى ؟ قال : بالأمس ، ذهبت لأفتح بريدى الإلكترونى ، الذى يأتى عبر شبكة الإنترنت ، فوجدت شيئاً فظيعاً : رسالة موجهة مليئة بالصور الجنسية الفاضحة ، وفى نهايتها طريقة الاشتراك ، والمبلغ المحدد حسب المدة المطلوبة . قلت له بهدوء : أغلق الرسالة وينتهى الأمر . قال : يا ريت المسألة تنتهى عند هذا الحد . فإن أولادى الصبيان والبنات لكل منهم بريده الخاص به . فماذا لو جاءت لهم مثل هذه الرسالة الفاضحة ؟ !

توقفت تماماً عن التفكير . ولم أعد قادراً على البحث عن حل لصديقى المحترم جداً ، والذى كان حريصاً مثلى على أن يتابع إيقاع العصر الحديث ، فلا يحرم بيته وأولاده من منتجاته ، وأهمها الكمبيوتر . وعندما اشتريناه فرحنا جداً بما فيه من إمكانيات : ثروة هائلة من المعلومات ، وقدرة سريعة على الاتصال بكل أنحاء العالم ، كما سعدنا جداً بخدمة البريد الإلكترونى ، التى يمكن أن يتواصل بها الشخص مع أى إنسان فى الكرة الأرضية بسرعة وكفاءة فائقتين . لكن لا يوجد أبداً عمل خير إلا ويلحقه الشر. تماماً كما خلق آدم عليه السلام وبجانبه إبليس اللعين . وكما توجد شجرة القطن وبجوارها دودته التى تقضى عليه . ونفس الشئ بالنسبة للمجتمع : هناك الطيبون والمواطنون الصالحون وإلى جوارهم الأشرار ، والفاسدون .

لكننى عدت أتساءل : هل يمكن أن يمنعنا مثل هذا الشر المحتمل فى الإنترنت من استخدامه ؟ وقفز إلى ذهنى ما يحدث فى مجال المواصلات

الحديثة . فالسيارة وسيلة نقل مريحة وخاصة ، ولكنها تنقلب براكبها وتذهب بحياته ، والطائرة أسرع منها بكثير ، ولكنها تتعرض أحياناً للسقوط بكل من فيها . فهل تمنع مثل هذه الأحداث العارضة من استخدام تلك الوسائل التى لم يعد الإنسان قادراً على الاستغناء عنها ؟

وعدت أبحث مع صديقى المحترم عن كيفية صيانة أبنائنا من مثل تلك الهجمات الخطيرة على بريدهم الإلكترونى . قلت له : ألا يمكن أن يتم ذلك تحت سمع وبصر الأسرة ، وخاصة الأم والأب ، بحيث تكون شاشة الكمبيوتر فى وضع يمكنهما من رؤيته فى أى وقت . ومعنى ذلك أن نرفع الكمبيوتر من حجرة الأولاد ، ونضعه فى الصالة مثلاً ؟ هذا حل . وهناك حل آخر . وهو أن تظل عيون الأب والأم مفتوحة على ما يفتحه الابن أو البنت فى الشاشة السحرية الصغيرة . وهنا تبرز مشكلة مقاهى الإنترنت التى قد يذهب إليها الأولاد (الأشقياء) ليكونوا بعيداً عن عيون البيت . وطبعاً يمكن التحكم فى هؤلاء من خلال المصروف ، لأنه على قدر المصروف الذى تعطيه لأولادك يكون طول الطريق الذى يمشون فيه ! ! المهم أن نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه . ولعنة الله على أولئك الأشرار الذين يتسللون عبر الكمبيوتر لتوريد القذارات التى تفسد الأجيال الجديدة ، وتحول اهتماماتهم من بناء أنفسهم فى مرحلة التكوين إلى تشويش أفكارهم ، واستثارة غرائزهم . وهم فى هذا الصدد لا يختلفون كثيراً عن الشياطين التى تنحصر مهمتها فى إفساد البشر .

وقريباً قال لى أحد الشباب المتخصصين فى الكمبيوتر أن هناك برامج يمكنها أن تحمى بريدك الإلكترونى من مثل تلك الرسائل الفاضحة التى قد تصل إليك . أين هى ؟ وكيف نحصل عليها ونشغلها ؟ علينا أن نبحث . لأننى أعتقد دائماً أن كل مشكلة ولها حل .

جـاء إلـى غاضباً وقال : تصور أنهم عادوا يقولون أن التطوير يمكـن أن يـتم دون تغيـير الأشخاص ؟ قلت له : هدئ أعصابك ، ولا داعـى للانفعال ، لأن المسألة تحتمل أكثر من وجهة نظر . فهناك أولاً مـن يرى أن التطوير ينبغى أن يقوم به الشباب أنفسهم ، وهناك ثانياً مـن يقـول أن الشباب وحده لا يكفى ، لأنه قد يقوم بأعمال متهورة ، تتمشـى مـع حماسـته غير المنضبطة . وهناك ثالثاً من يرى إمكانية الجمـع بيـن حكمـة الشـيوخ وحمـاس الشباب حتى تحدث المعادلة المنشودة.

قـال ، ومـا زال غاضـباً : لكنـنا توقعـنا جمـيعاً ، وشجعتنا التصـريحات ، أن الشـباب هـم القـادمون ، وأنهم الأقدر على صنع التحديـث ، ورؤيتهم للأمور تختلف كثيراً ، بل جوهرياً عن رؤية كبار السن .

قلـت له : يـبدو أنك من أصحاب الحلول الحاسمة أو القاطعة . وهـذه الحلـول تكون – عادة – معرضة للصواب والخطأ . أما الحلول الهادئة فهى التى تتقدم ببطء لحل المشكلات ، وغالباً ما تكون صائبة . لذلك لابد أن تعطى لهم فرصة لاتخاذ القرارات.

قـال مقاطعـاً : أى فرصة ، والعالم يسرع الخطى ، والتقدم من حولـنا يتعاظم فى كل يوم ، بل فى كل لحظة ، وعلى كل المستويات ،

وفـــى مختلف المجالات . إننا لو ظللنا نسير بهذا المعدل فسوف تسبقنا بلاد أقل منا كفاءة ، وأضعف فى الإمكانيات المادية والبشرية .

قلت له : فى هذا الجانب أتفق معك تماماً . لكنك ترى أن القضية تصـــبح هـــى ضــــرورة إنجاز التطوير فى أسرع وقت . وهذا يمكن أن يحدث بالشيوخ والشباب معاً . وليس بعنصر واحد منهما فقط.

قـــال : ليـــته كان كذلك . لكن ما نلاحظه أن بقاء الشيوخ يحجب الشباب عن المشاركة الحقيقية والفعالة . وبهذا الشكل يظل الحال على مـــا هو عليه ، ونظل فى مكاننا (محلك سر) . قلت له : لقد تكونت لدى قناعة على مدى السنين ، وبفعل تراكم التجارب ، خلاصتها أن التطوير فى مصر يسير بمعدلات جريان نهر النيل ، الذى شكل منذ آلاف السنين حياة المصريين ، وكاد يصبح جزءاً من جيناتهم . وأنت إذا نظرت إلى ماء هذا النهر الخالد وجدته ينساب ببطء ، لكنه ينساب . واسمح لى أن أصارحك بسر خاص ، وهو أننى كلما أحسست بشئ من الانفعال نتيجة تباطـــئ الأمــــور، أو تكاســـل الخطى ، أو تراكم المعوقات ، ذهبت إلى شـــاطئ النـــيل ، وجلســـت على أحد المقاعد الرخامية ، ورحت أتأمل جـــريان المـــياه بين ضفتى النهر . . وبعدها أعود لشعور الاطمئنان ، وأرجـــع من هذه الزيارة بالكثير من الأمل والتفاؤل ، لأنها تنبهنى إلى حقيقة جريان الأمور ، ومعدلات السرعة المطلوبة .

واجبات نقابة الأطباء

شــكا أهــل بغداد فى القرن الثالث الهجرى من ضعف الأطباء ، ومــن إهمــالهم أحياناً ، فقرر أحد الخلفاء العباسيين إجراء اختبار عام لكل من يمارس مهنة الطب ، ومن العجيب أن هذا الاختبار الشفهى كان يجــرى أمــام الخليفة نفسه . وراح الأطباء يتوافدون واحداً بعد الآخر على لجنة تم تشكيلها من كبار الأطباء الموثوق فيهم ، وجرى اختبارهم لمعــرفة الطبيــب الحقــيقى من الطبيب المزيف . وبالطبع ظهر أطباء مزيفون أبعدوا على الفور من ممارسة مهنة الطب ، التى تتعلق بأرواح الناس ، وليس فقط بصحتهم .

وفــى عصــرنا الحاضــر ، أصــبح لديــنا كليات تخرج الأطباء الحقيقيــن، والــذى لا يحصــل منها على شهادة موثقة لا يحق له أن يمــارس تلك المهنة الإنسانية النبيلة والجليلة معاً . لكن بعض ضعاف الــنفوس قــالوا لأنفســهم : وهل لابد من الحصول على شهادة طبية لممارسة المهنة ؟ وألا يمكن تزوير شهادة والحصول بها على القيد فى نقابة الأطباء ؟

وهكــذا بدأنــا نســمع عــن ضبط بعض الحالات الصارخة التى اســتطاعت أن تمارس المهنة لسنوات طويلة دون أن يكتشف أحد أنها مــزيفة . والواقــع أن مسئولية اكتشاف هؤلاء الأطباء المزيفين لا تقع علــى الجامعــات التى انتسبوا زوراً إليها ، وإنما تقع فى المقام الأول علــى نقابــة الأطــباء الــتى ينبغى عليها (أولاً) أن تتحقق من صحة الشــهادات، سواء كانت محلية أو أجنبية ، قبل أن تسجل أصحابها فى

النقابة ، ثم عليها (ثانياً) أن تتأكد من سلامة شهادات الأطباء الذين يمارسون المهنة بالفعل ، وفى هذا الصدد ينبغى ألا تخشى من السمعة أو الصيت ، ولابد أن تتحقق من شهادات (كل) ممارس للمهنة بدون استثناء، فلعل وعسى يوجد من ضحك على المجتمع طوال عشرين أو ثلاثين سنة ، فهذا أمر محتمل . وقد حدث مثله مع الخليفة العباسى نفسه فقد روى أن شخصاً محترماً جداً فى مظهره دخل على الخليفة فاحترمه جداً وقربه إليه ، بل راح يشكو إليه من زيف الأطباء وصعوبة المشكلة ، ثم بعد فترة سأله عن حاله ، فأجاب مرتعشاً بأنه من هؤلاء الذين يمارسون الطب دون دراسة سابقة ، عندئذ مدّ الخليفة رجله ، وأمر بطرده من المجلس !

المشكلة هنا أن لدينا فى مصر منظومة رائعة من القوانين واللوائح ، لكنها تحتاج إلى التنفيذ ، وكذلك إلى متابعة التنفيذ . ولو تم هذا وذاك لغابت سلبيات كثيرة يعانى منها المجتمع ، وسيظل يعانى ما دام القائمون على هذا التنفيذ والمتابعة كسالى أو مهملين. وإذا كان الشئ بالشئ يذكر ، فإننى أطالب نقابة الأطباء بمراقبة (اليافطة) التى يضعها أى طبيب على عيادته ، ويذكر فيها تخصصه ، بل تخصصاته التى أصبحت كثيرة ومتنوعة ، أذكر منها على سبيل المثال (باطنى . جراحة . قلب . روماتزم . توليد . .) وبعضهم يضيف إلى ذلك (أشعة بالكمبيوتر) .

أيتها النقابة . . كان الله فى عونك ، فإن عليك واجبات كثيرة .

إعلانات السينما

من حق كل صاحب سلعة أن يعلن عنها للجماهير ، حتى يعرفهم بهـا ، ويحثهم على شرائها ، وبذلك يحقق مكسبه ، ويملأ خزينته . . وقـد تطـور فـن الإعلان فى عصرنا الحاضر تطوراً هائلاً ، وأصبح يسـتخدم العديـد مـن الوسائل التكنولوجية والإلكترونية ، إلى جانب المندوبيـن الذيـن يـزورون الناس فى بيوتهم، وحملة الجوائز الذين يجوبون المدن والقرى . .

ولكـى يصل المعلنون إلى أغراضهم فإنهم يعتمدون على أسلوب المفاجأة والإبهار ، ولا يملون من الإعادة والتكرار ، حتى يستقر اسم المنـتج المراد تسويقه فى اللاوعى لدى المشاهد ، ويعشش فى مخه ، وينتهى به الأمر إلى شرائه !

وعلى الرغم من إقامتى فى باريس التى امتدت سنوات ، فإننى لم أشـاهد إعلانـات السـينما إلا فـوق السـينما نفسها ، وأنا أقصد هنا الإعلانـات المصـورة الضخمة التى تحاول أن تجذب الناس بغرابتها ، وأحـياناً بخـروجها عـن المألوف . . أما الوسيلة الأساسية لإعلانات

الســـينما فهـــى داخل مجلات مخصصة لذلك ، أو داخل جرائد فى ركن بسيط منها ، ودون صور تذكر . .

أما عندنا فهناك مباريات شرسة لوضع إعلانات السينما الضخمة فـــى الميادــن العامـــة ، والشـــوارع الكـــبرى ، وبجـــوار الجامعات والمـــدارس.. وكـــل إعـــلان يتضـــمن صوراً مكبرة للفنانين ، وخاصة للفـــنانات فى أوضاع خارجة عن المتعارف ، ومستفزة فى أكثر الأحيان للمتمسكين بالأخلاق . .

أذكـــر أنـــنى كنت أسير بجانب مدرسة بنات ابتدائية ، والتلميذات خارجـــات عند الظهيرة ، وفى مواجهتهن مباشرة إعلان ضخم فخم عن فـــيلم يمجـــد حـــياة راقصة ! ساعتها قلت لنفسى : ماذا يدور فى خلد هـــؤلاء الفتيات وهن يشاهدن هذا الإعلان بعدما تعلمنه فى المدرسة ؟ وكـــيف يقتنعن بما تقوله الكتب على استحياء ، وما تصرخ به إعلانات السينما . .

أيها السادة المعلنون . . رفقاً بالنشئ ، وأمامكم أبواب كثيرة جداً للإبـــداع فـــى مجـــال الإعلانـــات غير ما يهز مكانة الفضيلة ، ويمس أخلاقيات المجتمع !

أدعو إلى عيد للوقت

لماذا للقمح عيد ؛ وللحب عيد ؛ وللأم عيد ؛ وليس للوقت عيد ؟!

إننى أدعو إلى تخصيص يوم يكون عيداً للوقت ، وأتصور أن تجرى مراسمه على النحو التالى : نستيقظ فى الصباح على جرس منبّه فى ساعة ودقيقة محددتين ، ثم نتناول إفطارنا ونسرع بالذهاب إلى أماكن العمل أو الدراسة حتى نصل إليها فى دقيقة محددة ، ونظل نعمل بكل جدية حتى يحين وقت انتهاء العمل أو الدراسة ، فنخرج فى وقت محدد، لنجد وسائل المواصلات العامة تتحرك فى وقت محدد . . وعندما نعود للمنزل ، نتغدى أو نتعشى ثم نفتح التليفزيون لنجد برامجه تبدأ وتنتهى فى أوقات محددة ، يكون قد تم الإعلان عنها مسبقاً . .

وفى هذا اليوم (السعيد) ، إذا واعدنا شخصاً بأن نزوره فلابد أن نحدد له موعداً ، وأن نطرق بابه فى نفس اللحظة ، لا قبلها ولا بعدها . . ومن الطبيعى أن نستعد لهذا اليوم بأن نضبط كل الساعات فى أيدينا حتى لا تتقدم أو تتأخر ، وأن نصلح المعطّل منها ، وأن نضع

وعلى خلاف كل الأعياد ، ينبغى أن نطبق عقاباً صارماً على من يخلف موعده ، أو يتأخر عن وقت عمله . وفى المقابل نخصص جوائز قـيمة للذين التزموا بأخلاقيات هذا العيد (الدقيق) ، والذى ينبغى أن يكـون مروره علينا – يوماً واحداً فى كل عام – مناسبة طيبة ، نتبادل فـيها الـتهانى بالأوقات السعيدة ، وندعو فيها مع ابن الجوزى – أحد علمائنا القدامى – الذى كان يقول : " نسأل الله ، عز وجل ، أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وأن يوفقنا لاغتنامه " .

أما هواة تبادل البطاقات ، فنصيحة لكل منهم أن يكتب لصديقه ، بدلاً من " كل سنة وأنت طيب " : " كل دقيقة وأنت طيب " .

أسلوب بيع اللحوم

لســت أدرى إلى متى يظل بيع اللحوم عندنا يجرى بهذه الصورة غــير الحضــارية، وغير الصحية ، ومن ذلك تعليق الذبائح فى محلات الجزارة ، مع تعريضها للذباب ، وملوثات الهواء ، وعوادم السيارات ، بالإضــافة إلــى مــا أشــاهده بنفســى أحياناً حين أجد الجزار - قبيل المغــرب - يــرش اللحــم المعلّــق بالبيرسول حتى يحميه من هجوم الناموس !

كذلك فإن بيع اللحوم بالكيلو ينبغى أن يحل محله بيعها بالجرام ، لسبب رئيسى وهو ضرورة التوجه نحو ترشيد تناولها نظراً لما تسببه مــن أمــراض ، وفى مقدمتها زيادة نسبة الدهون فى الجسم ، وتجلط الشرايين . . الخ . ومن المعروف أن الإنسان فى الدول المتقدمة لم يعد يقبل كثيراً على تناول اللحوم خوفاً على صحته وحياته ، وصار الاتجاه العــام حالــياً نحو الإكثار من تناول الخضروات والفواكه ، والبروتين النباتى بدلاً من البروتين الحيوانى .

الغريب فى الأمر أنهم فى البلاد الباردة ، وحيث يساعد الجو على عدم فساد الأطعمة عموماً ، واللحوم بصفة خاصة بسرعة ، نجد الناس يحــتاطون تمامــاً فــى تقطــيع اللحوم ، وحفظها ووضعها فى أكياس صــغيرة، مســجل علــيها نوعــية اللحم ، ووزنه ، وسعره ، وتاريخ صــلاحيته . . ثم يُعرض بعد ذلك فى ثلاجات والناس بأنفسهم هم الذين يختارون ما يناسبهم ، كل حسب حاجته ومقدرته المالية .

أما عندنا ، فالجو لا يساعد أبداً على صلاحية اللحوم لمدة طويلة، بـــل إن الشمس الساطعة طوال العام يمكنها أن تفسد اللحم ، وتزيد من عفنه ، ومع ذلك فنحن نعرضه للشمس وللملوثات ، ولعوادم السيارات، ولكل ما من شأنه أن يضر بصحة الإنسان . ولا أدرى لماذا تتجاهل كل من وزارة الصحة ووزارة التموين هذا الأمر الهام ؟

وهناك فائدة أخرى لبيع اللحوم فى أكياس محددة الوزن والسعر ، وهى إتاحة الفرصة لأى شخص أو لأى أسرة أن تتناول من اللحوم قدراً ولو ضئيلاً ، يتمشى مع إمكانياتها المادية ، فبدلاً من الشراء بالكيلو أو النصــف (وبالمناســبة اخـتفى تمامــاً بيع اللحوم بالربع كيلو) يمكن للشخص أن يتناول مائة جرام أو مائتين . . وهو الوزن الذى يمكن أن يكون مناسباً له . .

وهكــذا فإن دعوتى هنا إلى ضرورة إعادة النظر فى أسلوب بيع اللحـــوم ســـوف يحقق الكثير من الفوائد فى وقت واحد ، أهمها الحفاظ على الصحة ، وترشيد الاستهلاك ، ومراعاة البعد الاجتماعى فى توفير اللحـــم لكـــل شـــخص حسب مقدرته البسيطة ، وأخيراً عدم الدخول فى معـــركة الفصال مع الجزار ، الذى أصبح يحرص على أن يضع الميزان فى مستوى أعلى من رأس الزبون حتى لا يراه وهو يغش !

إسكان الشباب

عـــندى حـــل لمشكلة إسكان الشباب فى مصر . ومع أننى لست خبـــيراً فـــى الهندسة والتخطيط العمرانى ، إلا أننى احتفظ فى ذاكرتى بـــبعض المشاهدات فى الغرب، التى كنت أقول لنفسى وأنا أراها وألمس فوائدها لماذا لم يتنبه المتخصصون عندنا لها حتى ينقلوها إلى مصر ، ويريحوا بها أهلها ؟

مـــن ذلـــك مثلاً أن مدينة باريس مثل مدينة القاهرة فى الازدحام والـــتكدس ، ولكـــنهم يواجهون مشكلة إسكان الشباب هناك بحل بسيط جداً. إنهم يبنون مساكن تشتمل على حجرة واحدة بمنافعها أى بالمطبخ والحمـــام ودورة المـــياه كـــل ذلك فى جانب من الحجرة ، بحيث يشمل المطـــبخ مـــثلاً الثلاجة والبوتاجاز ، وتكفى ستارة لتغطية دش الحمام ودورة المـــياه أمـــا باقى الحجرة فيحتوى على سرير يتسع لشخصين، وإلـــى جواره منضدة حولها كرسيان ، وربما توجد كنبة فى جانب من الحجـــرة يوضـــع أمامها التلفزيون . . وهذا كله يسمى عند الفرنسيين (اســـتديو) . . ويســـكنه عـــادة شخص واحد ، أو شخصان فى مقتبل حياتهما الزوجية . وبالطبع لا يتحمل مثل هذا المكان وجود طفل . لذلك فعندما يقرر الزوجان أن ينجبا طفلاً فإنهما يكونان على استعداد للانتقال إلـــى شـــقة مكونـــة غالباً من حجرتين . . فإذا زاد عدد الأولاد ، وهذا مرتـــبط عـــادة بزيادة الدخل لكل من الزوجين فإنهما ينتقلان إلى شقة مكونـــة مـــن أربـــع أو خمس غرف . . بل إن الحظ عندما يبتسم لهما فإنهمـــا يشـــتريان بيتاً فى الريف إلى جانب شقة المدينة . . والمسألة

تســير بــتدرج هــادئ ومعقــول ، بحيث أن الإعلان عن الاستديوهات الخالــية ، وبإيجار معقول ، ما زال متوافراً حتى اليوم ، وهذا بالطبع ناتج عن التفكير العلمى والخطط المدروسة لحركة السكان والإسكان .

لكنــنى أعود فأقول إن غلبة العادات المصرية أقوى من أن تتيح للفكــر العلمى أن يخطط وينفذ ، لأن الأسرة المصرية تتفاخر عادة بكبر الشــقة ، حتى بالنسبة لاثنين فى مقتبل الحياة الزوجية . ولابد من أن (تدخــل) الــزوجة علــى ثلاثة أو أربعة غرف ، ولابد أن يكون لديها (دستة) من كل من الملاعق ، والشوك ، والسكاكين ، وفناجين القهوة.. وبالمناســبة أنــا هنا أتساءل : هل يمكن أن يجتمع 12 ضيفاً ليشربوا القهــوة عند عروس جديدة ؟ ! الذى ألاحظه ، ويلاحظه معى الجميع ، أن كــلاً مــن حجــرة الجلوس أو الصالون وحجرة السفرة لا يدخلهما الضيوف إلا فى النادر ، وهكذا تظلان حجرتين غير مستعملتين لكل من الزوج والزوجة . .

ومع ذلك تبقى آفاق التجربة مفتوحة أمام المهندسين والمقاولين وأصــحاب العمــارات ، الذين تفننوا جميعاً فى توسيع مساحات الشقة الواحدة حتى جعلوها تشغل دوراً بكامله ، أو اخترعوا ما يسمى بالفيلا داخــل الشــقة ، أى يجعلون جزءاً منها يرتفع عن الباقى بمقدار درجة ســلّم ! وهكــذا مــلأوا فراغات المبانى ، وقصروها على عدد قليل من الســكان القادرين ، تاركين الشباب المقبل على الزواج ، يتمشون على شــاطئ النــيل ، وكل أحلامهم تنحصر فى أن تضمهم حياة سعيدة بين أربعة جدران !

أرقام التليفونات

لا يستطيع أحد أن ينكر مدى الجهود التى تمت فى مجال التليفونات والذى أقصده هنا التليفونات التابعة للسنترال ، وليست التليفونات المحمولة . فقد انفكت العقدة ، ولم تعد قوائم الانتظار تمتد لسنوات طويلة ، وأصبح من الميسور على المواطنين أن يحصلوا على التليفونات فى منازلهم بسهولة أكثر بكثير من الماضى .

كذلك فإن السنترالات الحديثة التى حلت محل القديمة أتاحت الاتصالات السريعة بين المشتركين فى الخدمة ، ولم نعد نفاجأ – كما كنا فى الماضى – بانقطاع الحرارة لفترات طويلة ، كما لم نعد نغضب من تداخل الخطوط ، مما كان يترتب عليه أحياناً أن يتحدث أربعة أشخاص من خطين فى وقت واحد !

انتهى كل ذلك ، ولكن كما يقال إن (الحلو ما يكملش) ، فإن اتساع شبكة التليفونات تطلب تغيير السنترالات ، وهذه تتطلب تغيير الأرقام ، أو على الأقل بعض الأرقام من كل تليفون . وهنا تقوم هيئة التليفونات بهذه العملية ، عملية تغيير الأرقام دون أن تخبر أصحابها بأنها قد تغيرت ، وتكتفى بدلاً من ذلك بإعلان فى الجرائد ، قد لا يراه أصحاب التليفونات ، كما تضع أحياناً إجابة مسجلة تقول للمتصلين بالتليفون إن هذا الرقم قد تم تغييره . . وتبقى المشكلة بالنسبة لصاحب التليفون نفسه ، الذى لا يعلم بهذا التغيير إلا بعد فترة قد تطول من عشرة إلى عشرين يوماً ، وذلك حين يلاحظ أن أقاربه وأصحابه لم يعودوا يتصلون به . وقد أخبرنى أحدهم أنه غضب من بعض معارفه

الذيــن كان قد أسدى إليهم معروفاً ، فلم يتصلوا به ليشكروه ، فاعتقد أنهــم ناكرون للجميل ، ولم يعرف أنهم حاولوا الاتصال مرات ومرات والتليفون لا يرد، لأن رقمه قد تغير !

وأنا شخصياً عاتبت أحد أصدقائى على عدم الاتصال بى لإعلامى بالــرقم الجديــد، لكنه أقسم أنه هو نفسه لم يعرف أنه قد تغير إلا بعد مرور عدة أيام تجاوزت العشرة !

إن الأمر لا يعدو أن تقوم الهيئة بتكليف عدد محدد من الموظفين لديهــا للاتصــال بأصحاب التليفونات التى تم تغيير أرقامها ، أو بعض أرقامهــا . وهو أمر ليس مستحيلاً ، لكنه صعب إلى حد ما . ومع ذلك فإنــه من الممكن أداؤه ، وبذلك تكتمل تلك الخدمة الجليلة التى تقدمها التليفونات للمشتركين فيها .

لكــن مــاذا نقــول لأولئك الذين يفسدون الطبخة بسبب قليل من الملح. والملح هنا عبارة عن لمسة حضارية غاية فى البساطة ، لكنها عمــيقة التأثــير فــى نفس المواطن ، الذى يمكن أن يشعره هذا العمل بالكثــير مــن الشــكر والامتــنان ، والإحساس بالتقدير والاهتمام بل والســعادة عندما يجد صوت الهيئة يحدثه قائلاً : منزل السيد فلان . . لقــد اضطرت الهيئة من أجل توسيع خدماتها أن تغير رقم تليفونكم منذ الــيوم . . مــع أصدق تحياتنا ! وأؤكد لكم أن هذه اللمسة تعد سراً من أهم أسرار الانتماء !

المؤتمرات وتوصياتها

زادت فـــى الآونة الأخيرة أعداد المؤتمرات التى تقيمها الوزارات والمؤسســـات والجامعات زيادة ملحوظة لم تكن موجودة بهذه الصورة مـــن قـــبل . وتفنـــن بعض القائمين على تلك المؤتمرات بحيث جعلوها ملتقـــيات تجمـــع بيـــن العلم والفرفشة ، فأقيم الكثير منها فى الفنادق الفخمـــة ، والمراكـــب السياحية التى تعبر النيل ذهاباً وإياباً ، ويشمل برنامجها على الطعام إلى جانب جزء فنى يضم مطرباً وراقصة شرقية . لكـــى تمتع ضيوف المؤتمر الأجانب (هكذا يقال) بفن الرقص الشرقى . وتخـــرج المؤتمريـــن من جو العمل الجاد والمرهق الذى عاشوه خلال المؤتمـــر . وعلى الرغم من أن أى مؤتمر لا يزيد عادة عن يومين أو ثلاثـــة ، فإن هناك حفل افتتاح يقتطع منه نصف يوم، وكذلك نصف يوم آخر لإعلان التوصيات

وهنا أصل معكم إلى لب الموضوع . ومعنى الوصول إلى اللب أن ننزع كل القشور الحقيقية والزائفة التى تغطيه . فماذا تقول التوصيات؟ وهـــل توجد بها توصية واحدة قابلة للتنفيذ ؟ ثم هل يتغير الوضع بعد انعقاد المؤتمر عنه قبل انعقاده ، أم أن الأمور تظل كما كانت ، وينتهى الحـــال بدفع تكاليف المؤتمر ، سواء من أموال الدولة، أو من الشركات والمؤسســـات التى ساهمت فى المؤتمر بغرض الدعاية لها ، والإعلان عن منتجاتها . إلى جانب بعض الشائعات حول (تهليب) فلان واستفادة علان ! ! والغريب بالفعل أن فئة قد اصبحت بالفعل محترفة مؤتمرات .

وســـبحان الله ، يوجــد لدى هذه الفئة نشاط زائد ، وخبرة بالحجز فى الفـــنادق ، وعمـــل اللافـــتات ، ودعوة المسئولين ، وتجهيز القاعات ، وإعــداد الطعام والشاى والبتى فور والمرطبات . . أما التوصيات فهى مـــن نصيب بعض المساكين ، الذين يكلفون بكتابتها حتى قبل أن ينعقد المؤتمر ، وبالطبع قبل أن يختتم أعماله ، أو كما يقال (فعالياته) . .

رحـــم الله أعلام الفكر المصرى الذين كان لكل منهم فكره الثاقب والمـــتألق دون أن يشـــاركوا فـــى مؤتمرات ، أو يطرحوا أفكارهم فى فنادق، مثل أحمد لطفى السيد ، وطه حسين، والعقاد ، وهيكل ، وأحمد أميـــن وأمـــثالهم . . وجـــزى الله أولئك الذين يهرجون حول العلماء ، ويطمســـون أفكـــارهم فى المؤتمرات ، وينتهون بوضعها فى كتب تلقى على أرفف المكتبات ، ليتراكم فوقها الغبار .

أصـــارحكم . . الـــذى أثـــار فى نفسى هذه الخواطر هى التوصية التاســـعة التى وردت فى آخر توصيات مؤتمر عقد حديثاً بإحدى الكليات، يقـــول : ضرورة أن تتناغم رؤى وبرامج الإعداد بكليات **(كذا)** وما تستند عليه من نماذج نظرية مع ما يعتمده المجتمع من معايير للجودة الشاملة . " وكان الله بالسر عليماً .

أطفال المرأة العاملة

منذ مائتى عام ، سبقت المرأة الأوربية إلى اقتحام سوق العمل . وخاصة فى المدن ، فأصبحت تعمل فى المصالح الحكومية ، والمصانع، وتمارس مختلف المهن كمهندسة وطبيبة ومدرسة وسكرتيرة ، وعاملة وســائقة باص ، وتاكسى . . الخ ، وكان عليها أن تواجه تحدياً يتمثل فى المواءمة بين عملها وبيتها ، وجاء فى مقدمة ذلك تربية الأطفال ! وعلى الفور ، ظهرت دور الحضانة التى تستقبلُ الأطفال من سن شهر واحد حتى أربع أو خمس سنوات .

وقــد كــثرت دور الحضانة حتى أصبحت فى كل حى ، لكى توفر الخدمة للمرأة العاملة التى تسكن فى أى مكان ، كذلك تعمقت فى دراسة حاجــات الأطفـــال حسب مختلف الأعمار ، وقدمت لكل منهم ما يحتاجه مـــن الطعـــام واللعـــب والـــرعاية الصحية والنفسية ، ويكفى أن تدخل حضانة أطفال فى انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لتشاهد مكاناً شديد التميز. يـــدار بكفـــاءة عالـــية . وتعمل فيه مشرفات يقمن على رعاية الأطفال بحرص شديد . وأمومة حانية

وهكـــذا حظيت المرأة العاملة فى الغرب بأهم ما يتيح لها فرصة العمـــل وبالـــتالى الغـــياب عن المنزل وهى آمنة تماماً على طفلها أو أطفالهـــا حـــتى وهم يتناولون غذاءهم عن طريق الرضاعة . لذلك فإن عمل المرأة مشى جنباً إلى جنب مع انتشار دور الحضانة .

أمـــا المرأة عندنا فقد مارست العمل دون أن تجد المكان المناسب لأطفالهـــا أثناء فترة غيابها اللهم إذا توافر لها وجود أم ، أو حماة .

أو استعانت بإحدى الجارات أو العاملات . وفى كل الحالات . لم تتوافر للأطفــال الــرعاية المناســبة ، كما لم يتوافر للمرأة العاملة الاطمئنان النفســى الــذى يتــيح لهــا أن تؤدى عملها وهى مطمئنة على سلامة أطفالها ، أو عدم تعرضهم للأذى . لذلك فإنها تقضى فترة عملها خارج المــنزل وهى مشتتة الذهن ، موزعة الفؤاد ، مشغولة البال على ماذا جــرى للولد ، وكيف حال البنت ؟ بل إن وقتاً كبيراً تنفقه فى الشكوى لزميلاتها بشأن هذا الموضوع !

ومن الملاحظ أن دور الحضانة قد زادت فى الفترة الأخيرة كثيراً عــن السنوات الماضية ، وخاصة فى الخمسينيات والستينيات . ولكنها ما زالت غير كافية ، كما أن توزيعها على الأحياء غير مناسب . وهى أخــيراً دور حضــانة خاصة تنشئها سيدات حريصات على تلك المهنة الجلــيلة ، ولكنهــن لا يجــدن مـــن يستعان بهن سوى مشرفات غير متخصصات ، وعاملات غير مشفقات . والمطلوب هنا هو وضع نموذج مــتكامل لدور الحضانة ، يتم تعميمه على كل الأماكن والتجمعات التى تســكن فــيها نســاء عــاملات، وفى تصورى أننا قد بدأنا نسير على الطــريق، وخاصة بعد أن أصبحنا نؤهل معلمات الحضانة تأهيلاً جامعياً من خلال كليات متخصصة لرياض الأطفال ، تقبل عليها الحاصلات على الثانوية العامة ، وبذلك نضمن نوعية جيدة من الخريجات . اللاتى يقمن بهــذا العمــل الجلــيل ، هذا العمل الذى يستحق بالفعل أن نطلق على القائمــة به " أماً ثانية " لأنها هى الأم التى ترعى الطفل بعناية . . فى فترة غياب " أمه العاملة " .

من الثابت فى سجلات الحرية أنه ما تعرض شعب للاستعمار إلا وكان عليه أن يبذل الكثير من التضحيات لكى يحصل على استقلاله المشرف ويطهر أرضه من غاصبها اللعين ، وأن طريق الكفاح ضد الاستعمار يحتاج إلى جهود كل أفراد الشعب وليس فقط طائفة منه ، كما أن نوعيات الجهود ينبغى أن تتعدد وأن تتكامل حتى تصل إلى الهدف المنشود .

والمشكلة فى مأساة فلسطين التى مر على فكرة إنشائها قرن من الزمان ، ونصف قرن من الواقع الأليم ، أن شعبها ، الذى هو قطعة منا، قد تصور فى لحظة من اللحظات أن المستعمر سوف يمنحه الأرض التى اغتصبها بدون مقابل . وأنه سوف يحصل عليها فوق مائدة تتوسطها باقة من الورود ، وحولها بعض زجاجات المياه المثلجة !

صحيح أن الكفاح المسلح ينبغى أن يواكبه جهد دبلوماسى وسياسى وإعلامى ، لكن أكبر الأخطاء التى وقعت ، وينبغى عدم تكرارها ، أن يلقى المناضل سلاحه ويجلس على مائدة المفاوضات . لقد كان الأجدر أن يستمر الكفاح المسلح على الأرض، بينما يتفاوض المفاوضون ، ويتحاور الدبلوماسيين ، ويندد الإعلاميون ، وهكذا كان ينبغى ألا يستقل بالقضية فريق واحد ، وإنما كان من الضرورى وجود فريقين ، يعمل كل منهما فى مجاله ، والواقع أن المستعمر قد وجدها فرصة نادرة حين رأى نفسه يجلس مع مقاتلى الأمس وقد تجردوا من سلاحهم ، لذلك فقد سهل عليه أن يعزز على الأرض مواقعه ، ويفرض

على المفاوضين شروطه .

خطـأ آخـر فـى المقاومة الفلسطينية ، أطرحه فى صيغة سؤال مباشر ؟ أين صوت أبناء فلسطين الذين خرجوا منها منذ سنة 1948 ، وتفرقوا فى بلاد العالم كله؟ ماذا فعلوا للقضية ؟ وهل حقاً يرغبون فى العـودة ؟ وإذا لـم يكـن فـى نيتهم ذلك ، فما الذى يمكن أن يقدموه للمناضلين فى الداخل من وسائل الدعم المادى والأدبى والإعلامى ؟ فى رأيى أن الجميع ينتظر حلاً سحرياً يتم على أيدى طائفة واحدة ، تهرق دمائهـا على الأرض من أجل فلسطين ، ثم عندما تنتصر يأتى الباقون ليـنعموا بمـا حققته تلك الطائفة ! كلا يا سادة ، فليس الكفاح من أجل الوطن (فرض كفاية) ، يسقط عن الغالبية إذا ما قامت به طائفة ، وإنما هـو (فرض عين) يجب على الجميع وبدون استثناء ، وحسب طاقة كل فرد ، وتبعاً لإمكانياته .

إنـنى أتـابع مع الملايين على شاشة التلفزيون المظاهرات التى تـتجمع أحـياناً حول البيت الأبيض الأمريكى فى شكل جالية يكون لها مطلـب ، ويدهشـنى مدى الهزال فى أعداد الفلسطينيين الذين يقومون بهذا العمل ، وعلى فترات متباعدة . وهكذا فإن من يعيشون فى الخارج لا يكـاد يسمع لهم صوت فى العالم ، بينما كان يمكنهم تقديم الكثير من أجل مساعدة أخوتهم داخل فلسطين .

أعمدة النور

تصـــور نفســـك فوق كوبرى 6 أكتوبر ، والساعة الثانية عشر ، والشـــمس على مصر مشرقة كالعادة – ثم تلاحظ – مثلى – أن أعمدة الـــنور مضـــاءة منذ "صبيحة ربنا"، ونتساءل : من المسئول عن إنارة وإطفـــاء هذه الأعمدة ؟ أليس موظفاً يتقاضى راتبه من الحكومة ؟ وإذا كان موظفاً مهملاً فأين رئيسه المباشر ، ورئيسه غير المباشر ، ثم أين المسئول النهائى عن إضاءة الشوارع ؟ وهل يتمشى هؤلاء المسئولون عـــن الإضـــاءة فـــى الشوارع مثلنا أم أنهم يقيمون فى مكاتبهم طوال الوقت؟ وإذا مشوا فى الشوارع هل يضعون على أعينهم نظارات سوداء لا تلاحظ أن أنوار الأعمدة مضاءة خلال النهار المشمس ؟

صحيح أن مصر والحمد لله قد أصبح لديها فائض من الكهرباء ، وأنهـــا أيضـــاً قـــد نجحـــت فى تصدير جزء كبير منه إلى بعض الدول الشـــقيقة والصـــديقة ، لكـــن المسألة لا ينبغى أن تصل إلى حد إهمال مسئولى إضاءة الشوارع والكبارى عن ملاحظة اللمبات التى تظل تعمل سواء فى الليل أو النهار ، وكذلك ملاحظة اللمبات التى تحترق، وتحتاج على الفور لاستبدالها حتى لا يقع فى الشوارع ما لا يحمد عقباه .

أذكـــر وأنا فى باريس أننى قررت ذات يوم أن أعبر ماشياً شارع الأوبرا الذى يمتد عدة كيلومترات ، وهو يشبه عندما شارع محمد على الـــذى يمتد من القلعة حتى محطة مصر . عابراً ميدان العتبة . بل إنه

يحتوى مثله على (البواكى) التى تمتد على جانبيه . وقد سيطرت على ذهنى فكرة أن أتابع وأنا أتمشى أعمدة النور التى تضاء عادة مع غروب الشمس ، محاولاً العثور خلال هذا الشارع الطويل على عمود واحد مطفأ ، فلم أجد . ومما جعل اليوم مثيراً لمشاعرى أن شارع الأوبرا فى باريس ينتهى بميدان الكونكورد الذى تتوسطه واحدة من أجمل مسلاتنا الفرعونية . وهناك على حافتها جلست أتأمل الموقف : فهؤلاء الناس الذين أتقنوا عملهم هم أنفسهم الذين أعجبوا بالمسلة الفرعونية ، المتقنة الصنع ، وساعتها قلت لنفسى : أين نحن الآن ؟

إن أعمدة النور ليست إلا أحد مظاهر الحضارة والتمدن وقد عرفتها حضارتنا العربية والإسلامية قبل أن تعرفها الحضارة الغربية الحديثة . وأجمل ما فيها أن الشوارع والأزقة عندما تضاء فى الليل فإنها تؤنس المارة ، وتساعد على منع ارتكاب الجرائم . وهناك بعض المدن الأوربية لا تكتفى بإضاءة الشوارع وإنما تضع إضاءة عاكسة على المبانى ذاتها ، كما هو الحال فى الصوت والضوء بأهرامات الجيزة ، ومن ذلك مدينة ليون بفرنسا . والواقع أن لدينا فى مصر اهتماماً كبيراً بأعمدة النور ، فهى منتشرة فى معظم الأماكن وحتى بعض الطرق الزراعية ، وإن كانت هناك أماكن أخرى ما زالت بحاجة إليها . وبالطبع تكلف إضاءة تلك الأعمدة مبالغ كثيرة ولذلك فإن الحفاظ عليها وصيانتها باستمرار يحتاج إلى إدارة واعية وتنفيذ جيد ، حتى لا نتركها مضاءة بالنهار ، وأحياناً مطفأة بالليل !

أحلام الساحل الشمالى

أكـد لـى أحد أصدقائى الجادين من خبراء الاقتصاد أن أحد أهم أسـباب الـركود الاقتصـادى الذى عانينا منه فى الفترة الأخيرة يرجع لأسـباب بعيدة ، يأتى فى مقدمتها تلك الأموال الطائلة التى أنفقت على إنشـاء القـرى والشاليهات فى الساحل الشمالى ، ومشكلة هذه الأموال أنهـا لـم تعد أموالاً دائرة ، بمعنى أن تأتى بعائد متكرر من إيجار هذه الأماكـن أو استغلالها بصورة سياحية مثمرة ، ولكنها وضعت فى كتل خرسانية ، لا يذهب أصحابها إليها فى العام أكثر من خمسة عشر يوماً علـى الأكـثر خلال شهور الصيف . وهم إذا ذهبوا فإنهم ينفقون هناك أمـوالاً أخـرى على الإقامة والترفيه ، والخلاصة أن الساحل الشمالى (أكـل) أموال المصريين ، ولم يستفيدوا منه بأى عائد . قلت له : لكنك تنسـى أنـنا قد نشأنا وكل الأفلام المصرية تقدم لنا صورة جميلة لهذا الساحل ، وخاصة فى شاطئ مرسى مطروح الذى غنت عنده ليلى مراد أجمل أغانيها، وكان أبطال الأفلام يذهبون إلى هناك لقضاء شهر العسل بيـن زرقـه المياه ، ورمال الشاطئ ، وشقة فى فندق مريح جداً على السـاحل . نشأنا إذن وأحلامنا متعلقة بهذا المكان الساحر على شاطئ الـبحر المتوسـط الذى يعد بحق من أروع بحار العالم ، وأخفها دماً ، وأعذبهـا هـواء . . لذلك عندما (جرى القرش) فى أيدى المصريين أسـرعوا بتحقيق أحلامهم ابتداءً من شواطئ الإسكندرية ، التى ضاقت

بالمصطافين ، حتى مرسى مطروح ، وهنا أسرع الشطار باستثمار الموقف ، فأنشأوا القرى السياحية ، التى هى فى الواقع قرى مصرية خالصة مائة فى المائة ، ثم بدأت مشاكلها تظهر : فالبحر فى معظم الساحل الشمالى إن لم يكن كله ، لا يسمح للأفراد بالنزول إلى الماء ، لأنه إما هائج أو يسحب إلى أعماقه من يتحداه ، لذلك اضطروا إلى إقامة حمامات سباحة (بيلبطون) فيها ، وهم على مقربة من البحر ذاته! ومياه الشرب بالطبع غير متوافرة ، ومن هنا أصبح شراء المياه المعدنية أمراً ضرورياً لاستمرار الحياة ، وبعض القرى لم تستكمل مقوماتها فهى مهجورة أو خاوية على عروشها ، وليس هناك سوى قرية أو قريتين يرتادهما المطربون لأخذ ما يفيض فى جيوب المصطافين من خلال حفلات غنائية تستمر طوال الليل ، وليس فيها أى جديد . قال لى صاحبى الجاد : إذن أنت توافقنى على أن ما أنفق على هذه القرى والشاليهات، ومازال ينفق ، ليس له معنى ، كما أنه يعد تبذيراً فى غير موضعه . لكننى - بعد أن أصبحت أقيم للمخطئ عذراً - قلت له : أحياناً يقدم الإنسان على تبذير ما معه على أحد أحلامه . وهو سعيد بذلك ، لأنه يحقق رغبة دفينة فى أعماقه . ويستجيب لنداء صادر من الروح . وهنا لا ينبغى أن نطبق عليه قوانين العقل ، وصرامة المنطق . كما لا ينبغى أن نكثر من اللوم والتأنيب . فما حدث قد حدث المهم أن يرجع هؤلاء المصطافون فى الساحل الشمالى وهم أهدأ نفساً وأروق بالاً ، حتى يستأنفوا أعمالهم بعزم وبحماس . لم يعجب صاحبى هذا الكلام ، فأنهى الحديث قائلا لى : أنت متفائل !

أسلحة العرب السبعة

يتســاءل كــل إنسان فى الوطن العربى : لماذا لا يستخدم العرب أسلحتهم فى مواجهة العدوان الإسرائيلى الظالم على الشعب الفلسطينى؟ وقد حاولت أن أحدد أسلحة العرب فوجدتها تتمثل فيما يلى : أولاً سلاح القوة العسكرية ، وهو بالفعل ضخم ومتنوع ، لكنه مبعثر فى 22 دولة، لــيس بينها تنسيق عسكرى ، يساعد على قيامها بعمل مشترك ، تكون له قيمة وفعالية . ثانياً سلاح البترول ، وهو يمثل نسبة لا بأس بها من الإنــتاج العالمى ، ويمكنه بالفعل أن يلعب دوراً هاماً فى معركة العرب ضـــد إسرائيل ، ولكن هذا السلاح قد أصبح مبتوراً منذ الغزو العراقى ، ومـــا ترتــب عليه من حدوث شرخ عميق بين الدول العربية المصدرة للبـــترول ، إضافة إلى أن منابع البترول العربية قد أصبحت هى نفسها تحت حماية أمريكية ، تقيم بصورة شبه دائمة فى الخليج العربى . ثالثاً سلاح رؤوس الأموال المكدسة فى الغرب ، والتى يمكن أن يكون لها – عـــند سحبها – تأثير سلبى واضح على الاقتصاد الغربى ، لكن المسألة ليســت بالبســاطة الــتى يتصورها من يتحدثون عن هذا السلاح ، لأن المؤسسات الاقتصادية فى الغرب لا تسمح بسحب تلك الأموال إلا بالقدر الــذى لا يؤثر على أدائها وربحيتها . رابعاً سلاح المقاطعة الاقتصادية وهـــو سلاح ذو تأثير نفسى كبير ، لكنه لا يمثل سوى نسبة ضئيلة من حجم التجارة العالمية ، وبالتالى فإن مقاطعة البضائع الأمريكية مثلاً لن يحـــدث خللاً له وزنه فى بنية الاقتصاد الأمريكى . خامساً سلاح الضغط السياســى والدبلوماســى وهـــو ســلاح تتحكم فيه المصالح ، ويخضع

لاستراتيجيات مقررة سلفاً ، بحيث تكون الحركة فيه محدودة ، بل إنها قد تقتصر أحياناً على مكاتب وزارات الخارجية ، ونوادى الدبلوماسيين.
سادسـاً سلاح المظاهرات الشعبية وهو سلاح فعال إذا ما تم بعيداً عن التخريـب ، أو المصـادمات مع السلطات المحلية ، وإن كان تأثيره فى العالم الغربى ، الذى يعتبر المظاهرة جزءاً لا يتجزأ من العمل السياسى الداخلـى ، أكبر بكثير من تأثيره داخل الوطن العربى ، الذى لا تعترف معظـم بـلاده ، إن لم تكن كلها ، بحق أى إنسان أو فئة فى التظاهر .
سـابعاً سـلاح الدعـاء والذى يعنى اللجوء إلى الله تعالى فى الأزمات ليكشـف السوء ، ويزيل الغمة . ولا شك أن هذا السلاح يعتبر من أهم العوامـل الـتى تغيب عن العرب مع أنهم مدعوون دائماً للجوء إليه ، حـتى عـند حدوث الظواهر الطبيعية مثل انحباس المطر ، أو كسوف الشمس . .

هل توجد أسلحة أخرى ؟ يمكن أن يوجد سلاح هنا وآخر هناك ، لكـن المهـم هـو أن يفحص العرب أسلحتهم جيداً قبل أن يقدموا على مغامـرة غـير محسوبة العواقب، كما حدث فى حرب 48 ، أو 67 . . وكمـا يعلـم كـل عاقل ، فإن الإنسان ينبغى أن يوازن قبل الدخول فى معـركة بيـن قوتـه ، وقـوة خصمه . . ولا يعنى هذا أننى أدعو إلى الانسحاب من المعركة إذا فرضت على العرب ، بل على العكس إنها فى تلك الحالة تصبح ضرورة لا مفر منها . لكننى فقط قصدت أن أنبه إلى أسـلحة العرب المتوافرة ، ومدى ما يمكن أن تقدمه إليهم عند الدخول فى معركة .

الأرض مقابل الأمن

أذكر أن الملك حسين هو صاحب عبارة (الأرض مقابل السلام) ، وردت علـــى لسانه فى 11 فبراير 1985، وكانت هى الشعار الذى بدأ يشـــيع مـــنذ مؤتمر مدريد الذى عقد سنة 1991 . ولا شك أن العبارة جـــيدة ، ومعـــناها ببساطة أن حالة الحرب القائمة بين إسرائيل وبعض الـــبلاد العربـــية لن تنتهى إلا بتحقيق هذا الشرط ، وهو إعادة الأرض الـــتى احتلـــت فى يونية 1967 لأصحابها . وطبعاً تم إعادة ما استولت علـــيه إسرائيل من مصر ، ومن الأردن ، ولم يتبق إلا ما أخذته – وما زالت – من سوريا (هضبة الجولان) ولبنان (مزارع شبعا) . .

وفـــى تصورى المتواضع أن هذه المقولة رغم صحتها ينبغى أن ترتفع إلى جوارها مقولة أخرى تقرر أن (الأرض مقابل الأمن) وخاصة بالنســـبة للفلســـطينيين الذيـــن يعانون من بشاعة الاحتلال الإسرائيلى لأراضـــيهم ، لأن الفلسطينيين ليس لهم حتى الآن دولة تعلن الحرب أو تدخـــل فـــيها حتى يمكنها أن تعرض السلام . ولذلك فإن أزمة إسرائيل المزمـــنة مع الفلسطينيين هى الأمن وليس السلام . فالسلام هو البديل للحرب بين بلدين ، أما الأمن فهو المقابل للاستقرار والتعايش بين كيان غاصب وشعب محتل .

وهكذا إذا أرادت إسرائيل أن تعيش (فى سلام) مع جيرانها العرب فعليها أن تعيد لهم أراضيهم التى احتلتها بالقوة ، وإذا أرادت أن تتعايش (فى استقرار) عليها أن ترحل عن أراضى الفلسطينيين المتداخلين معها فى الماضى والحاضر والمستقبل.

وبالتالى فإن كل ما تقوم به حكومات إسرائيل المتعاقبة والمتعنتة من تسويف ومراوغة واستعراض للقوة لن يجدى نفعاً ، كما أنه لن يحقق كلاً من السلام والأمن للشعب الإسرائيلى الذى ينبغى أن يدرك أن القوانين الدولية لها احترامها عند الجميع، ومنها البلاد العربية . والدليل على ذلك أن معاهدة السلام التى عقدتها إسرائيل مع كل من مصر والأردن لم يتم نقضها حتى اليوم ، لكنها – مع الأسف وبفعل إسرائيل نفسها – تتعرض لانتقادات من الشعوب العربية التى تشاهد يومياً ما ترتكبه القوة الإسرائيلية الغاشمة من مجازر وانتهاكات ضد الشعب الفلسطينى .

كيف يصل هذا المنطق إلى الشعب الإسرائيلى ؟ وما هى إجابته عليه ؟ تلك هى مسئولية الإعلام العربى بالدرجة الأولى ، والدبلوماسية العربية بالدرجة الثانية . مع أن المفروض هو العكس . وسلام على الجميع !

أمـــا لمـــاذا أوجهها للحزب الوطنى ؟ فلأنه هو الحزب الحاكم . ولأنه أكبر الأحزاب، ولأنه هو الأقدر على تحويل الأفكار إلى واقع .

أما الفكرة الأولى فتتمثل فى مشروع المليار نخلة ، الذى سبق أن دعـــوت إليه من قبل ، وأتصور أن يتم غرس هذا العدد من النخيل على شـــاطئ النيل ، وكل الترع والمصارف النابعة منه . ومعلوم أن الفائدة مـــن تنفيذ هذا المشروع ستكون عظيمة ومتنوعة ، لأن النخيل من بين ســـائر الأشـــجار هـــو الذى يسمح بقيام صناعات صغيرة من ناتجه . بالإضافة إلى ثمار البلح التى يمكن تصنيعها . وتعليبها . وتصديرها . يوجد الخوص الذى يمكن تصنيع السلال والأقفاص وحافظات الخبز بدلا من البلاستيك الضار بالصحة وطبعاً يمكن أن يتولى الحزب رعاية هذا المشروع بدءا وتنفيذا فى كل محافظة ، وأن يكون مسئولاً عنه . حتى يكتمل بإذن الله بعد عدة سنوات قليلة

أمـــا الفكرة الثانية فهى مكافحة الدروس الخصوصية عن طريق إنشـــاء مجموعـــات تقويـــة فـــى مراكز الشباب والحزب ، والمساجد والكـــنائس . ودعوة المدرسين الملتزمين للقيام بهذا العمل لقاء مكافأة معيـــنة . مع قيادة حملة توعية لأولياء الأمور لكى يلحقوا أبناءهم فى تلك المجموعات . بدلا من إعطائهم دروسا خصوصية بأجور مرتفعة . وفـــى نفس الوقت يقوم أعضاء الحزب بمتابعة المدرسين الخصوصيين

والحـــد مـــن توغلهـــم ، خاصـــة وأن الدرس الخصوصى الآن لم يعد خصوصـــياً لتلمـــيذ واحد ، وإنما أصبح يضم عشرة وعشرين وأحياناً ثلاثيـــن تلمـــيذاً ، أى أنـــه أصبح مجموعة تقوية ولكن فى شكل درس خـــاص يحصل منه المدرس المفترى على أضعاف مضاعفة مما يدفعه التلميذ فى مجموعة التقوية .

يتبقى الفكرة الثالثة وهى التى حذر منها الرئيس مبارك بشدة فى خطابه يوم عيد العمال ، وهى الزيادة السكانية الرهيبة ، والتى أصبحت مـــثل الوحـــش الكاســـر الذى سوف تتحطم بين فكيه كل جهود التنمية الاقتصـــادية والاجتماعـــية . لماذا لا يتبنى الحزب الوطنى فكرة (أسرة صـــغيرة = أســـرة سعيدة) وأن يقوم بتحقيق هذا الشعار على أعضائه أولاً، فلا يمنح لأصحاب الأسر الكثيرة العدد نفس المزايا التى يستحقها أصـــحاب الأســـر صـــغيرة العـــدد . كذلك يمكنه أن يوقف هذه الزيادة المســـتمرة فـــى المدن والقرى من خلال حملة توعية شاملة ، يساعده فيها علماء الدين ، وخبراء الصحة ، والمفكرون والفنانون والأدباء . .

الأفكار الثلاثة السابقة هامة جداً لخطة التنمية التى تنفذها الدولة، وســـوف تظـــل أفكـــاراً محلقة فى الهواء ما لم يتم العمل على تطبيقها بصـــورة عملـــية . ولن يتم تطبيقها ما لم يقتنع بجدواها حزب سياسى كبـــير ، له تواجـــده القوى فى الشارع المصرى . وعليه تقع مسئولية تقديـــم الـــنموذج العملـــى فـــى تحويل الأفكار إلى واقع لسائر الأحزاب السياسية الأخرى .

أسرار التقدم الآسيوى

تأملت طويلاً فى أسرار تقدم بلدان جنوب وشرق أسيا بتلك المعدلات العالية ، التى أصبحت مضرب المثل فى مجال التنمية ، وموضع الدهشة من البلاد الغربية، وكذلك نموذجاً للمقارنة مع البلاد العربية التى سعت إلى التقدم فى نفس الوقت الذى سعت هى الأخرى فيه ، بل ربما قبلها بعشرات السنين . وسوف أعرض هنا لعدد من العوامل وراء نجاح هذه البلاد ، وفى مقدمتها أن شعوبها تقدس العمل . ولا تركن كثيراً لأحلام النوم أو أحلام اليقظة . ومن أهم ما يميز الشعوب الآسيوية أنها قليلة الكلام ، وبالتالى فهى قليلة الجدل حول أمور لا تقدم ولا تؤخر ، والدليل على ذلك أنها لم تضيع وقتاً طويلاً فى كيفية البحث عن وسائل التقدم ، وإنما ركزت على مجال واحد هو مجال المحاكاة . أى تقليد النماذج الناجحة فى كل الميادين . فقد قلدوا صناعة السيارات الغربية حتى تفوقوا عليها ، كما قلدوا أساليب الزراعة المتطورة حتى برزوا فيها . ولأنهم بطبيعتهم تجار مهرة فقد استطاعوا أن يسوقوا ما ينتجونه ، سواء على المستوى المحلى أو العالمى. وهنا سر يقف وراء تفوقهم يرجع إلى احترام مكانة كل شخص ووظيفته ، وقد يقال أن فى ذلك نوعا من الطبقية الاجتماعية، ولكنها عند التحليل عبارة عن طبقية ديمقراطية بمعنى أن كل فئة من فئات المجتمع تعرف وظيفتها جيدا ، وتكرس جهودها للإتقان فيها دون الانشغال بأحوال ومكاسب الفئات الأخرى وكأنهم بذلك يسيرون على المبدأ الموجود عندنا (كل ميسر لما خلق له) . فى ماليزيا مثلا توجد أعراق متنوعة ، ومع ذلك لا يتدخل أحد فى عادات الآخر وتقاليده ومعتقداته فالكل مواطنون يعملون ويتعايشون وينعمون أخيرا بنتائج أعمالهم الأمر اللافت للنظر بحق هو

المحاولـــة المستمرة للإتقان ، دون كثرة الحديث عنه . فالمنتجات الزراعية تـــم تطويـــرها على نحو مذهل ، وكذلك المنتجات الصناعية والإلكترونية . وهناك تزاوج بين الجامعات ومراكز البحوث وبين مؤسسات الإنتاج من أجل تحســـينه ، وحـــل مـــا يعترضه من مشكلات . كما أن تشجيع المشروعات الصـــغيرة يســـير جنباً إلى جنب مع المشروعات الكبرى أو العملاقة التى لا تقـــدر عليها سوى الدولة . المصانع اليدوية الصغيرة منتشرة فى البيوت . والأسرة بكل أفرادها تعمل : فهناك من يشترى الأدوات الأولية ، وهناك من يقـــوم بتصـــنيعها ، وهناك أيضاً من يقوم بتسويقها . ولا تحس بأن قبضة الحكومة على هذه المشروعات الصغيرة قوية أو غائبة ، وإنما هى متروكة للعـــرض والطلب . والواقع أن الطلب متزايد ، والعرض مستمر فى محاولة الجـــودة والإتقـــان . كنا فى الماضى لا نثق إلا بالإلكترونيات التى تصنع فى اليابان . ثم ما لبثت الصين وكوريا أن أصبحتا منافسين لها . وأخيراً دخلت إندونيســـيا وماليزيا وتايوان . . هل تعلم مثلاً أن منتجات هذه الأخيرة التى أغرقـــت العالم والبلاد العربية يتم تصديرها بدون وزارة للتجارة الخارجية . وإنمـــا من خلال محلات ومصانع صغيرة للغاية . يتواجد فيها تجار يعطون كل زبون ما يحتاج إليه ؟ !

الطبـــيعة جمـــيلة جـــداً فى بلدان جنوب شرق آسيا . كما أنها أحيانا قاســـية ببراكينها وزلازلها وفيضاناتها المدمرة ، ولكن الإنسان استطاع أن يعيش فيها ويتعايش معها ، وأن يبنى حضارة متميزة ، أصبحت محط أنظار السياح فى العالم .

ســـألنى صـــديقى : باختصار ما هى أهم عوامل تقدم هؤلاء الناس ؟ قلـــت له : يعـــنى تـــريد من الآخر ؟ قال : أجل . قلت : قلة الكلام ، والعمل المتواصل ، والإتقان . وبالمناسبة من أهم ما لاحظته عندهم هو عدم وجود مذيعة ربط فى التليفزيون ! !

شبابنا والتعبير عن المشاعر

فـــى وســـط الأحداث التى تركزت بؤرتها أخيراً فى منطقة الشرق الأوســـط ، مـــن حـــق أى شـــاب عربى أن يسأل : ماذا أفعل ؟ وكيف أتصـــرف ؟ ومـــن واجـــب الكـــبار وأصحاب التجارب أن يساعدوه فى التوصـــل إلـــى الإجابة الصحيحة ، بدلاً من أن يترك وحده متحيراً فى البحث عنها . والواقع أن تلك الحيرة ترجع فى جانب كبير منها إلى ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة من معلومات وتعليقات يتعارض بعضها مع البعض ، ويكذب أحدها ما يؤكد الآخر صحته . كذلك فإن حيرة الشباب مـــردّها إلى غياب التاريخ الحقيقى للظواهر السياسية والاقتصادية التى نشأت قبل أن يولدوا بقليل ، وتطورت بينما كانوا فى مرحلة الصبا ، ثم راحت تتفاقم نتائجها أمامهم وهم فى مقتبل العمر . ولو أنهم كانوا على معرفة ببداية الأحداث ، وعلى وعى بتسلسلها وتشابكها لظهرت أمامهم الصـــورة علـــى نحو أكثر وضوحاً . والمشكلة هنا أننا تركنا صفحات الكتـــب والمـــراجع واقتصـــرنا على شاشات التليفزيون . وقد كان من الممكـــن أن تعـــرض الحقـــائق كاملـــة على هذه الشاشات ، لكن ثورة الاتصـــالات الحديثة لها جانبان أحدهما إيجابى يحقق السرعة والكفاءة والآخر سلبى يحتوى على قدر كبير من التشويه والتحريف .

فـــى العالم العربى أصبحت لدينا قضيتان ، إحداهما خاصة بشعب فلســـطين الـــذى جـــرى ومازال يجرى انتزاع أرضه ، وتشريد أهله ، ومحاولـــة الإطاحـــة بأبســـط حقوقه فى الحياة ، والثانية تتعلق بشعب العـــراق الذى يجرى التعامل معه على طريقة الدبة التى قتلت صاحبها

عـندما حاولـت أن تزيح من فوق عينيه الذباب . والمقصود هنا تلك المحاولـة العسـكرية لـتحرير شعب العراق من نظام حكمه ، وتقديم الديمقراطية له على طبق من فضة !

الشـباب العربى فى حاجة لأن يعرف الحقائق ، كما أنه فى حاجة لأن يـتعامل مع الأحداث التى تمر بأوطانه من ناحية ، وبمختلف أنحاء العـالم مـن ناحـية أخرى . وقد مر زمن طويل دون أن نزود هؤلاء الشـباب بالـثقافة المـتكاملة ، التى تقنع عقولهم ، وتنفذ إلى قلوبهم ومشاعرهم ، وتصبح بالتالى طابعاً لسلوكهم .

عـندما رأى الشباب العربى المظاهرات فى كل أنحاء العالم تندد بالحـرب ضد العراق ، وسمع فى نفس الوقت الكثير من التعليقات عن تقـاعس الشـارع العربى ، وجد أنه متهم فى وطنيته وقوميته ، وكان عليه أن يرد من خلال التظاهر الذى لم يتعود عليه ، فحدثت تجاوزات ، وجرى الاعتداء على ممتلكات ومنشآت ، ولم يدرك أن التظاهر للتعبير عـن الـرأى إذا كـان حقاً فإنه لا يلغى حقوق الملكيات الخاصة ، ولا المنشآت الحكومية . وأن أى مسيرة فى العالم لا تخرج إلا بعد أن تكون لها قيادة تنظيمية ، تستأذن السلطات المحلية بوقت وطريق المظاهرة ، وهـنا يصبح من واجب السلطات نفسها حماية المظاهرة ، ومساعدتها علـى تحقـيق الهدف منها ، وهكذا فإننا نشاهد مظاهرات يتجاوز عدد المشـاركين فـيها المليـون دون أن تحدث أى تلفيات فى المكان الذى يـتظاهرون فـيه . وهكذا يصبح التعبير الجماهيرى عن الموقف ، أى موقـف ، مـنظماً وواضـحاً ومؤثـراً . وفى هذه الحالة يصبح تعبيراً حضارياً يليق بشعبنا الذى سبق إلى تكوين أولى حضارات العالم.

التاكسيات وحالها

مـــا هذا الذى حدث للتاكسيات فى مصر ؟ لا تكاد تركب تاكسى إلا وتجـــده مـــن الداخـــل شبه فارغ . فلا يوجد تابلوه . ولا توجد مقابض للأبـــواب ولا للشـــبابيك . أمـــا الكراسى فمتهرئة ، وقد يوجد عليها كليم متسخ ، تفوح منه رائحة كريهة ، وكل ما هنالك (عداد) يعلوه الصدأ ولا قـــيمة علـــى الإطـــلاق لوجوده ، و (مرآة) كبيرة ينظر فيها السائق إلى الراكـــب مـــن وقت لآخر لكى يقدر ما سيأخذه منه عند الفصال على ثمن التوصيلة !

ولأن أحـــداً لا يتكلم عن هذا الموضوع ، فإن الأمور تسير فيه من ســـئ لأســـوأ . الســـؤال الآن : هل يوجد فحص فنى للتاكسى عند تجديد رخصـــته ؟ ومـــا هى مدة هذه الرخصة ؟ الذى يبدو لى أنها رخصة مدى الحـــياة ، وكـــأن مسئولاً لا يراها منذ استخراجها حتى إحالة التاكسى إلى التقاعد . وأكاد أؤكد أنه لا يوجد تقاعد لأى تاكسى ، ربما منذ الخمسينات من القرن الماضى ! !

ذات يوم ركبت تاكسى فلم أجد فى التابلوه زراً واحداً وكل ما يوجد أمـــام السائق مجموعة أسلاك بعضها متقطع ، والباقى غير موصل. فإذا أراد أن يضرب الكلاكس وصل بين سلكين فى حركة شبه طبيعة تماماً ، وكأن هذا هو الأصل . وعدما أبديت له دهشتى قابلها ببرود كامل .

وتاكســـى آخـــر ، وجـــدت صـــاحبه يطفئه تماماً عند الوقوف فى الإشـــارة، ثـــم يعـــيد تشغيله إذا فتحت . وعندما سألته قال إنه يفعل ذلك لسببين : توفير البنزين ، وإراحة الموتور حتى لا يسخن !

وكثيرا ما ركبت تاكسيات ، لا يفتح بابها من الداخل وعندما تريد الخروج يطلب منك السائق أن تخرج يدك من الشباك لكى تفتح الباب من الخارج !

لكـــن تاكسيات مصر كلها تشترك فى أمرين أساسيين : أن السائق فيها يدخن دون أى اعتبار لصحة الراكب معه ، وأنها تحتوى على كاسيت يرتفع صوته بما لا يحسن سماعه ، فإذا كان عندك صداع وطلبت منه أن يهـدئ الصـــوت قلـــيلاً نظـــر إلـــيك بـــازدراء وكأنك تعتدى على حريته الشخصية.

ولأن شعب مصر طيب وأصيل ، فإنه يتحمل حالة التاكسى بما طبع علـــيه من الصبر الجميل . لكن المأساة تظهر بوضوح عندما يركبه غير المصـــريين . وأنـــا أنـــتهز هـــذه الفرصة لأهدى الحكاية التالية لوزارة الســـياحة: أخـــبرنى صديق عربى أنه استقل التاكسى من المهندسين إلى حـــى الحسين . ثم سألنى : بكم تساوى هذه المسافة ؟ قلت له : أربعة أو خمســـة جنـــيهات علـــى أساس أنه عربى وسائح قال لى : لقد أعطيته عشرة جنيهات . فاستقلها . وراح يرجوا الزيادة . فأعطيته خمسة عشر جنيها . فإذا به يصر أن يكون المبلغ عشرين جنيهاً ، وأن هذا هو السعر الحقـــيقى عـــندئذ غضـــبت فاستدعيت شرطياً ، وعندما سأله: كم قطع العـــداد، تلعثم فرددت بأنه لم ينزل البنديرة، فأقسم أنه أنزلها وأنها قطعت أربعـــة جنيهات . فأخذ منى الشرطى خمسة جنيهات ، وأعطاها له وقال له: رد له الباقى . لكننى تركته ومضيت ساخطا على تلك المعاملة التى لم أجد لها مثيلا فى أى بلد فى العالم !

أخلاقيات العلم

على هامش احتفالية مصر بافتتاح مكتبة الإسكندرية عقد مؤتمر هام بعنوان (المستويات الأخلاقية والاجتماعية فى العلوم والتكنولوجية) لمناقشة الضوابط التى ينبغى أن يتحلى بها المشتغلون بالبحث العلمى ، حتى لا ينفلت من بين أيديهم هذا المارد العملاق ، فيحطم الإنسانية كلها بدلاً من أن يقدم إليها المساعدة أو يحقق لها الرفاهية .

والواقــع أن العلــم كان وما يزال وسيلة وليس غاية . فالإنسان يــتعلم لــيعرف قوانين الكون ، وبالتالى يتمكن من الإفادة منها ، كما يتمكن من تجنب ويلاتها . والإنسان يتعلم ليصنع الوسائل التى تساعده على توفير وقته ومجهوده العضلى . والاستمتاع إلى أكبر قدر بخيرات الطبيعة والإنسان يتعلم ليطور لمجتمعه السلاح الذى يحميه من جشع أعدائه ويوفر له الأمن والسلام

ولا شك أن العلم قد وصل خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين إلى درجة تفوق بها على ما أنجزه خلال عشرين قرناً كاملة . فقــد بــرزت وتطــورت واســتخدمت فــى هذه السنوات نتائج الثورة التكنولوجــية ، وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات . وقد أتاحت هذه الــثورات الــثلاث للإنســانية كلهــا ما لم تحققه لها الثورة الصناعية الكــبرى. ويكفــى أن تــنظر إلــى أسلوب العمل فى مصنع سيارات أو طائــرات لنشــاهد ، مــا يفعله الكمبيوتر والروبوت دون أى تدخل من الإنســان. ومــن ناحية أخرى. فقد نتج عن خروج الإنسان إلى الفضاء والهبوط على القمر الأبواب لعمل الصواريخ الضخمة . والأجهزة بالغة

الدقة ، التى أصبحت تقيس نبضات قلوب رواد الفضاء وهم فى مراكبهم على بعد آلاف الأميال . .

لكــن العلــم لا يقف فيما يبدو عند حد . فهو مستمر فى خطواته الســريعة والمتلاحقة ، وفى كل يوم ، بل فى كل لحظة يفاجئنا بالجديد والمدهش . وفى مسيرته المندفعة بدون حدود ، راح يتدخل فى تحسين الــتربة ، واســتخدام سلالات محسنة من النبات ، واختراع العديد من الأدوية لمعالجة الكثير من الأمراض والأوبئة التى كانت تفتك بالناس . وفــى هــذا المجال ظهرت الهندسة الوراثية ، واقترب العلم من مناطق خطــرة لــم يكن يحسب الإنسان أنه سيصل إليها . فراح يجرى تجارب على الاستنساخ الحيوانى بعد أن نجح فى نقل وزرع الأعضاء البشرية فــى جسد الإنسان . وأصبح المجال مفتوحاً أمامه لكى يستنسخ إنساناً بــدون لقــاء جنسى بين رجل وامرأة . وهنا تنبهت المجتمعات للخطر فراحــت تقــول للعلم : قف عند هذا الحد . فنحن لا نريد منك أكثر من ذلــك. وحسبنا ما أوصلتنا إليه من تقدم وازدهار . وعندما تلفت العالم حــول نفســه وجــد أن العلم الذى أخرجه من حالة الهمجية إلى حالة التحضر والتمدن لم يوفر له ما كان يأمل فيه . وها هى أكبر دول العالم وأقواهــا تسلحا تعيش فى قلق ، ولم تعد تأمن وهى نائمة على نفسها ومنجزاتها .

وعــندما تقــول لى : ما السبب فى ذلك ، أجيبك على الفور بأننا ركبنا حصان العلم بدون لجام ، أى بدون أخلاق ، وقد آن الأوان لنضع حول رقبته هذا اللجام !

أطفالنا وثقافتهم

أقصـــد بالـــثقافة هـــنا مجموع المعلومات والمعارف ، وأسلوب الحياة، وأنمـــاط السلوك التى ينبغى أن تتوافر لأطفالنا فى الوقت الحاضر. ولاشك أن الدوائـــر التى يتلقى فيها الطفل هذه الألوان من الثقافة تتم فى الأسرة ، وبين الأصدقاء ، وفى المدرسة ، ثم الأقوى تأثيراً من ذلك كله التلفزيون . وبالطبع توجد المجلات والكتب غير المدرسية لكنها قليلة التأثير على الرغم من الدور الذى كان من الممكن أن تقوم به.

والســـؤال الآن : هل قمنا بتحليل المضمون لعناصر هذه الثقافة ؟ وما هـــى النـــتائج الـــتى يمكـــن أن نتوصل إليها لكى نضع على أساسها خططنا وبرامجنا ؟ وحتى تتم مثل هذه الدراسة بكفاءة وموضوعية ، يمكن القول بأن عناصـــر الـــثقافة المقدمـــة لأطفالنا ليست على المستوى المنشود ، بل حتى المطلـــوب . أمـــا الأســـرة ، فنحـــن نعلم جميعاً أن دورها حيوى فى التربية والـــثقافة، لكن تأثيرها فى الوقت الراهن لم يعد كما كان فى الماضى ، وذلك نتـــيجة للضـــغوط الاجتماعية والاقتصادية التى فرضت على الأبوين أن يخرجا للعمـــل معظـــم الوقت ، وعندما يتواجدان فى المنزل لا تكون لديهما الفرصة الكافية لنقل خبرتهما إلى الأبناء . وبالنسبة إلى الأصدقاء قد يكون التأثير فى الطفـــل أكثر خطورة ، وذلك عندما لا تتيسر له مجموعة الأصدقاء الأسوياء ، الذين يوفرون له الجو المناسب لانطلاق طاقاته فى اللعب البرىء ، والتواصل الإيجابى مع من حوله. ونحن نعلم جميعاً أنه ليس فى كل الأحوال توجد مثل هـــذه المجموعـــة أو الشلة ، وحينئذ يصبح الطفل وهو فى مرحلة مبكرة من العمر معرضاً لتلقى ثقافة منحلة ، أو عدوانية ، أو أنانية ، . . الخ.

أمـــا المدرســـة فمن المعروف أنها لا تقدم الثقافة ، وإنما تقتصر على التعلـــيم . والثابـــت أن الـــثقافة تبدأ من حيث تنتهى المدرسة . وقد كان من

الممكن أن تكون المدرسة مصدراً من مصادر الثقافة لو أنها قللت من برامجها الدراسية ، ووسعت من مجال الأنشطة التى يمكن أن تنمو وتزدهر فيها ألوان الثقافة التى تقدم للأطفال .

فـإذا استعرضنا بسرعة ما يكتب للأطفال فى المجلات المخصصة لهم ، أو فى القصص المؤلفة من أجلهم ، وجدنا نوعية ضحلة من الثقافة لا تتمشى مـع العصر الذى أصبحت إنجازاته العلمية فى متناول الأطفال . والملاحظ أن السـادة الكـتاب يتحدثون للأطفال وكأنهم بلهاء ! ! أما اللغة فلا تنتمى على الإطلاق إلى عالم الأطفال ، ولا تتمشى مع رصيدهم . والمشكلة هنا أن الإبداع الأدبـى فـى مجـال الكتابة للأطفال ضحل للغاية ، ومن النادر أن تجد كاتباً متخصصاً فى هذا اللون ، على الرغم من حاجتنا الشديدة إليه .

وتـزداد الملاحظة السابقة وضوحاً فى التلفزيون ، فالبرامج مسلوقة ، والسـيناريو الجيد يكاد يكون معدوماً . وما أسخف الممثلين حين يحاولون أن يظهـروا كمهرجين لكى يضحكوا الصغار . أو يزودوهم بتلك النصائح التى لا تصـلح إلا للكـبار . ويكفى أننا حتى اليوم لم نستطع أن نجعل أطفالنا يغنون بعـض الأغـانى أو الأناشيد التى يكون لحنها قريباً من قلوبهم ، وسهلاً على حـناجرهم . ومن المقرر فى هذا الصدد أن الأطفال لا يتجاوبون إلا مع نجوم فـى مـثل أعمارهم ، وهذا ما يدفعهم للمحاكاة، والرغبة فى التقليد . لكننا ما زلنا حريصين على جعل ممثلين معمرين هم الذين يتحدثون للأطفال ؟ !

من كل هذا يتبين أن ثقافة الأطفال لدينا فقيرة جداً ، ولا شك أنها تحتاج إلى مزيد من الاهتمام ، الذى ينبغى أن يقوم على دراسات مستفيضة لمتطلبات عالم الطفولة ، والوسائل الكفيلة بتقديم نوع وكمية الثقافة المناسبة له . ثقافة تقـوم علـى أعمدة التراث المحلى ، وتتابع فى نفس الوقت أهم ما يجرى فى العالم المعاصر من حولنا .

هـــذا المصـــطلح الذى بدأ يتردد على ألسنة المسئولين ، وخاصة أولـــئك الذيـــن فـــى أيديهم أمر توظيف الشباب ، وإتاحة فرص العمل المناســـبة لهـــم ، مـــاذا يعـــنى بالضبط ؟ يعنى أن شخصاً حصل على ليسانس آداب مثلاً يمكن أن نعقد له دورة تأهيلية فى إصلاح الكمبيوتر لكـــى (يـــتأهل) للعمل فى هذا المجال. وهذا يصدق أيضاً على خريجى الحقوق، والتربية . . الخ.

وطبعاً الدورات التأهيلية التى تعقد لهذا الغرض تتكلف الكثير بدءاً من ضرورة توافر أماكن، وكفاءات بشرية ، وتمويل . . والسؤال الآن؟ لماذا ننتظر حتى يتخرج الشاب من الجامعة لكى نعيد تأهيله فى عملية تدريب أخرى ؟ وهنا يبرز سؤال آخر : لماذا لا تتم عملية إعادة التأهيل ذاتهـــا فى الجامعة نفسها بما لديها من إمكانيات ، بحيث نوفر تلك التى ننفقها فى إعادة التأهيل ، وهو غالباً ما يكون سطحياً ، وغير معمق ؟

وقـــبل هـــذا وذاك ، سؤال أساسى يتمثل فى أهمية التعليم بسوق العمل ، عن طريق مؤشرات تقوم بها الحكومة وقطاع الأعمال الخاص لمـــا يحـــتاج إلـــيه المجتمع من كفاءات بشرية فى سائر التخصصات . وعلى أساس هذه المؤشرات ، التى ينبغى أن يتعرف عليها التلاميذ فى مرحلة الثانوية العامة وكذلك أولياء أمورهم ، بقصد توجيه الأبناء إلى المجـــالات الـــتى تكون فى حاجة حقيقية للعمالة ، أو التى لديها متسع

لهـــا . لكـــن أن نترك التلميذ فى المدرسة ، أو الطالب الجامعى (على غمـــاه) حتى يتخرج ويفاجأ بانسداد سوق العمل الذى تخصص فيه . . فهـــذا مالا يليق بدولة عصرية ، تسعى حكومتها إلى أن تكون حكومة إلكترونية !

ولدينا فى ذلك أمثلة . منها أن السياحة عندما بدأت تزدهر عندنا، راحـــت الجامعات ، والمعاهد العليا تتسابق فى فتح كليات للسياحة ، ثم فوجـــئ الخـــريجون بـــأن الـــباب موصد فى وجوههم ، نتيجة لضعف الســـياحة مـــن ناحية ، أو لامتلاء سوق العمل بالخريجين السابقين من ناحية أخرى .

ونفس الحال تكرر – وما يزال – فى كليات الإعلام ، التى يجرى حالياً الإقبال الشديد عليها ، على الرغم من أن وسائل الإعلام الرئيسية، وهى الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، مكتظة بمن فيها ، وأحسب أنها لا ولن تتحمل المزيد.

إن المســـألة تـــتلخص فى مسألة بسيطة جداً ، وهى أن تقوم أى جهة فى الدولة أو المجتمع بتحديد احتياجاتها من التخصصات والأعداد المطلوبـــة ، وأن تنشر على المجتمع من خلال وزارة القوى العاملة ، التى ينبغى أن يتركز جهدها فى ذلك ، وهكذا توفر على أبنائنا وأولياء الأمور هموم التعليم ، وهموم البحث عن وظيفة ، كما توفر الكثير مما يتم أو سيتم إنفاقه على " إعادة التأهيل" .

أصحاب العمارات الجدد

وأقصد بهم أولئك الأشخاص الذين يشكلون طبقة جرت فى أيديها ألــوف الجنيهات ، وتكدست فى خزائنهم الملايين ، ثم راحوا يشترون قطــع الأرض بأســـعار زهــيدة للغاية ، ويقيمون فوقها عمارات لا تقل الواحــدة منها عن اثنى عشر دوراً . وطبعاً بمجرد وضع الأساس يقبل المواطنون المحتاجون إلى شقة ، فيختارون شققهم على الهواء أو فى الهــواء ، ثــم يــبدأون فى دفع المقدمات والأقساط ، وبعضهم يفضل الإيجار الجديد فلا يحرمه مالك العمارة من ذلك أيضاً . .

المهم أن المبنى يرتفع بالطوب الأحمر ، ويترك لكل صاحب شقة تشــطيبها على هواه ، وحسب قدرته . لكن المسألة الخطيرة التى أريد أن أتحــدث عنها هنا تتلخص فى أن صاحب العمارة يترك السلم بدون بــلاط ، كما يترك مكان الأسانسير فارغاً . وعندما يجد أصحاب الشقق أن الوقت يمضى وحاجتهم إلى السكن تزداد ، ينقلون عفشهم ويقيمون فــى انــتظار انــتهاء صاحبنا من تبليط السلم وتركيب الأسانسير. لكن المفاجــأة أن شــيئاً مــن ذلك لا يحدث . وهناك عمارات كثيرة من هذا الــنوع أعــرف عناويــنها فى محافظة الجيزة ، يسكنها عدد كبير من الســكان ، ومــا زالوا فى انتظار أن يحن عليهم صاحب العقار بالسلم والأسانسير ! ! ماذا حدث ؟ وماذا يحدث ؟ وأين المحافظة ؟ وأين الحىّ بكــل لجانه الهندسية والتفتيشية ؟ ثم قبل ذلك كله: أين ضمير صاحب

العقـــار ، الـــذى (لهف) تحويشه العمر من أصحابها ونصب عليهم فى تســـليمهم سلعة غير مكتملة العناصر . قولوا لى بالله عليكم : ما قيمة شـــقة ثـــلاث أو أربع حجرات وريسبشن وحمامين فى الدور السادس ، وما فوقه حتى الثانى عشر ، وهى بدون سلم مبلّط أو أسانسير ؟

وقـــد ســـمعت أيضـــاً فـــى حلقات هذا المسلسل الكئيب أن بعض أصحاب العمارات الجدد يقوم بمساومة السكان بعد أن يكونوا قد سكنوا بـــالفعل فـــى دفع مبالغ معينة لتبليط السلم وتركيب الأسانسير . يعنى ببساطة هم الذين يقومون بذلك . وهكذا تصبح الشقة التى أخذوها شقة معلقة فى الهواء . وكما حددها الراغب فيها وهى ما زالت فى الهواء ، فإنـــه أيضـــاً يظل يصعد إليها وهى فى الهواء ، أى بدون سلم مبلط أو أسانسير ! !

إننى أكتب عن هذه المشكلة وأنا محتار بين أن ألقى بالعيب على القـــانون الذى لا يطبق ، أو على الضمير الذى لا يشعر . . وأعتقد فى النهاية أن المشكلة موزعة بينهما بالتساوى . لكن يبقى أن يعلم السيد المحـــافظ بذلـــك ، فيصدر تعليماته الصارمة بضرورة الانتهاء من بلاط الســـلم ، وتركيب الأسانسير ثم يعاقب المقصرين . . أما مسألة الضمير فنتركها لمالك الملك كله ، سبحانه الذى يمهل ولا يهمل . .

تنقية المناهج الدراسية

هـــناك فـــرق واضــــح بين المنهج الدراسى والمقرر الدراسى . فالمـــنهج يعنى الأسلوب أو المخطط ، فى حين يقصد بالمقرر المحتوى أو المضمون . ولكى يتضح الفرق نستعين بمثال . منهج التاريخ للفرقة الأولـــى مـــثلاً يعنى دراسة عصر ما قبل الإسلام ، وهذا يتطلب دراسة جـــزء من تاريخ الدولة الرومانية والدولة الفارسية ثم حالة العرب فى شبه الجزيرة العربية . أما المقرر الدراسى لهذا المنهج فيعنى ملء هذه الخطة العامة بمادة تاريخية مناسبة بحيث تحقق أهدافها .

ومع ذلك يشاع خطأ مصطلح تنقية المناهج الدراسية فى حين أن المقصـــود بها تنقية المقررات . فالمناهج لا تنقى وإنما يتم تعديلها أو استبدالها بمناهج أخرى .

والســـؤال الآن ، والذى بدأ يطرح بشدة على العرب جميعاً هو : هل يقومون بتنقية مناهجهم أى مقرراتهم الدراسية مما هو موجود بها مـــن عداء للغرب ، ودعوة للتعصب ، وحث على العدوانية بدل الحوار تجـــاه الآخريـــن ؟ أم يظلون على حالهم حتى تفرض عليهم مناهج أو مقررات جديدة من الغرب ؟

والواقـــع أن هناك ظلماً كثيراً وتحيزاً أكثر فى طرح هذا السؤال . لأن مـــن يدقق فى مقرراتنا الدراسية لن يجد فيها سوى ما هو متعارف علـــيه فـــى كل المجتمعات ، ولدى سائر الشعوب من اعتزاز بالنفس ، وتكـــريم للقـــيم والأعراف ، وإشادة بمبادئ الحق والخير . صحيح أن هـــناك نقصاً فى تعليم كيفية الحوار ، وضعفاً فى القدرة على استيعاب

الــرأى المخالف ، لكن هناك مجتمعات أخرى كثيرة تمتلئ مناهجها أى مقـــرراتها الدراســية بالأعاجيــب ! فهناك الكثير من التعصب فى كتب الغرب الدراسية ، وأيضاً الكثير من الاستعلاء وبث الإحساس بالتميز ، ومعاملة الشعوب الأخرى على أنها أدنى حضارة ، وأقل مستوى ! ! بل أن هــناك فــى مقررات الغرب الكثير من الأخطاء حول الشرق وعاداته ومعتقداته وأسلوب الحياة فيه .

وفــى هــذا المجال ، لابد أن نلفت الأنظار إلى ما يتم تدريسه فى إسرائيل ، ومعظم الناس يجهلونه بالطبع ، لكنه يحتوى على الكثير جداً مما يدعون إلى تجنبه لدى العرب ؟ فهل يستقيم الكيل بمكيالين ؟ وهل من العدالة أن نطبق على غيرنا ما لا نطبقه على أنفسنا .

وعلــى الرغم من ذلك السؤال (البايخ) الذى يطرحه الغرب علينا والخــاص بــتعديل المــناهج ، فمن واجبنا أن نظل متنبهين لمفردات مقرراتنا الدراسية بحيث نطورها ونحدثها باستمرار ، من أجل أن تكون ملائمــة لظروفــنا ، وغــير متعارضــة فى نفس الوقت مع التوجهات العالمــية ، باعتــبارنا جزءاً لا يتجزأ من العالم . بل وفى قلب حركته وأحداثه .

وأخــيراً يظــل المــنهج الدراسى والمقرر الدراسى متوقفاً على المــدرس الذى يقدمه للتلاميذ ويشاركهم فيه . فإذا كان متفتحاً لم يغلق أمام عقولهم نافذة ، وإذا كان متعصباً أغلق عليهم كل نوافذ الفصل !

أصحاب المعاشات

يعـانى الكثير من أصحاب المعاشات من إجراءات صرف المعاش بعـد بلوغهـم السن القانونية للإحالة على المعاش . ويظلون يروحون ويجيـئون بين الإدارات ، ويقال لهم ختم النسر غير واضح ، أو عين النسر مغمضة ، أو الاسم به تحريف ، وهكذا يفاجأ الموظف بعد خدمة فى الحكومة تصل أو تزيد عن ثلاثين عاماً بأنه يقوم بعملية كعب داير ، ويقـف أمام موظفين شبان يسومونه سوء المعاملة ، ويجعلونه يتحسر على الأيام الخوالى التى كان يعامل فيها الناس بصورة أكثر من إنسانية ورحمة من هذا الجيل الجديد .

حـل المسـألة عندى سهل للغاية ، وهو أن تبدأ أى مصلحة فى إنهاء إجراءات المعاش بها فى بداية أو أثناء العام الأخير من خدمة أى موظـف ، وبذلـك يصل الموظف إلى سن الستين وقد استقر على حجم معاشـه ومكـان صـرفه ، ولا يبقى على المصلحة إلا أن تكافئه على خدمته الطويلة بمكافأة مالية ، أو عينية ، أو على الأقل شهادة تقدير ! والواقع أن المؤسسة التى لا تكافئ العاملين بها عند خروجهم للمعاش لا تستحق الخدمة أساساً ، بل إنها تعد نموذجاً سيئاً للإدارة المتخلفة . وكـم يعجبـنى فى المقابل من ذلك ما أشاهده على مدخل بعض الفنادق المحـترمة من إعلان يحتوى على تكريم أحد الموظفين أو حتى العمال

المتميزين خلال شهر ، ويطلقون عليه الموظف أو العامل المثالى . ولا شـك أن مـثل هذا التكريم يدفع باقى العاملين للمزيد من بذل الجهد ، وكذلك من الانتماء إلى المكان الذى يعملون به . أما أن نترك الموظف المسـكين يخـرج إلى المعاش دون أن نقول له شكراً على ما بذلت ، وتمنياتـنا لـك بالصحة والسعادة فيما تستقبل من أيامك ، فهذا منتهى الجحود . أما الأسوأ فهو تركه حائراً دائراً على مختلف جهات المعاش والتأميـنات لإثـبات هويته ، والحصول على معاشه . كيف يشعر هذا الموظـف ؟ ومـا هى الأحاسيس التى تنتابه ؟ وإلى أى حد يعانى من الـتوقف بيـن المسـير ؟ وكيف سيكون أسلوب حياته الجديدة ؟ على المقهى؟ أم بجوار عامود مسجد ؟ أم فى ركن مهجور فى بيته ؟

لا أحد يحاول أن يقف فى مكان هذا الشخص ، ولا إجراءات فعّالة لسـرعة إنهاء إجراءات معاشه ، ولا حتى إمكانيات لفتح صفحة جديدة أمام أصحاب المعاشات، يمكن للقادرين منهم أن يزاولوا بعض الأعمال البسـيطة لكـى لا يشـعروا بأنهم ملفوظون تماماً من المجتمع ، الذى كرسوا حياتهم كلها لخدمته

وفـى الخـتام دعاء من الله أن يكافئ من يساعد أى موظف فى الحصول بسهولة ويسر على معاشه .

النشرة الاقتصادية

النشـــرة الاقتصـــادية التى يذيعها التلفزيون من أهم العوامل التى يمكـــن أن يكـــون لهـــا دور كبير فى تبصير المواطنين بكيفية استثمار أموالهـــم وتحـــريكها فى عجلة الاقتصاد ، بدلاً من ركودها كودائع فى خزائـــن البـــنوك أو تكديسها فى أدراج المنازل ، أو تحت البلاطة كما يقـــال! لكـــنى ألاحـــظ علـــى هذه النشرة أنها تحاكى من حيث السرعة والاختصار مثيلاتها فى دول العالم المتقدمة ، والتى وصل المواطن فيها إلـــى مســـتوى متقدم من الثقافة الاقتصادية ، بل إنه يحظى إلى جانبها بـــالعديد من الجرائد والمجلات المتخصصة ، وكذلك مصادر المعلومات على شبكة الإنترنت التى تتيح له أن يفهم ، ويدرك ، ويشارك . .

أمـــا عـــندنا فما زال الأمر يحتاج إلى مزيد من الشرح والبيان، والإعادة والتكرار. فليس كل المواطنين يعرفون حركة الأسهم والسندات فـــى البورصة ، بل إن الكثيرين لا يدركون الفرق بين السهم والسند . لذلك فإن المواطن المصرى بحاجة إلى من يوضح له آلية العمل اليومى للاقتصـــاد فـــى المجـــتمع . ولا داعـــى بالطـــبع للتعمق فى النظريات الاقتصـــادية ، وإنمـــا المطلوب هو الإجابة عن بعض الأسئلة البسيطة جداً. ومنها على سبيل المثال :

إذا كان معك ألف جنيه فائضة عن حاجتك ماذا تفعل بها ؟ وكيف تســـتثمرها ؟ وإذا زادت عن ذلك فما هى الفرص المتاحة أمامك ؟ وما هـــى أفضـــل تلـــك الفرص ؟ والأماكن التى تذهب إليها ؟ والطرق التى تســـلكها ؟ والخطوات التى تتخذها ؟ وهكذا يتم نوع من تنشيط رؤوس

الأموال الصغيرة التى يمكنها أن تعد إضافة حقيقية للاقتصاد الوطنى . ولا ينـبغى فى هذه الحالة أن ننظر للمبلغ الصغير باستخفاف ، بل على العكـس ينبغى أن نشجع صاحبه تماماً كما نشجع صاحب المبلغ الكبير والضخم ، لأن ازدهار الاقتصاد لا يتحقق إلا بمشاركة واعية يسهم فيها حسـب طاقـاتهم جمـيع أفـراد المجتمع ، وهذا يتطلب ضرورة إدراك عوامـل انطلاقـه وتعثره ، إلى أن تأتى اللحظة التى تعلن فيها النشرة الاقتصـادية كـل مسـاء مجموع ما حققه الاقتصاد المصرى خلال يوم واحـد من تقدم ، أو توقف ، أو تراجع (لا قدر الله) . وهذا ما يجعل أفـراد المجتمع يقفون على مدى الجهد الذى بذلوه ، وما تحقق نتيجة لذلك من عائد لهم وللمجتمع .

إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وازدهار الاقتصاد فى أى بلد مرتـبط بعوامل محددة ، أهمها تكاتف جهود الأفراد مع التنسيق بينها وتوجيهها للصالح العام، ومن المؤكد أن مشاركة الجميع لا تتساوى أبداً ومشـاركة الأغلبية أو البعض . كما أن فعالية البعض لا تغنى شيئاً إذا وقفت الغالبية ساكنة . من هنا يبرز دور الوعى الاقتصادى العام كعامل أساسى فى المجتمع .

أخبرنى أحد أساتذة الاقتصاد أن ميزانية الدولة تشبه إلى حد كبير ميزانية الأسرة . وكما أن هذه الأخيرة تتطلب تعظيم الموارد باستمرار، فإنهـا تحـتاج إلى ضرورة الترشيد المتوازن فى الاستهلاك ، وكما أن اعتماد الأسرة كلها على شخص واحد يعد من أكبر المخاطر ، فلابد أن تـتجه الأسـرة إلـى أن تعتمد على أكثر من شخص لتعظيم مواردها ، وبالتالى الارتفاع بمستوى المعيشة فيها .

يــدرك المجتمع كله أن الدولة تضع التعليم على قمة الأولويات ، ومن أجل ذلك فإنها تزيد باستمرار من ميزانيته حتى أنها أصبحت تبلغ المليارات بعد أن كانت مجرد ملايين الجنيهات . والمستهدف من التعليم هو تكوين مجتمع متقدم ، يستطيع أن يستثمر إمكانياته الذاتية وموارده الطبيعية وأن يثبت فى ميدان المنافسة العالمية دون تخلف عن إيقاعها الســريع أو تردد فى مغامراتها المتجددة . ولا شك أن التعليم شأنه فى ذلك شأن أى قطاع فى الدولة يعانى من بعض السلبيات التى تؤثر على تطــوره المســتمر ، واستجابته لحاجة العصر الحديث . ومن أهم هذه الســلبيات : الــدروس الخصوصــية ، والأعداد الكبيرة . لكن المسألة والحمد لله لم تبلغ حد الخطر ، فالتعليم المصرى ما زال متماسكاً ، وهو يقــدم للمجتمع الكثير من الكوادر البشرية التى يتطلبها سوق العمل فى كافة المجالات . وتحرص كل أسرة مصرية – مهما كانت ظروفها – أن تعلــم أبــناءها ، بــل وأن توصلهم إلى التعليم الجامعى وتخرجهم منه بشــهادة تتــباهى بها أمام الجميع . لذلك فإن اقتراب موعد الامتحانات أصــبح (موســماً) صعباً للأسرة المصرية، يسعى فيه كل فرد فيها إلى توفــير وســائل الراحة (الممكنة) للتلميذ أو الطالب الذى يدرس فيها ، لكــى يتهــيأ للامــتحان . وكثيراً ما تغلق بعض العائلات البلكونة لكى تخصصها كحجرة مستقلة لمذاكرة الولد أو البنت حتى ينعم بالخصوصية اللازمة ، وبأكبر قدر من عدم الإزعاج . وطوال فترة المذاكرة تقوم الأم بــإعداد السندوتشــات وتقديــم الشــاى والقهــوة لأبنائها حتى يظلوا

(مصحصــحين) فى المذاكرة ولا يناموا فى أثنائها . لكن المأساة الأكبر تــأتى عــادة من خارج البيت ، وذلك حين يتوفى الله تعالى شخصاً فى الشــارع ، فتقيم أسرته سرادقاً للعزاء ، ويستحضرون المقرئين الذين تــرتفع أصــواتهم مــن خــلال الميكرفون على مدى ثلاث ساعات ، لا يســتطيع أى تلميذ أو طالب ممن يصل إليه الصوت ، وكذلك الصدى ، أن يــنعم بقدر من الهدوء ، أو التركيز اللازم للمذاكرة . ولا أنسى أبداً وأنــا طالب أن مثل هذه الظروف المؤسفة كانت تحدث معى على مدى عــدة ليال متتالية فاضطر إلى الذهاب إلى أحد أصدقائى والمبيت عنده للمذاكرة . لكن إذا كان هذا مسموحاً به للفتى ، فماذا تفعل فتاة فى مثل هــذه الظــروف؟ أليس من العقل والحكمة ، وكذلك الدين ، أن نخفض أصوات الميكرفونات، وخاصة فى فترة المذاكرة التى تسبق الامتحانات، أو تصاحبها .

والواقــع أننى مندهش من غلبة الصوت العالى على مجتمعنا فى الوقت الراهن . . من أين جاء ، مع أن أجدادنا من قدماء المصريين قد سجلوا لنا أنهم كانوا يفضلون الهدوء والصوت الخفيض ؟ والإسلام نفسه يدعو إلى عدم رفع الصوت – إلا فى الأذان فقط . وهناك صلوات بأكملهــا لا يســمع فــيها صــوت الإمــام ولا المصلين ؟ ! أما حكاية ميكرفونات العزاء فقد زادت عن حدها بصورة لا معنى لها . الميت فى رحــاب الله ، وأســرته حزيــنة على فراقه . ومعارفهم جاءوا للتعزية بكلمــات مواســية . فلمــاذا هــذا الإزعــاج لأهل الشارع والشوارع المجاورة؟!

يخطــئ المـــندفعون إلـــى تطويـــر التعليم حين يدعون إلى طرح (الحفظ) تماماً من العملية التعليمية لكى يحل محله الإبداع والابتكار . . والواقـــع أن العملية التعليمية الصحيحة والمتكاملة هى التى تعتمد على عـــدة ملكات لدى التلميذ من أهمها الذاكرة ، والمحاكاة ، والخيال . أما الذاكـــرة فهى التى تحتفظ بالمعلومات الأساسية ، مثل جدول الضرب ، وبعـــض آيـــات وسور القرآن الكريم ، وكذلك بعض القصائد والأناشيد الـــتى تعـــود اللسان على النطق الصحيح من خلال استخدام الكلمات . وهـــنا لا يمكن إغفال دور الذاكرة أبداً من عملية التعليم والتعلم . فهى تقوم بتخزين كل ما يحصله التلميذ من (معلومات) تتحوّل بمرور الوقت وبالاســـتخدام الجيد إلى (معرفة) يمكن تطبيقها فى الحياة بعد ذلك . أما المحاكـــاة فهـــى الـــتى تؤدى إلى قيام التلميذ بممارسة بعض الأعمال الـــيدوية ، واكتســـاب المهارات التى تقترب من التعامل مع الأشياء من حولـــه . وهـــنا يمكن التدرج فى تعليم المهارات من رسم لوحة ، إلى وضـــعها فـــى بـــرواز ، إلـــى تعليقها على الحائط باستخدام شاكوش ومســـمار، إلى استخدام نول ، وتقصير قطعة خشب بالمنشار . . وفى عصـــرنا الحاضر ، يصبح استخدام الأصابع على لوحة الكمبيوتر جزءاً مـــن المهـــارات الـــيدوية التى يمكن اكتسابها من خلال محاكاة التلميذ لأســـتاذه ، ومنافسته فى ذلك مع باقى زملائه . . أما الخيال فيأتى بعد

كــل مــن الذاكــرة والمحاكاة ليفتح ذهن الطالب على عوالم واسعة ، واكتشــاف أفكــار أو رؤى جديدة . وهنا ينبغى أن نفسح المجال أمام التلمــيذ لكــى (يحلــم وهو مستيقظ) بمعنى أن يقول ما فى نفسه دون خشية من عدم معقوليته ، أو من اصطدامه بالواقع ، وهذا ما يمكن أن يؤدى إلى الإبداع والابتكار . .

أمــا أن ننادى بإحلال الإبداع محل الذاكرة ، فهذا ما لا يوجد فى أى نظــام تعليمى فى العالم ، لأنه من المعروف أن التعلم عملية تراكم (معــرفى ومهــارى) مستمرة ، وكلما أجادها الإنسان أصبح مؤهلاً لأن يــنطلق منها إلى مجال الإبداع والابتكار . وهذا هو نفس القانون الذى ينطبق على مجال البحث العلمى . فالعالم الذى يخترع شيئاً أو يبتكره لا يبدأ من فراغ ، وإنما يسبق ذلك عمل طويل يقوم على البحث والفحص والتقصــى والملاحظــات والتجارب . وكل ذلك يعتمد أساساً على ذاكرة قوية تحتفظ بأدق التفاصيل ، كما يمكنها أن تصنف المتشابهات ، وتميز بيــن المتضادات . والذين يقولون بأن نيوتن قد اكتشف قانون الجاذبية مــن رؤيــته سقوط تفاحة من غصن شجرة على الأرض ، لا يلاحظون أنه ظل طيلة حياته مشغولاً بموضوع الجاذبية ، حتى شاهد هذا المنظر الذى كشف له عن قانونها . . أرجو أن يكون ذلك واضحاً لدعاة تطوير التعليم ، الذين يتحدثون كثيراً عن الإبداع ! !

المكافحة الحقيقية للإدمان

تولى الدولة أهمية قصوى لمكافحة الإدمان . والمقصود طبعاً هو إدمـــان المخـــدرات بكـــل أنواعها لأنها تقضى على شباب الوطن وهم وقـــوف ، أى فـــى ريعـــان عمرهم . وطبعاً هناك تجارة رائجة فى هذا المجال ، يعمل بها أفراد وجماعات لا دين يمنعهم ، ولا ضمير يؤنبهم ، وفى استطاعتهم التحايل على كل القوانين ، والتسرب من كل الشباك . فـــإذا تركـــنا هـــؤلاء للأجهـــزة المعنـــية بالقـــبض عليهم ، وإجهاض محاولاتهم، فإننا نواجه الإنسان الذى وقع فى الإدمان ، وكذلك الإنسان الـــذى لم يقع فيه بعد . أما المدمن فإنه بحاجة إلى عملية إنقاذ سريع ، تتلوها مرحلة طويلة من العلاج ، حتى يبرأ ، فيحتاج أيضاً إلى مرحلة أخرى من المتابعة للتأكد من عدم عودته مرة أخرى إلى ظلمة هذا القبو اللعين . وهنا يمكن التساؤل : هل مصحات الشفاء من الإدمان تكفى كلَ الحـــالات المطلوب إنقاذها ؟ وهل هى مؤهلة أولاً ومجهزة ثانياً بكل ما يلـــزمها من أطباء وعلماء نفس وممرضين ومتابعين ؟ الملاحظ هنا أن المصحات الموجودة لا تتناسب وحجم الظاهرة التى يجرى الإعلان عن أعداد المتورطين فيها من وقت لآخر . ولذلك لابد من أن تتجه الأنظار إلـــى إنشاء العديد من تلك المصحات فى سائر المحافظات ، وأن تكون كلهـــا وبالتســـاوى مؤهلـــة ومجهزة بما يلزمها ، لكى تستوعب العدد

المطلوب إلحاقه بها .

أما التوعية فمجالاتها واسعة . لكنني أود أن أنبه إلى أنها ينبغى ألا تقتصـــر فقــط على الكلام والندوات التى لا يستمع إليها غالباً سوى أشـــخاص يقتصرون على شرب الشاى والقهوة ، وإنما ينبغى أيضاً أن تـــبدأ بإجـــراءات عملـــية . من ذلك مثلاً إجراء كشف طبى على تلاميذ المـــدارس وطـــلاب الجامعات بصورة دورية لمعرفة من وقع منهم فى قبضة الإرهاب للعمل بسرعة على معالجته منه قبل أن يستفحل أمره . وفى هذا الصدد أقترح أن يتم إجراء هذا الفحص فى خلال السنة الثانية الـــثانوية ، علـــى أن يتم إجراء فحص آخر مع التحاقه بالجامعة ، يليه فحـــص ثالث قبل دخوله السنة الثالثة بالكلية . أما بعد ذلك فينبغى على أى جهـــة حكومـــية أو مؤسســـة خاصـــة أن تجرى مثل هذا الفحص للملتحقين للعمل بها ، وكذلك كل ثلاث سنوات لمن يعمل بها .

وفى كل الأحوال ، لا ينبغى أن يكون اكتشاف شخص مدمن سبباً لكـــى يفقـــد مكانه فى المدرسة أو الجامعة أو العمل ، وإنما هو السبيل الأساســـى لكى يعالج خلال فترة معينة ثم يعود لممارسة مهنته . وفى تصـــورى أن مثل هذا الإجراء سوف يقوم بدور حاسم فى حل مشكلات الإدمان ، وبالتالى انحسار تجارة المخدرات .

مـــرة أخرى ، راحت الهمهمات تدور حول الكتاب المدرسى : من يخصصه ؟ ومن يؤلفه ؟ ومن يطبعه ؟ ويبدو أن هذه الأسئلة الرئيسية الـــثلاثة أصـــبحت مترابطة ، وإذا حاولت أن تفصل بينها وجدت خيوطاً وحـــبالاً متشـــابكة ، كمـــا أن الاقتراب منها يكاد يكون مغامرة محفوفة بالمخاطـــر . ومـــع ذلـــك لابـــد من ابداء الرأى فى الموضوع من أجل مستقبل الأجيال القادمة ، والتى إذا علمناها اليوم بصورة جيدة فسوف تتحمل المسئولية غداً على النحو المأمول . .

الملاحظ أن (الكتاب المدرسى) يخرج فى كل عام للتلاميذ ويوزع علـــيهم ، لكـــنهم مـــا يلبثون أن يتركوه فى ركن مهجور من البيت ، ويســـرعوا بشـــراء (الكتـــب المساعدة) ، والتى أصبحت الآن متعددة . لمـــاذا؟ لأن التلمـــيذ يجد فيها نفس المادة العلمية التى توجد فى كتاب الـــوزارة ، مضـــافاً إلـــيها المـــزيد من التبسيط ، والشرح ، والأسئلة والمصحوبة بإجاباتها الصحيحة ، وهنا أتساءل ، كما سبق أن تساءلت فـــى مقـــال سابق: لماذا لا يتم تقرير هذا الكتاب المساعد بدلاً من كتاب الوزارة ؟ ولماذا نصر على أن يظل لدينا وسيلتا مواصلات تؤديان إلى نفـــس الهـــدف بدلاً من وسيلة واحدة أبسط وأسهل وأكثر وضوحاً ؟ ثم مـــن الـــذى يؤلـــف الكتاب المساعد ؟ لو تأملت الأسماء لوجدتها لعدد محترم جداً من كبار الموجهين السابقين فى مختلف المواد المدرسية ، يعنى ناس عندهم خبرة وكفاءة وتجربة طويلة فى تقدير عقلية التلميذ ، ومعـــرفة مـــا يحتاج إليه وما لا يحتاج . . وفى نفس الوقت لو تأملت

كـــتاب الـــوزارة لوجـــدت أســـماء مؤلفـــيه مجموعة من المدرسين ، والمدرسين الأوائل ، الذين اجتاز كتابهم المسابقة التى يحكم فيها كبار الموجهيـــن بالوزارة ، وأحياناً من خارجها . يعنى لدينا هنا جهد مكرر يمكـــن أن يختصـــر ببســـاطة إلى جهد واحد ، وسوف يؤدى إلى نفس النتيجة ، ومن أقصر الطرق .

ليـــت المسألة تقف عند هذا الحد ، فإن (المدرس الخصوصى) قد أتقـــن هـــو الآخـــر مهنته ، وأصبح على معرفة كاملة بمفردات المقرر الدراســـى ، بحيث يمكنه أن يلخصه للتلميذ فى وريقات معدودة ، ومن العجيـــب أن التلميذ يكتفى بهذا القدر ويدخل الامتحان وينجح . . وهكذا أصـــبحنا نجد أنفسنا أمام ثلاث مراحل : مرحلة كتاب الوزارة الذى يتم تســـلمه وإهماله ، ثم الكتاب المساعد الذى قد يعتمد عليه بضع التلاميذ مـــن ذوى الدخل المحدود ويساعدهم فى قراءته أولياء الأمور ، وأخيراً مـــرحلة الـــدروس الخصوصية التى تقفز فوق المرحلتين السابقتين ، وتقـــدم خلاصة المعرفة المدرسية للتلميذ فى شكل حبوب مركزة تشبه الفيتامينات !

إننى أمام هذه المأساة أكاد أقف حائراً . فلا الوزارة تستطيع إلغاء الكتاب المدرسى . ولا أى جهة غيرها يمكنها أن تمنع الكتاب المساعد. أمـــا محـــترفو الـــدروس الخصوصـــية فإنهم قد أصبحوا مثل النمل أو الصراصـــير التى غزت المطبخ ، ولم يعد يوجد حل لها إلا فى التطهير الكامل للمكان ، بما فى ذلك رش جميع أركانه بالمبيدات!

دفاع عن الفنون

كتـب لى شاب على الإنترنت رسالة يقول فيها : كيف تكتب عن الأفلام الهندية وخلافه ، وتهتم بالسينما ، وتضيع وقتك فى الحديث عن مـثل هـذه الأمور ؟ وقد آلمنى بحق أن بعض الشباب ينظر للسينما ، وبالـتالى سـائر الفنون ، نظرة عداء ، ويعتبرها – كلها – رجساً من عمـل الشيطان ، مع أن الفنون جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان ، وأنه بدونهـا يصبح مجرد كائن يأكل ويشرب ويعمل ويتعبد وينام ثم يصحو بـدون أن يلطف حياته بما تقدمه له الفنون ، وطبعاً المقصود هنا هى الفـنون الراقـية ، الـتى تحـرك ضمير الإنسان ، وترقق مشاعره ، وتخرجه أحياناً – وهذا هو المهم – من هموم الحياة ، ومشكلاتها التى لا تنقطع .

أذكـر وأنا تلميذ ثانوى ثم طالب جامعى ، أننى كنت أذاكر جيداً ، ثـم أذهب إلى السينما متخيراً أحد الأفلام الجيدة ، وكانت التذكرة أيامها بقـروش قلـيلة ، لكنها كانت تتيح لى مشاهدة أشهر الأفلام العالمية . وكان يصحبنى فى ذلك الوقت زملاء أصبحوا الآن فى مراكز اجتماعية مـرموقة ، ولـم نشـعر فى يوم من الأيام أن مشاهدة فيلم فى السينما ضـارة بجهدنـا الدراسـى ، بل على العكس ، كنا نخرج من السينما لنتحدث عن موضوع الفيلم ، ومستوى إخراجه ، وأداء الممثلين فيه ،

ونحاول أن نستخلص العبرة منه ، وهل نجح الفيلم فى تصويرها أم لا..
لكــن هذا كله لم يكن يحجب عنا متعة المشاهدة ولا السرور برؤية شئ
يراه الناس فى كل أنحاء العالم ، وهذا فى حد ذاته جزء من الثقافة التى
ينــبغى أن يــتزود بها الإنسان المعاصر . وقد كنا ونحن صغار نجلس
أحــياناً فى السينما ونبكى من رؤية مشهد مؤثر ، ولا شك أن هذا كان
يقوم بدور من التطهير النفسى ، ويخرجنا ونحن أكثر تفاؤلاً واستعداداً
لمواجهــة مسئوليات الحياة . . لم نكن من مدمنى السينما ، ولكننا كنا
من المتابعين الجيدين لها. وأؤكد أنها زودتنا بالكثير من المعلومات عن
حــياة الشــعوب ، وأسلوب تعاملها ، وطريقة تفكيرها ، إلى جانب أنها
جعلتــنا نقتــنع بــأن الــناس فى كل مكان يمرون بنفس مشاعر الحب
والــبغض والتنافس والإيثار والتضحية والأنانية والوفاء . . لا أريد أن
أدافــع عــن الســينما ، كما لا أريد أن أجبر شخصاً لا يحبها أن يذهب
إلــيها، لكنــنى مــندهش ممن وضع فى أذهان الشباب المعاصر فكرة
كراهــية الفــنون، وأوصاهم بضرورة مقاطعتها والابتعاد عنها . . إنه
بالضــبط يشبه من زرع شجرة راحت تعلو ، ثم قطع عنها الماء فجأة ،
فأخذت تجف ، حتى إذا ما صادفتها ريح قوية كسرتها بدفعة واحدة !

ورقة الإجابة

جـــرى العرف فى كل مراحل التعليم عندنا أن التلميذ فى المدرسة والطالـــب فـــى الجامعـــة لا يجـــوز له أن يطلع على ورقة إجابته فى الامتحانات بعد تصحيحها . وكل ما يسمح به هو إعلان الرقم أو التقدير الذى حصل عليه . أما إذا أراد أن يعرف أين أخطأ ، ومتى قصر ؟ وإلى أى حد لم يكن موفقاً ؟ فإن هذه الأمور كلها ممنوعة ، ومحاطة بدرجة عالية من السرية التى لا تحظى بها وثائق وزارة الخارجية البريطانية أو الأمريكية ، لأن هذه الوثائق يجرى الإفراج عنها ، أى طرحها للقراء والباحثيـــن بعـــد عـــدة سنوات محددة ، أما أوراق الإجابة عندنا والتى يـــودع فـــيها الطالب المسكين حصيلته من المعلومات التى تلقاها خلال العـــام الدراسى فإنها تحجب عنه إلى الأبد ، ولا يطلع عليها مهما كانت الظروف .

لمـــاذا هـــذه الســـرية المطلقة ؟ فى تصورى أنه لا يوجد قانون تعليمى يمنع الإطلاع على أوراق إجابتهم بعد تصحيحها . وكما سبق أن أشـــرت أنـــه فقط مجرد (عرف) أى تقاليد توارثها الخلف عن السلف ، وجـــزى الله هؤلاء السلف الذين تعارفوا على ذلك ، واتفقوا أن يصونوا تلـــك الخطوط والتعليقات والأرقام التى يكتبها المصححون عادة باللون الأحمـــر ، وأعـــتقد أنهـــا تعـــدم بعـــد مرور خمس سنوات من تاريخ تصـــحيحها. لماذا ؟ لاحتمال أن تحدث شكوى قضائية فتطلبها المحكمة مـــن المدرسة أو الجامعة لإثبات الحق ، أما بعد هذه المدة فإن الأمور تكون قد تلاشت ، وعفا الله عما سلف .

لكــن الملاحــظ فى الآونة الأخيرة ، ومنذ عدة سنوات معدودة ، بــدأت تعلــو أصوات الشكوى من عدم دقة التصحيح ، أو عدم إنصاف المعلميــن ، وذهب بعض الطلبة إلى القول بالصوت العالى : لقد أجبنا علــى كل الأسئلة بصورة صحيحة ثم فوجئنا بالرسوب ! أجل بالرسوب وليس بتقليل الدرجات . وأمام هذا الادعاء سمحت وزارة التربية مؤخراً بإطلاع تلميذ الثانوية العامة على ورقة إجابته المشكوك فيها مقابل دفع مــبلغ معين ، أما الجامعة فإنها تكتفى بالتأكد فقط من رصد الدرجات، وجمعهــا جمعــاً صــحيحاً ، ونقلها كما هى من ورقة الإجابة إلى بيان الطالب .

والأمــر الذى يستحق الوقوف عنده للتساؤل هو : ماذا يجرى لو أعدنــا للطالــب ورقة إجابته بعد تصحيحها ؟ ! يقول البعض : سوف يحدث فيها تزوير ، بمعنى أن يحاول الطالب إضافة بعض أجزاء الإجابة ثم يدعى أن المصحح هو الذى نسيها أو أهملها . والبعض الآخر يقول: ســوف يفــتح هذا علينا باباً من الجحيم ، فإن كل طاب سيأتى للأستاذ ويقــول له : لمــاذا أعطيتــنى هذه الدرجة مع أننى أستحق مثل درجة زميلى هذا أو ذاك ! !

وهــنا يتبين أن أجدادنا ، عليهم رحمة الله ، عندما تعارفوا على سرية ورقة الإجابة قد أراحوا أنفسهم وأراحونا . لكن هل سوف يسمح نظــام التعلــيم فــى تطوره القادم ، إن عاجلاً أو آجلاً ، باستمرار هذه السرية ، وبالتالى بتلك الراحة ؟ !

العرب
بين الماضى ومواجهة الحاضر

العرب يفضلون أن يعيشوا فى الماضى . وهو بالنسبة إليهم أفضل الفترات . يرحلون إليه بأحلامهم ، ويقيمون فيه بذكرياتهم . ويزعجهم أن يحاول أى شخص أو أى حادث أن يخرجهم منه ، أو ينزعهم عنه . وأقرر فى البداية أن الولع بالماضى ليس عيباً على الإطلاق ، بشرط أن تكون الرحلة إليه خاطفة ، والعودة منه سريعة . أما أن يتحول الماضى إلى مكان للإقامة ، أو فترة زمنية يعيش فيها الإنسان بدلاً من أن يعيش فى واقعه ، فإن الأمر يصبح حالة مرضية تستحق التشخيص والعلاج .

سؤال : هل العرب وحدهم هم الذين يفعلون ذلك ؟ كلا بالتأكيد . لكنهم من أكثر الشعوب إصابة بهذا المرض . سؤال آخر : ولماذا يفعلون ذلك ؟ لأنهم لا يقدرون تماماً على مواجهة الواقع ، وكثيراً ما لا يجيدون فن التعامل معه ، وهكذا عندما يصعب عليهم التأقلم يهربون إلى ماضيهم للعيش فيه . إنه نوع من الاختباء فى ركن يحميهم من الخطر ، تماماً كما تفعل السلحفاة فى حالة تعرضها لحيوان مفترس . فهى تدخل رأسها وقدميها ورجليها داخل صدفتها بينما يقوم هو بتقليبها على كل الجوانب، ثم يتركها أخيراً ويمضى . . لكن هذا الأسلوب لا ينجح دائماً مع كل مفترس. فهناك من يثابر حتى يكسر من فوقها الصدفة ، ويلتهمها .

والواقع أن موقف الشعوب من ماضيها متنوع . فهناك شعوب كان لها ماض عريق ومزدهر مثل اليونان والإيطاليين ولكنهم تركوه تماماً وراحوا يعيشون حاضرهم بكل مشكلاته وتحدياته . وهناك الشعب الأسبانى الذى ما زال يقف متردداً بين القبول والإعجاب والرفض لفترة الحضارة الأندلسية التى عاشها أسلافه ، ومن أحشائها انبثقت الحضارة الغربية الحديثة . وهناك كل من الشعب الفرنسى والبريطانى الذى استطاع أن يحدث توازناً معقولاً بين ماضيه وحاضره . أما شعوب آسيا الكبرى فما زال الماضى يعيش فيها (ولا تعيش هى فيه) كالصين والهند

والـيابان . وهكـذا لا تكاد نجد سوى الشعب العربى هو الذى يفضل أن يعيش فى ماضـيه بـدلاً مـن مواجهة حاضره بكل مستجداته . فإذا اعترضته مشكلة أسرع بالبحث عن حلها فى جعبة الماضى ، وإذا ظهر أمامه جديد راح يبحث عن مثيل له لـدى آبائـه وأجداده ، وإذا تميز حوله شعب آخر راح يقول : وماذا فى ذلك . لقد سبق أن تميزت من قبل ؟ !

والسؤال الآن : كيف يمكن أن يخرج العرب من شرنقة الماضى التى يحبون دائمـاً أن يضـعوا أنفسـهم فـيها ؟ ليس الأمر سهلاً على الإطلاق . لأنه يبدأ من التربـية فـى الأسـرة ، والتعلـيم فى المدرسة والجامعة ، ويستمر مع الممارسة المهنية ، وكثرة الاحتكاك مع شعوب العالم ، ثم بفلسفة متكاملة تقوم على مجموعة من المرتكزات أهمها ، أولاً : الإنسان خلق ليعيش حياته ، وليس لكى يتقمص حياة الآخريـن ، ثانـياً : أن الإنسان لابد أن يواجه واقعه بنفسه ، وليس بمعونة آبائه وأجـداده ، ثالثاً : أن العمل اليدوى هو الذى يصنع البيئة الصالحة لحياة الإنسان ، وليس مجرد الفكر النظرى ، واجترار الذكريات ، رابعاً : أن التعامل مع الواقع يبدأ بفهمـه ولا يـتوافر هذا الفهم إلا من خلال الملاحظة الجيدة فى مجمله وتفاصيله . خامسـاً : أن الحـركة دائمـاً أفضـل مـن السكون ، والرحلة أفضل من الإقامة ، والإطلاع على تجارب التقدم يساعد على إذكاء شعلة التنافس . سادساً : أن الجديد ليس كله خطأ ، كما أنه ليس كله صواباً . لذلك ينبغى استقباله بهدوء ، ومناقشته بموضـوعية . سابعاً : أن الإنسان لن يعيش فى هذه الدنيا مرتين . لذلك عليه أن ينـتهز كـل فرصـة ممكـنة للاستفادة الكاملة منها ، سواء فى إصلاح نفسه ، أو إصلاح المجتمع الذى يعيش فيه.

وأخـيراً ، فإذا كان العرب يريدون لأنفسهم وللأجيال القادمة من بعدهم نقلة نوعية ، فلابد أن يركزوا على معاينة حاضرهم ، فى نفس الوقت الذى يجب عليهم إعادة فحص ماضيهم للوقوف على ما فيه من جوانب القوة والضعف . أما الحاضر فإنه يتطلب منهم رؤية واقعية ، وأساليب حديثة فى الفكر والحوار ، واهتماماً أكبر بتبادل المصالح بعيداً عن العواطف والانفعالات .

مؤلفـــات الدكتور حامد طاهر

أولاً : فى الفلسفة

- تحقيق ودراسة لكتاب روح القدس فى مناصحة النفس لابن عربى — القاهرة 1974
- La strecture logique de l'ouevre de tirmidht (Doctorat d'Etat de la Sorbonne 1981 Paris)
- المدينة الفاضلة بين أفلاطون والفارابى — القاهرة 1986
- الخطاب الأخلاقى فى الحضارة الإسلامية — القاهرة 1990
- منهج البحث بين التنظير والتطبيق — القاهرة 1994
- المنهج التجريبى: تاريخه ومستقبله لرينيه ليكليرك (ترجمة)
- تمهيد لدراسة التصوف الإسلامى — القاهرة 1993
- الفلسفة الإسلامية : مدخل وقضايا — القاهرة 1991
- الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث — القاهرة 1991
- الدوائر المتداخلة (تحقيق التراث ، الترجمة ، التأليف) — القاهرة 1995
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء (رد على الافتراءات الموجهة ضد الإسلام قديماً وحديثاً : إشراف وتحرير) — القاهرة 1996
- حوارات سقراطية — القاهرة 2002

ثانياً : فى الأدب

• ديوان حامد طاهر	القاهرة 1985
• ديوان قصائد عصرية	القاهرة 1989
• ديوان عاشق القاهرة	القاهرة 1992
• ديوان النباحى	القاهرة 1992
• الطواحين (قصيدة طويلة)	القاهرة 1999
• ديوان تراب القدس	القاهرة 2001
• ثلاث مسرحيات شعرية	القاهرة 2002
• نبش الذاكرة	القاهرة 2000
• المختصر فى الحب	القاهرة 2001
• قصص عالمية	القاهرة 2001
• قصص خاطفة (مائة قصة وقصة)	القاهرة 2003
سلسلة شاعر ومختارات (1هاشم الرفاعى)	القاهرة 1998
سلسلة شاعر ومختارات (2 صالح الشرنوبى)	القاهرة 1999
سلسلة شاعر ومختارات (3 محمد الفيتورى)	القاهرة 1989

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١١٠١١
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-241-505-4

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت ٧٧٩٧٥٥٠

